ممارسة التغييرلإنقاذ المسلمين [1]

آية الله العظمى
الإمام السيد محمد الحسيني الشيرازي
(قدس سره الشريف)

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين

مقالات حول ممارسة التغيير لإنقاذ المسلمين بإذن الله سبحانه وتعالى من الهوة السحيقة التي سقطوا فيها إلى العزة الشامخة التي قررها الله سبحانه لهم إن عملوا بكتابه والتزموا بأحكامه والهدف من هذا الكتاب هو أنه كيف نتمكن من إرجاع ثلاثة أشياء إلى المسلمين:

الأول: الدولة الواحدة ذات الألف وخمسمائة مليون مسلم(١) الذين راحوا يعيشون عيشة الضياع والتشتت في الحال الحاضر – وذلك تحقيقاً للأمة الواحدة التي قال سبحانه وتعالى عنها:

(وإن هذه أمتكم أمة واحدة)(٢) حيث يتمكن المسلم من السفر في مثل هذه الدولة الكبيرة من أدنى بلادها شرقاً إلى أقصاها غرباً ومن أقصاها جنوباً إلى أدناها شمالاً بلا حدود جغرافية ولا طلب للجنسية والهوية وجواز سفر وإقامة وتأشيرة للدخول والخروج وبدون إعطاء العشور والمكوس لشرطة الجمارك والحدود لما يجلبه من التجارة والبضاعة كما كان الأمر كذلك في دولة الرسول (صلى الله عليه وآله) بل وبعده إلى مدة طويلة من الزمان وعلى أكبر رقعة من الأرض حيث اتسعت رقعة الإسلام فكانت دولته أعظم دول العالم وحكومته أكبر حكوماتها إطلاقاً.

الثاني: الأخوة الإسلامية كما قررها القرآن الكريم بقوله سبحانه:

(إنما المؤمنون أخوة)(٣) فلا فرق بين العربي والعجمي والهندي والتركي وإلى غيرهم كما لا فرق بين الشرقي والغربي والجنوبي والشمالي وكذا لا فرق بين العراقي والإيراني والمغربي والمصري وهكذا الخليجي والسوداني والسوري

---

(١) ملاحظة: أخذنا نص هذا الكتاب من الانترنيت موقع الإمام الشيرازي قدس سره، ولابد من مطابقته مع الأصل المطبوع للتأكد من سلامته وعدم التغيير والحذف والتبديل فيه.

والفلسطيني وغيرهم وهكذا لا فرق بين الأبيض والأسود والأحمر والأصفر فيرجعون أخوة أكفاء كما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (المؤمن كفو المؤمن)(٤) و(لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى وإنهم سواسية كأسنان المشط)(٥).

وقد آخى الرسول (صلى الله عليه وآله) بين المسلمين مرتين مرة في مكة المكرمة ومرة في المدينة المنورة كما أثبته التاريخ.

فلا تفصل بينهم الحدود الجغرافية ولا القوميات ولا الألوان واللغات فيرجعون كسلمان الفارسي وأبي ذر العربي وصهيب الرومي وبلال الحبشي كلهم في صف واحد وهدف واحد أخوة متعاطفين تحت لواء النبي الكريم (صلى الله عليه وآله).

الثالث: القوانين الإسلامية التي عفا عليها الزمن والتي منها الحريات الواسعة الفردية والاجتماعية، ومنها تساوي الجميع في الاغتراف من العلم والمال والقدرة، ومنها كون الأرض لله ولمن عمرها وخيرات الأرض لمن تمكن منها بقدر ما قرره الله له، ومنها السلوك والارتقاء بالناس إلى حيث يفنى الفقر والمرض والجهل والقلق إلى غير ذلك وقد قال سبحانه: (يضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم)(٦).

فإن القوانين الإسلامية محفوظة في الكتاب الكريم والسنة المطهرة وإنما الأمر بحاجة إلى عزيمة راسخة من المسلمين لممارسة تغيير حالهم الحاضر إلى الحالة الإسلامية التي أرادها الله تعالى لهم وذلك لا يكون إلا بسلوك الطريق المؤدي إلى هذه الغاية المنشودة بهداية الله سبحانه وحسن توفيقه وهو المستعان.

ثم أنه كما يكون بناء مؤسسة أو إدارة أو مدرسة أو ما أشبه بحاجة إلى ثلاثة أشياء:

الأول: العلم بالبناء.

الثاني: الخارطة المهيأة، من أجل البناء.

الثالث: التطبيق العملي الخارجي فكذلك بناء الأمة بحاجة إلى هذه الأمور الثلاثة، وقد كتبنا كتاب (الصياغة) باعتبار الأمر الأول فإن فيه العلم بالبناء، وكتبنا كتاب (السبيل) تمهيداً للأمر الثاني وإراءة خارطة لكيفية بناء العالم الإسلامي الكبير.

أما التطبيق العملي الخارجي فقد كتبنا لأجله (ممارسة التغيير) فهذا الكتاب مرقاة ثالثة في هذا السلم ومحاولة للتعرف على طرق ممارسة التغيير للوصول إلى (حكومة ألف وخمسمائة مليون مسلم) بإذن الله سبحانه حيث أن الإحصاء الأخير يدل على أن عدد المسلمين في العالم اليوم بلغ ألفاً وخمسمائة مليون مسلم.

وسنركز في هذا الكتاب – بإذنه تعالى – على المقدمات الأساسية لعملية التغيير والصفات الرئيسية التي ينبغي توفرها في العاملين ليتمكنوا من تغيير ما بأنفسهم: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)(٧).

ومن إقامة الحكومة العالمية الإسلامية السائرة على المنهاج الصحيح للشريعة الحنيفة، موضحين أثناء ذلك النواقص والأخطاء التي على العاملين في سبيل الله تجنبها لكي يوفقهم الله عز وجل لنيل ما يرغبون فيه ويسعون لأجله (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين)(٨).

وهذه الصفات – إيجابية وسلبية – ليست خاصة بأمة وشعب بل قد تكون في حزب أو تشكيل أو تنظيم أو هيئة أو جماعة أو حكومة أو حتى في عائلة واحدة أو فرد واحد حيث من الممكن أن يكون الفرد منحطاً وأن يكون متقدماً وأنه إذا كان منحطاً كيف يمكن تغييره إلى الفرد المتقدم؟

وسنذكر من تلك الصفات السلبية نقاطاً متعددة دالة على انحطاط المجتمع من قبيل: عبادة البطن والفرج وسرعة الغضب والاستبداد وجمع المتزلفين والمتملقين وطلاب الشهوة والشهرة، وأصحاب الأنانية، والفردية، وإكثار السجون، والتعذيب، والضرائب، والمكوس، وعدم الاهتمام بآراء الناس وشؤونهم، وبث الدعايات الكاذبة، وتأليه الفرد، وحجب العقل والفكر، واضطهاد المفكرين والمبدعين وخنق أصواتهم وكسر أقلامهم، وزرع الإرهاب والخوف، وفرض الرقابة والتجسس على الناس، ونزع الاعترافات تحت التعذيب، واتخاذ القرارات الفردية، بل كثيراً ما يكون كما قال الشاعر: الأمر تملكه النسوان والخدم

والبطش بالناس كما قال سبحانه: (وإذا بطشتم بطشتم جبارين)(٩).

والكبت والحرمان ومنح الامتيازات لجماعة خاصة وهم المصفقون للنظام وزرع الخلافات والفرقة بين الناس وما إلى ذلك.

ومن الصفات الإيجابية: الشورى في كل صغيرة وكبيرة مما يرتبط بالبلاد والعباد، وتحكيم علقة الأخوة بين أفراد المجتمع، والمساواة أمام القانون وتوفير الحريات بين الناس – ومن المعلوم أن الحرية وسط بين الاستبداد وبين الميوعة والانفلات . وجعل الميزان للتفاضل هو التقوى والفضيلة وتعميم العطف والرحمة، والتعاون والخدمة، واحترام العقل والعقلاء والفكر والمنطق، وتذرع كل من الدولة والأمة بالإقناع عوض ممارسة الضغوط والتهديدات إضافة إلى توسيع نطاق وعي الأمة وازدياد معرفتها بما يدور في العالم عبر الصحف والمجلات والنشرات والإذاعات والنوادي والمعاهد وغير ذلك من وسائل الإعلام والبث، والتعليم والثقافة سواء بالوسائل الأكاديمية منها أو الوسائل الإعلامية، وبتوسيع المراكز الثقافية والمؤسسات الاقتصادية والاجتماعية وتقديم الخدمات وتشكيل المؤتمرات لجمع الطاقات والنشاطات وصبها في التغيير الفعلي والقيام بالمظاهرات والإضرابات العامة، وتحصيل الموارد المشروعة للتمويل الدائم، والاهتمام بالوصول إلى الاكتفاء الذاتي وتبني الفرد العامل حياته الفردية على الجشوبة والخشونة في المأكل والمشرب والملبس والمركب والمسكن وغير ذلك، وتبني اللين في حياته الاجتماعية وتخلقه بالأخلاق الكريمة حيث قال سبحانه: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك)(١٠).

أما الباب الثاني فسيخصص للتحدث – وبإسهاب – عن الدكتاتورية وملامحها وعلائمها وسمات الدكتاتور، وأسباب وصوله للحكم، وبقائه فيه، وعلاج ذلك، وسنتطرق لذكر نماذج كثيرة وحوادث وقصص عديدة تاريخية ومعاصرة تشير إلى أسلوب الدكتاتور وطريقة تعامله مع الناس وكيفية تصرفه في شؤون الدولة والأمة والله سبحانه المسؤول أن ينفع بهذا الكتاب ويجعله – مع سابقيه (السبيل) و(الصياغة) – مقدمة لتغيير حال المسلمين مما حكم عليه إلى حال أفضل وحياة فضلى في ظل قيادة إلهية رشيدة صحيحة وحكومة إسلامية عادلة وما ذلك على الله بعزيز

(اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعز بها الإسلام وأهله وتذل بها النفاق وأهله وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة).

المؤلف

١ . هذا العدد هو ما ذكرته الإحصاءات الأخيرة منه (دام ظله).

٢ . سورة المؤمنون: الآية ٥٢.

٣ . سورة الحجرات: الآية ١٠.

٤ . انظر وسائل الشيعة: ج٤ الباب ٢٥ من كتاب النكاح، ح١.

٥ . الاختصاص للشيخ المفيد: ص٣٢١.

٦ . سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

٧ . سورة الرعد: الآية ١١.

٨ . سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

٩ . سورة الشعراء: الآية ١٣٠.

١٠ . سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

الفصل الأول: مقومات التغيير

الخبرة السياسية

الوعي السياسي

إن من أهم الأمور التي تجب على الممارسين للتغيير هو فهم السياسة، إذ بدون الفهم المذكور لا يتمكن الإنسان من الشروع في العمل وإن بدأ، فإنه لا يتمكن من الاستقامة في أمره وإن تجلد وقاوم فإنه لا يتمكن من مواصلة السير بالحركة إلى شاطئ السلام والهدف المنشود. ومن الواضح أن كثرة كبيرة من المثقفين سواء الدينيين منهم أو الزمنيين لا يعرفون السياسة إلا ظاهراً منها لأنهم لم يدرسوها ولم يباحثوها بل ولربما لم يطالعوها وإنما كان هَمّ المثقفين الدينيين بعض الأمور الدينية التي هُم بصددها أما المثقفون الزمنيون فهمهم في دروسهم وممارساتهم العلمية منحصر في الطب والهندسة والفيزياء والكيمياء وغير ذلك ولذا نرى المسلمين يصب عليهم البلاء صباً وهم لا يعرفون المصدر ولا الكيفية ولا الخصوصيات ولذا يعجزون عن العلاج والخروج عن المأزق فمن اللازم دراسة السياسة دراسة واعية ثم مباحثتها ومواصلة مطالعتها بدقة وحيث لا يمكن تجريد السياسة عن علمي الاجتماع والاقتصاد فاللازم دراستهما أيضاً.

غياب الوعي السياسي

وإليك بهذه المناسبة قصتان عن العراق وإيران حتى نعرف كيف يعملون هم في غياب عن معرفتنا بالسياسة مما يسبب إجهاض كل حركات المسلمين وإن كان القائمون بها من أشد المؤمنين إخلاصاً لدينهم ولمبادئهم ولبلادهم.

السياسة ذات جانبين

ثم إن فهم السياسة له جانبان: سلبي وهو ما ذكرناه: بأن يفهم الإنسان ماذا يجري في بلاد الإسلام؟ وكيف ذلك؟ ولماذا؟ وأمثال هذه الأسئلة.

وجانب إيجابي: وهو أن يفهم الإنسان كيفية العلاج

فالأمر في المقام هو تشخيص المرض وفهم العلاج، إذ من الطبيعي أنه إذا علم الإنسان المرض ولم يعلم العلاج لم ينفع فهمه للمرض شيئاً، ولذا نرى أن المسلمين لما سقطت دولتهم الواحدة انقسموا إلى دولتين ولما سقطت الدولتان انقسموا إلى أربع دول: العثمانيين والإيرانيين والمغول في الهند ودولة المغرب ولم يتمكنوا من العلاج مع أن كلهم كان يعلم المأساة وإنما كان عدم تمكنهم من العلاج لعدم فهمهم له وفي زماننا هذا حيث سقطت الدول الأربع التجأ بعضهم إلى القومية وبعضهم إلى الشيوعية وبعضهم إلى الديمقراطية الغربية وبعضهم إلى الإسلامية المنحرفة وبعضهم إلى الدكتاتورية بدون اسم فانطبق عليهم قول الشاعر:

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

ولا شك أن كثيراً منهم كانوا يهدفون إنقاذ بلادهم لكن وعورة الطريق أو جبت العطب الأكثر فهم كمن يريد شفاء ولده لكنه يعطيه عوض الدواء الناجع سماً قاتلاً واستفاد من هذه الغفلة وعدم الانتباه المستعمر الخارجي والخامل الداخلي حيث أركب المستعمرون عملاءهم على التيارات كما نرى ذلك بالنسبة إلى عبد الناصر وعبد الكريم قاسم وغيرهم من العملاء.

أما العملاء أنفسهم فقد استغلوا من غفلة الناس فرصة مناسبة لمصادرة الملك والمال ففسدوا وأفسدوا ولا ينفع الإنسان أن يقول أني أفهم العلاج إذا لم يمارسه فالعالم غير العامل أسوأ من الجاهل ولذا مثل الله سبحانه له أبشع الأمثلة قال سبحانه: (مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مَثَلُ القوم الذين كذّبوا بآيات الله)(١).

وقال سبحانه في آية أخرى بالنسبة إلى العالم غير العامل: (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث)(٢).

ويقال لمن يدعى العلم بالسياسة ولا يعمل بموازينها:

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

المرض السياسي

رأيت أفراداً كانوا يذوبون تأسفاً وألماً لتأخر المسلمين ولما يصيبهم من شظايا التأخر في أهلهم أو مالهم أو وطنهم أو غيرها لكنهم كانوا جاهلين بالسبب وجاهلين بالعلاج على أن جملة منهم كانوا من الفضلاء في بعض العلوم الإسلامية أو العصرية وليس ذلك إلا لأنهم لم يدرسوا السياسة فهم كمن يتلهف لشفاء أعز أصدقائه وأهله الذين تمرّضوا لكنه لا يعرف مرض المريض أو يعرف المرض لكنه لا يعرف علاجه.

العلاج الناجع

والعلاج في المقام إنما هو ضم دراسة السياسة إلى جنب سائر الدراسات الأخرى في المناهج الثقافية بالنسبة إلى طلاب العلم سواء كانوا دينيين أو زمنيين ثم اللازم أن ينشر هؤلاء الدارسون السياسة بين المجتمع حتى تكون السياسة عند المجتمع كسائر شؤونهم العادية فكما أن كل مريض يذهب تلقائياً إلى الطبيب ويذهب كل جائع وعار عفوياً إلى تحصيل الطعام واللباس كذلك يلزم أن يذهب كل فرد من المسلمين إلى تعديل الانحراف العريض الحادث في بلاد الإسلام وبذلك يقترب المسلمون إلى العلاج بإذن الله سبحانه وتعالى.

المعرفة السياسية

ومن فهم السياسة أن يعرف الإنسان ارتباط الأمور بعضها ببعض وأن أي أمر يؤثر في أي أمر، ومعرفة المسافات والخصوصيات والمزايا والأقوام والاتجاهات والتيارات وما أشبه ذلك فإن الإنسان إذا لم يعرف الأمور حق معرفتها لا يتمكن من التصرف فيها فإن من لا يحسن المعرفة بالمعمل والماكنات الموجودة فيه لا يتمكن من تشغيلها أو علاجها لدى العطب وكذلك من لا يعرف جزئيات بدن الإنسان لا يتمكن من معرفة أمراضه، وعلاجها إلى غير ذلك، والسياسة أيضاً من هذه الأمور التي إذا لم يعرف الإنسان مجريات السياسة وخصوصياتها لا يتمكن من

التدخل في شؤونها وتوجيهها والسير بها إلى الصراط المستقيم بل يزيد في الطين بلة، وفي البلاء محنة، وبهذه المناسبة ننقل القصة المشهورة التي رواها المؤرخون بألفاظ مختلفة وكما يلي:

ثورة علوية استراتيجية

في زمن أحد العباسيين المدعين للخلافة ظهر في المدينة المنورة أحد أحفاد رسول الله (صلى الله عليه وآله) من بني الحسن (عليه الصلاة والسلام) خارجاً على الدولة وثائراً ضدها وقد جمع السلاح والمال يريد تقويض دولة بني العباس (الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب)(٣).

واستوحش العباسي من ظهور هذا السيد العلوي الثائر فجمع أصدقاءه وأقرباءه ومن في بلاطه واستشارهم في الأمر فقال له أحد كبار رجالات بغداد من الشخصيات السياسية البارزة المعروفة بالحنكة ولم يكن يعرف هذا المستشار المدينة المنورة ولا خصوصيات الأمور فيها كاملة أو كان يعرفها وإنما تجاهل من باب تجاهل العارف لغرض له فأخذ يستفسره عن المدينة المنورة فقال: إنها مدينة صغيرة في الحجاز.

سأل الرجل: هل لهذه المدينة وارد اقتصادي ضخم؟

أجاب العباسي: واردها ضئيل جداً، فهي لا تعتمد سوى على نخيل التمر وحاصلها الشحيح، الذي لا يكفي قوتاً لأهلها.

قال الرجل: كم عدد نفوسها؟

فكان جواب العباسي: إن نفوسها قليل جداً.

قال الرجل: وهل المدينة محاطة بالغابات والجبال والحواجز الطبيعية؟

قال العباسي: لا وإنما أطرافها الصحارى والييباب والقفار.

قال الرجل: ومن هذا الثائر؟

أجاب العباسي: إنه من آل رسول الله (صلى الله عليه وآله)، والناس يعتقدون به كثيراً.

قال الرجل: وهل له أنصار؟

قال: نعم له أنصار في كل العالم الإسلامي لأنه من أحفاد رسول الله كما ذكرت لك.

قال الرجل: ما هي أقرب البلدان المزدحمة بالسكان والغنية بالاقتصاديات من المدينة؟

أجاب العباسي: إنها البصرة فهي أقرب البلاد المزدحمة إليها. قال الرجل: إذا كنت تخشى من هذا الثائر وأردت الوقوف أمامه والقيام بصده فليس عليك إلا أن تملأ البصرة رجالاً وسلاحاً ومالاً.

استهزأ العباسي في نفسه من هذا التفكير السخيف، والعقل الضعيف – طبعاً بنظره – لكنه لم يظهر شيئاً احتراماً لكبر الرجل ومكانته الاجتماعية وتشكر منه وصرفه ثم قال لجلسائه أنظروا إلى عقلية هذا الرجل فإني كنت أرى أنه على عقله وحكمته وعلى تفكيره وشخصيته وإذا به قد خرف وطال عليه الزمن، أي ربط بين البصرة والمدينة المنورة؟

إن الرجل خرج ثائراً من المدينة وأنا أملأ البصرة خيلاً ورجالاً؟

لكن لم يمض إلا زمان يسير حتى فوجئ العباسي في بغداد بأخبار الثورة العلوية بقيادة السيد الحسني تندلع من البصرة وقد التف الناس حوله وهم في طريقهم لمهاجمة العاصمة بغداد فتعجب العباسي من ذلك تعجباً كبيراً واستحضر الرجل المحنك السياسي الكبير السن ليسأله أنه كيف عرف الارتباط بين البصرة والمدينة المنورة ولما حضر، واستفسره عن الأمر أجاب قائلاً: أنت لوّحت في كلامك بأنه لا بد أن يظهر الثائر الحسني من البصرة لأنك قلت أن المدينة بلدة صغيرة ومن الواضح أن البلدة الصغيرة لا تتحمل الحروب وقلت لا وارد لها ومن الواضح أن الحرب بحاجة إلى وارد كبير فالبلدة التي لا وارد لها لا تتمكن أن تحارب وقلت أن نفوس المدينة قليل ومن الواضح أن المحارب يحتاج إلى جيش ولا يتمكن أن يعتمد على جماعة قليلة وقلت أن المدينة ليست محاطة بالغابات والجبال والحواجز الطبيعية وإنما أطرافها اليباب والصحارى القاحلة ومن الواضح أن الذي يريد أن يحارب لا يتمكن أن يحارب في العراء لأن الحرب بحاجة إلى حواجز طبيعية حتى يتمكن الثائر من التحصن بها لمقاومة العدو ومواجهته، وكذا إذا اضطر التجأ إليها. وقد قلت أن المدينة ليست كذلك ثم قلت إن هذا الثائر من أحفاد رسول الله والناس يعتقدون به في كل العالم الإسلامي اعتقاداً كبيراً وله أنصار في كل البلاد ومن الواضح أنه لا يبقى في بلده الصغير وإنما يختار بلداً آخر وحيث سألت منك عن أقرب البلاد إلى المدينة المنورة التي تتوفر فيها مؤهلات الثورة من المال والرجال والسعة والأشجار والنخيل وما أشبه، قلت أنها البصرة فمن الطبيعي أن يشير إلى الثائر العقلاء المحيطون به أن ينتقل إلى مثل هذه المدينة ولذا قلت لك إملأها عليه خيلاً ورجالاً ومالاً وسلاحاً وهكذا كان، فتعجب العباسي من بعد تفكير هذا الرجل وحسن ربطه للأمور وأدار رحى الحرب في البصرة ضد الثائر الحسني(٤).

المعرفة السياسية لا بد منها

نعم أنه لا بد لمن يريد السير بالأمة إلى الأمام من معرفة كل الأمور والجوانب، والأطراف والخصوصيات، والحوادث والارتباطات، والأسباب والمسببات لوضوح أن ممارسة التغيير لا تصح بالنسبة إلى من لا يعرف هذه الأمور، فإن من لا يعرف كيف ابتدأت الدولة الإسلامية وكيف تم القضاء عليها في هذا القرن لا يتمكن من التأسيس لأن المؤسس بحاجة إلى معرفة التاريخ ومجريات الأمور وخصوصياتها وتفاعلها وغير ذلك.

الدولة الإسلامية شروقاً وغروباً

وبهذا الصدد ننقل كلمة موجزة عن كيفية تأسيس رسول الله (صلى الله عليه وآله) الدولة الإسلامية وكيفية انحلالها حتى نعرف كيف نتمكن من الإعادة فإن الرسول (صلى الله عليه وآله) – كما هو معروف – بعث في أمة متفككة متحاربة يقتل بعضهم البعض، ويفتك كل منهم بالآخر، قد سرى بينهم الخوف والقلق غايته وكانوا كما وصفتهم الزهراء (عليها الصلاة والسلام) في خطبتها المعروفة (كنتم تشربون الطرق وتقتاتون القد أو الورق أذلة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فآواكم وأيدكم بنصره)(٥).

كما كانت الحدود الجغرافية تحكم بينهم لا بين البلد والبلد فحسب بل بين قبيلة وأخرى فجاء رسول الله (صلى الله عليه وآله) وشعاره (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)(٦)، و(إنما المؤمنون أخوة)(٧)، (وإن هذه أمتكم أمة واحدة)(٨).

فبعث منهم أمة متقاربة متصادقة، متآخية متعاونة، آمنة مطمئنة عزيزة مكرّمة لم يمض بهم زمان إلا وقد انضوت تحت حكومته العادلة (صلى الله عليه وآله) ما يقارب من تسع دول على خارطة اليوم، وهي عبارة عن: الكويت وقطر والبحرين والإمارات العربية المتحدة ومسقط واليمن الشمالي واليمن الجنوبي والحجاز والأردن وقد ذكر المؤرخون أن النبي (صلى الله عليه وآله) لم يكن له حتى سجن واحد في هذه الدولة الواسعة المترامية الأطراف الجديدة العهد، حيث قد أسس بنيانها على تقوى من الله ورضوان، وعلى أسس المكارم والإنسانية، والعدل والرحمة، ثم توسعت الدولة الإسلامية الفتية وتوسعت . حتى وصلت في زمان الإمام أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام) . طولاً من ليبيا إلى داغستان في الاتحاد السوفياتي ومثل هذه السعة طولاً كانت سعتها عرضاً وكان الإمام (عليه السلام) يدير هذه الدولة الكبيرة التي كانت أكبر دول العالم ذلك اليوم إطلاقاً إدارة قلّ لها من نظير فلم يكن للسجن في حكومته العريضة معنى كالمتداول في زماننا، ولا كالمعروف قبل الإسلام، بل كان السجن في حكومته العادلة، بدائياً وبسيطاً جداً مع أنه كان للفرس والروم آنذاك سجون ضخمة وعظيمة ممتلئة بالناس وكان السجناء يتعرضون فيها لأشد أنواع التعذيب.

كما ذكرت ذلك الكتب المعنية بهذا الشأن.

وهذا بحث ثان لا نريد التعرض له وإنما ننقل هنا رواية واحدة تدل على مدى بساطة السجن في زمان الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام).

تصدع الدولة الإسلامية

ثم إن هذه الدولة الواسعة الشاسعة تشققت من زمان العباسيين بظلمهم وظلم الذين سبقوهم من الأمويين إلى دولتين دولة في المشرق وهي دولة الخلافة العباسية ودولة المغرب وهي دولة الأدارسة أبناء عم الإمام الصادق (عليه الصلاة والسلام) حيث فروا من اضطهاد العباسيين إلى المغرب فأسسوا هناك دولة لهم ثم تشققت هاتان الدولتان إلى أربع دول:

الدولة العثمانية.

والدولة الإيرانية.

والدولة المغولية في الهند.

ودولة رابعة في المغرب.

فإذا لم يعرف الإنسان أنه كيف تأسست الدولة الإسلامية، وكيف تشققت، وما هي عوامل ثبوتها وتوحدها؟ ثم ما هي عوامل تشققها وسقوطها؟

فإنه لا يستطيع ممارسة التغيير ولا الوصول إلى تحقيق الدولة الإسلامية الواحدة.

الاستياء العام

وعلى أي حال حين سقطت الحكومات الإسلامية في الهند وفي إيران وفي تركيا وفي المغرب وقامت المؤسسات العلمانية بتأثير من الغرب خصوصاً عقيب الحرب العالمية الأولى، إستاء المسلمون جميعاً في كل البلاد وعادوا إلى الاهتمام بإصلاح أمورهم لكن لما كانت أساليبهم تختلف كثيراً عن أسلوب الرسول (صلى الله عليه وآله) عجزوا عن أن يتفقوا على منهاج بنّاء يؤلف بينهم ويجعلهم وحدة واحدة وقوة متماسكة بل بالعكس من ذلك فقد تفرقوا أيدي سبا وأصبحوا شيعاً متباغضة وأحزاباً متحاربة ولو كانت تسودهم الجماعات المفكرة المعتدلة لوحدوا صفوفهم ولصبّوا جهودهم في أجنحة كما نجد مثل هذا في كثير من البلاد الغربية المدعية للديمقراطية على أنّا لا نريد تأييد الديمقراطية إلا بقدر أن دعاتها تعقلوا الأمور في إيجاد الأحزاب وجعلوها أجنحة في سبيل مصلحتهم الوطنية ولو كان المسلمون يتفقون على مثل هذا الطرح الذي ذكرناه في كتب متعددة وبصورتها الإسلامية الصحيحة لم يكن للغرب والشرق الجرأة في تضييق الخناق على المسلمين وتسييرهم بهذا السير العنيف الذي سبّب للمسلمين ضياع دنياهم ومن الطبيعي أنه إذا ضاعت الدنيا ضاعت الآخرة معها أيضاً ففي الحديث الشريف:

(من لا معاش له لا معاد له) إذ من الواضح أنه ليس المراد بالمعاش هو الأكل والشرب فقط وإنما سائر الشؤون الحيوية التي يعبر عنها جميعاً بالمعاش وحيث لا معاش للمسلمين فلا معاد لهم.

مظاهر غير إسلامية

وهذا واضح يتراءى في كل شؤون بلادهم فإنك لا تذهب إلى بلد من بلاد الإسلام – باستثناء ما شذ وندر – إلاّ وتجد فيها الخمور والفجور والقمار والربا والاحتكار وسائر المحرمات الإسلامية متفشية، أما الحكم بغير ما أنزل الله فحدّث ولا حرج فإنّه قد عمّ كافة أرجاء بلاد الإسلام بلا استثناء، ومن الواضح أن مثل هؤلاء المسلمين – إلا من عصمه الله سبحانه – لا آخرة لهم كما لا دنيا لهم وهذا كله دليل على أن عدم معرفة السياسة معرفة تطبيقية يوجب بقاء الضياع والتشتت بل ويؤدّي إلى توسعة نطاق الخرق لأن الضياع والتشتت يبدأ صغيراً ثم يتسع ويتسع حتى يشمل كافة أنحاء الأمة كما نجد الآن ذلك.

نظرية وتطبيق

وأما اشتراطنا في معرفة السياسة، بكونها معرفة عملية تطبيقية فلوضوح أنّ العلم وحده لا ينفع، كالذي يعرف الدواء لكن لا يستعمله فهو لا يبرأ ولا يفيق من مرضه، أو كالذي يعرف البناء لكن لا يبني لنفسه داراً فهولا يتمكن أن يستظل بوارف من ظله إلى غير ذلك، ولهذا جاء في نهج البلاغة عن الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) أنه قال: (لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له والناهين عن المنكر العاملين به)(٩).

وجاء قبل ذلك في القرآن الحكيم: (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)(١٠).

وهكذا إذا أردنا ممارسة التغيير إلى حيث ظل الإسلام الظليل، والسيادة والسعادة، والعزة والكرامة، دنيا وآخرة، فعلينا الاضطلاع في السياسة وذلك لا يكون إلا بتدارسها وتباحثها، والمطالعة الكثيرة فيها والأخذ والعطاء بموازينها ووفق خصوصياتها.

الأمور الدخيلة في الفهم السياسي

ثم إن من أهم الأمور الدخيلة في الفهم السياسي وسيأتي الحديث عنها مستقلاً، أيضاً. هو عدم الاشتغال بالتوافه والمكرّرات، والغفلة عن الهدف الأسمى، أرأيت من كان له مريض مبتلى بالسرطان وإذا لم يعالجه علاجاً سريعاً أدى إلى موته، ثم حصلت في يده بثرة صغيرة تؤلمه لكنها ليست قاتلة ولا تسبب له العطب هل يشتغل بالبثرة أو بالسرطان؟

إنه إن ادعى الفهم ثم اشتغل أولاً بمعالجة البثرة دون السرطان أعطاك دليلاً عملياً صارخاً على أنه لا يفهم شيئاً، وهكذا حال السياسة والسياسيين، فإن من يرى بلاد الإسلام تتمزق، والمسلمين يزدري بهم، والخيرات تنهب، والأموال تسلب، والأعراض تهتك، والشباب يعذبون في السجون، والأحرار يقتلون في كل مكان، ثم يشتغل بعلاج التوافه، ويغفل عن الهدف فينبغي من يبيع غالياً أو يغش في اللبن ماءاً أو يشتغل بحفظ مقامات الحريري أو ما أشبه ذلك فإنه يعطيك بهذا دليلاً عملياً صارخاً على أنه لا يفهم السياسة، وإن ادعائه ليس إلا باطلاً والغريب المؤسف أن هذا هو واقع كثير من الإسلاميين فبدل أن يكتبوا ويخطبوا ويأتمروا حول كيفية إنقاذ المسلمين وإرجاع حكومتهم الواحدة العالمية وإعادة الحريات الإسلامية إليهم، وإنقاذ ملايين السجناء الأبرياء الذين هم تحت أشد أنواع التعذيب الوحشي في عرض بلاد الإسلام وطولها، وإسقاط الحدود الجغرافية بين بلاد الإسلام، وتطبيق قوانين الله سبحانه وتعالى في مختلف الشؤون، والاهتمام بتوزيع القدرة وعدم تمركزها في نقطة واحدة مما يؤدي إلى طغيانها واستبدادها فـ (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى)(١١). وإن من ملك استأثر، ومما يؤدي إلى حكر الأصوات هو جانب القوة والثروة، فيكون الانتخاب بذلك اغتصاباً، فلا بد أن يكون الانتخاب والاستفتاء حراً في ظل توزيع القدرة.

فبدل ذلك كله تراهم يصرفون أكثر أوقاتهم بل كلها في فروع صغيرة وطفيفة تكون أشبه شيء بالبثرة في الذراع إلى جانب السرطان في الدماغ.

كما أن على التيار الممارس للتغيير صبّ كل إمكانياته وصلاحياته في طريق العلاج والتغيير حتى أن الأمر لو كان بحاجة إلى تأليف كتاب حول المرأة أو العامل والفلاح أو كيفية علاج الاقتصاد أو ما أشبه لزم صبّه في التيار العام للتغيير اقتداءً بالرسول (صلى الله عليه وآله) حيث جعل حتى من شؤونه الفردية وقضاياه الشخصية مورداً نحو المصب العام لتقديم الإسلام إلى الأمام: فقد تزوج لأجل هذا الشأن وزوّج لنفس هذا الهدف وسافر أما للدفاع أو للحرب وأما للصلح أو لتوطيد العلاقات، وأما لتعميم رحمة الإسلام على الأنام أو لتعليم المسلمين مناسك حج البيت الحرام الذي جعله الله مثابة للناس وأمناً، كما وصف القرآن الحكيم مكة المكرمة بذلك.

وهكذا بالنسبة إلى كل تصرفاته ومعاملاته من أخذ وعطاء، وحل وترحال، وحكم وقضاء، وفي سائر قضاياه وشؤونه حتى أنه (صلى الله عليه وآله) كان قد بنى البيوت لأزواجه ونسائه وأقربائه وأصحابه حول المسجد كي يكون لهم تجمّع للانطلاق وحتى أنه جمع الفقراء في صفة المسجد كي يكونوا بمرأى منه ومسمع، ورهن إشارته وأمره إذا أرادهم لأمرٍ جامع أو لصلاة جماعة أو لغزوة وحرب أو مسألة أو إبلاغ أحكام إلى الناس أو غير ذلك.

من أوليات الفهم السياسي

ثم إن من أوليات الفهم السياسي أن يعرف التيار الذي يمارس التغيير بأن هناك ثلاثة أشياء ليست من الإسلام في شيء وإن جاءوا لها بألف حجة ودليل.

الأول: إن كل شيء يهددّ وحدة المسلمين ويفرقهم إلى قوميات أو طائفيات أو عنصريات أو أقليميات أو ما أشبه ذلك، فهو ليس من الإسلام واللازم أن تذوب كل التقسيمات في بحر الإسلام العظيم الذي يرى كل المسلمين سواسية كأسنان المشط وأنهم أخوة تتكافأ دماؤهم. وبذلك تذوب تلقائياً كل القوميات بما فيها القومية العربية والقومية الفارسية والقومية الطورانية التركية والقومية الكردية وسائر القوميات التي أو جدها أو نفخ فيها المستعمرون في بلاد الإسلام كما تذوب في بحر الإسلام الكبير الشيوعية وليدة القومية، والشيوعية التي هي البعثية، وهكذا تذوب العنصريات الضيقة والإقليميات المحدودة ونحوها وسنتحدث عن هذا الأمر وما يليه في مطاوي هذا الكتاب بالتفصيل بإذنه تعالى.

الثاني: إن كل من يصل إلى الحكم بلا استفتاء حر من الشعب وبلا شورى منهم ولا انتخاب فهو باطل وليس من الإسلام في شيء سواء كان وصوله إلى الحكم بسبب العشيرة والقبيلة أو بسبب الملكية الوراثية أو بسبب الإنقلاب العسكري أو بغير ذلك.

الثالث: إن كل بلد يجهر فيه بالمعاصي والمحرمات، وبمنظر من الحكومة ومسمع، بل بتشجيع منها، وسن القوانين لحمايتها، باطل ليس من الإسلام في شيء ويجب أن تطهّر، فالبلد الذي يباع فيه الخمور أو يفتح فيه المواخير أو تتعامل مصارفه بالربا ولو تحت ألف غطاء واسم، أو ما أشبه ذلك لا يمكن أن يبقى على حاله في تيار الإسلام التغييري، علماً بأن المحرمات غير مقتصرة على الخمور والفجور بل تتعدى إلى ما هي أكبر وأفحش حرمة منها، وهي مزاولة القوانين الوضعية المخالفة للإسلام، فإنه يجب أن تبدل كلها إلى قوانين إسلامية فعلى التيار التغييري عدم الإكتراث بالقوانين غير الإسلامية إطلاقاً فهي قوانين غير مشروعة مهما وصفها أناس – ولو كانوا أفاضل – بالشرعية، وضارة مهما قالت الحكومات فيها بأنها وضعت للمصالح العامة، وباطلة مهما روّجوا صحتها في وسائل الإعلام العالمية.

مصدر الشقاء ومبدأه

فمن يوم ترك المسلمون قوانين الإسلام تمزقوا شرّ ممزق وساد عليهم الشرق والغرب فنهبوا خيراتهم وقتلوا أحرارهم، وملأوا السجون منهم وأهلكوا حرثهم ونسلهم، وأبادوا بلادهم وتأخّرت الأمة تأخراً ذريعاً لم يكن له سابق في تاريخ الإسلام الطويل، ولا بأس أن نذكر هنا شطراً من المشكلة التي واجهها المسلمون بعد تركهم قوانين الإسلام

(كمثال على ما ذكرناه) حيث استوردوا القوانين الوضعية التي لا تلائم معتقداتهم ولا تلائمهم ما داموا مسلمين وأقوى دليل على ذلك رفض الأمة الإسلامية رفضاً عملياً لكل القوانين المستوردة ومحاولة الهروب منها والتحايل عليها حسب الإمكان بعد رفضها لها رفضاً فكرياً حيث أن هذه القوانين ليست محترمة عندها إطلاقاً مما سبب الترجرج وعدم الإستقرار الحكمي في أي باب من أبواب الأحكام القضائية أو الجنائية أو المالية أو الحدودية أو غيرها.

الرفض العملي والفكري للتلفيق

وننقل بهذه المناسبة جملة من كلام (الدكتور الخدوري) لنرى أن المسلمين كيف وقعوا في متاهات دامسة بعد تركهم قوانين الإسلام النيّرة.

مما سبّب تأخر بلادهم أي تأخر، ففي كتابه (الاتجاهات السياسية في العالم العربي).

قال: (تجربة الأقطار العربية وخاصة مصر وبلدان الهلال الخصيب في فترة ما بين الحربين أثبتت أن القانون الغربي الخالص أو القانون الإسلامي الخالص دون إجراء تعديلات عليهما لا يفيان بالغرض المطلوب وكما حصل في مختلف الحقول نشب صراع بين مدرستين فكريتين مدرسة جديدة رفضت القديمة باعتبارها لا تناسب الأوضاع العصرية، ومدرسة قديمة شهدت قطيعة مفاجئة للماضي طالبت ببعث كامل للشرع الإسلامي وهكذا تتضح الحاجة الماسة إلى أسلوب جديد يأخذ من المدرستين أفضل ما لديهما.

وكان السمهوري هو الذي رفع لواء الدعوة إلى أسلوب جديد معتدل يجمع ما بين القانونين الغربي والإسلامي آملاً أن يؤدّي الجمع في النهاية إلى تأليف منهج منسجم منهما وقد أيده في ذلك النقاد الذين رأوا أنه يستحيل على المفاهيم القانونية والدستورية الغربية إذا ما غرست في بيئة إجتماعية جديدة أن تعطي نتائج مشابهة لما أعطته في الغرب ومن ناحية أخرى فقد حدث صدام مباشر بين القانون الغربي والشرع الإسلامي في الميادين التي كان فيها الأخير يتمتع بمكانة قوية، رغم أن القانون الغربي لم يدخل ما اختلف من مرافق الحياة على نحو متماثل، لهذا بدأ بعض النقاد يتساءلون عن إمكان تحديث الشرع الإسلامي بحيث لا يعود يتناقض مع القانون الغربي.

وقال آخرون: بأنه قد يكون بالإمكان تعديل كل من القانونين بحيث يصلان إلى مرحلة من الانسجام التي تصل في النهاية إلى التأليف الكامل في ما بينهما وإذ كان التفكير يسيّر في هذه الاتجاهات.

طرح السمهوري فكرة تطبيق هذا الأسلوب في أثناء إعداد مصوبة قانون مدني جديد للعراق يستند إلى المفاهيم الإسلامية والغربية ولم تكن تجربة السمهوري جديدة فمنذ أن شرعت الإمبراطورية العثمانية في تنفيذ التنظيمات أخذت تتبنى تشريعات جديدة تحتوي قوانين غربية كالقانون التجاري لعام ألف وثمانمائة وخمسين، وقانون العقوبات لعام ألف وثمانمائة وثمانية وخمسين، ودفعت هذه المحاولات بعض المحدثين إلى تقنين الشرع الإسلامي المدني وهكذا صدرت (المجلة) لتكون بمثابة قانون الإسلام المدني مع أنها لا تشتمل بأي حال من الأحوال على كل جوانب القانون المدني واستندت المجلة في الأكثر إلى المذهب الحنفي رغم أنها رجعت إلى المذاهب الأخرى وكانت بمثابة علامة بارزة في طريق تطوّر القانون الإسلامي المدني ويبدو الأثر الغربي، خصوصاً في الشكل الذي

صيغت به المجلة، ثم بذلت محاولة أخرى في مصر على يد (قدري باشا) في كتاب مرشد الحيران ففيه عمد مؤلفه إلى وضع قانون العقود وفقاً للقانون الحنفي وهذا الكتاب لا يختلف عن المجلة سواء في محتواها أو في نهجها الأوروبي ورغم أن هذا الكتاب لم يكن قانوناً رسمياً إلا أنه اعتبر مرجعاً موثوقاً به واستعمل في المدارس الحكومية ومع ذلك فإن أياً من الاثنين: المجلة وكتاب قدري باشا، لم يحدث تغييرات جوهرية هامة.

وهكذا تركت مهمة مثل هذه التغييرات إلى الجيل القادم، وكان السمهوري هو الذي دفع بهذه العملية خطوة إلى الأمام، ووقف البَلَدان مصر والعراق اللذان أبديا استعداداً لتغيير قوانينهم المدنية، على طرفين متناقضين تبنّت مصر القانون المدني الغربي الفرنسي كلياً، بينما تمسك العراق بالمجلة، ولهذا لم يبذل السمهوري أية محاولة لصياغة قوانين جديدة كلياً لهذين البلدين ولم يدع إلى إحداث تغييرات ثورية في أي منهما وذلك لأنه كان معتدلاً بطبعه وذراعياً بمنطلقه ثم أنه أدرك صعوبة إحداث تغيير جذري فحاول أن يضمّن قانون كل من البلدين العناصر التي يفتقر إليها من قوانين البلدان الأخرى فأدخل عناصر من القانون الغربي في القانون الذي كان إسلامياً في الأساس كما أدخل عناصر من القانون الإسلامي في القانون المصري الذي كان مستمداً من القانون الفرنسي.

وهكذا أصبح القانونان المصري والعراقي نموذجين للبلدان الأخرى فتبنّت سوريا النموذج المصري المعدّل على ضوء التجربة العراقية، وتبنّى الأردن وليبيا النموذج العراقي المعدّل وفق التجربة المصرية، والواضح أن هذه التجربة مع اختلاف مدى تطبيقها بين بلد عربي وآخر نجحت أكثر ما نجحت في إدخال الإصلاح التشريعي وفق أسس علمانية خاصة في العراق حيث تمثلت في قانونه وبقدر متساو، عناصر من التشريعين الغربي والإسلامي إلى آخر كلامه).

١ . سورة الجمعة: الآية ٥.

٢ . سورة الأعراف: الآية ١٧٦.

٣ . سورة الفجر: الآية ١١ – ١٣.

٤ . لا يخفى أن العلويين ثاروا ضد العباسيين ثورات وثورات حتى سببوا تعديل حكومتهم وجعلوهم أقل ظلماً؟ وأخيراً سببوا سقوطهم، في قضايا مفصلة مذكورة في التاريخ (منه دام ظله).

٥ . كشف الغمة: ج٢ ص١١١.

٦ . سورة الأنفال: الآية ٤٦.

٧ . سورة الحجرات: الآية ١٠.

٨ . سورة المؤمنون: الآية ٥٢.

٩ . نهج البلاغة: الخطبة ١٢٩.

١٠ . سورة الصف: الآيتان ٢–٣.

١١ . سورة العلق: الآية ٦–٧.

القانون الإسلامي أو السقوط

نتيجة الإعراض عن الإسلام

وبهذا نرى أن المسلمين يوم تركوا قوانين دينهم منذ قرن تقريباً كيف ابتلوا بالقوانين الملفّقة، والأحكام المزدوجة التي لم تزدهم إلا تأخراً وذلة، وهكذا كان حال سائر بلاد الإسلام كإيران وتركيا وباكستان وأفغانستان وأندنوسيا وغيرها.

والذي يراجع القوانين الإسلامية والقوانين الوضعية يرى بينهما الفرق الإنساني الكبير، هذا مع غض النظر عن أن المسلم ينظر إليها بشك وريبة ويرى أنها ليست من الإسلام في شيء، وإنه لا يجب الالتزام بها، والعمل على طبقها.

فمثلاً هناك في القوانين الإسلامية قانون الضرائب – إذا صح التعبير – مفروض في أربعة مواد فقط وهي: الخمس والزكاة والجزية والخراج، بينما في القوانين الوضعية ترى الضرائب فيها فوق المائتين مادة.

وكذلك السجن في الإسلام لا يكون إلا لما يقارب عشرين قسماً من المجرمين(١).

بينما تجد السجن في القوانين الوضعية لأكثر من ألف قسم، وقد دار حوار ساخن مع الدكتور عبد الرحمان البزاز الذي كان ولفترة معينة رئيساً للوزراء في العراق أيام عبد السلام عارف، حيث زار كربلاء المقدسة، واجتمع هناك في مقبرة الإمام الشيرازي بالهيئة العلمية ورجال الدين.

فقلت له: إنكم مع ادعائكم الاستقلال، كيف تطبقون (قانون العقوبات البغدادي) وهو قانون استعماري أجنبي عن الإسلام وقد ذكر في أو له: أن المستعمرين هم الذين وضعوا هذا القانون وأوجبوا تطبيقه في العراق؟

فلم يحر جواباً وإنما اكتفى بالضحك بدلاً عن الجواب، ومن الواضح أن قانون العقوبات البغدادي زجّ مئات الألوف من الناس الأبرياء في السجون وصادر المليارات من أموال العراقيين وأعدم الآلاف من الأبرياء وأذاق فتيان العراق وخيرة شبابه من رجال ونساء أشد أنواع العذاب والتنكيل في زنزاناته الرهيبة وهتك الأعراض وخنق الحريات وأضعف البلاد ضعفاً كبيراً غير مسبوق في تاريخ العراق إطلاقاً، كما أنه أو جب البطالة الشائنة والفساد العريض إلى غير ذلك مما لا يخفى على من لاحظ القانونين والتاريخين وقارن بينهما.

مهزلة وضع القانون

أما كيفية وضع القانون في المجالس التشريعية للبلاد الإسلامية من مجلس الأعيان أو مجلس الأمة أو مجلس الوزراء أو ما أشبه ذلك.

فإليك نموذجاً واحداً على كيفيته وقس عليه ما سواه: اتفق إن سألت أحد الذين كانوا يرتادون مجلس الأمة في إحدى البلاد الإسلامية – باعتباره نائباً منتخباً عن الأمة – وقد كان له مسحة من الإيمان والفضيلة –: كيف تضعون القانون؟

فتبسم ضاحكاً وقال: لا تسأل عن ذلك فإنها مهزلة.

قلت: وكيف؟

قال: أنقل لك مثالاً واحداً وتجربة واحدة من تجاربي في ذلك:

ذات يوم فوّض إلينا رئيس المجلس وضع قانون للأحوال الشخصية من النكاح والطلاق وما أشبه فعيّن الرئيس لجنة ثلاثية مكوّنة مني أنا وإثنين آخرين لسنّ هذا القانون، أما أحد الرجلين الآخرين فكان رجلاً أُميّاً لا يقرأ ولا يكتب ولكن حيث أنه كان ذا ثروة ومكانة إجتماعية استطاع عبرهما الوصول إلى مجلس الأمة كنائب عن قطاع كبير من أهالي البلد، وأما الآخر فكان مثقفاً وخرّيج جامعة لكنه في أثناء تقرير بعض القوانين حدث له شغل خارج المجلس فاستأذن وذهب وأعطى صوته لصديقه الأمّي، واستمرت بنا اللجنة الثنائية حتى وصلنا إلى وضع قانون يعيّن فيه مدة (أكثر الحمل) فقال النائب الأمّي وباعتبار أن له صوتين: إن أكثر مدة للحمل (إثنتي عشرة سنة) فتعجبت من ذلك، وقلت له متسائلاً: من أين تقول هذا؟

أجاب قائلاً: إن في عشيرتنا أمرأة طاعنة في السن وهي امرأة محترمة وموقّرة وصادقة فهي تقول: إن بعض جيرانها ولدت بعد إثنتي عشرة سنة من وفاة زوجها.

أثار هذا الكلام دهشتي فقلت له متعجّباً: وهل يمكننا سنّ قانون يتحكم برقاب أمّة وشعب، اعتماداً على قول امرأة عجوز؟

ولم أزل أناقشه وأجادله ليتنازل عن قوله وهومصر عليه حتى تمكنت أن أو صله إلى سنتين ليكون أكثر الحمل قانوناً سنتين ولما لم أتمكن من إقناعه للتنازل عن قوله هذا أيضاً، قلت له: إن السنتين أيضاً تخالف العلم والتشريح فقال متعنتاً: إني لا أتنازل أكثر من هذا وباعتبار أن لي أكثر الأصوات حيث أني أمثّل رأيين وأنت تمثّل رأياً واحداً فرأيي هو النافذ.

وهكذا تم وضع قانون بشأن تعيين سنتين لمدة (أكثر الحمل) فيا لها من مهزلة مثكلة؟

ومن الواضح أن مثل هذا القانون الوضعي الهزيل كم يحرّف الواقع وكم يشوّه أحكام الإسلام، ويشقي حياة أمة إسلامية: زواجاً ورجوعاً إلى الزوجة وإرثاً وإدخالاً في النسب وإخراجاً من النسب ومحرمية وعدم محرمية وغيرها.

حضارة كاذبة

الحضارة ليست من الخيالات التي يثبت ادعاؤها بمجرد التشدّق بها، ولا شعراً يكفي نظمها في أحسن القوافي بل هي حقيقة واقعية، يعكسها الواقع الخارجي لمن يدعيها، وتحقّقها الآثار العملية لمن ينتسب إليها، ونريد أن نشير هنا إلى أنه لا يتمكن الغرب من ادّعاء الحضارة بل الشرق وذلك لما نجده من الوحشية والبربرية وسوء معاملة الغرب للمسلمين في أبان ما يدعونه بالحضارة، بينما عاملهم المسلمون في أبان حكمهم خير معاملة، ولا نحتاج إلى ذكر البند الثاني لأن ذلك مذكور في كتب مفصّلة، وحتى أن الغربيين بأنفسهم كالدكتور: (غوستاف لوبون) وغيره وصفوا المسلمين خير وصف وأثنوا عليهم خير ثناء، وأطروا عليهم – لحسن معاملتهم غير المسلمين في كتبهم – أفضل إطراء، وعلى من أراد الاطّلاع عليها مراجعتها ومطالعتها.

بل نريد أن نلمح هنا إلى بُعدٍ واحد من البند الأول وهو(سوء معاملة الغرب للمسلمين).
ونشير إلى قطرة من بحار ظلمهم، وذرة من بربريتهم وإساءتهم إلى الإنسانية المضطهدة تحت وطأتهم، ولعل هذا البعد هو من أبسطها مظهراً، وأخفها وحشية، وهو بعد الاستفهامات والتساؤلات التي تضعها السفارات الغربية أمام كل مسلم يريد السفر إلى بلادهم، دون فارق بين من كان سفرته للتجارة وللمعالجة أو غير ذلك فإنهم يقدّمون له قائمة طويلة تضم أسئلة كثيرة تصل أحياناً إلى مائة وخمسين سؤالاً هذا وقد ذكر أحد المسافرين جديداً:-

إن الأسئلة تجاوزت الثلثمائة سؤال ونحن نقتطف منها ما يلي:

قائمة الاستفهامات؟؟

١ - اسمك؟

٢ - اسم أبيك؟

٣ - اسم أمك؟

٤ - اسم عمك؟

٥ - اسم عمتك؟

٦ - اسم خالك؟

٧ - اسم خالتك؟

٨ - اسم جدك للأب؟

٩ - وجدك للأم؟

١٠ - جدتك للأب وللأم؟

١١ - ما هو شغل هؤلاء؟

١٢ - كم لك من أولاد ذكور وإناث؟

١٣ - أين ولدوا؟

١٤ - ما هي أسماء أولادك؟

١٥ - عمرك؟

١٦ - مهنتك؟

١٧ - جوازك؟

١٨ - أين كنت؟

١٩ - أين ولدت؟

٢٠ - اسم زوجتك؟

٢١ - عمرها؟

٢٢ – أبوها؟

٢٣ – أمها؟

٢٤ – إخوانها؟

٢٥ – أخواتها؟

٢٦ – عددهم؟

٢٧ – أسماؤهم؟

٢٨ – ثقافتك؟

٢٩ – وفي أي مدرسة درست؟

٣٠ – وفي أي سنة تخرجت؟

٣١ – وفي أي بلد واصلت دراستك؟

٣٢ – ثقافة زوجتك؟

٣٣ – عمل زوجتك؟

٣٤ – هل أنت مريض أو سليم؟

٣٥ – هل زوجتك مريضة أو سليمة؟

٣٦ – هل أولادك أصحاء أو مرضى؟

٣٧ – لماذا تريد السفر؟

٣٨ – كم لك من المال – (ويجب أن تثبت كمية المال الذي تصحبه معك في جوازك وإلا فالأبواب موصدة أمام المعدم الفقير)؟

٣٩ – هل تعرف أحداً في ذلك البلد الذي تقصد الذهاب إليه؟

٤٠ – اسمه؟

٤١ – عمره؟

٤٢ – مهنته؟

٤٣ – في أي حزب أنت؟

٤٤ – هل سجنت أم لا؟

٤٥ – هل شردت أم لا؟

٤٦ – دينك؟

٤٧ – مذهبك؟

٤٨ – هل كنت من أو ل حياتك متديّناً؟

٤٩ – هل اخترت ديناً جديداً؟

٥٠ – ما رأيك في حضارة الغرب؟

٥١ – ما تقول حول الحرب الفلانية التي حدثت في لبنان؟

٥٢ – أو بين إيران والعراق؟

٥٣ – أو في أفغانستان؟

٥٤ – أو في أرتيريا؟

٥٥ – أو في الفيليبين من مسلمي مورو؟

٥٦ – وغير ذلك؟

٥٧ – هل تؤمن بالإرهاب؟

٥٨ – هل تحبّذ الديمقراطية أو الدكتاتورية؟

٥٩ – كم رصيدك في البنك؟

٦٠ – كم سافرت؟

٦١ – وإلى أين؟

٦٢ – وهل سافرت إلى البلد الذي تريد الآن السفر إليه ثم بدلت جوازك حيث لا يوجد فيه الآن تأشيرة السفر؟

٦٣ – كم تريد البقاء في البلد؟

٦٤ – وكم بلداً تريد السفر إليه مثلاً من لندن أو من باريس أو بون أو نيويورك أو ما أشبه؟

٦٥ – وإذا سرق مالك هناك من أين تأتي بالمال؟

٦٦ – ما علاقتك بفلان وفلان ويسألون عن أسامي من هنا وهناك؟

٦٧ – لمن تقلّد؟

٦٨ – آراؤك السياسية؟

٦٩ – آراؤك الاجتماعية؟

٧٠ – آراؤك الاقتصادية؟

٧١ – هل أنت موظف؟

٧٢ – وكم هو راتبك؟

٧٣ – أو أنت تاجر أو كاسب أو رجل دين أو عامل أو فلاح أو ما أشبه؟

٧٤ – وإذا كان المسافر امرأة يسألون عن زوجها؟

٧٥ – وأولادها وعن كل ما يسألونه من الرجل حرفاً حرفاً؟

٧٦ – هل لك أمراض مستعصية؟

٧٧ – كم من أولادك ماتوا؟

٧٨ – هل عندك زوجات متعددة أو واحدة؟

٧٩ – وإذا عندك زوجة واحدة فهل تزوجت غيرها؟

٨٠ – في أي وقت تزوجت؟

٨١ – هل عندك أملاك؟

٨٢ – ما هي نوعها، بستان، حمام، دار، حانوت، معمل، إلى غير ذلك؟

٨٣ – هل غيرت جنسيتك في مدة حياتك؟

٨٤ – هل أصابك شيء من أضرار الحرب؟

٨٥ – هل عوضتك الدولة شيئاً من أضرار الحرب؟

٨٦ – هل أدّيت الخدمة العسكرية؟

٨٧ – هل اشتركت في الحرب؟

٨٨ – ما هو ضمان رجوعك عن السفر؟

٨٩ – هل تقرأ وتكتب؟

٩٠ – هل تعيل غير عائلتك؟

٩١ – وإذا كنت رجل دين، هل أنت إمام جماعة، أو خطيب، أو مدّرس، أو مؤلّف، أو وكيل، أو مرجع تقليد؟

٩٢ – وهل تصلي جماعة؟

٩٣ – هل حججت؟

٩٤ – هل تشرب الخمر وتأكل لحم الخنزير أم أنت متديّن تترك هذه الأمور؟

٩٥ – هل تفضّل الملابس والأطعمة والمسكن من النوع الشرقي أو الغربي؟

٩٦ – ما هو رأيك في حكومتك؟

٩٧ – هل تفضل الحكومة الفعلية أو الحكومة السابقة؟

٩٨ – هل تدرّبت على السلاح؟

٩٩ – ما هي هوايتك؟

١٠٠ – هل تستمع للراديو وتتابع برامج التلفزيون؟

١٠١ – هل تقرأ الجرائد والمجلات؟

١٠٢ – كم طموحك في مهنتك؟

١٠٣ – أيّ دار الإذاعات تستمع إليها؟

١٠٤ – وأيها هي المفضّلة عندك؟.

١٠٥ – هل غيّرت شغلك؟

١٠٦ – هل حدث بينك وبين زوجتك شقاق؟

١٠٧ – وإذا حدث بينكما شقاق فهل راجعت المحكمة؟

١٠٨ – وأي المحاكم راجعت؟

١٠٩ – وفي أي بلد؟

١١٠ – هل تسافر صيف كل عام أو هذه أو ل سفراتك؟

١١١ – هل تعيش مع زوجتك ومع أولادك ومع أهلك من الأب والأم والأخوة وغيرهم بوئام؟

١١٢ – هل بينك وبين أحد أطرافك وأقربائك نزاع ونفار؟

١١٣ – وإذا كانت المرأة متزوجة، أو كان الرجل متزوجاً سئل منه: هل تزوجت لأجل المال، أو الجاه، أو الجمال، أو غير ذلك؟

١١٤ – وهل أنت أو زوجك ناقص العضو أو فاقد لإحدى القوى؟

١١٥ – وهل دخلت المستشفى في يوم من الأيام لمرض مستعصي؟

١١٦ – وهل راجعت المحكمة في يوم من الأيام لأجل نزاع حدث بينك وبين أحد ذويك إلى غير ذلك من التساؤلات والاستفهامات التي لا معنى لها سوى الازدراء بالإنسان وتحقيره.

ثم أنهم لا يكتفون بكتابة الأجوبة بل لهم لقاء ولقاء مع الذي يريد السفر ليشافهوه بوابل من الأسئلة الارتجالية، فإذا كانت الأجوبة كما يشتهون، وانتهى كل شيء من الجواز والتأشيرة، وعزم على السفر، واستقل مقعده من الطائرة، وهبطت به في مطار ذلك البلد. فلربما منعته سلطات المطار من الدخول وردته على أعقابه القهقرى.

من هو المسؤول عن تأخر المسلمين؟

الحكومات وكذلك الحكام الذين يحكمون البلاد الإسلامية سواء من انتحل منهم اسم الدين والإسلام أو العلمانية أو الملكية أو الجمهورية أو غير ذلك كلهم في طريق الغرب أو الشرق وليس منهم من هو في طريق الإسلام حسب إحصائنا وتتبعنا.

وهم المسؤولون عن تأخّر المسلمين وعن فقرهم وذلهم ومرضهم وجهلهم وتفرقهم وتبعثرهم وإليك قائمة في ذلك:

١ – فمن يا ترى أو جد هذه الأحياء الفقيرة؟

٢ – ومن وقف أمام كسب الناس وتحصيلهم لقمة العيش؟

٣ – ومن أو قف الناس على أبواب الدوائر ساعات طوال؟

٤ – ومن منع استفادة الناس من الغابات؟

٥ – ومن حظر صيد الأسماك من البحار والأنهار وحرم الصياد قوته وقوت عائلته؟

٦ – ومن نشر هذه المستنقعات والأهوار في طول البلاد وعرضها؟

٧ – ومن أوجد الصرائف وبيوت الصفيح والأكواخ أطراف المدن؟

٨ – ومن حوّل الأراضي يباباً لا زرع فيها ولا عمران؟

٩– ومن أفقر البلاد حتى التجأ لاستيراد ضروريات الحياة من الحنطة والرز، واللحوم والدسوم، والجبن والزبد، وغير ذلك؟

١٠ – ومن أفقد المدن جمالها، والشوارع نظافتها مما بقيت تتفايض بالأوساخ والعفونات ولا تجد لوناً للنظافة؟

١١ – ومن أقام الحروب لأسباب تافهة فأزهق النفوس والأرواح وأذاقها الموت والدمار؟

١٢ – ومن سبب كثرة المرضى والمشوهين عقلياً وجسمياً؟

١٣ – ومن أو جد طوابير العاطلين الذين لا يجدون الكسب لأجل قوتهم اليومي؟

١٤ – ومن أفقد الشباب القدرة المالية على الزواج من بنين وبنات، وأوجد العراقيل الباطلة للحيلولة من ذلك؟

١٥ – ومن أو جد المخامر والمقامر ودور البغاء ومحلاّت الفساد؟

١٦ – ومن نشر الفقر والفقراء والمساكين والبؤساء، في كل نقطة ومكان؟

١٧ – ومن سنّ القوانين التي بها تصول طبقة على طبقة يمنعونهم عن أقل لوازم العيش، بينما هم يترفهون بلذيذ الطعام والشراب ويترفلون في ثياب الحرير والديباج؟

١٨ – ومن ألجأ الناس إلى اقتراف الجريمة وممارستها؟

١٩ – ومن ملأ السجون بالشباب في زهرة حياتهم؟

٢٠ – ومن احتكر وسائل الإعلام لنفسه وحاشيته، تسبّح بحمدهم ليل نهار، بينما ليس لغيرهم فيها حظ بقدر نقير حتى ولو كان ذلك الغير من أكبر العلماء والمثقفين وكان الحاكم وحاشيته من أتفه الناس؟

٢١– ومن صد الناس عن الثقافة والتعليم حتى انتشرت الأمية في كل مكان وغطت البلاد، ووصلت نسبتها أحياناً إلى تسعين في المائة أو نحو ذلك؟

٢٢ – ومن وقف أمام دور العجزة أن تبنى وتؤسس، وترك العجزة يتسكعون على أبواب البيوت والمحلات العامة وفي الأسواق والشوارع، وفي كل مكان؟

٢٣ – ومن اخترع وزارات جديدة، وأضاف إلى كثرة الموظفين وعمال الحكومة موظفين وعمالاً جدداً، سببت الإنفجار والتضخم الهائل؟

٢٤ – ومن تملّك أرض الله الواسعة فضيقها على الناس ومنعهم؟

٢٥ – ومن منع حتى من الترميم والملاحظات البسيطة إلاّ بالإجازة ورشوة ورسوم وما أشبه ذلك؟

٢٦ – ومن منع السفر إلا بإجازة؟

٢٧ – ومن منع الدفن إلا بإجازة؟

٢٨ – ومن منع الرعي والحيازة؟

٢٩ – ومن ظلم القرى وحرمها ضروريات الحياة؟

٣٠ – فلا كهرباء لها؟

٣١ – ولا ماء لها؟

٣٢ – ولا مستوصف لها؟

٣٣ – ولا مستشفى لها؟

٣٤ – ولا مدرسة لها؟

٣٥ – ولا طرق معبدة لها؟

٣٦ – ولا خطوط هاتفية لها؟

٣٧ – ولا سائر وسائل الحياة الحديثة؟

٣٨ – ومن نشر الجواسيس في كل مكان وزرع فيها الخوف والإرهاب؟

٣٩ – ومن كمم الأفواه وكبت الأنفاس، وصادر الحريات؟

٤٠ – ومن وضع الحدود الجغرافية؟

٤١ – و من أو جد هذا الاختلاف الطبقي الحاد بين الناس، وقد قال سبحانه: (وإن ليس للإنسان إلا ما سعى)(٢) وقال: (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم...)(٣).

٤٢ – و من حطم الأخوة الإسلامية وبث فيهم روح النفاق والفرقة، فهذا هندي، وهذا تركي، وهذا فارسي، وهذا عربي، وكل واحد يحارب الآخر ويعاديه؟

٤٣ – ومن أو جد هذه الجمارك والمكوس في كل بلد من بلاد المسلمين وقد حرمه الإسلام ولعن رسول الله (صلى الله عليه وآله) العشّار(٤) ووصفه بالبعد عن الله تعالى(٥) كما في الأحاديث الشريفة وإن دعاءه لا يستجاب حتى في وقت يستجاب فيه دعاء غيره(٦).

٤٤ – ومن حرم أكثر الناس أوليات الحياة الحضارية من وسيلة نقل مريحة، وهاتف، وغسالة، وثلاجة، ومبردة، ومكيفة، وموقدة، ومدفأة، وغيرها؟

٤٥ – ومن جعل الامتيازات لجماعة خاصة فليس لغيرهم إلا الحرمان وليس لهم إلا الترف؟

٤٦ – ومن حرم البلاد التثقيف العالي وسد أبواب الكليات والجامعات في وجوه كثير من الطلاب؟

٤٧ – ومن جعل بطوناً تتخم وبطوناً تحرم؟

٤٨ – ومن جعل الرقابة على المطبوعات؟

٤٩ – ومن جعل الأكمام على الأفواه؟

٥٠ – ومن نصب آلة التنصّت والتجسس على الهاتف؟

٥١ – ومن جعل الرقابة على الكتب والوسائل، وفتشوا كل رسالة قبل أن تصل إلى صاحبها؟

٥٢ – زمن حارب المصارف الأهلية ومنع فروعها أن تصل في كل قرية وريف؟

٥٣ – ومن زرع العداوة بين الناس حسب قانون (فرّق تسد) وأجّج نار الخلاف بينهم؟

فأهل هذا البلد أعداءٌ للبلد الآخر وأهل هذه المحلة يخالفون أهل المحلة الأخرى، وجماعة هذا الشارع يعادون جماعة الشارع الثاني، وأهل دار واحدة يتنازعون فيما بينهم وأفراد هذا التنظيم يحاربون التنظيم الآخر وأصبح كل يحارب الآخر ويضمر له العداء والبغض، وإن كان من قبيلته وأفراد أسرته، وقريبه وحميمه؟

٥٤ – ومن أمّم التجارة، وقيد التجار بألف قيد وشرط؟

٥٥ – ومن منع الزراعة وعرقلها باسم الإصلاح الزراعي؟

٥٦ – ومن حارب تصنيع البلاد وطارد المبتكرين والمكتشفين؟

٥٧ – ومن ألجأ العقول المفكرة للفرار من البلاد؟

٥٨ – ومن فرض على أصحاب الصناعات القيود والشروط حتى هزلت الصناعات؟

٥٩ – ومن منع الحج والعمرة والزيارة إلا بمشكلات ومشكلات؟

٦٠ – ومن منع تطوير البلاد إلى بلاد متحضرة متقدمة؟

٦١ – ومن منع الانتخابات الحرة؟

٦٢ – ومن أرصد الأموال في المصارف الأجنبية؟

٦٣ – ومن فتح أبواب السفر أمام جماعة خاصة إلى أي بلد شاؤوا للترفيه والاصطياف، بينما حرم الآخرين حتى من سفر الضرورة والعلاج؟

٦٤ – ومن أهمل شؤون الناس، وتركهم عرضة للكوارث الطبيعية من سيول وزلازل فيذهب ضحيتها كثيرون، بينما يتحصن هو في القصور العامرة، والبروج المشيدة؟

٦٥ – ومن عزز وسائل النقل وقللها حتى لا يتمكن منها الأكثرية الساحقة؟

٦٦ – ومن منع حقول الدواجن وتربية اللحوم؟

٦٧ – ومن نشر الإرهاب والإغراء ووتّر أعصاب الناس مما سبب كثرة دور المجانين ومستشفيات الأعصاب؟

٦٨ – ومن قتل الأحرار تحت ألف ستار وستار لا لشيء إلا لأنهم لم يسكتوا على الباطل، وانتقدوا الدولة على مظالمها؟

٦٩ – ومن عذب الأبرياء في السجون بأبشع أنواع التعذيب؟

٧٠ – ومن أو جد المبادئ الهدامة كالوهابية والبهائية، وشجع المذاهب الفاسدة كالوجودية والقومية؟

٧١ – ومن روّج الأحزاب الكافرة، كالشيوعية والبعثية؟

٧٢ – ومن تلاعب بالثروات العامة كالنفط وغيره؟

٧٣ – ومن أفسد الجيل من البنين والبنات؟

٧٤ – ومن هدم قباب الأئمة والصالحين عليهم الصلاة والسلام؟

٧٥ – ومن أشاع الرشوة في الدوائر؟

٧٦ – ومن ألجأ الناس للوقوف يوماً أو أياماً للحصول على ضرورة من ضروراتهم الأولية البسيطة؟

٧٧ – ومن رمّل الأزواج وأثكل الأمهات؟

٧٨ – ومن أيتم الأطفال أثر حروب تافهة لم تكن إلا بالوكالة؟

٧٩ – ومن الجأ الناس إلى الخيانة والرذيلة؟

٨٠ – ومن اضطر الموظفين إلى أخذ الرشوة وعرقلة الأمور؟

٨١ – ومن جاء بقوانين الكفر إلى بلاد الإسلام؟

٨٢ – ومن هدم قوانين الإسلام قانوناً قانوناً؟

٨٣ – ومن سلب الناس حرية الرأي والقلم والبيان والمظاهرات والإضرابات؟

٨٤ – ومن أغرى الشباب وفتح عليهم أبواب الفساد؟

٨٥ – ومن حرم الشباب التوجيه الصحيح، والثقافة الإسلامية حتى دخلوا في الأحزاب الشرقية والغربية وصاروا هدامين عوض أن يكونوا بُناة؟

٨٦ – ومن أو جد التأمينات الجائرة؟

٨٧ – ومن جعل السرقفليات التي تسبب ارتفاع البضائع والأجناس؟

٨٨ – ومن أو جد الأفلام الخليعة والبوليسية والحربية وما أشبه مما سببت الميوعة وتوتر الأعصاب؟

٨٩ – ومن رفع ثقة الناس بعضهم عن بعض؟

٩٠ – ومن أنمى في الناس روح الشر والانتقام؟

٩١ – ومن الجأ كثيراً من الفتيات إلى البغاء لأجل لقمة العيش؟

٩٢ – ومن أذاق الناس مرارة الفقر والحرمان، حتى اتخذوا من المقابر والشوارع والأزقة سكناً لهم ولأسرهم، كما في مثل مصر والهند وأندونيسيا؟

٩٣ – ومن سبب وجود طوابير الأسراء والمشردين مما كان من الضروري أن يخدموا بلادهم ويعمروا أرضهم؟

٩٤ – ومن كثّر دور الحضانة، لاحتضان من ألقاه ذووه في الشارع أما لأجل الفساد أو لأجل الفقر أو لغير ذلك؟

٩٥ – ومن سبّب التخطيط المعوجّ للطرق، فأوجد المسافات الطويلة الملتوية، عوض المسافات القصيرة المستقيمة؟

٩٦ – ومن هندس الشوارع والأبنية في هندسة خاطئة، أعدمت المدينة جمالها ونظارتها؟

٩٧ – ومن سبّب ازدحام الطرق والمعابر، فأضاع وقت الناس وعمرهم، وأخّرهم عن الوصول إلى مشاغلهم؟

٩٨ – ومن كدّس الثروات في موضع واحد، وأعدم منها مواضع كثيرة كأندونيسيا وبنغلادش وهل هذا إلا كمن يقول بأن نفط الكويت للأحمدي فقط لا للكويت كلها، ونفط إيران لعبادان وحدها لا لكل إيران، وقد خلق الله سبحانه وتعالى الثروات في أماكن مختلفة من الأرض، وجعل الجميع فيها سواء، فإن المال مال الله، والخلق عيال الله.

٩٩ – ومن أو جد الإجبارية العسكرية بهذا الشكل المزري مما أتلف على الشباب زهرة شبابهم؟

١٠٠ – ومن عيّن للجندي المسكين راتباً ضئيلاً لا يسد حاجياته الضرورية، ولا يؤمّنه وعائلته الحياة الكريمة؟

١٠١ – ومن بدل نظام الجيش والجهاد الإسلامي إلى نظام الحرب والجيش الشرقي أو الغربي؟

١٠٢ – ومن أو دع دور الإذاعة والتلفزيون ومحطات البث والإرسال وبقية وسائل الإعلام بأيدي السفلة، فأصبحت مركزاً للسباب والفسوق والتهريج والشعارات الفارغة؟

١٠٣ – ومن حكّم في انتخاب الموظفين والرؤساء والوزراء الروابط، والعلاقات دون المؤهلات والكفاءات؟

١٠٤ – ومن حطّ بلاد الإسلام وأهوى بها إلى ما يسمى (بالعالم الثالث) على أحسن تقدير، و إلا فبلاد الإسلام من العالم الثلاثين بالنسبة إلى العالم الصناعي المتقدم؟

١٠٥ – ومن حرم بلادنا العلوم العالية وجعل جامعاتنا متخلفة فلا تنفع إلا للشهادات الوضعية التي توظف الناس في الوظائف البسيطة لأجل لقمة العيش، وسبب أن يقبل الناس على الجامعات الغربية إقبالاً شديداً ويتركوا وراءهم جامعات بلاد الإسلام، علماً بأن الجامعات الغربية والشرقية لا تعلمنا التقدم وإنما تعلمنا التوظيف فقط؟

١٠٦ – ومن أخّر بلاد الإسلام صناعياً فبقيت لا تعرف معنى الاكتشاف والاختراع، بينما كانت هي الطليعة في ذلك أيام عزّة المسلمين وحكومتهم العالمية؟

١٠٧ – ومن أغرى شبابنا وشيوخنا ورجالنا ونساءنا وشوقهم للذهاب إلى الغرب وإذا رجعوا عنها نقلوا نظافتها ونظارتها، ونظامها وخيراتها مما يسبب أن تنبهر الألباب؟

١٠٨ – ومن أفقد بلادنا الأطباء البارعين، فلا نجد حتى طبيباً واحداً ذا اختصاص رفيع يمكنه معالجة الأمراض الصعبة ويغني عن الذهاب إلى الغرب أو الشرق للعلاج؟

١٠٩ – ومن أعدم بلادنا الهندسة الرفيعة حتى إذا احتجنا إلى مدّ شارع أو مدّ جسر أو ما أشبه استجدينا المهندس من الشرق أو الغرب؟

١١٠ – ومن أفقر قرانا وأريافنا إلى درجة لا يحصل في بعضها حتى خبز الشعير مما يضطرهم إلى طحن نوى التمر وأكله بدل الخبز مما سبب انتشار الأمراض فيهم؟

١١١ – ومن ألقى العداوة والبغضاء بين الشباب والشيوخ والآباء والأبناء حتى زعم أصحاب الطبقة السابقة الطبقة اللاحقة أشراراً تائهين وفسقة منحرفين، ويرى الطبقة اللاحقة الطبقة السابقة سخفاء رجعيين، و أصحاب خرافة متأخرين؟

وإلى غير ذلك من مشاكل بلاد الإسلام وويلات المسلمين التي تزداد بمرور الأيام وتتضاعف بمضي الزمان، ولا مفر منها ولا منجى.

المشكلات وليدة الإنسان

إن الله سبحانه قدّر الخير للإنسان بكل أنواع الخير، وقد قال سبحانه: (ما ترى في خلق الرحمان من تفاوت)(٧)، وقال بالنسبة إلى ليلة القدر التي: (فيها يفرق كل أمر حكيم)(٨) لطول سنة الإنسان:

(سلام هي حتى مطلع الفجر)(٩) فالسلام والأمن، والسلامة والخير هي التي يقدرها الله سبحانه للإنسان، ويكتبها له طيلة سنته ويبشره بها في مطلع عامه، ولا عجب فإنه سبحانه هو الرحمان الرحيم بعباده، العطوف الرؤوف المنان الحنان، المستعان السلام، المؤمن الغفار إلى غيرها من صفات الرأفة والرحمة.

نعم لا شك في أن الله سبحانه وتعالى قدر شيئاً قليلاً مما ينافر الإنسان من التعب والمرض والموت لكنها بالنسبة إلى بقية مشاكل الإنسان كواحد من ألف، والباقي أي تسعمائة وتسع وتسعون من المشكلات هي وليدة نفس

الإنسان، حتى أن تضرره بالسيول والزلازل واضطراب البحر وهياجه، والعواصف والقواصف والحر والبرد وغيرها من الكوارث الطبيعية من الإنسان نفسه فإنه لو احترز عن الأخطار الطبيعية، بأعداد المقدمات والتهيؤ لصدها، فبنى السدود مثلاً أمام سيول الأمطار، وعواصف البحار، وفيضان الأنهار، وجهّز الدور والأبنية والمؤسسات بما تقاوم الزلازل والهزات الأرضية، وهيّأ الوقايات الحصينة، لتحفظ الناس من الحر والبرد وسائر الأخطار، لقلت الأضرار من الألف إلى واحد أو إلى أقل من الواحد والدليل على ذلك، البلاد الصناعية في الحال الحاضر التي تعيش بمأمن من كل ذلك إذن الضحايا وخسائر الكوارث الطبيعية هي من الإنسان نفسه، كما أن تفشّي الفقر والأمراض، والجهل والحروب وما أشبه من الإنسان نفسه، وكذا تسلّط الدكتاتوريين على بلاد الإسلام ورقاب المسلمين أيضاً من نفس الإنسان، حيث احتكر القدرة لنفسه ولم يوزعها حتى تتوازن القدرات ولا تطغى إحداها على حساب الآخرين، وقال تعالى: (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى)(١٠).

وفي الحديث أن للقدرة سكراً كسكر الشراب، والذي يحد منه هو توزيعها وعدم الإستئثار بها لفرد واحد أو جماعة خاصة، ومن الطبيعي أن الإنسان لو قام بإعداد المقدمات وتهيئة الأسباب في كل مجال بما يخصه ويرتبط به، لم يحدث شيء من تلك المشاكل والخسائر والضحايا التي تهدد الإنسان في كل لحظة وكل زمان، بل يبقى مأموناً ومصوناً منها.

الحرب ومشكلاتها

فالحرب مثلاً إذا نشبت في جماعة سببت مآسي لا تعد ولا تحصى والتي من أبرزها:

١ – قتل الأبرياء.

٢ – هدم الأبنية والعمارات.

٣ – فساد الأرض وفقد صلاحيتها للزراعة.

٤ – التشوهات الجسدية من نقص الأعضاء والأطراف.

٥ – التشويهات العقلية من الجنون وتوتر الأعصاب التي تبقى إلى جيل وأكثر.

٦ – شيوع الأمراض المختلفة.

٧ – سوء الخلق.

٨ – ظهور العداوة والبغضاء بين الناس.

٩ – حرق المحاصيل الزراعية.

١٠ – صرف قوى البناء في الهدم سواء قوى البناء البشرية أو غير البشرية.

١١ – تيتّم الأطفال.

١٢ – ترمّل النساء.

١٣ – تصدّع الأسرة وتفتتها.

١٤ – شيوع الفقر والحرمان.

١٥ – غلاء الأسعار والأجور.

١٦ – ظهور الفساد والفسخ الخلقي.

١٧ – إشاعة الفحشاء والمنكرات.

١٨ – قلّة البضائع والخدمات.

١٩ – تأخر البلاد والعباد.

٢٠ – تحطيم الصناعة والاقتصاد.

٢١ – تقهقر العلم والثقافة.

٢٢ – تفسّخ المجتمع وتشتته.

٢٣ – انتشار الخيانة والرذيلة.

٢٤ – انهدام النظام.

إلى غير ذلك.

١ . ذكرناهم في (الفقه) كتاب الوكالة .

٢ . سورة النجم: الآية ٣٩.

٣ . سورة الحشر: الآية ٧.

٤ . عقاب الأعمال خطبة النبي (صلى الله عليه وآله) يجمع فيها عقوبات الأعمال.

٥ . بحار الأنوار: ج٦٩، ص١٩٢، الباب ١٥٥.

٦ . الخصال: ج١، ص٣٢٧، باب الستة ح٤٥.

٧ . سورة الملك: الآية ٣.

٨ . سورة الدخان: الآية ٤.

٩ . سورة القدر: الآية ٥.

١٠ . سورة العلق: الآيتان ٦–٧.

امتلاك القدرات الكفيلة بالتغيير

التربية الروحية وممارسة التغيير

ومما يلزم على الممارسين للتغيير هو التضرّع إلى الله سبحانه، ودوام الذكر بقلوبهم وألسنتهم في كل حال، في المدرسة والشارع والمسجد والسوق والبيت والمعمل وفي كل مكان، كذلك التوجّه إليه سبحانه بكثرة قراءة القرآن والإستهداء به والدعاء، فقد قال سبحانه: (قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم)(١).

وقال تعالى: (ادعوني أستجب لكم)(٢).

ربنا يجيب الدعوات

ومن المعلوم أن بعض أدعية الإنسان تستجاب، أما ما لا يستجاب فهو لأحد أمرين:

الأول: إنه يدعو في غير دائرة الدعاء.

الثاني: إن الشرائط غير متوفرة.

أما الأمر الأول فإن دائرة الدعاء ما كان خارجاً عن إرادة الإنسان على الأغلب، أما ما هو تحت إرادة الإنسان فالدعاء لا شأن له فيه وإنما يلزم العمل.

مثلاً: من يدعو لتحصيل الولد بدون أن يتزوج، أو أن يحصل على الثمرة بدون أن يزرع أو يحصل على الماء بدون إجراء النهر إلى المزرعة، أو من يدعو لأن تكون له دار بدون أن يبني، أو يدعو لأن يشفى من مرضه بدون العلاج، أو ما أشبه فإنه لم يكن له إلا الحرمان، وكذلك من يريد تبديل الحكم غير الإسلامي إلى الحكم الإسلامي بدون أن يعمل العمل المناسب ذلك فإنه ليس له إلا الحرمان، ولذا قال النبي (صلى الله عليه وآله) لذلك الإنسان الذي ترك بعيره بالصحراء بدون أن يعقله: لماذا تركت البعير؟

قال: توكّلت على الله.

قال الرسول (صلى الله عليه وآله): (اعقل وتوكل)(٣).

مشيراً إلى أن دائرة العقال غير دائرة التوكل كما أن دائرة التوكل غير دائرة العقال فدائرة العقال ما في اختيار الإنسان ودائرة التوكل ما ليس في اختيار الإنسان، كأن يصيب الثمر ثلج من السماء أو برد شديد أو ما أشبه ذلك فيفسده فإنه حيث لم يكن في دائرة قدرة الإنسان كان مكانه التوكل والدعاء والتضرع قال سبحانه: (ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين)(٤)، فمن يريد الخروج عليه أن يعدّ العدّة لا أن يجلس عن العمل ويدعو فقط، إلى غيرهما من الآيات والروايات، ولذا نشاهد أن النبي (صلى الله عليه وآله) كان في حروبه يعمل كل ما في وسع الإنسان من العمل لأجل اكتساب الحرب من تهيئة الجيش والسلاح، وإخفاء الأمر، وغير ذلك، ثم يرفع يده بالدعاء يدعو فيما ليس بيده (صلى الله عليه وآله) من قوة قلوب المؤمنين وضعف قلوب الكافرين إلى غير ذلك.

وأما الأمر الثاني: فقد يهيّئ الإنسان كل الوسائل الممكنة لكن لا يتحقق النصر، لأنه سلك للنصر طريقاً على خلاف سنة الله في الكون حيث أن سنته جرت على كيفية خاصة لا يخرقها إلا المعجزة وقد قال سبحانه: (فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً)(٥).

ثم أن بعض الناس يقولون: ما لنا لا يستجاب لنا دعاء وقد قال سبحانه: (ادعوني أستجب لكم)(٦).

أو أنه لماذا لا يستجاب الدعاء عند رأس الحسين (عليه السلام) وقد ورد في الحديث: (استجابة الدعاء تحت قبته؟)(٧).

والجواب أن أكثر أدعية الإنسان تستجاب فإنا في كل حاجة ومشكلة نتوجّه إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء، كأن يرفع فقرنا، أو أن نحصل على زوجة، أو المرأة تدعوا أن تحصل على زوج، أو أن يرزقنا الولد الصحيح الأعضاء، أو أن يشفينا من مرضنا أو أن نحصل على دار لائقة بنا، أو أن نسافر إلى الحج أو العمرة، أو سائر الأسفار، أو أن يرجع مسافرنا بسلام، أو أن يزيح الله (سبحانه وتعالى) العدو الذي هو في جوارنا، أو يخلصنا من مشكلة وقعنا فيها من غرق أو حرق أو هدم أو نحو ذلك، وفي غالب ذلك يستجاب دعاؤنا فعدم استجابة بعض الأدعية ليس معناه عدم استجابة الدعاء، كما أن عدم تمكن الطبيب من شفاء بعض الأمراض أو بعض المرضى، ليس معناه عدم كونه طبيباً.

وكذلك الدواء الفلاني ينفع المرض الفلاني فإذا نفع مائة مرة ولم ينفع عشرين مرة، ليس معناه أنه ليس بالدواء لذلك المرض، فإن غالب ما في الكون من باب المقتضيات لا من باب العلل التامة، كما أن الدعاء كذلك من باب المقتضى لا من باب العلة التامة، فإذا لم يستجب لنا بعض أدعيتنا لم يكن معنى ذلك أن أدعيتنا كلها لا تستجاب بل معنى ذلك أن في هذه الموارد الخاصة – لعدم وجود العلة التامة، أو لوجود المانع عن تأثير العلة – لم يستجب الدعاء.

التسلح بالدعاء والقرآن

وعلى كل حال فعلى الممارسين للتغيير أن يتوجهوا إلى الله سبحانه وتعالى بتلاوة كتابه وبالتوسل بأنبيائه وأوليائه كما قال سبحانه: (ابتغوا إليه الوسيلة)(٨)، وأن يكثروا من الدعاء والضراعة كما قال سبحانه في قصة يونس(عليه السلام): (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين)(٩).

كما أن على ممارسي التغيير: أن يوسعوا صدورهم لكل من الرخاء والبلاء، فلا تبطرهم النعمة، ولا تؤيسهم النقمة، فإن في طريق التغيير يكون كل ذلك.

التصرف وفق الموازين الطبيعية

إن صاحب المال لا يسلّم مفاتيح ماله لمن ليس بأهل للحفظ، ولذا نشاهد أن الله سبحانه إنما يطُلع على الغيب ويُعطي مفاتيح القدرة الكونية لمن لا يتصرف في الكون تصرفاً خلاف إرادته الجارية في السنن الكونية، ولذا ينقل عن نصير الدين الطوسي (رحمه الله) أنه قال: (لو قدّر أن الله سبحانه وتعالى أعطاني القدرة الكاملة على إدارة

الكون ما غيرت من الكون حتى شيئاً صغيراً، لأن الله سبحانه وتعالى إنما أجرى الأمور الكونية على حسب حكمة دقيقة ومصلحة تامة فكل تغيير في الكون من التغييرات التكوينية يكون خلاف المصلحة) إن الأنبياء والمعصومين (صلوات الله عليهم أجمعين) يملكون العلم بالمغيبات قال سبحانه: (فلا يُظهر على غيبه أحداً، إلا من ارتضى من رسول)(١٠) كما يملكون قدرة التغيير الإعجازي، فأحياء الموتى، وإماتة الأحياء، وإعطاء الأموال للفقراء حتى الغني وسلب مال الأغنياء حتى يفتقروا ولا يطغوا كل ذلك بأيديهم لكن لا يفعلون شيئاً من ذلك إلا في موارد خاصة إعجازية، و إلا فالله هو أعلم وأقدر على أن يفعل كل ذلك، فإذا لم يفعل شيئاً من ذلك إلا بالسنن الكونية والموازين الطبيعية التي أو دعها الله سبحانه في الكون كان معنى ذلك عدم المصلحة ولذا لا يفعله الأنبياء والأئمة الذين علمهم من عند الله وقدرتهم بإذن الله.

ثم إذا فعلوا ذلك خرجوا عن كونهم أسوة وفي هذا الصدد قال سبحانه: (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون)(١١) فمن الضروري أن يبقوا أسوة، وبقائهم أسوة يلازم عدم عملهم حسب قدرتهم الكونية وعلمهم الغيبي فلو أمات الرسول (صلى الله عليه وآله) أهل مكة عن طريق المعجزة أو بدل قلوبهم قال الناس: ليس علينا التبليغ لأن الرسول (صلى الله عليه وآله) إنما كان عليه التبليغ والجهاد لأنه كان يملك القدرة على الإعجاز، والعلم بالغيب ونحن لا نملكها فبقاء الرسول والإمام أسوة يتطلب عدم تصرفهم بالإعجاز وعدم إظهار علمهم الغيبي إلا في موارد خاصة ولذا نرى أن الرسول (صلى الله عليه وآله) والأئمة (عليه السلام) كانوا يعيشون عيشة بسيطة مع أنهم كانوا يعلمون أين كنوز الأرض وورد في عيسى (عليه السلام) إنه كان يقتات بقل الأرض مع وضوح أنه كان يتمكن أن ينزّل المائدة، وأن يطّلع على كنوز الأرض فيعيش في بحبوحة من الثروة والنعمة، كما أنه كان يقدر أن يقتل اليهود الذين أرادوا قتله، فرفعه الله إليه.

وكذلك كان حال موسى (عليه السلام) الذي كان يقتات عشب الصحراء في مدة من عمره، كما أن لوطاً (عليه السلام) كان قادراً أن يجعل من الذين أتوا إليه يُهرعون، لأجل الفاحشة بضيوفه في قصة مشهورة، أن يجعلهم عمياناً ففي التفاسير والروايات أن هؤلاء الأطهار كانوا قادرين على أن يجعلوا من الحصى جوهراً ثميناً، لكنهم لم يفعلوا ذلك. فإن علمهم الغيبي وقدرتهم الخارقة لا يؤثران في تغيير سلوكهم ولذا يذهب الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى المسجد مع أنه يعلم أنه يضرب في هذه الليلة، بل قبل ذلك، الرسول (صلى الله عليه وآله) يتناول السم الذي أثّر فيه – حتى أماته بعد حين – مع أنه كان يعلم أنه سم وكذلك سائر الأئمة كانوا يعلمون بوجود السم في الماء بالنسبة إلى الإمام الحسن(عليه السلام)، والرطب بالنسبة إلى الإمام موسى بن جعفر(عليه السلام)، والرمان بالنسبة إلى الإمام الرضا(عليه السلام)، وهكذا لكن مع ذلك لم يدخلوا علمهم في الأمر فإن العلم الخارق والقدرة الخارقة يلزم عدم العمل بهما حتى في مثل ميثم التمار الذي كان يعلم بأن ابن زياد يقتله، يأتي من مكة إلى الكوفة من زمن ابن زياد، مع تمكنه من البقاء في مكة التي ليست تحت سلطة ابن زياد، مع أنه كان يعلم أن ابن زياد يقطع يده و رجله ولسانه ويصلبه.

بل فوق ذلك، علم الأنبياء والأئمة بالحقائق لا يحول دون فرحهم وحزنهم الذي هو شأن كل إنسان، وإلا فما الذي يوجب بكاء الرسول (صلى الله عليه وآله) لولده إبراهيم، وبكاء الحسين (عليه السلام) لولده علي الأكبر، مع أنهما كانا يعلمان علماً خارقاً بل يبصران أيضاً بالبصر النفاذ أن الولدين دخلا في روح وريحان وجنة ورضوان وهل أحدنا يبكي إذا علم أن ولده دخل في بستان مع خدم وغلمان وراحة ورضوان.

وعلى أي حال فعلى الممارسين للتغيير أن يوسعوا صدورهم فإن (آلة الرئاسة سعة الصدر)(١٢) حتى يتمكنوا من بلوغ الهدف بإذن الله سبحانه وتعالى.

الأمانة والاختصاص

وقد بيّن الزاهد المصري فلسفة اختصاص القدرة الغيبية بمن لا يستعملها في مثال جميل.

فمثلاً: سمع رجل في بغداد بأن أحد زهاد مصر يملك اسم الله الأعظم وهو الاسم الذي ورد في دعاء سمات: (وإذا دعيت به على مغالق أبواب السماء للفتح بالرحمة انفتحت، وإذا دعيت به على مضايق أبواب الأرض للفرج انفرجت وإذا دعيت به على العسر لليسر تيسرت وإذا دعيت به على الأموات للنشور انتشرت وإذا دعيت به على كشف الباساء والضراء انكشفت)(١٣).

فإنه إذا تلفظ الإنسان باسم الله الأعظم وطلب من الله شيئاً أعطاه الله ما أراده فوراً، وفي القرآن الحكيم إشارة إليه حيث قال سبحانه: (قال الذي عنده علم من الكتاب)(١٤).

وعلى أي حال قصد هذا الإنسان مصر وخدم ذلك الزاهد سنة ثم طلب منه أن يعلّمه الاسم الأعظم فأبى الزاهد، فخدمة سنة ثانية وهو يظهر الخشوع والعبادة والتبتل والإعراض عن الدنيا والزهد والتقشف، وبعد تمام السنتين طلب منه أن يعلّمه، فأبى الزاهد تعليمه، فخدمهُ سنة ثالثة وهو على عبادته وزهده وتبتله وانقطاعه وقنوته لله سبحانه وتعالى حتى صار كالشن البالي، فقال له الزاهد: لا بأس ثم أن الزاهد في يوم من الأيام أعطاه إناءاً وقال له: اذهب بهذا الإناء إلى المكان الفلاني وسلّمه إلى فلان. فأخذ الرجل الإناء وذهب به نحو المقصد وفي أثناء الطريق رأى أن شيئاً في الإناء يتحرك فتعجّب مما في الإناء وتصور أنه حيوان فلم تتركه نفسه أن لا يطلع على ما في الإناء وإنما شوقته إلى الاستطلاع و أخيراً رفع غطاء الإناء وإذا بفأرة تقفز منه إلى الخارج، فغضب الرجل غضباً شديداً ورجع إلى الزاهد قائلاً: هل جزائي بعد خدمتك ثلاث سنوات الاستهزاء والتمسخر بي؟

قال له الزاهد: وكيف ذلك؟

فنقل له الرجل: أنه رفع غطاء الإناء فقفزت منه فأرة، وهل هذا إلا التمسخر به؟

قال الزاهد: يا هذا إنك لا تؤتمن على فأرة فهل تؤتمن على اسم الله الأعظم فإني أردت أن أمتحنك بهذا وأثبّت لك أنك لست أهلاً لذلك فمن قال لك أن تخون الأمانة وترفع منه الغطاء؟

ثم طرده. وذهب الرجل خائباً.

ويحتاج ممارس التغيير بالإضافة إلى ما تقدم من الإستعانة بالله إلى صفات نفسية سامية ومواصلة عملية دائمة حتى يتمكن من إرساء سفينة الإسلام إلى شاطئ السلام بإذن الله تعالى.

الصبر على المكاره

فعلى ممارسي التغيير الاستمرار في العمل والصبر على المكاره، وما قصة نوح وسائر الأنبياء العظام والأئمة الطاهرين (عليهم الصلاة والسلام) عنا ببعيدة. ففي القرآن الحكيم بالنسبة إلى نوح(عليه السلام): (فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً)(١٥).

ومن الواضح أن الذين آمنوا بنوح في هذه المدة الطويلة لم يكونوا حتى مائة شخص على ما في جملة من التفاسير والروايات والتواريخ ومثل هذا غير يعيد بالنسبة إلى أناس متكبرين فإن الإنسان الجاهلي متكبر معاند لا يستجيب للحق إطلاقاً وإذا استجاب فهو نادر جداً ولذا فالعجب من استجابة من استجاب له، لا في عدم إيمان من لم يؤمن به ولا بعد في أن يكون نوح (عليه السلام) قد بعث قبل مئات الآلاف من السنين، إذ القرآن يصف الفترة بين نوح (عليه السلام) وبين إبراهيم (عليه السلام) بقوله (وقروناً بين ذلك كثيراً)(١٦) كما أنه لا دليل قطعي على كونه (عليه السلام) كان مبعوثاً قبل سبعة آلاف سنة أو ما أشبه مما ذكره بعض التواريخ فإن التواريخ ليست حجة في هذه الأمور وإنما الحجة أحد أمرين:

الأول: أخبار المعصوم (عليه السلام) وليس في المقام دليل صحيح على ذلك.

والثاني: أن يكون هناك مشاهدون للقصة وقد كتبوا كتباً وعلمنا بانتساب تلك الكتب إليهم، وهذا أيضاً مفقود، فليس في الأمر إلا ما ليس بحجة، فإن الدنيا لم يعرف أو لها ولا آخرها ولا أدل على ذلك من أنا لا نعرف حتى اسم مائة نبي (من مجموعة مائة وأربعة وعشرين ألف نبي) وحسب تعبير البعض: أن الدنيا ككتاب سقط أوله وآخره ونحن لا نعرف إلا وسط بعض الكتاب، فلا نعرف كم كان عدد الصفحات الساقطة من الأول والآخر، وهكذا لا نعلم أن الدنيا كم تطول، هل تطول ألف مليون سنة أو أكثر أو أقل فإن العلم عند الله سبحانه وتعالى.

الدنيا دول

وقد نقل أن إسكندر الذي فتح العالم، مرّ ذات مرة بصحراء خالية عن آثار الإنسان كما لم يكن في تلك الصحراء أثر النبات أو الحيوان أو الماء.

فقال: اصنعوا لي من تراب هذه الأرض إناءاً أشرب فيه الماء حتى أعلم أني شربت الماء في إناء لم يكن من أعضاء بني آدم من السابقين الذين آلت أعضائهم إلى التراب، فصنعوا له الإناء وشرب منه الماء، فأنطق الله الإناء للعبرة، فقال الإناء لإسكندر لما قرّبه من فيه: اعلم يا إسكندر أني تراب ست وعشرين إسكندراً كانوا مثلك أخذوا العالم، ثم ماتوا وصاروا تراباً، ثم صار التراب نباتاً وحيواناً وأكله الإنسان فصار منياً، وصار إنساناً إسكندراً أيضاً، وأخذ العالم وهكذا، وأنت الاسكندر السابع والعشرون الذي تشرب الماء في هذا الإناء الذي هو من تراب ستة وعشرين اسكندراً قبلك.

نعم إن مثل ذلك ليس ببعيد عن هذا العالم الذي خلقه الإله القديم السميع البصير العليم الحكيم، ومثل هذه القصة ينقل عن النبي الخضر (عليه السلام) حيث مر على بحر كان في أطرافه الصيادون فسألهم عن تاريخ البحر وزمانه؟

فقالوا: إنه من زمان نوح(عليه السلام).

فمر بعد خمسمائة سنة على ذلك المكان فرأى أن البحر قد زال وفي مكانه مدينة عامرة فسأل أهلها عن تاريخ بلدتهم وزمان عمرانها؟

قالوا: من بعد جفاف بحر نوح.

ثم مر على ذلك المكان بعد خمسمائة سنة فرأى المدينة بحراً ورأى صيادين حوالي البحر فسألهم عن أول تكون هذا البحر فقالوا إنه بحر من زمان نوح وهكذا تعددت القصة ثلاث أو أربع مرات وكل يزعم أنه من بعد نوح (عليه السلام) بحرٌ أو مدينة.

وفي قصة ثالثة نقل بعض الأصدقاء الطاعنين في السن من أهل طهران.

وقال: قبل خمسين سنة تقريباً كان وسط طهران مقبرة وكان الناس يهابون العبور منها في الليل لأنها كانت مأوى اللصوص بالإضافة إلى أن بعض ضعاف القلوب كانوا يهابون المرور من المقبرة خوفاً من الأموات. فقال لي أحد العلماء: أنه ذات مرة كان مغموماً لأن صاحب داره التي كان قد استأجرها لسكن عائلته أمره بالخروج منها وحيث لم يجد داراً حتى ينتقل إليها كان في غاية الهم والغم لأنه بقي متحيراً كيف يبقى في الدار وصاحب الدار غير راض؟

وكيف يخرج ولا يجد داراً ثانية؟

وفي ذلك الحال مرّ بعد أذان الصبح من تلك المقبرة قاصداً، الجانب الثاني من طهران، وإذا في الطريق يرى شاباً جميلاً حسن الوجه مرتدياً ثياباً بيضاً، متعطراً بأحسن عطر، فسلم الشاب عليه فرد العالم جواب سلامه متعجباً منه، لكن الشاب إلتفت إليه وقال له: لا تغتم أيها العالم فإن الدنيا دار زوال تنتقل بأهلها من حال إلى حال. ثم أردف الشاب دليلاً على كلامه قائلاً: اعلم أن هذه المقبرة قبل كونها مقبرة كانت مدينة، وقبل كونها مدينة كانت مقبرة، وقبل كونها مقبرة كانت مدينة، وهكذا إلى أكثر من عشرين مرة وهل تغتم بدنيا هذه شأنها، تتحول مقابرها إلى مدائن، ومدائنها إلى مقابر، وهكذا دواليك.

ثم غاب ذلك الشاب فجأة، فعلم بأنه روح ميت أو ملك أمره الله (سبحانه وتعالى) بأن يأتي إليه ليقول له هذه الكلمة المسلّية. بعد مدة قليلة وجد هذا العالم داراً مناسبة فانتقل إليها وزال غمه. وسواء كانت هذه القصص واقعية أو قيلت للعبرة بها فإنها تحكي عن حقيقة واحدة وهي أن الدنيا دار فناء لا دار بقاء ولقد قرأت قبل عشر سنوات في مجلة: بأن علماء الآثار وجدوا جمجمة في بعض مناطق إفريقيا حدد عمرها الأخصائيون بأنها كانت لإنسان قبل سبعين مليون سنة، كما قرأت أخيراً في مجلة لبنانية بأن هناك في ألمانيا وجدوا سمكة محجرة، قدّر العلماء عمرها بثلاثمائة مليون سنة.

المتابعة والمواصلة

وعلى كل حال فممارس التغيير يحتاج إلى صبر طويل، ومثابرة وتكرار، وعدم يأس، وقد نقل أحد الأصدقاء أن ممثل السفارة كان يسيء إلى أهالي كربلاء فذهب هذا الرجل إلى الوزير في طهران لينقل ذلك الموظف لكن الوزير كان من أصدقاء ذلك الموظف فلم يعر لكلامه أذناً، وهكذا كان يطرق هذا الصديق الأبواب لمهمته ولا يتمكن من قلعه كلما طرق الأبواب، وأخيراً التجأ إلى الملك وعرض له القصة فنقله الملك مما سبب تعجب ذلك الموظف الكبير وأسياده الذين كانوا يسندونه في بقائه.

ونقل صديق آخر قصة ثانية تفيد أن المثابرة والاستمرار توجب الوصول إلى الهدف وهو أن أحد الموظفين كان يسيء إلى أهالي كربلاء فذهب أحد الوجهاء إلى الوزير ليقلع ذلك الموظف لكن الوزير رفضه رفضاً باتاً، فلم ييأس الرجل وإنما ذهب إلى أصدقاء الوزير واحداً واحداً وتمكن أن يؤثر فيهم فأثروا على الوزير فقلع الموظف.

ومثل هذه القصص كثيرة وقد مرّت على كل إنسان جرّب الحياة، فعلى الممارسين للتغيير أن لا ييأسوا من مرة ومرة، وعشر مرات، ومائة مرة، وحتى من ألف مرة.

وينقل عن (أديسون) أنه وصل إلى ضبط الكهرباء في الزجاج الكهربائي (المصباح) بعد تجربة بلغت أكثر من تسعة آلاف مرة ومن الواضح أن تجربة تسعة آلاف مرة شيء مذهل وتحتاج إلى سنوات عديدة لكن لعدم يأسه وصل أخيراً إلى ما نجده في دورنا ومدننا من ضبط النار في الزجاجات المغلقة بينما قبل هذا الاكتشاف لم تكن النار ممكنة الاشتعال إلا إذا كان لها منفذ إلى الخارج.

مواقف مشهودة

نهاية الزحف المغولي:

لما اكتسح جيش المغول النصف الشرقي من العالم الإسلامي وأراد أن يكتسح النصف الغربي منه، تمكن احد علماء مصر وهو (عز الدين بن عبد السلام) من أن يوقظ الشعب، حيث جمع الأمراء وقال لهم: (إنكم جئتم مماليك إلى بلادنا وصرتم في هذا البلد ملوكاً فمن حق البلد عليكم أن تدافعوا عنه فإن في الدفاع عنه دفاع عن الإسلام وعن حياتكم وحياة شعبكم، فإن التتر جاءوا ليقتلعوا جذور الإسلام فإذا سقطت شجرة الإسلام سقطتم أنتم وسقط الإسلام معكم) فانقادوا إلى الشيخ وأمّروا على أنفسهم ملكاً يسمى بالأمير (قطز) وسموه الملك الظافر ثم أنه اجتمعت كلمة الدولة والشعب على أن يقفوا أمام جيش المغول لكن الأمراء قالوا للشيخ: (ليس عندنا أموال للحرب فاطلب أيها الشيخ من الناس أن يتبرعوا لنا حتى نجهّز الجيش).

قال الشيخ: (لا أطلب من الناس شيئاً حتى تخرجوا ما في قصوركم من الذهب والفضة وما عند نسائكم من الحلى والزينة وأن تخلصوا في البذل لله (سبحانه وتعالى) ليأتيكم منه النصر).

فأطاعوه وأخرجوا ما عندهم ولما رأى الناس أن الأمراء يبذلون ما عندهم تسابقوا إلى البذل والجود وكثرة الأموال فأعدوا العدّة وجمعوا السلاح وأقيمت معسكرات التدريب في كل مكان واهتزت أركان البلاد بالهتاف والتكبير !.

وهكذا دب الإيمان في روحهم حتى جعلهم يشتهون الوصول إلى المعركة وإلى الشهادة كما يشتهي المحب وصال حبيبه وكان الشيخ يدور عليهم ويوقظ فيهم روح الجهاد والشهادة وكلما خبت شعلة الإيمان في بعض النفوس زادها من إيمانه نوراً فخرج الجيش على أتم هيئة وأكمل استعداد نفسي وعسكري تتقدمه فرسان المماليك حتى بلغ منطقة (بيسان) في رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة، وأراد أن ينحدر من أعالي الهضاب إلى (عين الجالوت) فوجد تحته جيش المغول الجارف الذي انحدر من صحاري تركستان وأطراف الصين إلى (عين الجالوت).

ولما رأوا هذا الجيش الضخم كادوا يجزعون من الأمر حيث تذكروا كم اجتاحت هذه السيول البشرية في طريقها من جيوش كانت أعظم خطراً من هذا الجيش الصغير مما لم تتمكن تلك الجيوش الهائلة أن تقف أمام هذا السيل الجارف فكيف يتمكن هذا الجيش الصغير الوقوف أمام السيل؟

لكن الشيخ قام يذكرهم بما يضمن لهم من النصر، استنجازاً لوعد الله واعتماداً على قوله سبحانه حيث يقول: (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)(١٧).

وهكذا تقابل الجيشان جيش المغول وجيش مصر، فانهزم التتر الذين دكوا في طريقهم كل قوة واخترقوا كل جيش وهزموا كل جماعة (وليتبروا ما علوا تتبيراً).

إنهم انهزموا أمام الإيمان الذي يفعل العجائب، وأنقذ الله النصف الغربي من العالم الإسلامي بسبب هذا الجيش.

وبهذين الشيخين (نصير الدين الطوسي) للجانب الشرقي و (عبد السلام) في الجانب الغربي تمكن المسلمون أن يحفظوا بقايا حضارتهم لكن بأسلوبين مختلفين.

ومثل هذه القصة في التاريخ الإسلامي قصص كثيرة حيث أن الله (سبحانه وتعالى) وعد المسلمين النصر فكلما خبت في نفوسهم ثورة الإيمان أيقظها الله (سبحانه وتعالى) من جديد حتى يسير الإسلام مسيره في الحياة.

صد العدوان الصليبي:

ومن تلك القصص: قصة المقابلة بين قوى الإسلام في الأندلس والمغرب وبين قوى المسيحية في أسبانيا فقد دارت بينهما معركة شديدة أظهر فيها الطرفان من الشجاعة والبسالة ما سجلها التاريخ وقد كان مرجع أمراء الأندلس (ابن عباد). فجمع المسلمين وكتبوا كتاباً واحداً بلسانهم جميعاً يستقدمون (ابن طاشقين) الذي كان معروفاً بالشجاعة ورباطة الجأش، فلبى ابن طاشقين الطلب وحشّد جيشاً ضخماً وجاز به البحر والأندلس وكان (الأذفونس) إذ ذاك مشغولاً بحرب ابن (هود) أمير (سر قسط) فلما بلغه عبور ابن طاشقين ترك حربه تلك وجمع أمراء النصارى في جيش واحد وتوجه لمحاربة ابن طاشقين الذي انضم إليه أمراء المسلمين جميعاً ومشى الجيشان إلى المعركة الفاصلة التي اجتمعت فيها جيوش النصرانية كلها في جانب وجيوش الإسلام كلها في جانب وكان اللقاء بينهما في سهل (أفيح) بالقرب من مدينة (بطليوس) والتي تسمى بسهل (الزلاقة) وكانت الواقعة في يوم الجمعة خامس عشر رجب بسنة تسع وسبعين وأربعمائة ولما اصطف الفريقان وتقابلا رأى (ابن طاشقين) إن جيش المسلمين آخذ بالإنهزام فهجم بنفسه يتلقى بصدره الحراب من المسيحيين وقد حف به أبطال المغرب وضربوا الطبول الضخمة فارتجت الأرض ووقف الهجوم الإسباني وشق (ابن طاشقين) جيش الإسبان واخترقه حتى

احتل قيادة (الأذفونس) فلما صار فيها، عاود الإسبان الهجوم أشد وأقوى من الهجوم الأول، فانخرقت جبهة المسلمين، ولكن المسلمين أعادوا الهجوم واحتلوا مقر القيادة الإسبانية، فهجم الإسبان للمرة الثالثة هجوم المستميت اليائس، فترجل الأمير (ابن طاشقين) وهو يومئذ شيخ في نحو الثمانين وترجل معه نحو أربعة آلاف من المسلمين ووقفوا كأنهم بنيان مرصوص وبأيديهم الأتراس والسيوف وقفز واحد منهم على فرس (الأذفونس) فقبض على عنقه بيد، وطعنه بخنجره في رجله بأخرى، فاخترق الخنجر الدرع وثبت في رجله ففر ورجله المثبت فيها خنجر المسلم المجاهد معلقة بالرسن فوقعت الهزيمة الكبرى في جيش الإسبان وتم النصر المحتم كما وعد الله (سبحانه) وقد عادت للأندلس وحدتها تحت راية إسلامية بينما كانت على وشك السقوط فأخرت هذه المعركة الحاسمة سقوط الأندلس أربعمائة سنة كل ذلك بسبب الهمة العالية للمسلمين واطمئنانهم بوعد الله (سبحانه وتعالى) ونصره.

وقفه ضد بريطانيا:

وكذلك كان وقوف البطل المجاهد الشيخ ميرزا محمد تقي الشيرازي أمام بريطانيا التي لم تغرب الشمس عن ممتلكاتها (كما كانوا يقولون) فقابل البريطانيين ذات الألف وخمسمائة مليون نسمة – حيث كان تحت لوائهم الهند والصين وجملة من أفريقيا وغيرها – زهاء مليونين ونصف من المسلمين الصادقين في العراق من العشائر المجاهدة فتمكنوا أن يهزموهم بإذن الله سبحانه وتعالى شر هزيمة وأقام الإمام الشيخ في العراق أو ل حكومة إسلامية بعد إخراج البريطانيين منها وقد ذكرنا تفصيل هذه القصة في بعض كتبنا وحيث لم يوجد مثل هذا الجهاد في الهند بقي البريطانيون فيها زهاء ثلاثة قرون.

نعم هكذا يفعل الإيمان الصادق والجهاد المستميت:

وكـم لله مـن لطف خفـي يـدق خفاه عـن فهم الذكـيّ
وكم يسر أتي من بعد عسر ففـرّج كـربة القلب الشجـيّ
إذا ضاقت بك الأحوال يومـا فثق بـالواحـد الفـرد العلـيّ
توسل بالنبـي فكل خطب يهـون إذا تـوسل بالنبـيّ
ولا تجزع إذا مـا ناب خطب فكـم لله مـن لطف خفـيّ

جمع الطاقات والقدرات

يجب على الإنسان الممارس للتغيير أن يعرف أن تجمع القطرات تسبب تكوّن البحار، وتجمّع صغار الرمال يسبب تكوّن الصحاري، وتجمّع الخلايا الصغيرة يكوّن بدن الإنسان والحيوان والشجر إلى غير ذلك فعلى الإنسان الذي يريد ممارسة التغيير أن يجمع القطرات من أجل هدم الأبنية السابقة وتشييد الأبنية الجديدة مهما طال الزمن ومهما احتاج إلى ضم قطرة إلى قطرة وذرة إلى ذرة وعمل إلى عمل وجهاد إلى جهاد وذلك بفارغ الصبر، وجميل الإنتباه.

وقد نقل بهذا الصدد أن إحدى مراكز العبادة في بلد من البلاد الغربية احتاج ترميمه وتقويته وجلب الناس إليه إلى كمية من المال قدّرت بثلاثة ملايين على أقل تقدير، ولما لم يتمكنوا من جمع هذا المال من الأثرياء والمتبرعين من أهل الخير، فكروا في طريقة أخرى وهو أن يجمعوا المال بسبب جمع رؤوس قناني المشروبات التي تلقى في الشوارع، فاستأجروا عدداً من العمال وزوّدوهم بعربات ليدوروا في الشوارع ويجمعوا رؤوس القناني التي يلقيها الناس في الشوارع بعد شربهم المرطبات فجمعوا خلال سنة من رؤوس القناني ما كان ثمنها ثلاثة ملايين.

من طرق الجهاد:

ويقال أن رجلاً خيّراً يكنى (بأبي البركات) كان يزوّد المجاهدين بالأفراس إذا كانوا يريدون الذهاب إلى الجهاد والمرابطة فإذا رجعوا أرجعوا الفرس إليه ليزود بها آخرين وإذا لم يرجعوا أو أرادوا أن يستبدوا بالفرس فهو لهم حسب قرارهم معه.

وذات مرة طلب (أبو البركات) من أحد بياعي الأفراس أن يبيعه مائة فرس فاستصحبه البائع إلى اصطبله، وفي الطريق كان أبو البركات يمشي خلف البائع ونظر الرجل إلى خلفه، فرأى أن أبا البركات يجمع الأوساخ ويضعها في كيس معه، فتعجب الرجل من ذلك وبعد أن اشترى أبو البركات منه الأفراس قال له البائع: هل تسمح لي أن أسألك؟

قال: نعم.

قال: إني رأيتك في الطريق تنحني مرة تلو أخرى، فهل ضاع منك مال أو ضل منك شيء تنشده؟

ضحك أبو البركات وقال: كلا إني كنت أجمع النفايات.

قال الرجل: نعم وإني رأيت ذلك، لكني احتشمت أن أقول لك في أو ل الأمر. لماذا كنت تجمع النفايات؟

قال: اعلم أيها الرجل إن أكثر ما أشتري به الأفراس التي أزوّد بها المجاهدين في سبيل الله هو ثمن النفايات التي أجمعها من الشوارع والأزقة فإني أجمع النفايات يومياً وأذهب بها إلى سطح داري وأميز بين محتوياتها، وبعد كل ثلاثة أشهر أو أكثر أذهب بها إلى الذين يشترونها فأحمل قطع الحديد إلى الحدادين وقطع الخشب إلى النجارين وبعر الحيوانات إلى الزارعين سماداً، وإلى الخبازين وقوداً لطبخ الخبز وقشر الرمان إلى الصباغين تثبيتاً للألوان وهكذا سائر المواد الأخرى وأجمع من ثمنها هذا المال الذي أشتري به الأفراس.

من طرق التجارة:

وفي قصة شبيهة لهذه القصة، ينقل عن أحد تجار بعض البلاد أنه كان جالساً في متجره فرأى أن ريفياً ينظر إلى الشارع بدقة ويمشي هنا وهناك مما يظهر منه أنه يفتقد شيئاً، فطلبه التاجر وقال له: هل تبحث عن شيء ضاع منك؟

قال: لا.

قال: فما تريد من نظرك بدقة إلى الأرض هنا وهناك؟

قال: اعلم أني سمعت أن في هذه المدينة نقوداً مبعثرة في الشوارع فقصدتها لذلك لكني من الصباح إلى الآن أفحص في الشوارع ولم أجد حتى فلساً واحداً فضحك التاجر وعلم أن الذي قال له هذا الكلام ماذا أراد من كلامه.

فقال له: نعم يوجد في شوارع هذا البلد نقود لكنها مشروطة بشرط والشرط أن تعمل بكلامي.

قال: فما هو؟

فأعطاه التاجر كمية من المال وقال: استأجر بها غرفة في الخان الفلاني ومركبة للبضائع لمدة شهر واسترزق ببقية المال رزقاً متوسطاً أو دون المتوسط اجعل عملك من الصباح إلى الليل أن تدور في الشوارع والأزقة وتحمل معك في هذه المركبة كل ما تلقى من النفايات وتذهب بتلك النفايات إلى سطح الخان وتوزعها في أماكن مختلفة، كل شيء مع جنسه، وبعد شهر تأتي عندي فعمل الريفي بكل ذلك، وبعد شهر جاء إلى التاجر فاستصحبه التاجر إلى سطح ذلك الخان فرأى شيئاً كبيراً من الحديد والخشب وغير ذلك مما قد جمعها الريفي أكواماً كما أوصاه ثم أمره أن يأتي ببعض الخبازين والحدادين والصباغين والنجارين والنساجين إلى السطح فأتي الريفي بهم فباع التاجر قطع الحديد للحداد وقطع القطن المجتمع للنساج وهذا حتى صار مالاً لا بأس به فأخذ التاجر منه المال الذي أقرضه له وقال: عليك بهذا العمل حتى تصبح تاجراً فلم تمر سنوات إلا وأصبح الريفي من التجار الكبار في ذلك البلد.

ولا أنسى كيف أن بعض اليهود في كربلاء المقدسة قبل سنة ثمان وأربعين (م) التي اغتصبوا فيها فلسطين كانوا يدورون في الشوارع والأزقة ويشترون من البيوت الأمتعة البالية والنفايات (كالزجاج المكسر) و(القطن البالي) و(الأوراق الباطلة) و(الألبسة الممزقة) وغيرها وكانت البيوت تجمع نفايات البيت وتبيعها لليهود بأثمان زهيدة وكنا نسأل بعض كبار السن عن ماذا يفعل بها اليهود؟

فكانوا يقولون: أنهم يبدلونها إلى أمتعة تنفع وتباع.

وكثيراً ما كان أصحاب البيوت يفرحون بمجيء هؤلاء اليهود لاشتراء نفاياتهم، لأنهم إذا لم يشتروها منهم اضطروا إلى إلقائها في المزابل، بينما يشتريها اليهود منهم، فيرفعون عنهم الأوساخ ويعوضونهم بالمال.

التحلي بالهمة العالية

ومن صفات من يريد إنقاذ بلاد الإسلام وممارسة التغيير أن يكون عالي الهمة وقد قال علي (عليه السلام): (المرء يطير بهمته كما يطير الطائر بجناحيه) وإنا لا نرى إحدى السلسلات العلمية وأولى المكانة الاجتماعية والدولية إلا وقد كان أو ل السلسلة عالي الهمة فبنى بهمته لنفسه ولأعقابه الذين من بعده مكانة وسمعة وحركة ونهضة وقد قال الشاعر حول رسول الله (صلى الله عليه وآله):

له همـم لا منتهى لكبارها وهمته الصغرى أجل من الدهر

وقال شاعر آخر عن رسول الله (صلى الله عليه وآله):

صعدنا لآفاق السماء بيمنه وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرا

ولما أنشده أمام الرسول (صلى الله عليه وآله) قال له الرسول (صلى الله عليه وآله) : (وما تبغي فوق ذلك؟).
قال الشاعر: (الجنة).
فتبسم رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعلو همته(١٨) لأنه من الواضح أنه ليس فوق الجنة ومرضاة الله (سبحانه وتعالى) شيء آخر، فقد قال سبحانه: (وأن إلى ربك المنتهى)(١٩) فإن الوصول إلى رضاه وجنته فوق كل مطلب مما لا يكون لإنسان مطلب فوق ذلك.
وقد قال (صلى الله عليه وآله) تحريضاً للمسلمين على طلب العلم: (اطلبوا العلم ولو بالصين)(٢٠).
وقال (صلى الله عليه وآله): (لو كان العلم في الثريا لناله رجال من فارس)(٢١).
ومن المعلوم أن الوسائل الحديثة التي وصلت إلى القمر وإلى ما فوق القمر، لم تصل بعد إلى الثريا.
أقسام الهمم:
والإنسان يرى في المجتمع كلا القسمين من الناس صغير الهمة وعاليها، وقد رأيت إنساناً في اضطرابات العراق أيام الشيوعيين وقلت له ألا تعمل؟
فقال: إني أديت رسالتي، ولما تحققت عن ذلك تبين أنه قد ألف كتاباً من مائة صفحة في شأن من الشؤون الهامشية فتصور أنه قد أدى رسالته بهذا الكتاب الصغير الهامشي بينما كان اللازم عليه أن يؤدي خدمة كبيرة لما كان يتمتع به من مكانة إجتماعية رفيعة.
ومن المعروف في المثل المضروب لأمثال هؤلاء: إن عمله زوبعة في فنجان، ويقال عن لسان الحيوانات: أنه دخل مقدار قليل من الماء في جحر فأرة فأخذت تصيح: إن الدنيا قد غرقت بالسيل.
ورأيت إنساناً كان يؤلف شرحاً على نهج البلاغة، فقال له إنسان صغير الهمة: إن عملك هذا أعظم من القباب الكبيرة، إلى غير ذلك من الأمثلة لصغار النفوس في قبال أمثلة أخرى لكبار النفوس. قال الشاعر:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام

تحمل الصعوبات
شواهد تاريخية:
على ممارس التغيير تحمل الصعوبات، فإن تحمل الصعوبات تسجل للإنسان التاريخ المشرق وتدفع الأجيال إلى الأمام ولذا نرى النبي (صلى الله عليه وآله) كيف تحمل المشاق الجسدية والروحية، وهكذا بدأت الصديقة الزهراء (عليها السلام) تتحمل الصعوبات المنزلية وغير المنزلية وقاست مصاعب الهجرة واستشهدت أخيراً.
والإمام عليّ (عليه السلام) واجه الصعوبات الكبيرة النفسية والجسدية والحروب المهولة وقُتل أخيراً.
والإمام الحسن (عليه السلام) تحمل الصعوبات الكبيرة وخاض الحروب وأخيراً قُتل في سبيل الله.
والإمام الحسين (عليه السلام) استشهد في تلك الصورة المفجعة المعروفة.
وكذلك نرى غيرهم من الرجال الكبار الذين التف حولهم الناس، كميثم التمار، وحجر بن عدي، والكميل، وقنبر، وهكذا بالنسبة إلى سائر الأوصياء والأنبياء والأئمة (عليه السلام) والذين كان الناس ملتفين حولهم.

وقد ذكر بعض المؤرخين أن أصحاب عيسى (عليه السلام) الإثني عشر: قتلوا كلهم بأسباب مختلفة بعد رفع عيسى إلى السماء، فبعضهم قتل حرقاً، وآخر غرقاً، وثالث بالسيف ورابع بالصلب، وخامس برميه بالحجارة، وسادس بتعذيبه حتى استشهد تحت التعذيب، وهكذا وهلم جرا.

وهكذا كان حال أبي ذر الغفاري (رضوان الله عليه) حيث تحمل الصعوبات في سبيل تبليغ رسالات الله (سبحانه وتعالى) كما قال سبحانه: (الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله)(٢٢).

فتحمل الجوع والفقر والمرض والتبعيد وغير ذلك لكنه تمكن من تغيير المفاهيم الجاهلية إلى المفاهيم الإسلامية التي جاء بها رسول الله (صلى الله عليه وآله) فإنه وإن مات جوعاً في الربذة في حالة غربة وتشريد، لكنه ركز لواء الإسلام وجعل من نفسه علماً إلى هذا اليوم.

بينما نرى (زيد بن ثابت) – الذي التف حول السلطة وصار له من المال الشيء الكثير حتى حدثنا التاريخ عنه بأنه لما مات قسم الذهب من إرثه بالفؤوس بين ورثته – لم يبق له ذكر مشرق ولم يكن علماً كأبي ذر.

وهذا الأمر ليس خاصاً بمن يمارس التغيير وإنما هو عام لكل من يريد التقدم والرقي لشيء أو يريد تقدم نفسه في سبيل الله (سبحانه وتعالى) ليكون كما قال تعالى في كتابه: (واجعلنا للمتقين إماماً)(٢٣).

فإنه يجب عليه السهر والتعب والمشقة.

أمثلة لرجال الصعوبات

رجل العلم والتأليف:

فمثلاً في البعد التأليفي نرى أن صاحب الجواهر (قدس سره) أتعب نفسه الشريفة ليل نهار حتى خلف هذا السفر الضخم وينقل في أحواله: أنه كان له ولد طيب بار بوالده مجد في توفير معيشته فمات هذا الوالد فحزن صاحب الجواهر عليه حزناً كبيراً وظل يفكر في أمرين:

الأول: أنه من يعيّشه حتى يتم الجواهر فإنه لا يريد الاشتغال بالمعاش ليذهب من وقته.

الثاني: أنه ما هو مصيره في الآخرة، هل هو من أهل السعادة أو لا – والعياذ بالله –؟

لأنه في الغالب يكون الأمر مجهولاً للإنسان بالنسبة إلى الدار الباقية، وحيث أن وفاة هذا الولد كان قريباً من الليل وضعت جنازته في البيت حتى يأتي الصباح ويجتمع المشيعون لتجهيزه فأخذ صاحب الجواهر الورق والقلم والكتاب والمحبرة وجلس عند جنازة الولد يكتب ويبكي ويكتب ويبكي وهكذا حتى الصباح ثم لما نقلوا الجنازة إلى الحرم المقدس كان صاحب الجواهر في التشييع ولما دخل إلى الصحن سمع هاتفاً غيبياً يقول له (نحن خير لك منه، ونحن خير له منك) وكان الأمر كما سمع فإنه قد درّ عليه الرزق من بعد الولد مما سبب إتمام الجواهر بدون أن يشتغل بالمعاش وقد صار علماً من علماء المسلمين يذكر إلى اليوم في الحوزات العلمية رحمه الله.

وكذلك ينقل في أحواله أنه كان إذا ذهب إلى المقبرة لأجل قراءة الفاتحة للأموات استصحب معه الكتاب والورق والقلم والمحبرة فإذا جلس هناك عند قبر ولده أو سائر القبور أخذ يكتب الجواهر هذه المدة عوض أن يقرأ القرآن باستثناء قراءة الفاتحة والسورة حيث كان يرى اشتغاله بالعلم أو لى من قراءة القرآن، وقد ورد في حديث عن

رسول الله (صلى الله عليه وآله) خاطب به أبا ذر قائلاً: يا أبا ذر (ساعة في طلب العلم أفضل عند الله سبحانه وتعالى من ختمة إثني عشر ألف قرآن)(٢٤).

إنسان الفقه والحديث:

وينقل عن صاحب الحدائق أنه وقعت حرب أهلية بين طرفين متحاربين فأحرق أحد الطرفين داره فأخذ صاحب الحدائق قلمه ومحبرته وكتابه ودفتره وهرب من داره إلى دار أخرى فأخذ يكتب هناك والدار والأثاث يشتعلان.

بطل الحديث والتاريخ!

ونقل ناقل عن المرحوم الشيخ عباس القمي (رحمه الله) قائلاً: كنت أذهب من (أراك) إلى (قم) في سيارة لي وإذا بي أرى الشيخ عباس القمي في أثناء الطريق في الصحراء المقفرة جالساً على الأرض وهو يكتب فتقدمت إليه وسلمت عليه وقلت له: شيخنا ماذا تفعل في هذه الصحراء المقفرة وكيف جئت إلى هنا ومن جاء بك وما هذا الذي تكتب؟

قال (رحمه الله): كنت في سيارة قاصداً من أراك إلى قم وفي أثناء الطريق تعطلت السيارة فجاء السائق وأمر بنزولي قائلاً: أن توقف السيارة من شؤمك فانزل وأرحنا، وثم أنزلني قهراً، فنزلت مكرهاً وفكرت في أن لا يذهب وقتي هدراً ولذا أخذت في التأليف (وكان ذلك في أيام البهلوي الأول الذي حارب الدين ورجاله والعلم وأصحابه بأمر من أسياده المستعمرين الذين جاءوا به).

قال الرجل: فقلت للشيخ وكم لك في هذه الصحراء؟

قال: ما يقارب الساعتين.

قال: فأخذته في سيارتي وجئت به إلى قم.

رجال الفقه والأصول:

ولا أنسى أيام كنت بصحبة والدي (رحمه الله) وقد كان بصحبة المرحوم السيد حسين القمي رحمه الله – الرجل العالم والمجاهد المشهور – وكان بصحبته أيضاً آية الله العظمى السيد الميلاني (رحمه الله) وغيره، وكنا قد ركبنا السيارة من كربلاء إلى سامراء وفي أثناء الطريق عطبت السيارة فسأل المرحوم القمي السائق عن المدة التي يستغرقها إصلاح السيارة؟

قال السائق: عشر دقائق، فتوجه القمي (رحمه الله) إلى خادمه وقال له: افرش في الصحراء وأنزل الكتب، فنزل ونزل أصحابه: والدي والسيد الميلاني وغيرهما.

فقال لهم: نتباحث لئلا يذهب وقتنا اعتباطاً فأخذوا في المباحثة حتى تهيأت السيارة، فركبنا جميعاً وتوجهنا إلى سامراء.

بطل التأليف والتصنيف:

وينقل عن العلامة الحلي رحمه الله أنه كان في أيام الخميس يقصد كربلاء المقدسة من الحلة وهو على حماره ويرجع يوم الجمعة، لكنه كان إذا ذهب إلى كربلاء ورجع لا يترك الوقت يذهب سدى بل ينتهزه للكتابة وهو على دابته

مما سبب عدم تمكن أحد من قراءة خطه إلا ولده فخر المحققين فإنه هو الذي بيّض مسودات والده التي كتبها على الدابة ولذا نجد اليوم بعد مضي ما يقارب من سبعة قرون قد بقي العلامة الحلي علماً من الأعلام وآخذاً بزمام الحوزات العلمية.

فيجب على ممارسي الحركة أن يكونوا أشداء في سبيل الهدف ويتحملون المشاق والصعوبات برحابة صدر حتى يصلوا إلى ما يهدفون من خدمة الإسلام ورفع رايته وتوحيد بلاده تحت ظل حكومة شرعية واحدة بإذن الله تعالى.

١ . سورة الفرقان: الآية ٧٧.

٢ . سورة غافر: الآية ٦٠.

٣ .كنز العمال: ج٣ الرقم ٥٦٨٧.

٤ . سورة التوبة: الآية ٤٦.

٥ . سورة فاطر: الآية ٤٣.

٦ . سورة غافر: الآية ٦٠.

٧ . بحار: ج٣٦، ص٣٨٥، الباب٤١ ح١٠٧.

٨ . سورة المائدة: الآية ٣٥.

٩ . سورة الأنبياء: الآيتان ٨٧-٨٨.

١٠ . سورة الجن: الآية ٢٦-٢٧.

١١ . سورة الانعام: الآية ٩.

١٢ . نهج البلاغة: قصار الحكم ١٧٦.

١٣ . مفاتيح الجنان المعرب: ص٧١.

١٤ . سورة النمل: الآية ٤٠.

١٥ . سورة العنكبوت: الآية ١٤.

١٦ . سورة الفرقان: الآية ٣٨.

١٧ . سورة محمد: الآية ٧.

١٨ . العقد الفريد: ج٦، ص١٢٥.

١٩ . سورة النجم: الآية ٤٢.

٢٠ . بحار الأنوار: ج١، ص١٧٧، كتاب العلم الباب١، ح٥٥.

٢١ .كنز العمال: ج١٢، ح٣٤١٢١.

٢٢ . سورة الأحزاب: الآية ٣٩.

٢٣ . سورة الفرقان: الآية ٧٤.

٢٤ . بحار الأنوار: ج١، ص٢٠٣، كتاب العلم الباب٤، ح٢١.

بُعد النظر

بعد النظر

على ممارسي التغيير التسلح بالرؤية البعيدة حتى يتمكنوا من تمييز الصالح عن الطالح، والصحيح عن الفاسد، وما يوصل عما لا يوصل، وقد قال الإمام الصادق(عليه السلام): (العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس)(١)، والإنسان إذا عرف ملابسات المستقبل لا تهوله الصدمة مما توجب انسحابه عن الساحة إذا وقعت الواقعة المؤلمة يوماً ما.

الطوسي ونظرته المستقبلية

وبهذا الصدد ينقل عن نصير الدين الطوسي (رحمه الله) أنه أراد إنقاذ ما يتمكن من بلاد الإسلام والحضارة الإسلامية من أيدي المغول الذين كانوا كالسيل الجارف فقرّب نفسه إلى الملك المغولي – وقد كان بدوياً. وقال له: إنكم تدخلون الحروب الطاحنة لأجل التوسع والتقدم وهذا يحتاج إلى رؤية مستقبلية حتى تعرفوا أن أية حرب توجب النصر وأية حرب توجب الهزيمة؟

قال الملك المغولي: نعم لكن بأية كيفية؟

فقال نصير الدين: بأن نستعين بالنجوم.

قال الملك المغولي: وماذا يحتاج الأمر في الاستعانة بالنجوم؟

قال الطوسي: علماء، وكتب، وموقوفات، تدرّ على العلماء والعمل بالمال. ثم قال: فهبني علماء المسلمين وكتبهم والأوقاف.

فقال الملك: لكن ما الفائدة من رؤية المستقبل، لأن القدر إذا كان في هزيمتنا فإننا سوف نهزم سواء عرفنا الهزيمة أو لم نعرفها، وإن كان القدر في نصرتنا فإننا سننتصر سواء عرفنا أو لم نعرف؟

قال نصير الدين: الفرق هو في عدم الصدمة النفسية مما يوجب الانهزام، وأخذ العدّة اللازمة لعدم الانهزام، كالمريض إذا عرف المرض وعرف الدواء لا يموت ولا يزداد مرضه بينما إذا لم يعرفهما ازداد مرضه وربما مات، فإن الدنيا دنيا أسباب كما قال سبحانه: (ثم اتبع سبباً)(٢).

لكن الملك المغولي لم يقتنع بما قاله نصير الدين، فأراد نصير الدين تنبيهه بمثال، فقال له: إنك بعد ما تجلس في المجلس صباح غد سوف آمر بأن يلقى طشت كبير من النحاس في وسط المجلس فانظر أنت الذي تعلم بذلك ماذا تصنع؟

وانظر إلى الجالسين الذين يجهلون ذلك ماذا يصنعون؟

وكان الأمر كما قال فلما تهيأ المجلس العام للملك بوزرائه وضباطه وقواده ومن إليهم، أمر نصير الدين بأن يلقى طشت كبير من السطح في وسط المجلس فارتطم الطشت بالأرض مما أحدث ضجيجاً هائلاً وخاف الكل

وأخذوا ينهزمون ومن المجلس مذعورين إلا الملك ونصير الدين الطوسي. فأخذ الملك يضحك ضحكاً عالياً فقال له نصير الدين الطوسي: هذا هو الفرق بين العالم بالعاقبة وبما سيكون في المستقبل، وبين الجاهل، فإن أثر الطشت كان واحداً سواء بالنسبة إليك وإلى غيرك، لكنهم لما لم يعرفوا ذلك الموضوع انهزموا وفروا وخافوا وذعروا، بينما أنت حيث كنت عالماً بذلك لم تضطرب ولم تنهزم بل ضحكت وقهقهت.

ثم إن عدم بعد النظر من سمات المجتمع المنحط وكثيراً ما يقع الإنسان في المشكلة من عدم بعد نظره.

آثار فقدان بعد النظر

هذا إضافة إلى أن عدم بعد النظر يسبب للأمم مشاكل لا تعد ولا تحصى وأحياناً المشكلة تبيد الأمة، ولذا بادت أمم في التاريخ وأحياناً تبقى المشاكل عقوداً من السنوات أو قروناً منها مثلاً الحرب الكردية في العراق والتي استمرت منذ زمن قاسم إلى اليوم (ما يقارب الثلاثين سنة) أظهرت ضعف الأمة وأن الأمور ليست بيد الناس وإنما قلة في كل طرف تريد الحرب ولعل تلك القلة في الطرفين لم يكونوا يعدون بمائة شخص، بينما كان في الضحايا من المقتولين والمشردين والمفقودين والمعلولين والذين ذهبت مساكنهم أكثر من مليون إنسان يسكنون شمال العراق وجنوبها، وقد كانت الحرب أهلية بتمام معنى الكلمة، يقتل الأخ أخاه، بدون أن يعلم لماذا يقتله بل في أكثر الأحيان كان يعلم أنه قتل تافه لم تثره إلا أسباب شخصية والاستعمار من ورائها، وكان الناس يساقون إلى الجبهات قسراً وإلا ففي انتظارهم مصادرة الأموال والسجن والتعذيب والإعدام، والعقلاء كلهم وإن كانوا ضد الحرب إلا أنهم أقصوا عن الساحة بمختلف الوسائل والسبل ولم يبق لهم حتى مجرد النقد، فإن عملية النقد كانت تعد خيانة وجريمة وقد كانت الحرب تحت شعار القومية العربية من جانب والقومية الكردية من جانب آخر، وقد ضرب الجانبان قوله سبحانه: (إنما المؤمنون أخوة)(٣) عرض الحائط، نعم كثيراً ما يكون أحد الطرفين المتحاربين مدافعاً عن بلده، أو نفسه، أو ما أشبه والطرف الآخر هو الذي يعتدي عليه، وفي مثل هذه الحالة يكون المعيار قوله سبحانه: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله)(٤) فإذا أراد ممارسو التغيير أن يصلوا إلى الهدف المنشود فاللازم أن يكونوا واقعي الهدف وبعيدي النظر، ويهيئوا أنفسهم لذلك، فإن كل طرف يكون أقوى من هذه الجهة يكون هو المقدم، سواء كان الباطل ضد الحق أو الحق ضد الباطل، أو الباطل ضد الباطل والقصة التالية من القسم الثالث، فإنه نشاهد كيف إن الطرف الذي كان مهيأ وكان يرى العواقب تقدم بينما انهزم الطرف الآخر.

بين الأمين والمأمون

وذلك في قصة الأمين والمأمون، فإن الأمين كان ولد زبيدة زوجة هارون، وهي بنت عمه، ومن نفس العائلة، بينما كان المأمون ولد جارية خراسانية قبيحة المنظر، تسمى (بمراجل) واتفق أن هارون في قصة قمار باشرها فولدت المأمون، وكان هارون يقدم المأمون على الأمين في حوائجه مما أثار حفيظة زوجته زبيدة وكانت زبيدة دائماً تلح على هارون بأن يقدم الأمين على المأمون، ذات ليلة (على عادتها) أصرت عليه بذلك، فقال هارون لها: ماذا أفعل إذا كان المأمون أكثر كفاءة وبعداً للنظر فقالت زبيدة: أن ذلك في نظرك لا بالمنظار الواقعي.

فقال هارون: فلنجرب الأمر الآن، فنادى بعض غلمانه في جوف الليل وقال: اذهب إلى الأمين وأت به.
فذهب إلى الأمين وكان الأمين نائماً، فقال الخادم له: إن الأمير يطلبك، فقام الأمين من منامه وهو بملابس النوم، وبدون غسل الوجه وتمشيط الشعر جاء إلى أبيه، فتوجه إليه هارون وقال: ما هي حاجتك يا ولدي، قال الأمين: حاجتي القصر الفلاني والزوجة الفلانية، والمال الفلاني، قال: هل بعدها من حاجة؟
قال: لا فصرفه، فذهب الأمين، ثم قال هارون للخادم: اذهب وأت بالمأمون، فذهب وأبطأ في الرجوع، وإذا به يأتي بالمأمون وهو على كامل الاستعداد قد غسل وجهه ومشط شعره ولبس ملابسه، وهيأ نفسه للقاء هارون ومعه غلام يحمل كيساً كبيراً من المال ومعه سيف ومصحف، قال له هارون: لماذا تأخرت؟
قال: كنت نائماً، فلما نبهني الغلام، قلت في نفسي أن الأمير لم يطلبني في هذا الوقت من الليل إلا لإحدى ثلاث:
أما أنه يحتاج إلى المال لشاعر ونحوه يريد صلته فهيأت مع نفسي أكثر كمية من المال الممكن، وجعلت المال في هذا الكيس الكبير وحملته هذا الغلام وجئت به إليك.
وأما إن واشياً وشى بي عند الأمير ويريد مني الاستفسار والاستجواب ولذا جئت بالقرآن والسيف حتى أحلف له أني ما قصدت سوءاً بالأمير ولا بالدولة، وإذا قبل كلامي وحلفي بالقرآن فهو، أما إذا لم يقبل كلامي وحلفي فإنني أعددت السيف حتى إذا أراد أن يقتلني أظهر له طاعتي، وإني مستعد لأن أقتل في سبيل الأمير.
وأما أن الأمير طلبني لعدو دهمه من بعض جوانب القصر فهيأت جماعة ممن تمكنت من الغلمان والسيافين وجئت بهم وهم خارج الباب واقفون فطلبهم هارون ورأى ما يقارب مثلا الخمسمائة إنسان هيأهم في ذلك الوقت بصورة مستعجلة وجاء بهم مسلحين، قال هارون له: لم يكن ذا ولا ذاك وإنما طلبتك لأن أرى هل لك حاجة (وأمر بصرف الغلام الذي معه المال وبصرف أولئك السيافين والغلمان الذين جاءوا لنجدته) وإذا كانت لك حاجة فما هي حاجتك.
قال: حاجتي أن جماعة كبيرة من الأبرياء في السجون وذلك بسبب الاختلافات بين الوزراء ومن إليهم ممن له حق أن يسجن كل من أراد، وإني أطلب من الأمير أن يأمر بعض المعتمدين حتى يفتشوا السجون ويروا اضبارات السجناء فالسجين إن كان بريئاً يطلق سراحه، والسجين الذي قد انتهى أمده يطلق سراحه، قال هارون: ذلك إليك فأمر بعض الأشخاص أن يذهب إلى السجون ويطلق سراح الأبرياء والذين انتهى أمد سجونهم، ثم قال له هارون: هل لك من حاجة أخرى؟
قال: نعم. قال: وما هي حاجتك؟
قال: إن أرض السواد (يعني العراق) قد قل انتاجها في هذه السنة، لقلة المطر والضرائب التي تؤخذ منهم هي كثيرة بالنسبة إلى هذه السنة، فمر بعض المعتمدين حتى يروا الفرق بين العام الماضي وهذا العام فليأخذوا منهم أقل بالنسبة، قال هارون: وذلك إليك أيضاً فأمر بعض الأشخاص أن يلاحظوا النسبة بين العام الماضي وهذا العام، ويأخذوا الضرائب بتلك النسبة أقل من السنة الماضية.

ثم قال له هارون: هل لك من حاجة أخرى؟

قال: نعم، قال: وما هي حاجتك؟

قال: حاجتي أن أرزاق الجند تأخرت عن موعدها المقرر فإن أمر الأمير رئيس بيت المال أن يصرف إلى الجند أرزاقهم، كان في ذلك تقوية للدولة وأخذاً بالحزم، قال هارون وذلك إليك أيضاً فأمر غداً رئيس الديوان أن يعطي الجند أرزاقهم.

ثم توجه أخيراً إلى المأمون وقال له: هل لك من حاجة أخرى؟ قال: لا حاجة لي إلا بقاء الأمير، فقال هارون: اذهب بسم الله، فرجع المأمون، ثم توجه هارون إلى زبيدة وقال لها: هل رأيت الفرق بين الأمين وبين المأمون؟ وأن أيهما أكفأ؟ وكان الأمر كما تنبأ هارون، فإنه خلّف الأمين وجعل ولي عهده المأمون.

ولكن المأمون نقض ولاية عهد الأمين، مما سبب وقوع القتال بينهما وتغلب المأمون على الأمين فقتله وجاء خراسان وعلقه على باب داره وأمر من يدخل داره أن يبصق في وجهه ويلعنه وأمر بأن يشق جسد الأمين شقّين، ويعلق كل قسم على جانب من جانبي بغداد، حتى أن من يدخل بغداد ومن يخرج من بغداد يرى تغلب المأمون على الأمين.

فإن كلا من الأمين والمأمون وإن كان على باطل لكن الباطل الذي هيأ نفسه للوثوب على الأمر وكان بعيد النظر غلب على صاحب الباطل الذي لم يهيء نفسه.

محاصرة بغداد

ينقل بهذا الصدد أنه لما حوصرت بغداد من قبل المأمون دخل بعض ذوي الأمين عليه فرآه مغموماً، وقد وضع رأسه على ركبته غماً، قال له: أيها الخليفة لماذا تغتم؟

انثر المال بين الجيش واركب أنت بنفسك وهيء الخيل لجيشك وأعطهم السلاح وكن معهم حتى يقاتلوا ويكفوا الحصار، فإن الناس في ضيق شديد من جهة المأكل وسائر الحوائج بالإضافة إلى أنهم في ضيق حيث دام حصار بغداد أياماً فقال الأمين له: هل تراني مغتماً لأجل محاصرة بغداد؟

قال: فلماذا أنت مغتم، قال: إني مغتم لأجل المقرّطة فإني كنت قد أخذت سمكة جميلة من دجلة وقرّطتها بحلق من الذهب والمجوهرات، وقد خرجت هذه السمكة من الحوض ودخلت في دجلة، ولم تعد وإني كلما أرسلت الغواصين عليها لم يظفروا بها، فاغتمامي واهتمامي لأجل المقرّطة لا لأجل حصار بغداد، ولا لكون الناس في ضيق وإن العدو مشرف على الفتح، فتركه وخرج وكان بعد ذلك انهزامه تلك الهزيمة الشائنة.

خصال لا بد منها

إنه لاشك أن ممارسي التغيير إذا أرادوا أن يغيروا الحالة المزرية التي وصل إليها المسلمون إلى حالة حسنة كانوا بحاجة إلى التهيؤ وبعد النظر وعلو الهمة، فإنه كثيراً ما نرى أن بعض التنظيمات الإسلامية بعد معاناتهم لمناهج التنظيم وما أشبه يعملون ما يسيئون إلى التنظيم وإلى أنفسهم بصرف وقتهم في الهامشيات والمحاربات الجانبية وما

أشبه مما يفوتهم الهدف الذي عملوا لأجله ليل نهار، إن التهيؤ الصحيح والهمة العالية وبعد النظر هي الأشياء التي تأتي بالنتائج وإلا فليست الأماني هي التي تعطي الثمار المطلوبة، قال سبحانه: (ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به)(٥).

الدعاء أو العمل

وقد نقل لي أحد الأخيار من أهل طهران أنه دعاه جماعة من المتدينين الذين أزعجهم البهلوي الأول لعدم تدينه أو لاً، ولتحطيمه إيران ثانياً، ولربطه إيران بعجلة الإستعمار ثالثاً، دعوه إلى دارهم لمهمة قال فحضرت ورأيت أن الجماعة جالسون وأمام كل واحد منهم ظرف فيه حمصات سود قلت: ما هذا؟ قالوا: اجتمعنا لأجل أن نقرأ أو راداً على هذه الحمصات لدفع البهلوي لعل الله يقتله ويريحنا من شره، يقول الناقل: قلت لهم أن البهلوي هيأ المدارس للبنين والبنات وهيأ المناهج وهيأ الوزراء وهيأ المال وهيأ الجيش وهيأ الدبابات وهيأ النجدة والشرطة وغير ذلك ووجهها كلها في سبيل الإستعمار ومحاربة الإسلام، فهل أنتم تظنون أن الحمصات السود التي يقرأ عليها الأوراد تكون في قبال هذا الرجل وتكفي شره أنه ليست من عادة الله سبحانه وتعالى أن يستجيب الدعاء اعتباطاً وإنما قال سبحانه: (اتبع سبباً)(٦) فاللازم اتباع الأسباب الموصلة إلى النتائج ثم الدعاء لأجل ما ليس بيد الإنسان فإن هناك دائرتين:

دائرة ما بيد الإنسان، وهذا يجب على الإنسان إتباع الأسباب ففي الحديث: (أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها)(٧).

ودائرة ما ليس في اختيار الإنسان، وهذه الدائرة هي دائرة الدعاء فما بيد الإنسان يجب أن يعمل عليه وما بيد الله سبحانه وتعالى يأتي بالدعاء حتى يهيء الله سبحانه وتعالى أسباب النجاح والفلاح والوصول إلى الهدف. قال ذلك المتدين: وكان الأمر كما قلت حيث أن البهلوي ذهب إلى آخر الشوط الذي كان يقصده من تحطيم إيران اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً ودينياً وربطه بعجلة الإستعمار مما بقي أثره إلى الحال.

أهمية النظرة المستقبلية

لما دخل البريطانيون العراق أخذوا ينثرون المال على الشيوخ والرؤساء وغيرهم نثراً حتى يميلوهم إلى جانبهم في قبال المجاهدين العراقيين، لكن الذين ارتشوا بسبب البريطانيين اسقط في أيديهم بعدما وصلوا إلى النتائج المرة التي نواها الإستعمار، وبهذا الصدد ينقل: أن أحد شيوخ العراق استماله البريطانيون لصالحهم بإرشائه مائة ألف روبية ولما دخل الإنكليز البلاد وسيطروا على الأمر إشتكى بعض جيران الشيخ على الشيخ شكاية حول بستان كان للشيخ بأنه سبب ضرراً عليه بسبب سقيه الماء له فأحضره الحاكم الإنكليزي وأخذ منه خمسة آلاف روبية غرامة. ثم بعد مدة رفعت ضده شكاية ثانية: بأن تعدت بقرته على زرع الجيران، فاستحضره الحاكم البريطاني وأخذ منه وأخذ منه عشرة آلاف روبية وهكذا توالت الشكايات على الرجل حتى استرجع البريطانيون منه تسعين ألف روبية وعلم الشيخ بعد ذلك بالخطة المدبرة ضده فأخذ العشرة آلاف روبية الباقية في منديل وذهب بها إلى الحاكم

البريطاني وقال: أن المائة ألف روبية قد أخذتم منها تسعين ألفاً وهذه هي البقية الباقية منها، خذوها حتى لا تسببوا لي مشكلة جديدة، فضحك الحاكم البريطاني وأخذ العشرة آلاف ورجع الشيخ بخفي حنين!.

وهكذا حال الذين ينصرون الظالم على المظلومين ويبيعون بلادهم فإن عاقبتهم الخزي والدمار والخسارة والعار، ويندمون حيث لا ينفع الندم، ولو كان هذا الشيخ عارفاً بالمستقبل لم يبع بلاده ودينه ولم يصب بهذه الخسارة الفادحة ويصيبه هذه المخزاة الأليمة.

أجل! أمثال هؤلاء الحكام الجائرين والعلماء المرتبطين بهم – ممن تكالبوا على الدنيا ونسوا الله والآخرة – كانوا سبباً في خروج الناس من دين الله سبحانه وتعالى، كما قال ذلك الرجل حينما رأى الحاكم العباسي يطوف بالبيت فقرأ بصوت عال (بسم الله الرحمن الرحيم، إذا جاء نصر من الله والفتح، ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجاً) فاستغرب الحاكم من قراءته وطلبه وقال له: يا هذا قد أخطأت في قراءة القرآن.

قال: لا، لم أخطئ.

قال: إن الله تعالى يقول: (إذا جاء نصر الله والفتح، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً)(٨).

قال الرجل: نعم كان ذلك في زمن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أما في زمانك فالناس يخرجون من دين الله أفواجاً.

فلم يحر الحاكم جواباً.

نعم الرسول (صلى الله عليه وآله) بنى الإسلام على الأخلاق والواقعية، وهؤلاء الحكام الجائرون بنوا أمرهم على اللاواقعية وعلى سوء الأخلاق والانحراف فبينما نرى أن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الحكيم:

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)(٩).

نرى أن هؤلاء بنوا أمرهم على (الأسوأ فالأسوأ) فإن للإنسان مع عدوه أربع حالات:

موقف الإنسان الهادف

الحالة الأولى: أن يقابله بالأشد، وهذه الحالة هي سمة الفرد غير المتزن فإنه إذا صفعه إنسان مثلاً قتله، وإذا أراد إنسان قتله، قتله مع ذويه، وقد ورد النهي عن ذلك في الإسلام قال تعالى: (ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألاّ تعدلوا، اعدلوا هو أقرب للتقوى)(١٠). وقال سبحانه: (ولا تزر وازرة وزر أخرى)(١١). كما أن ذلك قبيح في منظار العقل.

وهذا ما نشاهده في حكام المسلمين اليوم فمثلاً: كان عبدالكريم قاسم قد أمر الحاكم بالحكم على من يسبّه بالسجن عشر سنوات بينما كان القانون يقتصر في عقوبة من سبّ الله أو النبي (صلى الله عليه وآله) بتغريمه ربع دينار فقط!.

والحالة الثانية: أن يقابله بالمثل وهذا جائز شرعاً لأن الطبيعة البشرية لا ترضى غالباً بما هو أدون من ذلك قال سبحانه: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)(١٢).

وقال تعالى: (والحرمات قصاص)(١٣).

وقال سبحانه: (وجزاء سيئة سيئة مثلها)(١٤).

وهذا ما يفعله غالباً، عقلاء العالم دون الذين يريدون الاستقطاب والجنوح إلى الفضل.

والحالة الثالثة: أن يقابله بالعفو والإغماض قال سبحانه: (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)(١٥).

أما الحالة الرابعة: فهي مقابلة المسيء بالاحسان والإستقطاب وهذه الحالة الأخيرة هي التي توجب التفاف الناس حول المبدأ وحول الحامل لذلك المبدأ كما قال سبحانه: (إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم، ولا يلقاها إلا الذين صبروا ولا يلقاها إلا ذو حظ عظيم)(١٦).

نماذج من التاريخ

وتاريخ الأنبياء والأئمة (عليهم الصلاة والسلام)، والعظام من المصلحين، مشحون بهذا القسم الرابع وهذا ما يجب أن يتخذه الممارسون للتغيير منهجاً لهم في حياتهم العملية إذا أرادوا نجاح الهدف.

مثالية الإمام المجدد

وقد حكى أن طالباً من الطلاب كان ينال من المجدد الشيرازي (رضوان الله عليه) وينتقصه وكان الميرزا يسمع ذلك دون أن يرد عليه شيئاً، حتى اشتكى إليه جماعة من أهل العلم وقالوا أنه ينبغي إخراجه وفصله عن الحوزة، لكن الميرزا أجابهم: (اتركوه وشأنه) وكان يجري عليه الراتب الشهري الذي يعطيه للطلاب (كما ورد في قصة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) مع الخوارج أنه كان يجري عليهم عطاياهم، كما أن الرسول (صلى الله عليه وآله) قبل ذلك كان يجري على المنافقين عطاياهم) وهكذا بقي هذا الطالب في سامراء.

وبعد سنوات جاء جماعة من معارف ذلك الطالب من طهران لزيارة العتبات المقدسة في العراق، فاقترح عليهم المجدد بأن يأخذوه وكيلاً عنه إلى بلدهم حيث أنهم يحتاجونه هناك.

فرحبوا بالفكرة مع علمهم بأنه ينتقص المجدد ومتعجبين من سعة صدره (قدس سره).

وهكذا كان، فقد أخذوا عالمهم معهم إلى طهران بعد أن أعطاه الميرزا مؤونة سفره ووكالة عنه.

وبعد سنوات جرت قضايا (التنباك) كما اتفق أن أصبح لهذا العالم مكانة رفيعة عند الأمة والدولة، ولما لم ير ناصر الدين شاه طريقاً إلا بإلقاء التفرقة بين رجال العلم، لعله يتمكن من إنقاذ ما أبرمه من الامتياز مع الغربيين، طلب من هذا العالم أن يهيء مجلساً يدعو فيه كافة العلماء ويخبرهم بأن الشاه يريد زيارتهم.

وهكذا فعل ذلك العالم فقد دعا العلماء البارزون في طهران. وجاء الشاه وجلس وقال لهم في ما قال: التنباك إن كان حلالاً فحلال محمد (صلى الله عليه وآله) حلال إلى يوم القيامة فكيف يحرمه المجدد؟

وإن كان حراماً فلماذا كنتم تستعملونه قبل ذلك؟

فقال أحد العلماء في جوابه: التنباك حلال في نفسه لكنه حرم بالعنوان الثانوي لأنه ضرر على الإسلام والمسلمين كما أن الماء حلال لكن شربه للمستسقى الذي يوجب له الضرر حرام، وهكذا فإن حلال محمد (صلى الله عليه وآله) حلال وحرام محمد (صلى الله عليه وآله) حرام لكنه (صلى الله عليه وآله) جعل إلى جنب هذا القانون قانوناً يحرم الحلال ويحلل الحرام، ففي الحديث (ما من شيء حرمه الله إلا وقد أحله لمن اضطر إليه)(١٧).

فالحرام يصبح حلالاً للمضطر كما أن الحلال يصبح حراماً فيما إذا كان فيه ضرر وذلك طبقاً للقانون الذي وضعه رسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث قال: (لا ضرر ولا ضرار)(١٨).

وبعد مناقشات حامية دارت بين الشاه وبين العلماء غضب الشاه وتوجه إلى العلماء قائلاً: وأخيراً ماذا تفعلون؟ فلم يستطع أحد منهم مجابهة الشاه وتحدي غضبه إلا هذا العالم (الذي كان في يوم ما طالباً في سامراء ينتقص الميرزا) فتوجه إلى الشاه قائلاً: أن إمام المسلمين المجدد الشيرازي حرم التنباك لأنه ضرر على المسلمين ونحن بانتظار أن ينفذ الشاه حكمه، فإذا نفذ حكمه فهو وإلا نحن ننفذ حكمه بالسيف. فغضب الشاه وقام وذهب ولم ينل شيئاً.

ووصل الخبر إلى الميرزا في سامراء وجاءته بعض الرسائل المحتوية على ذكر هذا المجلس وما جرى فيه، فطلب المجدد أولئك الذين كانوا يقترحون عليه إخراج هذا الطالب من الحوزه وفصله وقال لهم: هل كنا نستفيد هذه الفائدة الكبيرة إذا كنا قد استمعنا إلى كلام من كان يقول بإخراجه وفصله؟

فاعترف الجميع بإصابة نظر المجدد وأنه كان أبعد نظراً ورؤية منهم.

رحابة صدر الميرزا الشيرازي

نقل والدي رحمه الله: أن إنساناً جاء إلى الميرزا محمد تقي الشيرازي (قدس سره) يريد منه شيئاً من المال وحيث لم يكن المال متوفراً آنذاك للميرزا، اعتذر منه فأخذ ذلك الرجل يسب الميرزا في وجهه والميرزا ساكت لا يتكلم فأراد جماعة من الجالسين تأديب الرجل لكن الميرزا أشار إليهم بعدم التعرض له، وقال أن الفقر أو جب الحدة فيه فاتركوه وشأنه فقام الرجل وذهب.

وبعد أيام جيء إلى الميرزا بأموال لأجل قضاء صلوات وصيام عن الأموات ففرق الميرزا الأموال في مواردها وأبقى حصة منها لذلك الرجل وأوصى بها من يوصلها إليه حتى يقضي عن الميت صلاته وصومه فاعترض على الميرزا جماعة من الحاضرين، وقالوا له: شيخنا هل السب من الكبائر الموبقة؟

قال: نعم.

قالوا وهل أنتم تشترطون العدالة فيمن يقضي صلوات الأموات وعبادتهم؟

قال: نعم.

قالوا: فإن الرجل سبّكم قبل أيام فهلا أسقطه سبّه عن العدالة؟

فتوجه الميرزا إليهم وقال: نعم إني أشترط فيمن يقضي صلوات الأموات وصيامهم العدالة، والسبّ أيضاً من الكبائر المسقطة للعدالة، لكن سب مثله لمثلي لا يوجب سقوط عدالته – وأراد بذلك أنه قد سبّه اضطراراً من جهة فقره لا أنه سبّه عن عمد – والميرزا زعيم المسلمين فينبغي له أن يعفو عن المذنبين.

تغاضي الشيخ المازندراني

وينقل عن العالم الكبير الشيخ زين العابدين المازندراني رحمه الله الذي كان من المراجع الكبار قبل قرن من الزمان تقريباً أنه قصد زيارة الإمام الحسين (عليه السلام) مع جماعة من أصحابه وفي أثناء الطريق التحق بهم سيد فقير وطلب من الشيخ شيئاً من المال يصلح به أمره.

قال له الشيخ: إنني الآن لا أحمل معي من المال شيئاً فإذا رجعت من الحرم الشريف فتعال إلى داري حتى أعطيك ما تحتاجه.

لكنه أخذ يصرّ في طلبه، ولما لم ير من الشيخ جواباً بصق في وجه الشيخ مما سبّب إثارة الذين كانوا معه فأرادوا تأديبه وضربه لكن الشيخ منعهم عن ذلك ومسح بيده على البصاق الذي كان على وجهه وقال: إني أرجو أن لا تمس وجهي النار بسبب بصاق واحد من ذرية رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيشفع لي الرسول يوم القيامة.

ثم توجه إلى السيد وقال: تعالى إلى البيت بعد رجوعي عن الحرم حتى أعطيك ما قسّم الله لك وذهب إلى الحرم الشريف.

دروس أخلاقية

والآن.. لننظر إلى منتهى الشموخ والرفعة في دعاء الإمام السجاد (عليه السلام) حيث يطلب من الله تعالى العفو عمن ناله بمكروه بقوله(عليه السلام): (اللهم وأيما عبد نال مني ما حظرت عليه فاغفر له ما ألمّ به مني واجعل ما سمحت به من العفو عنهم وتبرعت به من الصدقة عليهم في أزكى صدقات المتصدقين وأعلى صلاة المتقربين وعوضني عن عفوي عنهم عفوك حتى يسعد كل واحد منا بفضلك وينجو كل منا بمنك(١٩).

كما أن الإمام (عليه السلام) كان يعتذر في دعائه عن عدم قبول عذر من اعتذر إليه – ومن الطبيعي أن ذلك كان تعليماً لنا نحن المسلمين وإلاّ فمقامه (عليه السلام) أجل من أن يصنع ذلك – ويقول: (اللهم إني أعتذر إليك من مظلوم ظلم بحضرتي فلم أنصره، ومن معروف أسدى إليّ فلم أشكره، ومن مسيء اعتذر إليّ فلم أعذره، ومن ذي فاقة سألني فلم أوفره، ومن عيب مسلم ظهر لي فلم أستره، ومن كل إثم عرض لي فلم أهجره، واجعل ندامتي على ما وقعت فيه من الزلات وعزمي على ترك ما يعرض لي من السيئات توبة توجب لي محبتك يا محب التوابين)(٢٠).

وكان (عليه السلام) يقول في دعاء مكارم الأخلاق (اللهم صل على محمد وآله وسددني لأن أعارض من غشني بالنصح، وأجزي من هجرني بالبر، وأثيب من حرمني بالبذل، وأكافئ من قطعني بالصلة، وأخالف من اغتابني إلى حسن الذكر، وأن أشكر الحسنة وأغضي عن السيئة، اللهم صل على محمد وآله وحلّني بحلية الصالحين وألبسني زينة المتقين في بسط العدل، وكظم الغيظ، وإطفاء النائرة، وضم أهل الفرقة، وإصلاح ذات البين، وإفشاء العارفة، وستر العائبة، ولين العريكة، وخفض الجناح، وحسن السيرة، وسكون الريح، وطيب المخالقة، والسبق إلى الفضيلة، وإيثار التفضل، وترك التعيير، والإفضال على غير المستحق، والقول بالحق وإن عز، واستقلال الخير وإن كثر من قولي وفعلي، واستكثار الشر وإن قلّ من قولي وفعلي وأكمل ذلك لي بدوام الطاعة ولزوم الجماعة ورفض أهل البدع ومستعملي الرأي المخترع...)(٢١).

١ . أصول الكافي: ج١، ص٢٦، كتاب العقل والجهل ح٢٩.
٢ . سورة الكهف: الآية ٨٩.
٣ . سورة الحجرات: الآية ١٠.
٤ . سورة الحجرات: الآية ٩.
٥ . سورة النساء: الآية ١٢٣.
٦ . سورة الكهف: الآية ٨٩.
٧ . الكافي: ج١، ص١٨٣، باب معرفة الإمام ح٥٧.
٨ . سورة النصر: الآية ١-٢.
٩ . سورة النحل: الآية ١٢٥.
١٠ . سورة المائدة: الآية ٨.
١١ . سورة الأنعام: الآية ١٦٤.
١٢ . سورة البقرة: الآية ١٩٤.
١٣ . سورة البقرة: الآية ١٩.
١٤ . سورة الشورى: الآية ٤٠.
١٥ . سورة الأعراف: الآية ١٩٩.
١٦ . سورة فصلت: الآية ٣٤-٣٥.
١٧ . وسائل الشيعة: ج٣، ص٢٧٠، الباب١٢، ح٨.
١٨ . وسائل الشيعة: ج١٧، ص٣٣٣، الباب٧، ح٢.
١٩ . الصحيفة السجادية من دعائه (عليه السلام) في طلب العفو، رقم ٣٩.
٢٠ . الصحيفة السجادية من دعائه (عليه السلام) في الاعتذار، رقم ٣٨.
٢١ . الصحيفة السجادية من دعائه (عليه السلام) في مكارم الأخلاق، رقم ٢٥.

الفصل الثاني: أساليب أخرى للتغيير

التغيير السياسي والاجتماعي

ترسيخ الوحدة الإسلامية

من أهم ما يجب أن يحول الممارسون للتغيير دون وقوعه: التفرقة بكل أقسامها وألوانها من إقليمية وعرقية وعنصرية ولغوية ولونية وغيرها، لا باللفظ ووضع القانون فقط بل بجعل التساوي بين الجميع في كل مراحل الحياة حسب ما قرره الإسلام فقد قال سبحانه: (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)(١).

وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) : (الناس سواسية كأسنان المشط كلهم من آدم، وآدم من تراب لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى)(٢).

وكان الرسول (صلى الله عليه وآله) يعامل المسلمين وفق هذه القاعدة حتى جاء الأمويون وفضلوا العنصر العربي على غير العربي، وجاء بعدهم العباسيون ففضلوا العنصر الإيراني مرة، والتركي أخرى والعربي ثالثة، ثم جاء العثمانيون ففضلوا العنصر التركي على غير التركي ويكفينا أن نعلم أن التفرقة تعد من السمات البارزة للمجتمع المتخلف.

التفرقة شرارة الحرب

وقد سبب كل ذلك تأخر الإسلام والمسلمين فإن التفرقة أساس كل تأخر، ونشوب أغلب النزاعات الدامية، فإن كثيراً من الحروب التي رأيناها إنما كان منطلقها التفرقة التي سببها الحكام الجاهلون أو أذناب الاستعمار، فمثلاً الحرب العراقية الكردية التي دامت أكثر من نصف قرن واشتعلت مجدداً منذ ثلاثين سنة لم يكن سببها إلا التفرقة بين العرب والأكراد، وبهذه المناسبة ننقل ما تلقيناه في زمن قاسم وعبد السلام عارف من الضغوط لإصدار فتوى بوجوب محاربة العراقيين للأكراد، لكنا أبينا عن ذلك، وصبرنا على تهديداتهم، فمثلاً: جاءنا وفد من قبل عبد السلام يقول: بأن هؤلاء إستعماريون ويريدون بلبلة البلاد وشق الصفوف فاللازم عليكم تصدير فتوى بوجوب الحرب ضدهم والنفير العام للعراقيين لمحاربتهم حتى يستأصلوا شأفتهم.

قلنا: وإن لم نفعل؟

قالوا: فيجب أن تستعدوا لتحمل النتائج؟

قلنا: إننا مستعدون لما نتلقاه في هذا السبيل.

قالوا: وما يمنعكم عن الفتوى؟

قلنا: واضح لأن الأكراد، مسلمون كما أن العرب مسلمون فإذا أنتم بنيتم حكومتكم على القومية العربية فهم تعلموا منكم ويريدون أن يبنوا حكومة لأنفسهم على القومية الكردية وهل باؤكم تجر وباؤهم لا تجر؟

إن المناصب الكبرى في الدولة محرمة على الأكراد فهل بعد ذلك نتمكن أن نقول لهم لا تحاربوا حتى يستعمركم العرب العراقيون؟

ثم أضفنا: إنكم إذا طبقتم المساواة الإسلامية بين الأكراد والعرب حتى يتمكن الكردي المسلم كأخيه العربي المسلم من الوصول إلى العلم والمال والقدرة والمنصب والسلاح وغير ذلك من الشؤون الشخصية والاجتماعية، ففي ذلك اليوم يلقي الكردي سلاحه تلقائياً لأنه يعرف أنه أخ ويعامل معاملة الأخ، أما إن تستبدوا بكل المزايا وتقولوا للأكراد لا تحاربوا واستسلموا لكي تكونوا في الدرجة الثانية فهذا شيء غير منطقي كما أنه غير إسلامي.

فرجع الوفد خائباً حانقاً، يتربص بنا الدوائر، ويستهدفنا بسهامه وضغوطه.

بين الأمس واليوم

إن من المؤسف جداً أن الإنسان لا يدخل بلداً من بلاد الإسلام إلا ويرى التفرقة بادية فيها، ولا بين هذا البلد وذاك البلد – مما رسم حدودهما المستعمرون – فحسب بل بين الأقوام المختلفة الذين يقطنون في بلد واحد حيث يأخذ بعض أولئك القاطنين بزمام الحكم ويضطهد الآخرين تحت ألف شعار واسم.

بينما نرى المسلمين في العهد الإسلامي، كانوا يقربون بين اللغات والأقوام ويدنون بعضهم إلى بعض.

لكن نرى في عصر الانحطاط – وهو هذا القرن الذي وصل انحطاط المسلمين فيه إلى الحضيض، نرى أن الأشعار والموازين كلها قد انقلبت، وتلونت بلون التفرقات اللغوية والعنصرية وغير ذلك، مثلاً ترى أشعاراً من الأكراد ضد العجم ومن العجم ضد الأكراد، كما ترى أشعاراً من الترك ضد الفرس، ومن الفرس ضد الأتراك، وهكذا تجد أشعاراً من العرب والفرس يضاد كل منهما الآخر مما يربأ القلم أن يدوّن شيئاً من هذه الأشعار، فاللازم إزالة كل هذه التفرقات.

محو آثار التفرقة

كما أن من اللازم إزالة آثار التفرقة الموجودة في بلاد الإسلام فاختلاف المقادير واختلاف النقود واختلاف التواريخ مما يوجب تفرقة الأمة الإسلامية، مثلاً ترى في مدارس العراق يدرس تاريخ البابليين وفي إيران تاريخ الساسانيين وفي مصر تاريخ الفراعنة، وهكذا. بينما اللازم أن نترك كل تلك التواريخ بالمرة أو نذكرها كما ذكرها القرآن الحكيم، باعتبارها فاصلاً بين دعوة الأنبياء ودعوة الملوك.

ثم أنه من المؤسف أن نجد حتى الأحزاب الإسلامية في وسائل إعلامها وتنظيماتها تهتم بقطر خاص وبلد دون آخر.

مثلاً الأحزاب العراقية والباكستانية والمغربية وغيرها كل يهتم بقطره، وكأن الحدود الاستعمارية المجعولة لبلاد الإسلام هي محور الأخذ والعطاء حتى للأحزاب والحركات الإسلامية.

وبعضهم يعلل ذلك بعدم الإطلاع عن الأقطار الأخرى وبأن لكل مكان مشكلة خاصة يلزم حلها، وبعضهم يستدل إضافة إلى ذلك بقوله سبحانه: (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار)(٣) وكما قيل الأقربون أولى

بالمعروف(٤) أو ما أشبه ذلك مما لا يرتبط بالواقع الإسلامي إطلاقاً، فإنه من الإستدلال بما ليس بدليل على الموضوع المدعى.

وأما الوحدة الإسلامية بين السنة والشيعة فقد كتبنا عنهما كتاباً مستقلاً نذكر هنا بعض مقاطعه.

شعار الوحدة الإسلامية

الوحدة الإسلامية كشعار، وكبديل لعواطف غير نابعة من القلب شيء سهل، أما إلباسها لباس الواقع المباشر فهو بحاجة إلى طرح متكامل، يلف الأمة والدولة من ناحية، ومختلف الاتجاهات التقليدية والمراجع والعلماء من ناحية ثانية.

ولعل هذا الطرح الذي نذكره يفي بالأمرين:

أن في العالم الإسلامي (الأعم مما يسمى بالبلاد الإسلامية، أو الذي يسمى بالبلاد غير الإسلامية) ألف مليون مسلم(٥) نصفهم شيعة ونصفهم سنة وهؤلاء متشابكون في البلاد، وإن كان الأكثر في بعض البلاد شيعة. وفي بعض البلاد سنة، كما أنهما يتساويان في بعض البلاد الأخرى.

فإذا أريد جمع هؤلاء في وحدة دينية حكومية واحدة، فاللازم أمور:-

١ . جمع كل مراجع تقليد الشيعة في مجلس أعلى يحكمون فيه بأكثرية الآراء.

٢ . جمع كل مراجع السنة والعلماء الذين يتبعونهم في أخذ الأحكام في مجلس أعلى يحكمون فيه بأكثرية الآراء.

٣ . وهذان المجلسان، يجمعهم مجلس واحد، فإذا أريد صدور حكم بالنسبة إلى إحدى الطائفتين فقط، كان لعلمائهم إصدار الحكم بأكثرية الآراء، وإذا أريد صدور الحكم بالنسبة إلى الجميع - حيث أن الأمر يهم كل الألف مليون مسلم، من جهة سلم أو حرب أو ما أشبه - كان الحكم يتبع أكثرية آراء المجلسين معاً، لكن بمعنى أكثرية هذا المجلس وهذا المجلس، لا بمعنى الأكثرية المطلقة.

مثلاً لنفرض أن في كل مجلس تسعة من العلماء مما يشكل المجموع ثمانية عشر، فإذا أريد حكم على البلد الإسلامي ذي الألف مليون مسلم، كان اللازم (خمسة) من كل مجلس، لا عشرة وإن كان تسعة منهم من مجلس، وواحد من مجلس (وذلك لأن الأكثرية المطلقة ليست محلاً لقبول الطائفة الذين لا يحكم أكثرية علمائهم).

٤ . وكل طائفة من الطائفتين، لهم حرية المناقشات الأصولية والفروعية وإنما لا يحق لطائفة أن تعتدي إعتداءاً جسمياً أو مالياً على طائفة أخرى (فإن حرية الرأي والكلام والنشر وما أشبه من مفاخر الإسلام الذي جاء لإنقاذ الإنسان من الكبت ومن كل أنواع الكبت).

٥ . ثم ينبع من المجلس الأعلى و (شورى العلماء) أحزاب إسلامية حرة، كل حزب في نطاق طائفته، وتكون هذه الأحزاب مدارس سياسية، اقتصادية اجتماعية، تربوية، لأجل تربية الصالحين لإدارة البلاد في المجالات التأطيرية: (التشريعية) والقضائية والتنفيذية.

وينصب الولاة من جنس الأكثرية في القطر، بدون أن يحدد ذلك من حريات الأقلية وكذلك حال القضاة ومن إليهما.

وتكون مهمة هذا المجموع: (العلماء والأحزاب) إرجاع الأمة الواحدة الرشيدة إلى الحياة، وإرجاع حكم الله سبحانه، فإن الدولة والأمة لا تخلوان من أحوال:

أ – أن تكون القوانين دنيوية بحتة كبلاد الوثنيين والشيوعيين.

ب – أن تكون القوانين دينية بحتة بدون ملاحظة الدنيا، كبلاد المسيحية في القرون الوسطى.

ج – أن تكون قوانين دينية بيد العلماء، وقوانين دنيوية بيد الحكام، بأن يكون ما لله لله وما لقيصر لقيصر (على إصطلاحيهم) كما في البلاد الغربية الآن.

د – أن تكون قوانين دينية بيد العلماء وقوانين دنيوية بيد الحكام، كما في بلاد الإسلام اليوم.

هـ – أن تكون القوانين دينية ودنيوية بيد العلماء الذين هم الحكام، ويساعدهم الأخصائيون من المثقفين.

الأول: إرهاب بحت وتأخر فظيع.

والثاني: خراب للدنيا.

والثالث: يوجب انفلات الدنيا عن الروح مما يسبب الإستعمار في الخارج والإستعمار والفساد في الداخل.

والرابع: يوجب التناقض بين الجهتين وولاء للناس في مكانين متضادين وتدافع بين الأحكام والأمة.

فلم يبق إلا الخامس: الذي هو عمارة للجسد والروح، وتلائم بين الدين والدنيا، وهذا هو الذي فعله الرسول (صلى الله عليه وآله) وخلفاؤه الأبرار وأمر به الكتاب والسنة.

١ . سورة الحجرات: الآية ١٣.

٢ . الاختصاص: ص٣٢١.

٣ . سورة التوبة: الآية ١٢٣.

٤ . انظر كشف الخفاء: ج١، ص١٦١ رقم ٤٨٦.

٥ . ألف وخمسمائة مليون – حسب بعض الإحصاءات الأخيرة.

وضع المنهاج الصحيح للمواجهة

وضع المنهاج الصحيح للمواجهة

ومن أهم ما يجب على دعاة التغيير وممارسيه: سنّ منهاج قويم للمواجهة مع الأعداء، حيث أن جعل المنهاج الصحيح لممارسي التغيير من أهم ما يلزم فلولا المنهاج الصحيح لم تكن الممارسة إلا خطأ ونشير هنا إلى قواعد أساسية في عملية (المواجهة مع العدو) وإلى كيفية تلك المواجهة.

لا.. للانتحار

الأول: على ممارسي التغيير أن يلاحظوا عدم وضع استراتيجية تؤدي إلى الانتحار فإن الانتحار أسوأ شيء، سواء كان بالنسبة إلى الفرد في مجاله أو الحزب في نطاقه، وكذا الجماعة في مجالها أو الأمة في نطاقها، ولذا نجد أن الغرب والشرق مع تملكهما للأسلحة النووية المدمرة لا يستعملانها، لأن ذلك يعني انتحارهم.

متى يصحّ العمل الاستشهادي؟

نعم العمل الاستشهادي إنما يصح إذا كان الاستشهاد لابد منه حيث تكون الشهادة محتومة في حالتي الإقدام والإحجام، وحينئذ يختار الإنسان أفضل الطريقين وهو طريق الاستشهاد لأنه يوجب كسب المستقبل. ولذا نرى أن الإمام الحسين (عليه السلام) لما خيّر بين الأمرين يعني الاستشهاد مع الإقدام أو الاستشهاد مع الإحجام، قدم الاستشهاد مع الإقدام، وقد أشار (عليه السلام) إلى ذلك بقوله لابن الحنفية وغيره: إن بني أمية لا يتركونني، ولو دخلت في ثقب هامة من هذه الهوام لاستخرجوني حتى يقتلوني(١).

ولهذا نرى أن الإمام (عليه السلام) كان يفرق جموعه وأصحابه أخذاً من المدينة المنورة وانتهاءاً بليلة عاشوراء حيث قال لأصحابه: (اتخذوا هذا الليل جملاً وليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي وتفرقوا في سواد هذه الليلة)(٢) فإنه (عليه السلام) حيث كان يريد الاستشهاد الذي فيه تقدم الإسلام والمسلمون وإزالة الظلم والظالمين ويريد جعل الاستشهاد خطا على طول الطريق لمكافحة الحكام الظالمين، أراد أن يكون استشهاده محفوفاً بأكبر قدر ممكن من المظلومية حيث أن المظلوم يستجمع العواطف حوله.

وقد حكى عن (غاندي) السياسي المعروف أنه قال: (تعلمت من الحسين كيف أكون مظلوماً فأنتصر).

وقال الشاعر عن لسان الإمام الحسين(عليه السلام):

إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي يا سيوف خذيني

الحرب غير المباشرة

الثاني: أن يلاحظ ممارسو التغيير أن يكون هجومهم غير مباشر فإن الهجوم غير المباشر يكون أقوى من الهجوم المباشر، من غير فرق بين المعركة العسكرية أو المعركة السياسية أو المعركة الإقتصادية أو غيرها من المعارك التي تقع بين جانبين فإنه إنما يربح الجانب غير المباشر في هجومه.

مثلاً: البائع إذا بيّن للمشتري جودة بضاعته بالصراحة يحجم المشتري عن الإقدام لأنه يراه نوعاً من الدعاية غير الواقعية بينما إذا أوحى البائع للمشتري الجودة بطريق غير مباشر وإن المعاملة تنفع المشتري، أقدم المشتري على الإشتراء بإلحاح، وهكذا نرى الصياد إذا أراد الصيد لا يهاجم الحيوان من أمامه وإنما يقدم عليه ملتفاً من خلفه أو يجعل أمامه ما يظن الصيد أنه طعمته بينما يخفى الفخ وراء الطعمة.

وقد ورد في الروايات أن الرسول (صلى الله عليه وآله) في بعض حروبه كان لا يواجه العدو بالصراحة، فإذا أراد أن يذهب إلى عدو في جانب الشرق – مثلاً – يأخذ أصحابه إلى جانب الغرب ثم يلتف نحو مقصده وذلك لكي يخفي هدفه على العدو، ولئلا يستعد العدو للمعركة مما يسبب إراقة الدماء وربما يسبب عدم ضمان النصر أيضاً. وهكذا فعل (صلى الله عليه وآله) في قصة فتح مكة وغيرها مما هو مذكور في السيطرة المطهرة(٣).

تحاشي الاصطدام بالعدو

الثالث: يلزم تحاشي التصادم مع العدو بالقدر الممكن، فإن التصادم يوجب تركيز العدو لقواه فيتمكن من كسب المعركة، وحتى إذا لم يتمكن من كسب المعركة فإن الضرر في جبهة المسلمين سيكون كثيراً.

مثلاً نرى أن عدم تصادم الحركة الهندية مع الإستعمار البريطاني في قضية تحرير الهند أوجب نجاح الحركة بأقل قدر من الضرر، فكل الضحايا من بدء الحركة إلى تسلم الشعب الهندي والباكستاني الحكم كانوا زهاء أربعة ملايين من أصل خمسمائة مليون شخص(٤)، أي أنهم قدّموا عن كل مائة وخمسة وعشرين: شخصاً واحداً، بينما نرى أن حركة الجزائر التي اصطدمت مع الفرنسيين خلفت من الضحايا مليوناً ونصفاً على أوسط تقدير حيث أن هناك تقديرين آخرين أحدهما يقول: مليون ضحية، وثانيهما يقول: مليونين من (الضحايا) ومن المعلوم أن نفوس الجزائر آنذاك كان أقل من تسعة ملايين إنسان، ومعنى ذلك أن سدس الجزائر قتلوا في سبيل تحرير الخمسة أسداس الأخرى، ومع ذلك نرى أن الحركة الديمقراطية في الهند وصلت إلى هدفها بينما الحركة الديمقراطية في الجزائر أجهضت، وتسلمت السلطة حكومة دكتاتورية جعلت الجزائر قاعدة إستعمارية، منتهى الأمر تحول الإستعمار الجزائري من فرنسا إلى أمريكا.

فاللازم على ممارسي التغيير أن يشتغلوا بتقوية أنفسهم ويتناوشوا الاستعمار الشرقي والغربي وعملاءه من طرف خفي حتى إذا استحكمت قواهم وتمكنوا من المواجهة، دخلوا الساحة وهم على أكمل استعداد بينما العدو قد ضعف وأصبح لا يتمكن من إجهاض الحركة أو تحريفها أو سرقتها كما هو شأن الشرق والغرب حيث أنهم يقومون بإجهاض الحركات أو تحريفها إلى حيث يريدون إذا لم يتمكنوا من إجهاضها، وكثيراً ما تخرج بعض الأقطار من استعمار إلى استعمار آخر كما شاهدنا أن فيتنام خرجت من الاستعمار الأمريكي إلى الاستعمار الشيوعي وهو أسوأ الاستعمارين.

استخدام الطرق الجديدة

الرابع: على ممارسي التغيير الابتعاد عن الطرق المعروفة للعدو مما يسبب أن يقف العدو في الطريق ويسده على الحركة، وهذا يتطلب إختراع الطرق غير المعروفة لدى العدو، حتى تتمكن الحركة من الوصول إلى الهدف بسلام وبدون أن تواجه هذا المحذور.

الخامس: على ممارسي التغيير عدم الإصرار على متابعة الطرق التي ظهرت للعدو ووقف لها بالمرصاد فإن ذلك كثيراً ما يوجب الانتكاس.

ولهذا نرى أن الرسول (صلى الله عليه وآله) كان يلاحظ هذا الأمر بدقة فإنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لما حاصر الطائف جاءه إنسان وقال: يا رسول الله هل هذا من الله أو بالمشورة.

قال الرسول (صلى الله عليه وآله) إنه بالرأي والمشورة.

قال: فليس من الصلاح حصارنا للطائف لأن أهل الطائف جمعوا لأنفسهم زاد سنة وبلدهم محصن بالسور فبقاؤنا هنا يسبب انزعاج الجيش الإسلامي وتشتته وتبعثره، فمن الأفضل أن ننسحب مؤقتاً حتى يهيئ الله أسباب الفتح.

فاستجاب الرسول (صلى الله عليه وآله) له وقبِل مشورته وعاد المسلمون إلى المدينة المنورة(٥).

ومن المعلوم أن الرسول (صلى الله عليه وآله) كان مأموراً باستشارة المسلمين ليستدرجهم إلى هذه الروحية وإلا فالرسول المتصل بالوحي كان أعلم بكل شيء منهم، وهذا من محاسن الإنسان المتحلي باللين وقد قال سبحانه: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك)(٦).

النفوذ من نقاط الضعف

السادس: تتبع الثغرات الموجودة في صفوف العدو والهجوم عليه من خلالها فإن ذلك يسبب تضعيف العدو بدون أن يتحمل ممارسي التغيير عناءً كبيراً.

مثلاً: إذا رأينا أن بلاد الغرب اتحدت يجب علينا أن نبدأ بالهجوم على الجزء الضعيف منها لا الجزء القوي فإذا تمكنا من إسقاط الجزء الضعيف ضعف الجزء القوي أيضاً وأمكن الهجوم عليه.

ولذا نرى أن الرسول (صلى الله عليه وآله) فصم عرى التحالف الماكر بين المشركين واليهود ثم بدأ باليهود الذين كانوا أضعف من المشركين في تلك الحقبة من الزمن، وبعد أن تخلص من شرهم تفرغ لأهل مكة في قصة معروفة.

ولا فرق في هذه القاعدة بين أن تكون في الطرف المقابل قوى متحالفة، أو تكون قوة واحدة في بعض أطرافها ضعف كما نرى أن العباسيين لما أرادوا الهجوم على الأمويين لم يبدأوا بالهجوم على عاصمة ملكهم وهي الشام ولا على جهة القوة في ملكهم وهي العراق وإنما شرعوا بالهجوم من الأطراف البعيدة للدولة وهي خراسان.

كذلك نرى أن إسكندر المقدوني عوض أن يهاجم مدينة بابل، المركز الأصلي والقوي للإمبراطورية الفارسية، هاجم سورية ومصر وبذلك أسقط القوى البحرية والقوى الاقتصادية الفارسية المتمركزة في سورية ومصر.

بعثرة قوى الأعداء

السابع: تفريق ممارسي التغيير قواهم في الظاهر حتى يشتغل الأعداء بالقوى المختلفة ويصيبهم تبعاً لذلك، وإنما يركز ممارسو التغيير قوتهم الواقعية على الجانب الذي يتمكنون من إسقاطه.

ولذا نرى أنّ الرسول (صلى الله عليه وآله) في حرب خبير شتت القوى وحاصر قلاعاً متعددة من خبير – وكانت قلاعاً سبع – ووجه الهجوم الرئيسي على القوة المركزية في خبير.

وهذا الطريق من أفضل الطرق لتشتيت قوى العدو، حتى لا يتمكن من التجمع لعدته وعدده، والهجوم الكاسح على القوى ممارسي التغيير.

ترميم النواقص

الثامن: على ممارسي التغيير إزالة نقاط الضعف الكامنة في أنفسهم فيلاحظوا أن العدو يريد النفوذ من أية ثغرة، ثم يعالجوا تلك الثغرة حتى لا يتمكن العدو من الهجوم على نقطة الضعف.

وكذلك كان حال المحاصرين للقلاع في الأزمنة السابقة حيث كانوا يدخلون البلد من نقطة ضعف يكتشفونها في القلعة.

ولنفرض هنا مثالاً صغيراً وهو: إذا أرادت الدولة الضغط على جماعة لها مؤسسات، فاللازم أن تقوي الجماعة المؤسسات الأضعف التي تتمكن الدولة من غلقها أو الإستيلاء عليها، مثلاً: إذا كان لجماعة مستوصف ومدرسة ومسجد فإن الدولة قد تتمكن من غلق الأولين دون الثالث – حيث يوجب رد فعل جماهيري شديد – ولذا فاللازم على الجماعة تقوية المؤسستين الأوليين وكذلك الأمر إذا أرادت الدولة إلقاء القبض على بعض أفراد الجماعة حيث يتم تهريب الفرد الضعيف الذي تقوى الدولة على إلقاء القبض عليه دون الفرد القوي الذي تهابه الدولة.

لا.. للاستفزاز

التاسع: عدم الاستفزاز فإنه كثيراً ما يكون الاستفزاز سبباً لكي يعبّئ العدو قواه ويضرب الحركة بينما لا يفعل مثل ذلك إذا لم يستفز.

ولذا ورد في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة الاحتراز عن السب بالنسبة إلى الطرف المقابل. قال سبحانه: (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم)(٧).

وقال أمير المؤمنين (عليه السلام) في حربه مع معاوية في صفين: (إني أكره لكم أن تكونوا سبابين)(٨).

وهذا هو وجه الجمع بين هذه الآية والرواية وما شابههما من الأدلة الناهية عن السباب وبين بعض ما نجده في القرآن الحكيم مثل: (عتل بعد ذلك زنيم)(٩)، أو في السنة المطهرة من باب: (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم)(١٠).

أما ما نجد من شدّة علي (عليه السلام) في الكلام مع بعض الكفار أو المنافقين أو المجرمين، فسره أنه كان يريد إدارة دولة كبيرة ممتدة من (ليبيا) إلى (داغستان) في الاتحاد السوفياتي – وكان يريد أن يدير هذه البلاد بدون قتل ولا تعذيب ولا مصادرة مال ولا سجن ولا ما أشبه مما يرتكبه الحكام الدكتاتوريون، بل الديمقراطيون أيضاً فإن

الديمقراطيين اليوم تراهم يملأون البلاد بالسجون ويجعلون الغرامات وما أشبه لردع المجرمين ولذا كانت سيرة علي (عليه السلام) فوق مستوى سيرة الديمقراطيين أيضاً حيث أبدل كل ذلك التشديد العملي بالشدة في الكلام زماناً، والتقريع اللساني أحياناً، وهو أقل محذوراً وأحمد عاقبة.

خطر الاستدراج

العاشر: على ممارسي التغيير المراقبة التامة لكي لا يقعوا في مصيدة استدراج العدو فكثيراً ما يستدرج العدو الحركة المناوئة من حيث لا تعرف فتقع في الفخ الذي أرادت أن تهرب منه.

فإن الحركات الاجتماعية حالها حال الحركات العسكرية فكثيراً ما يريد أحد الطرفين استدراج الطرف الآخر وجرّه إلى سهل من الأرض حتى يتمكن من الإجهاز عليه بينما ذلك الطرف متحصن بالجبال فلو عرف ذلك الطرف أن خصمه يريد استدراجه من حيث لا يعلم، لم يخرج من جباله الحصينة إلى السهول المنفتحة التي تجعل منه طعمة سائغة للعدو.

طريق الانسحاب

الحادي عشر: على ممارسي التغيير الاحتفاظ بطريق الانسحاب حتى إذا لم يتمكنوا من اختراق العدو ولا من البقاء في مواقفهم انسحبوا حفاظاً على ما تبقى من قدراتهم. وذلك كالحركات العسكرية التي قد لا تجعل لنفسها طريق الإنسحاب فإذا غلب عليها العدو أبادها بينما إذا أبقوا لأنفسهم طريق الإنسحاب تمكنوا من إنقاذ بعض قواهم حتى يعيدوا الكرة في مرحلة جديدة.

وهذا هو ما فعله المسلمون في قصة حرب مؤتة حيث أنهم لم يتمكنوا من مقابلة الكفار وقد قتل قادتهم الثلاثة الذين نصبهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) قادة على الجيش الإسلامي.

فأخذوا في الانسحاب ورجعوا إلى المدينة بسلام وتمكنوا من إعادة الكرة على تلك المناطق، بعد لأي من الزمن في قصة مشهورة في التواريخ.

وهكذا فعل رسول الله (صلى الله عليه وآله) في صلح الحديبية حيث أمر جيشه بالإنسحاب وتمكن من فتح مكة بعد مدة من الزمن.

الإعلام المضاد

الثاني عشر: الدعاية ضد الجائرين بكل أقسام الدعاية حتى إذا فاتت الإنسان الدولة لا يفوته الشعب، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق. وذلك لأن الجائر يفسد ويفسد وكلما بقي يزداد إفساداً وفساداً فلا بد من ردعه.. وفي قصص (كونفشيوس) أنه مر على امرأة في الصحراء وكانت وحيدة في خباء فقالت المرأة: نجني من النمر الكاسر يا معلم الخير.

قال كونفشيوس: وما هو النمر الكاسر؟

قالت: إنني كنت أسكن أنا وأبي وزوجي وإبني في هذه الصحراء منذ سنوات وفي السنة الأولى مر علينا نمر فافترس أبي، وفي السنة الثانية مر النمر فافترس زوجي، وفي السنة الثالثة مر النمر وافترس ولدي، وها أنا بقيت وحدي أخاف من النمر أن يمر علي فيفترسني.

فقال لها كونفشيوس: لماذا لا تتحولين إلى البلد، حيث لا يوجد هناك النمر المفترس؟

قالت المرأة: وهل في المدينة حاكم ظالم؟

قال (كونفشيوس): نعم.

قالت: بقائي هنا وأنا حرة خير لي من أن أدخل المدينة فأكون تحت حكم سلطان جائر.

فتوجه كونفشيوس إلى تلاميذه وقال لهم: اكتبوا هذه الحكمة (النمر الكاسر خير من الحاكم الظالم).

نعم الأمر هكذا، لأن النمر الكاسر إنما يفترس الإنسان مرة، بينما الحاكم الجائر يفترس الناس مرة ومرة ومرة، إنه يزاحمهم في أديانهم وعقائدهم، في سلوكهم وحرياتهم، في أرزاقهم وأعمالهم، في سفرهم وإقامتهم، وفي سائر شؤونهم وقضاياهم. وإنا إذا جمعنا الضحايا الذين افترستهم الحيوانات الوحشية لم يبلغوا حتى معشار ضحايا الحرب العالمية الأولى أو الحرب العالمية الثانية.

الاحتفاظ بالقدرات

الثالث عشر: عدم الاستهانة بالقدرات ولو كانت القدرة واحداً في المائة.

فقد اشتهر في ألسنة الحكماء والمتكلمين: إن الوجود الناقص خير من العدم المحض. وهذا صحيح مائة في مائة فإن العدم لا يتأثر ولا يؤثر، بينما الوجود مبعث التأثير والتأثر ولذا قالوا: (العدم شر محض والوجود خير محض).

ولهذه الجهة نرى أن الرسول (صلى الله عليه وآله) أبقى على المنافقين مع علمه بنفاقهم وكفرهم ومع شدة تخريبهم حتى قال الله سبحانه في حقهم: (هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون)(١١) وقال في حقهم: (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار)(١٢) وذلك لأن يكثر بهم سواد المسلمين خير من أن ينضموا إلى الكفار ويكثِّروا سوادهم أو يكونوا محايدين، وقد اتخذ الرسول (صلى الله عليه وآله) من جماعة منهم كأبي سفيان وغيره قادة لبعض جيشه سواء في حرب حنين أو في كسر الأصنام التي كانت منتشرة في القبائل حول مكة بعد فتحه لها في قصص مشهورة في التواريخ.

نعم يجب على ممارسي الحركة ملاحظة قاعدة الأهم والمهم بأن لا تكون القدرة الصغيرة تستنفد أكثر مما تستحق.

تقسيم القدرات والطاقات

على ممارسي الحركة تقسيم القدرات حسب المؤهلات، فتضع الإنسان المناسب في المكان المناسب والطاقة المناسبة في المكان المناسب.

ولا بأس في هذا المقام أن ننقل شاهداً ذكره أحد الضباط العراقيين الذين كانوا يتدربون في إحدى البلاد الشيوعية التي كانت في فلك روسيا.

قال الضابط: لما انتهينا من التدريب الذي امتد عدة سنوات في ذلك البلد طلبنا رئيس تلك الدولة للإجتماع به حيث أنه أراد إبقاء الصلة بيننا وبينه في المستقبل حين رجوعنا إلى العراق.

ولما اجتمعنا به أراد أن يهدي إلينا بعض الهدايا المادية، فقلنا له: الأفضل أن تتحفنا بهدية معنوية لتبقى لنا دائماً، فإن الهدية المادية سرعان ما تفنى وتزول، بينما المعنوية تبقى ما دمنا في الحياة.

قال الرئيس: فماذا تريدون؟

قلنا له: حدثنا بأغرب شيء مررت به من أول كفاحك ضد هتلر في الحرب العالمية الثانية حتى وصولك إلى رئاسة هذه الدولة.

يقول الضابط: ففكر الرئيس برهة من الزمن، ثم قال: إني سأنقل لكم أغرب قصة اتفقت لي في حياتي السياسية لتنتفعوا بها في المستقبل السياسي من حياتكم: اعلموا أنه بعد وصولي إلى الحكم وبعد أن قويت العلاقة والصلة بيننا وبين روسيا شكوت إليهم ركود الإنقلاب وتقهقره، وتدهور الأوضاع، وانسحاب الناس من الساحة، وسخطهم على النظام والحكومة فأخبرني أحد رؤساء روسيا أن في جهاز حكومتك واحد من جواسيس الغرب. لكني كنت أعلم أن كل أفراد الجهاز الأعلى للحكومة هم مورد الثقة ولا أحد فيه من جواسيس الغرب ومع ذلك فتشت عن الأمر من جديد. وأرسلت الخبر إلى الرئيس الروسي بأن يجدد النظر في ذلك فإنه لا جاسوس للغرب عندنا في الجهاز.

فرد الرئيس علي: بأنه موجود قطعاً، وإن استخباراتنا اكتشفته وأخبرتنا به ففتشت مرة ثانية تفتيشاً دقيقاً فلم أعثر على ذلك الجاسوس الذي عناه الرئيس.

وفي المرة الثالثة أرسل الرئيس الروسي من يقول: إن الجاسوس الذي اندس في ضمن جهازك هو رئيس وزرائك، فتعجبت من ذلك تعجباً شديداً لأني كنت أعرف رئيس وزرائي منذ كنا أطفالاً صغاراً في المدرسة، وكافحنا ألمانيا الهتلرية معاً عندما كبرنا، وإلى حين الوصول إلى الحكم حيث أني صرت الرئيس الأعلى للدولة وانتخبت ذلك الصديق: صديق الدراسة والنضال، رئيساً لحكومتي.

فرددت على الرئيس قائلاً: أن هذا محال وأنه مورد ثقتي المطلقة واعتمادي الكامل. فأرسل الرئيس مؤكداً: أنه الجاسوس بنفسه.

عند ذاك قررت أن أصارحه بالأمر، فطلبته وأسررت إليه القصة وقلت له: إنك إذا كنت جاسوساً للجهة الغربية الفلانية فاعترف بلا خوف فإني سأعفو عنك وأكتم القضية عن الناس، وستقدم استقالتك عن الرئاسة لتظهر للناس أنك استقلت بنفسك لعذر محترم. لكن إذا لم تظهر ما في ضميرك ولم تعترف بالواقع فسوف أعاقبك بأشد العقوبات أمام أعين الشعب.

وهنا أقر رئيس الوزراء واعترف بأنه أصبح جاسوساً للجهة الغربية المذكورة منذ سنوات كثيرة، لكن تجسسه ليس في قبال المال أو المنصب أو ما أشبه وإنما لأجل أنه يعرف أن الحرية الغربية أفضل من الدكتاتورية الشرقية، وإنما تجسس لصالح البلاد الغربية لأجل إنقاذ بلاده عن ويلات الشيوعية.

قلت له: فما هو نوع ارتباطك بالغرب؟

قال: إن الغربيين اتصلوا بي وأرادوا مني أن أتعاون معهم في مجالات معينة، كما وطلبوا مني أن أتجسس لهم على بلادي وعلى روسيا لكني أبيت عن ذلك.

ثم زارني بعد مدة وفد دبلوماسي مرتبط بنفس الجهات الغربية، واقتنع الوفد مني أن أؤدي دوراً واحداً فقط وهو أن أجعل الوزراء غير المناسبين في الوزارات غير المناسبة لهم ولاختصاصهم، وقد فعلت طيلة هذه المدة ما قالوا: فمثلاً: الوزير الذي كان مضطلعاً بالاقتصاد ولا يعرف عن شؤون البريد شيئاً جعلته وزيراً للبريد. وكذلك الوزير الذي كان عارفاً بالسياسة ولا يعرف عن الاقتصاد شيئاً جعلته وزيراً للمالية إلى غير ذلك.

وبعد هذا الاعتراف الذي كاد أن يهد أركاني تحققت عن أمره فتبين لي صدقه وأنه لم يعمل لأجل مال أو جاه وإنما عمل – حسب تصوره – لأجل خلاص بلاده عن الشيوعية.

عند ذاك عفوت عنه وقبلت استقالته وصار مواطناً عادياً كواحد من المواطنين، وهو الآن يعيش مع عائلته في إحدى القرى الهادئة معتزلاً عن السياسة وما يدور حولها، ولم أكشف خبره لأحد من جهاز الدولة.

الاستمرارية

الاستمرار وعدم اليأس بسبب الانهزام في معركة أو معارك أو بسبب عدم التقدم مرة أو مرات فإن الدنيا دول، وربما إنهزم إنسان أو جماعة ثم عاودوا الكرة ونهضوا من جديد.

وفي تاريخ الأنبياء والأئمة الطاهرين (عليهم الصلاة والسلام) أكبر الدروس لعدم اليأس فإنهم رغم ما واجهوا من الصعوبات الجسام لم ييأسوا أبداً.

ففي قصة يوسف (عليه السلام) قال سبحانه: (ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون)(١٣) وقد كان بين أول القصة لغياب يوسف (عليه السلام) وبين انفصال العير عن مصر أربعين سنة – كما في بعض التواريخ – ولم ييأس يعقوب (عليه السلام) عن الوصول إلى يوسف (عليه السلام) بينما الأخوة كانوا قد يئسوا من ذلك وكانوا يظنون أن يوسف (عليه السلام) قد مات أو قتل ولذا قالوا لأبيهم: (تالله إنك لفي ضلالك القديم)(١٤).

(فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً قال ألم أقل لكم أني أعلم من الله ما لا تعلمون)(١٥).

ولا يقال: أن يعقوب (عليه السلام) كان قد أخبر ببقاء يوسف (عليه السلام) في هذه المدة الطويلة ولهذا لم ييأس؟

لأنه يقال: هذا دليل على أنه بعد انقضاء مدة أربعين سنة أيضاً يحتمل البقاء، فلا يأس إلا إذا قطع الإنسان بالعدم. هذا بالإضافة إلى أنه لم يعلم أن الإخبار كان من اللوح المحفوظ، فلعله كان من لوح المحو والأثبات، حيث (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم كتاب)(١٦) ولذا قال الإمام أمير المؤمنين(عليه السلام): (لولا آية في كتاب الله لأخبرتكم بما كان وما يكون وما هو كائن إلى يوم القيامة)(١٧) وهذا بحث فلسفي طويل لا نريد التعرض له في هذا المكان.

تفجير الطاقات الكامنة

على ممارسي الحركة العمل لتقديم أعضائهم إلى الأمام وتفجير طاقاتهم الكامنة وهممهم العالية فإن الإنسان مطوي على أكبر قدر من الطاقات الوثابة، فإذا وجد المناخ المناسب والنفسية المناسبة تقدم تقدماً مدهشاً فإن الناس معادن كمعادن الذهب والفضة كما قال النبي (صلى الله عليه وآله)(١٨) وقد قال علي(عليه السلام): (المرء يطير بهمته كما يطير الطائر بجناحيه) وفي شعر منسوب إليه (عليه السلام):

أتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر(١٩)

وقد مثل بعض الحكماء الإنسان بمحبرة مليئة حبراً، فإن وجدت القلم والقرطاس والكاتب القدير صارت هذه القطرات السود كتاباً عظيماً يستفيد منه الملايين، وإلا تلفت وتحولت إلى ما لا يسوى حتى فلساً، وهؤلاء الرجال العظام الذين نجدهم في التاريخ كان مثلهم كهذا المثال فإن أبا ذر الغفاري لو لم يجد رسول الله (صلى الله عليه وآله) لظل راعياً بسيطاً، حتى يوافيه الموت في صحاري مكة ولم يعرف له من اسم ولا أثر وكذلك سلمان الفارسي لو لم يصادف الرسول (صلى الله عليه وآله) لظل فرداً مجهولاً حتى يموت في بعض قرى إيران ولم يبقى منه أي أثر ولكنهما تحولا إلى سلمان وأبي ذر- ببركة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) ..

فالدفع والتشجيع لممارسي التغيير من أهم ما يسلك بهم إلى الأمام حتى يكونوا رجالاً عظاماً ويتمكنوا من تغيير التاريخ.

وإذا أردنا أن ندرس هذه النقطة بشكل أكثر تفصيلية ودقة فعلينا أن نقول أن تفجير الطاقات يعد من السمات الأساسية للمجتمع المتقدم كما يعد تعطيلها من الصفات الرئيسية للمجتمع المتخلف ذلك.

إن لكل من المجتمع المتخلف والمجتمع المتقدم سمات وعلامات جعلها الله لها حتى يعرف الناس من تلك السمات والعلامات أن المجتمع متخلف فيقومونه أو متقدم فيستمرون فيه، فكما ان الله سبحانه وتعالى جعل للأمراض وللصحة وللأمور الكونية علامات وسمات، كذلك جعل لكل من المجتمع المتخلف والمتقدم علامات وسمات يعرف بها، ونذكر منها هنا ما يرتبط بما نحن فيه:

تعطيل الطاقات في المجتمع المتخلف

من سمات المجتمع المتخلف عدم الاستفادة من الطاقات والتي هي حاصلة الآن بالنسبة إلى المجتمعات الإسلامية فإن المجتمع المتقدم يتمكن من الاستفادة من طاقاته وقدراته أما المجتمع المتخلف فطاقاته موزعة على أقسام:

أ – هدر الطاقات:

فأما أن تهدر فيها الطاقات والقدرات كلاً سواء في المجال الفردي أو الإجتماعي أو الصحي أو المالي أو غير ذلك، فكما ان الإنسان إذا لم يرع أرضه وماءه وبذره ووسائل الزراعة كان معنى ذلك هدر الطاقات الكامنة في الأرض والماء والنور وما أشبه، ولا يصل إلى نتيجة مالية أو نتيجة زراعية كذلك بالنسبة إلى المجتمع الذي لا يتمكن أن يستفيد من طاقاته المادية والأدبية والاجتماعية ونحوها، فإنه لا يتقدم إلى الأمام بل يبقى في جوع وفقر وعرى وتأخر فكري وعملي.

ب – بعثرة الطاقات:

وأما أن تتشتت فيها الطاقات بمعنى الاستفادة المبعثرة، وفي الجملة من الطاقات وعدم الاستفادة المركزة منها. مثلاً إذا وظف الإنسان رأس ماله في تجارة خاصة يأتي بالثمار المطلوبة أما إذا شتته قسماً في الزراعة وقسماً في التجارة وقسماً في الصناعة وقسماً في الاستيراد وقسماً في الإصدار مثلاً، فإنه لا يتمكن من التركيز مما يسبب تأخره بالنتيجة، فإن الإنسان ليست له من الأوقات ما تكفي لكل ذلك على الأغلب إلا أن يقسم الأعمال على جبهات متعددة فإن ذلك أيضاً يكون من التركيز على هدف واحد، لكن في هذا اللباس وكذلك حال الراعي الذي هربت منه نعجتان نعجة إلى الشمال ونعجة إلى الجنوب، فأخذ يسير مرة إلى هذا الجانب ومرة إلى هذا الجانب، إنه يبعثر طاقاته بما لا يحصل حتى على إحدى النعجتين غالباً بينما إذا ركز طاقاته على إحداهما فإنه يلحقها ويأخذها ثم يركز طاقاته على النعجة الثانية ليأخذها ويرجعها إلى القطيع.

وكذلك حال الإنسان إذا صرف بعض الوقت في الشعر وبعض الوقت في الفقه وبعض الوقت في الأصول وبعض الوقت في التفسير فإنه لا يتمكن من الوصول إلى الهدف المنشود وبهذا الصدد ينقل عن الشيخ البهائي أنه قال:

–

غلبت كل ذي فنون، وغلبني ذو الفن الواحد.

وفي المثل الطبيعي نرى أنه من يجمع من أشعة الشمس بمقدار زجاجة مقعرة لا تعد وأن تكون بمقدار أنملتين يتمكن من إحراق الجسم السريع الاشتعال كالقطن ونحوه، بينما إذا كانت الشمس مقدار ألف فرسخ ولم تركز في بؤرة إشعاعية لا تتمكن تلك الشمس الكثيرة الإشعاع أن تشعل بمقدار ما تشعل الأشعة المركزة في تلك الزجاجة المقعرة، ولذا كان تشتيت الطاقات من سمات المجتمع المتخلف، بينما تركيز الطاقات من سمات المجتمع المتقدم، فضياع المجهودات وذهاب الطاقات هباءً منثوراً ودفن القدرات بين التشتت والتفرق يوجب تخلف المجتمع كما يوجب تخلف الفرد أيضاً.

ج – الاستفادة النسبية من الطاقات:

وأما أن لا يستفاد من كل الطاقات وإنما من بعضها، فربما يستفيد الإنسان من تفجير جزء بسيط من طاقاته وبقدر لا يكفي لصنع الشخصية المتقدمة والمجتمع المركب من أمثال هذه اللبنات لا يأتي بالنتائج المطلوبة وإذا نظر الإنسان إلى العالم الإسلامي رأى أن كثيراً منهم يشتغلون، لكن الشغل ليس بقدر الإمكانات والطاقات، بل بقدر جزء بسيط منها ولذا صار المجتمع الإسلامي مجتمعاً متخلفاً بجميع معنى الكلمة حتى أنه لم ير المجتمع الإسلامي في يوم من الأيام حتى أبان الغزو الصليبي من الغرب أو الغزو المغولي من الشرق، قدر ما يرى الآن من التخلف والبعثرة والتشتت، ثم إن إهمال الطاقات والاقتصار على تفجير بعض منها ينشأ إما من الجهل وإما من الكبت، وأما من طلب الراحة والدعة.

قال الإمام الصادق (عليه السلام) لأصحابه: (كما في رواية) لا تتمنوا المستحيل.

قالوا: ومن يتمنى المستحيل؟

فقال: ألستم تتمنون الراحة في الدنيا؟

قالوا: بلى، فقال: إن الراحة في الدنيا لمستحيلة(٢٠).

نعم إنه من المستحيل الراحة في الدنيا، وقد ذكرنا في كتاب (بقايا حضارة الإسلام كما رأيت) الفرق بين الراحة المطلقة التي هي مستحيلة في الدنيا وبين الراحة النسبية التي لا يواجه الإنسان – فيما إذا كان في تلك الراحة – إلا قدراً جزئياً من التعب الذي هو حتم على الإنسان وخارج عن دائرة اختياره، فعلى الإنسان أن يعمل بكل ما أوتي من القدرة والقوى لكي يفجر طاقاته وإذا كان المجتمع مجتمعاً متخلفاً يجب عليه تغييره حتى يهيء الجو المناسب، فإذا لم يكن الجو مناسباً أو كان الإنسان يطلب الراحة والدعة أو كان جاهلاً بما فيه من القدرات كان المجتمع متخلفاً، ولذا قال الإمام أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام في علة بعث الأنبياء: (وليثيروا لهم دفائن العقول)(٢١).

د – التوجيه الخاطئ للطاقات:

وأما من جهة عدم الاستقامة في الطاقات للانحراف في توجيهها، فإنك إن أردت أن تسير إلى بلد يكون في جانب المشرق، ثم أخذت تسير في جانب المغرب، فإنك صرفت الطاقة بالنسبة إلى السفر والتعب ونحوهما، لكن الطاقة حيث كانت منحرفة في الإتجاه لا تصل إلى البلد، بل تصل إلى ما يبعدك عن البلد، فكم من عالم أودى به علمه إلى حيث الهلكة كما نشاهد ذلك بالنسبة إلى من حكى الله عنه في القرآن الحكيم: (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث)(٢٢).

وقال سبحانه في آية أخرى بالنسبة إلى علماء اليهود: (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً)(٢٣) فبينما لو كان ذلك الرجل جاهلاً أو أولئك العلماء جهلة كان مثلهم كالجهال العاديين الذين لا يتحملون وزر كونهم كلاباً أو حميراً تراهم حيث فجروا طاقاتهم في الجهة المخالفة، صاروا بهذا المثل الشائن وكذلك حال الإنسان الذي يخترع اختراعاً يسبب اختراعه ذهاب نفسه أو قتل الأبرياء من الرجال والأطفال والنساء.

فإن انحراف الطاقات سواء كانت ناشئة من أجل تلبية رغبات النفس، والانسياق مع الأهواء والشهوات، أو من أجل الجهل – حتى ما كان يفسده أكثر مما كان يصلحه – يوجب أن لا تعطي الثمار الطيبة، بل تعطي الثمار المرة، ولا فرق في الجهل بين أن يكون جهلاً مطلقاً أو جهلاً يحدوه الغرور، فإن الغرور يسبب أن يكون الإنسان يعرف ويحرف – كما في المثل –.

وعليه فاللازم على من يريد ممارسة التغيير عدم هدر الطاقات وعدم تشتيتها وعدم الاكتفاء ببعضها وعدم الانحراف في توجيهها وإنما يلزم تفجير كل الطاقات والإمكانات في الوجهة الصحيحة، وذلك ليس بالشيء الهين بل هو بحاجة إلى كثير من العلم وكثير من التواضع وكثير من البحث حتى يظهر الحق كما أنه بحاجة إلى كثير من التعب والنصب، حتى يتمكن الإنسان من الوصول إلى الهدف المنشود.

مقابلة السيئة بالحسنة

على ممارسي التغيير أن يقابلوا السوء بالحسن، فإن مقابلة السوء بالحسن توجب التفاف الناس حول الإنسان وتمكنه من النفوذ فيهم وأخيراً يتيسر له الوصول إلى هدفه فإن الإنسان عبد الإحسان وفي كلمة للإمام أمير المؤمنين(عليه السلام): (عجبت لمن يشتري العبيد بماله فيعتقهم كيف لا يشتري الأحرار – بإحسانه فيسترقهم؟)(٢٤).

وفي قصة بوذا، أكبر عبرة من هذه الجهة (وبوذا على ما يعتقده خمسمائة مليون إنسان في الوقت الحاضر نبي أو فوق نبي – على زعمهم – ومن المحتمل أن يكون هو (يوذا سف) الذي ورد اسمه في بعض الروايات الواردة في كتاب البحار وغيره) حيث أن بوذا كان له تلميذ يسمى بـ (برنا).

فقال بوذا لبرنا ذات يوم: اذهب إلى القرية الفلانية وادعوا الناس إلى الحق والهداية والرشاد.

فلما أراد برنا أن يذهب ناداه بوذا وقال له: هب أن أهل القرية لم يسمعوا كلامك فماذا تصنع؟.

قال برنا: أقول في نفسي أنهم أناس طيبون حيث اكتفوا بعدم قبول كلامي ولم يؤذوني.

قال بوذا: هب أنهم أخذوا يصفعونك فماذا تفعل؟

قال برنا: أقول أنهم أناس طيبون حيث أنهم اقتنعوا بصفعي ولم يضربوني بالعصا والهراوة.

قال بوذا: هب أنهم أخذوا يضربونك بالعصا والهراوة فبماذا تقابل صنيعهم؟

قال برنا: أقول أنهم أناس طيبون حيث اقتنعوا بضربي بالعصا والهراوة ولم يضربوني بالسيوف والخناجر.

قال له بوذا: هب أنهم شهروا السيوف في وجهك وأرادوا قتلك فماذا كنت صانعاً؟

قال برنا: أقول أنهم أناس طيبون حيث يريدون أن يأخذوا مني حياة فانية لأنتقل إلى حياة باقية.

فتوجه بوذا إلى برنا حينئذ وقال له: اذهب إليهم بارك الله فيك فإنك جدير بالنجاح في مهمتك.

وهكذا تمكن بوذا بتلك الأخلاق من أن يسيطر على مئات الملايين من الناس إلى اليوم.

فعلى ممارسي التغيير أن يقابلوا السيئة بالحسنة قال سبحانه: (والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك لهم عقبى الدار، جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)(٢٥).

الإصرار على الوصول إلى الهدف

الاهتمام للوصول إلى الهدف مهما كلف الأمر وطال الزمن، قال الشاعر: لا بد من صنعا وإن طال السفر

وينقل في قصة كونفشيوس: أنه مر ذات يوم على سفح جبل عظيم كان يقطنه عشيرة كبيرة فتوجهت العشيرة إليه وقالوا له: يا معلم الخير حل مشكلتنا.

قال كونفشيوس: وما هي المشكلة؟

قالوا: إن بيننا وبين عشيرة مجاورة قرابة مسافة، لكن تلك العشيرة في الجانب الثاني من الجبل، وكلما أراد بعضنا زيارة بعض اضطر إلى أن يقطع مسافة طويلة وملتوية، مليئة بالمخاطر والمشاق، وأحياناً يستغرق السفر ستة أشهر أو سنة كاملة والسفر من فوق الجبل في غاية الصعوبة والمشقة.

قال لهم كونفشيوس: إن الأمر سهل إذا أردتم ذلك.

قالوا: وكيف؟

قال: اتفقوا أنتم والعشيرة الأخرى معاً على قلع القطعة الجبلية التي تحول بينكم وبينهم.

قالوا: وهل يمكن ذلك؟

قال: نعم، إن الجبل مكون من صخور، فإذا تعاونت العشيرتان على حمل صخور الجبل ودأبت على ذلك ردحاً من الزمن، انتهى المقدار الزائد الذي يحول بينكما ويكون الطريق أرضاً مستوية.

وهكذا فعلت العشيرتان فأخذوا في قلع الجبل تدريجاً حتى أصبح بينهما طريق سهل مستوي.

الاختلاف في الرأي والاختلاف في الاستجابات

قالوا: يجب على الذي يريد ممارسة التغيير أن يعرف أن ليس كل الناس معاندين، وإنما في كثير من الأحيان يختلف شخصان أو مجموعتان في الرأي والاتجاه، لا عناداً وتعصباً بل لأن استجابات الناس مختلفة ولذا نرى الفقهاء العظام يختلفون في المسائل الفقهية مع العلم أنهم لا تنقصهم الفقاهة ولا العدالة ولا النزاهة.

وقد مثلوا لاختلاف استجابة الناس بما إذا كانت هناك أواني ثلاث ممتلئة بالماء إحداها بالماء الحار والثانية بالماء البارد والثالثة بالماء الفاتر، فإذا كان هناك إنسانان وضع أحدهما يده في الماء الحار ثم أخرج يده من ذلك الماء وأدخلها في الماء الفاتر وجده بارداً، وإذا أدخل الثاني يده في الماء البارد ثم أخرجها منه ووضعها في الماء الفاتر وجده حاراً، مع العلم أن الماء واحد، وإن الإنسانين لا يريدان الانحراف عن الحقيقة، وإنما استجابة هذا غير إستجابة ذاك.

ولذا ذكروا في باب الشهادة أن الاختلاف بين الشاهدين إن كان من باب إختلاف الإستجابات لم يكن ضاراً بكون شهادتهما ذات مصبّ واحد كما إذا قال أحدهما: السارق كان يرتدي ثوباً أصفر وقال الآخر: كان يرتدي ثوباً أحمر وذلك لوضوح أنه قد يرى الإنسان الثوب الأصفر أحمر، أو الأحمر أصفر، بخلاف ما إذا كان بينهما اختلاف من غير هذه الجهة، كما إذا قال أحدهما: كان يرتدي لباساً أبيض، وقال الآخر: كان يرتدي لباساً أسود، فالممارسون إذا أرادوا التغيير يجب أن لا يحملوا أقوال وأفعال الناس الذين يخالفونهم في الرأي والمسلك على العناد والتعمد، ولذا كان رسول الله (صلى الله عليه وآله) يقول: (اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون)(٢٦) ولم ينسبهم (صلى الله عليه وآله) إلى العناد نعم لا شك أن بعضهم كانوا معاندين لكن حكم البعض لا يجري على الكل.

كل شيء من أجل الهدف

على ممارسي التغيير الاستفادة المشروعة من كل شيء يمكن الاستفادة منه فإن كثيراً من الأشياء يمكن الاستفادة منها حتى ولو كانت مضادة، إذ من الممكن أن يصنع من الليمون الحامض شراباً حلواً، فإن الله سبحانه وتعالى جعل الحياة قابلة للاستفادة منها حتى من مضارها فكيف بمنافعها؟

وقد قال جمع من الحكماء: إن جوهر الحياة وما فيها واحد، وإنما الصور هي التي تكون مختلفة، حتى بالنسبة إلى الماء والنار والهواء والأرض.

فعلى ممارسي التغيير أن لا ييأسوا حتى من أكبر الأعداء وأن يستفيدوا حتى من أصغر شيء وأتفه شيء.

النصوص الواردة في بعد الأهداف

وقد ورد في الأحاديث الكثيرة كيفية الاستفادة حتى من النواة ومن فضل الماء.

وفي رواية: أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) رأى كسرة خبز على باب بيت إحدى زوجاته فالتقطها وقال: يا فلانة. أكرمي جوار نعم الله فإنها إذا نفرت لم ترجع(٢٧).

وكان (صلى الله عليه وآله) ذات مرة يأكل التمر بيده اليمنى ويضع النواة في يده اليسرى، فمرت بقربه شاة فأشار الرسول (صلى الله عليه وآله) إليها وفتح كفّه الشريفة وعرض النواة عليها، فأقبلت الشاة تأكل من يده (صلى الله عليه وآله) حتى نفدت النواة(٢٨)، وقد رأى الإمام الرضا (عليه السلام) بعض خدمه أكل فاكهة وطرح النواة وعليها شيء من الفاكهة، فقال(عليه السلام): سبحان الله الكبير، إذا استغنيتم أنتم ففي الناس فقراء(٢٩).

ولا بأس أن نشير هنا إلى أنه (صلى الله عليه وآله) كيف كان يستخدم حتى مثل الزواج الذي هو من الشؤون الفردية الخاصة في سبيل الهدف: أما زواجه من خديجة (عليها السلام) – ذات النفوذ الواسع والثروة العظيمة، والتجارة الكبيرة، والإيمان الخالص، حيث كانت أول من آمنت به (صلى الله عليه وآله) وصدقت رسالته من النساء، بعد أن كان علي بن أبي طالب (عليه السلام) أول من آمن به من الرجال – فلأن يتمكن (صلى الله عليه وآله) من أن يوفر للمسلمين المال اللازم لتبليغ الرسالة ويستعطفهم نحو الإسلام. وأما زواجه من سودة فإنه كان لزوجها السابق أخ متنفّذ في قومه، مطاع في عشيرته، يدعى: بـ(سهيل بن عمرو) وكان يفكر ويخطط في أن يتزعم معارضة النبي (صلى الله عليه وآله) فمنعه هذا الزواج عن المعارضة وقد تقدم الكلام حول (سهيل بن عمرو) ودوره في تهدئة مكة وأهلها بعد وفاته (صلى الله عليه وآله).

وأما زواجه من زينب بنت خزيمة، فلأن زوجها الأول كان من قبيلة المطلب، وكان له علاقة بقبيلة أخرى فسبب زواجه هذا إن رغبت القبيلتان في الإسلام وخضعتا للرسول (صلى الله عليه وآله).

وقصة زواجه من عائشة وحفصة فهي معروفة لا تحتاج إلى شرح وتوضيح، وأم سلمة كانت ذات نفوذ زعامي في قبيلة مخزوم، وزينب بنت جحش كانت تنتمي من الأب إلى النبي (صلى الله عليه وآله) فكانت ابنة عمه ومن الأم كانت تنتمي إلى قبيلة عبد شمس وزواج النبي (صلى الله عليه وآله) منها كان سبباً للإحاطة بحكم جاهلي، ثم أن زينب هذه كان لها أخ متزوج من أم حبيبة ومات في الحبشة عندما هاجر إليها فراراً من أذى المشركين واضطهادهم.

وزواج النبي (صلى الله عليه وآله) من ميمونة كان سبباً لحصول علاقات طيبة مع عمه العباس الذي أسلم فيما بعد وكان له ولولده الأثر في بدء الإسلام فقد كانوا من الذين ناصروا الرسول (صلى الله عليه وآله) في أحرج الساعات كيوم حنين على ما أثبته التاريخ.

واستقطب زواجه (صلى الله عليه وآله) من أم حبيبة بني أمية قاطبة الذين كان لهم حول وطول قبل الإسلام.

وجويرية كانت بنت زعيم وشيخ لقبيلة يهودية، وكذلك صفية ومن الواضح أنه كم يكون التأثير بالغاً على القبيلة بواسطة الانتساب والمصاهرة إليها، خصوصاً في تلك الأيام التي كانت للقبيلة مكانة رفيعة في مجتمع الحجاز.

ومارية كانت سبب علاقة المسيحيين بالرسول (صلى الله عليه وآله) فقد أهداها المقوقس ملك الإسكندرية وصاحب مصر وعظيم القبط إلى الرسول فأراد (صلى الله عليه وآله) إكرامه فتزوجها وكان لهذا العمل الأثر البالغ في نفسية النصارى وتعاطفهم مع الإسلام.

إلى غير ذلك مما يتضح منها جميعاً أن سياسة التغيير وهدف الإصلاح كان العامل الرئيسي في زواجه (صلى الله عليه وآله) بمعظم نسائه إن لم يكن بجميعهن ومن الواضح أنه حين يتزوج من مهاجرات الحبشة وأرامل شهداء بدر وأحد ويتزوج من أسرى اليهود ومن الجارية القبطية كان يقصد تقوية الإسلام والسير به إلى الأمام وقد تحقق ما أراده (صلى الله عليه وآله) حيث انتشر الإسلام انتشاراً سريعاً وكبيراً مما تحير له عقلاً، والعالم إلى اليوم.

الأضرار تصبح منافع

يحكى أن واحداً من التجار كان يغامر بالتجارة مهما كلفه الأمر ومهما احتمل الضرر والخطر، وكان لذلك من أنجح التجار، وذات مرة جاءه دلاّل وقال له: إن في المكان الفلاني آلاف الأجربة من الأرض غير الآهلة فهل تشتريها فإنها بثمن رخيص؟ قال: نعم، فاشتراها.

وبعد أن اشتراها جاء بعض من كان يسكن بالقرب من تلك الأرض وشكا: بأن هذه الأرض، أرض تتكاثر فيها الحيّات والثعابين وتتسرب منها إلى القرى المجاورة فتؤذي أهلها وحيث أنك مالك الأرض فعليك علاجها.

أقبل التاجر ونظر إلى الأرض فتعجب من كثرة ما رأى فيها من الثعابين والحيات.

ففكر ملياً ثم سأل بعض خبرائه عن العلاج؟

فقالوا: العلاج بسيط ويكفيك إحداث معمل جاهز على هذه الأرض لتحويل الحيّات والثعابين إلى مواد تجارية غنية تستدر عليك بالرزق الكثير، إذ هي تحتوي على جلود ثمينة وجميلة، وعلى لحوم يستحل أكلها بعض الناس، وعلى مواد سامة تنفع لمعالجة كثير من الأمراض.

وبالفعل فقد عمل التاجر حسب ما اقترح عليه الخبراء وإذا بالأرض القاحلة الموحشة تتحول إلى معمل كبير لإنتاج الأدوية والجلود واللحوم فانتفع من تلك الأرض انتفاعاً منقطع النظير.

١ . بحار الأنوار: ٤٥، ص٣٦٤، الباب ٣٧.

٢ . بحار الأنوار: ج٤٥ الباب ٣٧ ص٣٩٣.

٣ . انظر البداية والنهاية: ج٤، ص٢٨٤.

٤ . في بعض الإحصاءات (٤٠٠) مليون (منه دام ظله).

٥ . انظر الكامل في التاريخ: ج٢، ص١٨١.

٦ . سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

٧ . سورة الأنعام: الآية ١٠٨.

٨ . نهج البلاغة: الخطبة ٢٠٦.

٩ . سورة القلم: الآية ١٣.

١٠ . سورة البقرة: الآية ١٩٤.

١١ . سورة المنافقون: الآية ٤.

١٢ . سورة النساء: الآية ١٤٥.

١٣ . سورة يوسف: الآية ٩٤.

١٤ . سورة يوسف: الآية ٩٥.

١٥ . سورة يوسف: الآية ٩٦.

١٦ . سورة الرعد: الآية ٣٩.

١٧ . الميزان ج١١ ص٣٨٥.

١٨ . روضة الكافي: ص١٥٥، ح١٩٧.

١٩ . أعيان الشيعة: ج١، ص٥٥٢.

٢٠ . بحار الأنوار: ج٨١، ص١٩٥.

٢١ . نهج البلاغة: الخطبة١.

٢٢ . سورة الأعراف: الآية ١٧٦.

٢٣ . سورة الجمعة: الآية ٥.

٢٤ . غرر الحكم: ص٣٢٩ رقم٦٣٥٠.

٢٥ . سورة الرعد: الآية ٢٢-٢٤.

٢٦ . المناقب: ج١، ص١٩٢.

٢٧ . بحار الأنوار: ج٦٣، ص٤٣٠، الباب ٢٥ من أبواب آداب الأكل، ح١٣.

٢٨ . مكارم الأخلاق: ص٢٩.

٢٩ . انظر وسائل الشيعة: ج١٦، ص٤٩٧، الباب٦٩، ح١.

الفصل الثالث: الإسلام والتحدي الاستعماري
وضوح السياسة الإسلامية

القناعة النفسية بالإسلام

ومن ناحية السلوك فقد كان الإسلام لدى المؤمنين منذ أسس رسول الله (صلى الله عليه وآله) الدولة الإسلامية الكبرى أفضل طريقة في الحياة لم يشك أي مسلم معتقد رغم كل الخلافات والتناقضات التي ارتكبها المتطفلون على الإسلام باسم الإسلام، في شرعية الطريقة الإسلامية وكمالها وإنها أفضل الشرايع والأديان وخير طريقة للحياة السعيدة (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)(١).

وحين بدأ التفسخ في المجتمع الإسلامي وفشلت إجراءات الإصلاح التي قام بها المصلحون بسبب التيار الغربي والشرقي الجاريين في البلاد عانى كل فرد من أفراد المسلمين أزمة أخلاقية غربية واصطدم بصدمة كبرى حيث لم يصدمه، كون المؤسسات الإسلامية استبدلت بمؤسسات غربية في الشكل والمحتوى وكون التشريع العلماني طغى على الشريعة الإسلامية فحسب بل صدمه أيضاً كون الدول الغربية لم تكن لتكتفي بانتهاك حرمة الدين الإسلامي دون وازع ولا رادع من القوانين الوضعية فحسب وإنما راحت تنتهك حرمات المسلمين في النفوس والأعراض والأموال أيضاً وإذا كان دعاة الإصلاح قد فشلوا في الاتفاق على منهج بناء مقبول لدى الجميع فهو لأجل أنهم افتقدوا قاعدة مشتركة تلتقي بها وجهات نظرهم المتباينة.

الجامع المشترك

هذا مع العلم بأن مثل هذه القاعدة أسسها رسول الله (صلى الله عليه وآله) بجعله المؤمنين أخوة متحابين، وإنهم مع اختلاف ألوانهم ولغاتهم وقومياتهم أمة واحدة تجمعهم دولة واحدة ونظام واحد.

فقال (صلى الله عليه وآله): (مثلُ المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)(٢).

وقال (صلى الله عليه وآله): (الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربيهم على أعجميهم ولا لأحمرهم على أسودهم إلا بالتقوى)(٣).

وقد قال قبل ذلك القرآن الكريم: (إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)(٤).

وجعل اللين والرفق عماد التقدم. فقد روي أنه جاء إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) شاب قد أثرت العبادة في وجهه حتى أصفر لونه وغارت عيناه فقال له الرسول (صلى الله عليه وآله): لماذا أراك هكذا؟

قال: يا رسول الله من أثر العبادة.

فقال له (صلى الله عليه وآله): إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تكرهوا عبادة الله إلى عباد الله فتكونوا كالراكب المنبت الذي لا سفراً قطع ولا ظهراً أبقى)(٥).

و(أوغل) بمعنى: أدخل، و(المنبت): هو الذي يطارد فرسه حتى ينقطع عن القافلة زاعماً أنه يتقدم عليهم فإنه لا أرضاً قطع لأنه يقف حيث لا يتمكن من السير بعد المطاردة المضنية ولا ظهراً أبقاه سالماً لفرسه حيث أتعب فرسه وأعابه بسبب المطاردة وشدّة السير فلا يمكنه النهوض والسير بصاحبه. وروي أنه (صلى الله عليه وآله) قال: (أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بتبليغ الرسالة)(٦).

حيث جعل الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) تبليغ الرسالة كل الرسالة في كفة والمداراة في كفة أخرى وقال (صلى الله عليه وآله) مخاطباً بعض أزواجه: (لو وضع الرفق على شيء زانه ولو وضع الخرق على شيء شانه)(٧).

هذا وقد أمر الله الناس أن يقتدوا بالرسول (صلى الله عليه وآله) بعد أن بيّن لهم لينه وكريم خلقه بقوله تعالى: (فبما رحمة من الله لنت لهم)(٨)، و(إنك لعلى خلق عظيم)(٩)، وقال: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر)(١٠).

التقدير السياسي

ومن أدق فهم السياسة معرفة قدر المسافة بين الأهداف والمقدّمات ومعرفة أن الأهداف ما هي مقدّماتها فإن من لا يتمكن من فهم المقدمات يحسب أن ما ليس بمقدمة هي مقدمة فيصرف عمراً طويلاً بدون نتيجة كما إذا زعم أن الثلج مقدمة لطبخ الطعام فإنه يصرف الثلج ويصرف الوقت ولا يدرك الطعام ومن لا يفهم المسافة بين المقدمة الحقيقية والهدف يكون تحركه اعتباطاً فإذا كانت المسافة بين بغداد والبصرة مائة فرسخ مثلاً فزعم أن المسافة نصف ذلك لم يتزود بما تحتاجه المسافة مما يوجب عطبه في نصف الطريق ولو زعم أن المسافة ضعف ذلك أخذ من الزاد بمقدار لا يحتاج إليه مما يسبب فساد الزاد على حاجته في الطريق فهو كمن يطلق المدفع لأجل قتل فأرة. وكلا الأمرين يوجب عدم الوصول إلى النتيجة بنجاح وذلك أما بعدم الوصول إطلاقاً أو الوصول مع عطب وفساد وخرق وخبال.

نتائج معرفة المسافة بين المقدمات والهدف

ولذا نرى أن الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) حيث كان يعرف المسافة بين الهدف والمقدمة اقتطف أفضل الثمار وأحلاها فمثلاً: في قصة فتح مكة تلك القصة التاريخية المعروفة دخل النبي (صلى الله عليه وآله) مكة ولم ينتقم من أهلها أبداً أي انتقام (لا انتقاماً بالباطل فإنه حاشاه ذلك) ولا انتقاماً بالحق بأن يقتل القتلة ويسترد من الغاصبين أمواله وأموال المسلمين المنقولة وغير المنقولة التي اغتصبوها منهم وإنما فعل العكس من ذلك كله فقال معلناً وبكل مصداقية: (ألا من دخل المسجد الحرام فهو آمن ومن دخل بيته فهو آمن ومن ألقى سلاحه فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن)(١١).

يريد بذلك تجنّب الحرب والاصطدام مما لا تحمد عواقبه.

عفو النبي وسماحه

ثم أنه (صلى الله عليه وآله) دخل المسجد الحرام حيث اجتمع إليه المشركون الجناة وانتظروا كلمته فيهم بأن يقتلهم أو يأسرهم أو يسترقهم أو يسجنهم أو ينفيهم لكنه (صلى الله عليه وآله) لم يفعل شيئاً من ذلك وإنما خاطبهم بحنان ورأفة قائلاً: – ماذا تقولون وماذا تظنون؟

قالوا: نظن خيراً ونقول خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم.

فقال: لا أقول لكم إلا كما قال أخي يوسف (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم)(١٢)، (اذهبوا فأنتم الطلقاء)(١٣).

وهكذا عفا عنهم وأطلق سراحهم وأعتق رقابهم، ولم يسترد منهم شيئاً من أمواله وأموال المسلمين المغتصبة حتى ولم يسترجع بيته الذي صادروه منه في مكة، بل نزل في خيمة له خارج مكة، ولا قتل منهم حتى إنساناً واحداً، ولا أراق منهم قطرة دم، ولا أزالهم عن مناصبهم ومراتبهم التي كانوا يشغلونها في مكة من سدانة البيت، وعمارة المسجد الحرام، وسقاية الحاج وغيرها ولا أهانهم، وإنما أكرمهم وأعزّ شأنهم، وعظّم قدرهم فإنه (صلى الله عليه وآله) بعد أيام قليلة لما توجه إلى غزوة حنين جعل من نفس أولئك الطلقاء الذين حاربوه طيلة عشرين سنة قادة وضبّاطاً لجيشه فجعل من أبي سفيان قائداً ومن خالد بن الوليد قائداً كذلك فعل بغيرهما ولما غنموا غنائم حنين خصّ كل واحد من أولئك الرؤوس بحصة متميزة تأليفاً لقلوبهم، فمنحهم مائة من الإبل، ومن المعروف في تلك الأيام أن الإبل كانت تعد بمثابة سفينة الصحراء وسيارة الفيافي – إذا صح التعبير – فتصوروا أن إنساناً يعطي لقائد كان يحاربه إلى الأمس مائة سيارة في هذا اليوم، ترى أيّ إكرام هذا وأي تقدير له؟.

وهكذا استطاع (صلى الله عليه وآله) بهذه السيرة الكريمة أن يأمن جانب المكيّين المشهورين في شبه الجزيرة بأنهم إذا سكنوا وهدأوا سكنت الجزيرة وهدأت وإذا انتفضوا وتحركوا انتفضت الجزيرة وتحركت، ولم يضطر الرسول (صلى الله عليه وآله) نتيجة تعامله الجميل إلى أن يجعل في مكة المكرمة حامية من الجيش ولا أن يتخذ فيها قاعدة عسكرية تكون على أهبة القتال، لإخماد أي حركة، وإطفاء أي نائرة في مكة المكرمة وإنما فوض حكومتها إلى شاب يسمى بعتاب بن أسيد في قصة مشهورة وانقاد المكيون لهذا الشاب الحدث السن على من فيهم من الشيوخ والكبار والشخصيات وفلول الحكومة وسلّموا فإنهم لم يثوروا عليه، ولم يضطربوا ضده، ولم يشنّوا حركة ولا ثورة، ولم يحيكوا مؤامرة ولا انقلاباً بل بقوا مطيعين له لأن الرسول (صلى الله عليه وآله) عرف كيف يستخدم المقدمة لأجل تحقيق الهدف وتوطيد دعائم السلم والسلام. والدخول في الإسلام، والبقاء بلا زيغ ولا انحراف إلى يوم القيام وهكذا كان.

سياسة العفو والصفح

إن من الضروري أن نأخذ من سنّة رسول الله (صلى الله عليه وآله) درساً وعبرة إذا أردنا التقدم، فقد كان (صلى الله عليه وآله) يجمع الأمة ويعفو عن الذنب ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، مما سبب تجمع المسلمين وبقائهم بقاءً متماسكاً حتى مع اختلافهم بعض الاختلافات الداخلية.

إن الرسول جعل لأُسارى بدر أن يعلّم كل منهم عشرة من المسلمين فدية له عوض أن يأخذ المال منه، وكان يحسن حتى إلى المسيئين وقد قال في مكة المكرمة (اذهبوا فأنتم الطلقاء)(١٤) مما أثر أحسن التأثير في دخولهم في دين الله أفواجاً.

أمواج وتيارات

ولما توفي الرسول (صلى الله عليه وآله) والتحق بالرفيق الأعلى هبت أمواج من الارتداد – (لا الارتداد المشهور في كتب بعض المؤرخين فإن ذلك الارتداد لم يكن إلا ارتداداً عن الخليفة إن صحّ التعبير. إذ في الحقيقة أنهم لم يطيعوا الخليفة حيث كانوا يرون أن الخليفة غيره لا أنهم ارتدوا عن الإسلام كما يظهر من القضايا التي ذكرها الطبري وابن الأثير واليعقوبي وغيرهم من المؤرخين) – فارتدّ جماعة ممن كانوا حديثو عهد بالإسلام.

وقد قال سبحانه وتعالى من قبل: (أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين)(١٥).

وجماعة من أهل مكة تململوا للارتداد والانقضاض على الإسلام وإعادة الأصنام إلى الكعبة والرجوع إلى جاهليتهم السوداء لكنهم اجتمعوا في ندوتهم يتدارسون هذا الأمر.

مؤتمر قمة

فقام فيهم سهيل بن عمرو خطيباً وقال: يا أهل مكة إنكم كنتم آخر من آمن برسول الله (صلى الله عليه وآله) فلم يكن لكم أن تكونوا أو ل من يكفر به بعد موته، وإنما لكم أن تصبروا فإن رأيتم الناس خرجوا عن الإسلام ودخلوا في الجاهلية ورجعت الأمور إلى سابق حالها قبل بعثة الرسول فارتدّوا ولا لوم عليكم حينئذ، أما إذا بقي الناس في الإسلام فإن ارتدادكم عيب وعار، فبقي أهل مكة في الإسلام ولم ينقل عنهم أي ثورة ولا ارتداد ولا انتفاضة ولا انقلاب كل ذلك لأن الرسول (صلى الله عليه وآله) عرف المقدمة وعرف النتيجة ثم عرف أن أية مقدمة تصلح لأية نتيجة كما عرف من قبل المسافة بين المقدمة ونتيجتها ولكن على المعروف لدى الحكماء (الأشياء تعرف بأضدادها) لو كان الرسول (صلى الله عليه وآله) يفعل خلاف ذلك – حتى ولو كان جائزاً ومشروعاً – فيقتل مثلاً أبا سفيان وابنه معاوية ويقتل خالد بن الوليد وصفواناً ويقتل سهيل بن عمرو وغيره من الأبطال والصناديد الذين خاضوا ضد الرسول (صلى الله عليه وآله) حروباً دامية واقترفوا في حقه كل ذنب وجريمة وآذوه ومن معه من المسلمين طوال عشرين سنة أي من يوم ظهور الإسلام حتى يوم الفتح، فكان عند دخوله مكة يهدر دماءهم ويأمر بقتلهم، ويصادر أموالهم وممتلكاتهم، ويسبي نساءهم وذريتهم قصاصاً لما فعلوه فهل كانت تخضع مكة ويستسلم أهلها بهذه الصورة العفوية ويعلنون إسلامهم بهذه البساطة؟

مع أن الرسول (صلى الله عليه وآله) –كما يعلمه الجميع – لم يكره أحداً على الإسلام في مكة المكرمة وإنما كان شعاره من أو ل بعثته إلى آخر يوم من حياته الكريمة:

(لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا إنفصام لها والله سميع عليم)(١٦).

فلم يكن يكره أحداً على الإسلام لا أهل مكة ولا أهل الطائف ولا أهل خبير ولا أهل حنين ولا غيرهم من الذين تم له الفتح عليهم وانتقلوا إلى ظلال حكومته العادلة ورحمته الشاملة فيا ترى إذا لم يكن الرسول (صلى الله عليه وآله) يفصل تلك المقدمة الباهرة، هل كانت تحقق له هذه النتيجة الرائعة؟

وعليه فإن معرفة أي مقدمة من المقدمات تصلح لأي هدف من الأهداف واجب للذين يزاولون الأعمال السياسية خصوصاً الذين يريدون السير بالأمة إلى الأمام ويمارسون التغيير لأجل إنقاذ بلاد الإسلام وإرجاع السكينة والسيادة والعزة والسعادة إلى المسلمين بإذن الله تعالى.

سياسة الوصي (ع)

وقد فعل الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) مثل ما فعله الرسول (صلى الله عليه وآله) في حرب البصرة فقد روي أنه عليه الصلاة والسلام سار في أهل الجمل بمثل تلك السيرة.

فإنه لما قُتل طلحة والزبير، وقُبض على عائشة وانهزم أصحاب الجمل، نادى مناديه لا تجهزوا على جريح ولا تتبعوا مدبراً ومن ألقى سلاحه فهو آمن ثم دعى ببغلة رسول الله (صلى الله عليه وآله) الشهباء فركبها ثم قال: هلمّ يا فلان وأقبل يا فلان حتى اجتمع إليه زهاء ستين فارساً كلهم من همدان قد شكوا بالسلاح وتقلّدوا السيوف ولبسوا المغافر والدروع، فسار بهم وهم يحفّونه حتى انتهى إلى دار عظيمة فاستفتح ففتح له فإذا بنساء يبكين بفناء الدار ولما نظرن إليه صحن صيحة واحدة وقلن هذا قاتل الأحبة فلم يقل لهن شيئاً وسأل عن حجرة عائشة فدل عليها فأجرى معها حواراً لم يسمع شيء منه سوى كلام شبيه بالمعاذير لا والله بلى والله ثم أنه (عليه السلام) التفت إلى إمرأة كانت هناك فقال لها إليّ يا صفية فأتته مسرعة فقال ألا تبعدين هؤلاء؟

يزعمن أني قاتل الأحبة ولو كنت قاتل الأحبة لقتلت من في هذه الحجرة ومن في هذه، وأومأ (عليه السلام) بيده إلى حجرات ثلاث فذهبت صفية إليهن وطمأنتهن فما بقيت في الدار صائحة إلا سكنت ولا قائمة إلا قعدت.

قال الأصبغ (وهو راوي الحديث): وكان في إحدى الحجرات عائشة ومن معها من خاصتها وفي الأخرى مروان بن الحكم وشباب من قريش وفي الثالثة عبد الله بن الزبير وأهله.

فقيل للأصبغ: فهلا بسطتم أيديكم على هؤلاء أليس هؤلاء كانوا أصحاب القرحة فلم استبقيتموهم؟

قال: قد ضربنا بأيدينا إلى قوائم سيوفنا وحددنا أبصارنا نحوه (عليه السلام) كي يأمرنا فيهم بأمره فما فعل وواسعهم عفواً(١٧).

سياسة العفو والإغماض عند الإمام علي (ع)

وقد روى الشيخ المفيد أن الإمام أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام كتب كتاباً إلى أهل الكوفة بعد واقعة الجمل فلما علم الناس بوصول كتاب من أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام كبر الحاضرون تكبيرة عالية سمعها عامة الناس فاجتمعوا على أثرها في المسجد ونودي بالصلاة جامعة فلم يتخلف أحد وقرئ الكتاب فكان فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله أمير المؤمنين إلى قرظة بن كعب ومن قبله من المسلمين سلام عليكم فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو.

أما بعد فإنا لقينا قوماً ناكثين (إلى أن قال عليه السلام) فلما هزمهم الله أمرت أن لا يتبع مدبر ولا يجهز على جريح ولا نكشف عورة ولا يهتك ستر ولا تدخل دار إلا بإذن وآمنت الناس)(١٨).

وروى موسى بن طلحة بن عبيد الله وكان فيمن أسر يوم الجمل وحبس مع من حبس من الأسارى بالبصرة فقال كنت في سجن علي (عليه السلام) بالبصرة حتى سمعت المنادي ينادي أين موسى بن طلحة بن عبيد الله.

قال فاسترجعت واسترجع معي أهل السجن وقالوا يقتلك، فلما أُخرجت إليه ومثلت بين يديه قال لي: يا موسى.

قلت: لبيك يا أمير المؤمنين.

قال: قل استغفر الله. قلت: استغفر الله وأتوب إليه ثلاث مرات.

فقال لمن كان معي من رسله: خلوا عنه. ثم التفت إليّ وقال: اذهب حيث شئت وما وجدت لك في عسكرنا من سلاح أو كراع فخذه واتق الله فيما تستقبله من أمرك واجلس في بيتك فشكرته وانصرفت(١٩).

السياسة المثالية

وقد روي عن الباقر عليه الصلاة والسلام أنه قال: سار علي (عليه السلام) بالمن والعفولأنه كان يعلم أنه سيظهر عليهم عدوهم من بعده فأحب أن يقتدي من جاء من بعده به فيسير في شيعته بسيرته ولا يجاوز فعله فيرى الناس أنه تعدى وظلم.

وهكذا سار الإمام أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام) على منهاج رسول الله (صلى الله عليه وآله) واقتدى به في عفوه عن أهل الجمل وكان ذلك منه مقدمة لهدف أسمى وهو نشر الوئام والمحبة، والتعاطف والتسامح بين المسلمين، وقلع جذور الشحناء والبغضاء والنزاع والحرب من بينهم، ولأجل أنه لو غلبت إحدى الطائفتين الأخرى لا تتجاوز الحدود الإسلامية فتقتل أسارى الحرب، وتسبي نساء وذراري الطائفة المغلوبة، وتنهب أموالها، فتعود الجاهلية وشحناؤها من جديد وتذهب أتعاب الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وتعاليم الإسلام الأخلاقية أدراج الرياح.

اتخاذ الرسول (ص) خير أسوة

على ممارسي التغيير أن يتخذوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) خير أسوة في كل أعمالهم إذا أرادوا انتشال الأمة من السقوط وجعلها في المقدمة بعد ما أصبحت في ذيل القافلة.

لقد فعل رسول الله (صلى الله عليه وآله) أموراً عظيمة سببت تقدم المسلمين، فقد تعامل مع عدد هائل من الناس الأميين الذين كانوا لا يعرفون شيئاً.

ولمّ شعت مجموعة من القوميات المتحاربة.
وبنى جيشاً عظيماً للدفاع عن النظام الجديد.
وسار بالأمة سيراً سريعاً إلى الأمام في كل مجالات الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية وغيرها.
وأرسى أسس العقيدة والأخلاق والنظافة والنظام.
وجعل القوانين الكفيلة لا بحل المشاكل فحسب بل وللسير الحثيث نحو الرقي والتقدم حتى حرّر المسلمون ثلث الكرة الأرضية في أقل من ثلث قرن...
وقضى على عادات سيئة متجذرة في المجتمع الجاهلي من وأد البنات، والطبقية الحادة، وأكل حقوق الآخرين، ومؤاخذة الإنسان بجرم غيره إلى غير ذلك.
وبنى جهازاً إدارياً جديداً غير مسبوق في العالم بشقيه الفارسي والرومي.
وأطلق حريات الناس في كافة شؤون الحياة باستثناء المحرمات فقط وهي قليلة جداً – والمحرمات كما هو معروف ضارة إما بالمجتمع أو بالفرد نفسه –.
وفجر العبقريات الكامنة والمواهب الفطرية بما يناسب إصلاح العالم لأن تفجير العبقريات قد يكون في جانب خاص من تجارة أو زراعة أو صناعة وقد يكون في كل الجوانب بما يناسب إصلاح العالم في كل أبعاده.
ثم مع كل ذلك بقي هو (صلى الله عليه وآله) كفرد من الأمة بل كان يعيش دون مستواهم المادي فبينما كانوا يبيتون بشبع وارتواء كان يبيت (صلى الله عليه وآله) ظامياً طاوياً. وما كان يزيد عليهم، في مأكل ومشرب، ولا مسكن ومركب ولا في أية حاجة أخرى من حوائج الحياة بل كان يعيش عيشة أضعفهم حالاً وأقلهم في المستوى ولذا قال علي (عليه السلام) بالنسبة إلى نظرة الأمة إلى الرسول (صلى الله عليه وآله) : (وثقوا بالقائد فاتبعوه)(٢٠).
كل ذلك مع أقل قدر ممكن من العنف بل كان العنف صفراً أو كالصفر في جانب ذلك اللطف والحنان، والتفاني والإيثار، بلا فرق بين العنف بالنسبة إلى عدد القتلى الذي تقدم الكلام حوله أو العنف بالنسبة إلى الإنحرافات التي تحصل في أية دولة وفي أية أمة... فكان (صلى الله عليه وآله) كما وصفه القرآن الحكيم: (إنك لعلى خلق عظيم)(٢١) وكما قال فيه تعالى: (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم)(٢٢) وكما امتدحه القرآن: (فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك)(٢٣).
السيرة المثالية
فعلى ممارسي التغيير أن يعملوا بسيرة الرسول (صلى الله عليه وآله) ويتحلّوا بأخلاقه المثالية من الصبر وكظم الغيظ وتحمل الأذى وعدم رد الإعتداء وغير ذلك مما ذكره الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بقوله: (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين)(٢٤) فكان (صلى الله عليه وآله) يعفو ويغفر ويتجاوز ويعاشر الناس بالتي هي أحسن ويأمرهم بالحسنى وذلك في قصص كثيرة... منها ما نقله أحد اليهود الذين أسلموا قال: كنت قد أقرضت

الرسول (صلى الله عليه وآله) بقرض، ثم طالبته منه بشدة، فسمعت من خلفي رجلاً يحتدّ في الكلام معي فتوجهت وإذا به عمر شاهراً سيفه نحوي.
فقال له الرسول (صلى الله عليه وآله) : (مه يا عمر! ألا خير من ذلك، تأمرني بحسن القضاء وتأمره بحسن الإقتضاء) ثم أمر (صلى الله عليه وآله) بما اقترضه وزيادة.. فعلمت من أخلاقه أنه رسول من عند الله حقاً فآمنت به(٢٥).

١ . سورة آل عمران: الآية ٨٥.
٢ . كنز العمال: ج١، ص١٤٩، ح٧٣٧.
٣ . الاختصاص: ص٣٢١.
٤ . سورة الحجرات: الآية ١٣.
٥ . الكافي: ج٢ ص٨٦، باب الاقتصاد في العبادة.
٦ . تحف العقول: ص١٥.
٧ . السنن الكبرى للبيهقي: ج١٠، ص١٩٣.
٨ . سورة آل عمران: الآية ١٥٩.
٩ . سورة القلم: الآية ٤.
١٠ . سورة الأحزاب: الآية ٢١.
١١ . بحار الأنوار: ج٢، ص١٠٤، الباب ٢٦.
١٢ . سورة يوسف: الآية ٩٢.
١٣ . بحار الأنوار: ج٢١، ص١٠٦، الباب ٢٦.
١٤ . بحار الأنوار: ج٢١ الباب ٢٦ ص١٠٦.
١٥ . سورة آل عمران: الآية ١٤٤.
١٦ . سورة البقرة: الآية ٢٥٦.
١٧ . أعيان الشيعة: ج١، ص٤٦٢.
١٨ . الجمل، للمفيد: ص٢١٥.
١٩ . بحار الأنوار: ج٤١، ص٥٠، الباب ١٠٤.
٢٠ . نهج البلاغة: الخطبة ١٨٢.
٢١ . سورة القلم: الآية ٤.
٢٢ . سورة التوبة: الآية ١٢٨.
٢٣ . سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

٢٤ . سورة الأعراف: الآية ١٩٩.

٢٥ .كنز العمال: ج٦، ح١٥٠٥٠.

الدولة الإسلامية

نحو دولة إسلامية

وأخيراً نذكر في هذا الفصل ما يشجع المسلمين على النهوض لأجل استرداد الدولة الإسلامية الواحدة ذات الألف وخمسمائة مليون مسلم حتى لا ييأسوا من جهة كثرة الأعداء الشرقيين والغربيين ووليدتهما الصهيونية وما خلفوا من التشتت والدمار بالمسلمين، فإن في قصص الماضين لعبرة كما قال سبحانه: (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)(١) فإنه كما أمكن لنهضة العلويين في قبال الدولتين الكبيرتين الأموية والعباسية من تركيز دولتهم مع ما كانت عليه تلك الدولتان من القوة والمنعة والجيش والبطش والمال، كذلك يمكن لنهضة المسلمين في الحال الحاضر بمثل ذلك وما ذلك على الله بعزيز.

الفردية

والشورى علم اللافردية واللادكتاتورية، فإن الأشياء تعرف بأضدادها. فاللازم قلع جذور الفردية في الأمة وتعميم الشورى في جميع المجالات، لأنه بدون ذلك يتشتت الأمر سواء في محيط الدين أو محيط الدنيا إذا كان الأخذ بالزمام فرداً واحداً مهما كان في قمة العدالة والنزاهة قبل وصوله إلى الحكم. نعم يستثنى من ذلك المعصوم حيث رعاية الله الدائمة قال سبحانه: (إلا من ارتضى من رسول فأنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً)(٢) فهو مسلوك في رصيدين من أمامه وخلفه من قبل الله (سبحانه وتعالى). وهل بعد ذلك يمكن له الإنحراف ولو بقدر شعرة؟

يشهد بذلك آية التطهير أيضاً والأسئلة حول الآية وإن كانت متعددة إلا أنها غير واردة.

حكم المعصوم

تساؤلات في آية التطهير:

فقد يقال:

١ – لماذا إنما؟

٢ – ولماذا الإرادة دون الفعل مثل (إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين)؟

٣ – ولماذا فعل المضارع دون الماضي؟

٤ – ولماذا الإذهاب الظاهر في أنه كان الرجس قبل ذلك؟

٥ – ولماذا المضارع أيضاً؟

٦ – ولماذا التطهير؟ وهل بعد الإذهاب بحاجة إلى التطهير؟

٧ – ولماذا الإتيان بلفظ المصدر (التطهير) وليس هناك بعد الطهارة شيء؟

٨ – ثم إذا كانت الطهارة منه تعالى فلا فضل لهم على الآخرين؟

والجواب عن ذلك: إن (إنما) بمعنى (فقط) وذلك بقصد أن إرادة الإذهاب وحيدة في الميدان لا يشاركها إرادة غيرها. مثل عدم إذهاب بعض الرجس أو عدم الإذهاب في بعض الوقت، أو عدم الإذهاب ببعض الشرائط؟ وكلمة (يريد) إنما كان مضارعاً لإفادته استمرار الإذهاب، وإنما جيء بالإرادة دون الفعل فلم يقل (اذهب) مثلاً، وإنما قال (يريد) للإشارة إلى الواقعية في الفعل، حيث وراءه الإرادة الظاهرة في الجدية لا إنه شيء صوري كالامتحانية، فإن الفعل يمكن أن يكون بإرادة جدية ويمكن أن يكون بغير إرادة جدية، والإرادة وإن كانت في الممكن تنفك عن الفعل، لكن في الواجب لا تنفك عن الفعل بالنسبة إلى الإرادة التكوينية، لا يقال إذا كانت الإرادة تشريعية فهي بالنسبة إلى الكل، وإذا كانت تكوينية فليست لهم فضيلة في ذلك، لأنهم جلبوا على هذه الكيفية؟

لأنه يقال المراد الإرادة التكوينية بإعطائهم قدرة ضبط النفس قدرة فائقة ليست مثل القدرة في سائر البشر، فإن علمهم بالله (سبحانه) وبرجس العصيان يمنعهم عن ارتكابه، كما أنه (سبحانه) يحفظهم عن السهو والنسيان والغفلة، قال تعالى: (فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً)(٣) كما ورد بها في الأحاديث تفصيل ذلك، ولا إشكال في أنه منحة من الله (سبحانه) خصهم بها كما خص الذهب والماء الحلو والتراب الطيب وغيرها بميزة على الحجر والماء الأجاج والتراب الخبيث كما قال (سبحانه): (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً)(٤) إلى سائر الموجودات فإنها في الميزة ترجع بالنتيجة إلى التكوين لأن الله يعطي كل قابل حقه، قال تعالى: (فضلنا بعض النبيين على بعض)(٥) وقال: (انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض)(٦) كما فضل (سبحانه) الذكي على الغبي، والجميل على القبيح، والإنسان على الحيوان، والحيوان على النبات، والنبات على الجماد، إلى غير ذلك، بل لولا ذلك لكان ظلماً. فهل الكل أذكياء أو الكل إنساناً دون الحيوان والنبات والجماد؟

إذن لا تستقيم الحياة إطلاقاً، وإنما تتحول الحياة إلى حياة أخرى، وكيف حينئذ يتخذ بعضهم بعضاً سخرياً لحوائجهم؟

أو يخلق الكل أغبياء وجماداً وحيواناً وشجراً فتجمد الحياة، ثم إذا خلق الكل أذكياء مثلاً فالأغبياء قابلون للخلقة، فلماذا لم يخلقهم وهو الكريم المطلق؟

وهذا بحث فلسفي طويل ذكرنا جملة منه في بعض كتبنا، وإنما أردنا هنا الإلماع إليه أما قوله: (ليذهب) والسؤال أنه: هل كان حتى يذهب؟

فالجواب أن: الذهاب بالشيء قد يكون بمعنى الرفع وقد يكون بمعنى الدفع كما يقول: أذهبت عنك المشكلة حيث توجهت المشكلة إلى إنسان من قبيل (ضيق فم الركية)، ومن الطبيعي أن الممكن بما هو ممكن بدون إعطاء ميزة من الله (سبحانه وتعالى) قابل للرجس، والعلة في كونه مضارعاً لا ماضياً ما تقدم في قوله (سبحانه): (يريد) وأما سؤال: إنه إذا ذهب الرجس فلا حاجة إلى التطهير وهل هما إلا شيء واحد؟

فالجواب: أنهما شيئان لا شيء واحد، لأن الأشياء لها مراتب مرتبة النفس حيث لا رجس ولا طهارة، ومرتبة الطهارة ومرتبة الرجس كالنفس لها حالة طبيعية، ولها حالة الوساخة، ولها حالة التخلق بالملكات الفاضلة، فاذهاب الرجس تخلية والتطهير تحلية كالأرض التي يقلع عنها النباتات الضارة ثم يزرع فيها النباتات الفاضلة وأما قوله (سبحانه): (تطهيراً) على سبيل النكرة فلأنها تشتمل الطبيعة الواسعة إلى غاية درجات الطهارة لأنها تفيد العموم من حيث السعة في الطبيعة، والنكرة تفيد العموم حتى في سياق الإثبات مثل (تمرة خير من جرادة) و (ماء بارد بالطبع) و (رجل خير من امرأة) إلى غير ذلك، وحيث ذكرنا هذا المبحث في كتاب (الأصول) عند بحث العموم والخصوص مفصلاً فلا حاجة إلى التكرار.

المعصومون (ع) في مواجهة الطغاة

ولقد كان من أحوال الأئمة الطاهرين (عليهم الصلاة والسلام) أنهم لما تغلب بنو أمية على الملك وجعلوا الإسلام ألعوبة بأيديهم وأساءوا إلى علي (عليه الصلاة والسلام) والعلويين من ذريته، ونالوهم بالأذى، بالإضافة إلى إساءتهم بالإسلام والمسلمين في قصص مذكورة في التواريخ، لم ييأسوا عن الوصول إلى الحكم لأجل إصلاح الأمر، وجعل الإسلام في نصابه الصحيح.

فقد نازع معاوية أمير المؤمنين علياً (عليه الصلاة والسلام) الأمر وكان من ذلك حرب صفين مما أدى إلى أن سمى نفسه بإمرة المؤمنين بعد حيلة الحكمين، ثم استشهد علي (عليه الصلاة والسلام) في مؤامرة يهودية، وقال بعضهم باشتراك معاوية في نفس المؤامرة ثم نازع معاوية الحسن بن علي (عليه الصلاة والسلام)، ولم يكن أهل العراق مستعدين لنصرة الإمام، لما ذكرناه في كتاب (ثورة الإمام الحسن عليه السلام) مما اضطر (عليه السلام) بسببه إلى الصلح على شروط، كما صالح رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كفار قريش من ذي قبل، ولم يف معاوية بشيء منها، ثم قتل الإمام الحسن (عليه الصلاة والسلام) بسمٍّ أرسله معاوية إلى جعيدة زوجة الإمام في قصة مشهورة، ثم تغلب على الحكم يزيد في مؤامرة أموية مما سبب قتل الإمام الحسين (عليه الصلاة والسلام).

ثم اضطهد هو ومَن بعده الإمامين زين العابدين والباقر (عليهما الصلاة والسلام)، واستخف هشام بن عبد الملك بزيد بن علي بن الحسين (عليه السلام) – وفي بعض التواريخ أن هشاماً أهان رسول الله (صلى الله عليه وآله) بمحضر زيد – فخرج من عنده مغضباً وقال: (ما كره قوم حد السيوف إلا ذلوا) وثار في الكوفة فقتل وصلب أربع سنين ثم أحرق، وخرج ابنه يحيى بالجوزجان فقتل ثم جاءت دولة بني العباس، هذا بالإضافة إلى أن الخلافة كانت من حق العلويين كما نص بذلك الرسول (صلى الله عليه وآله)، وكان يراهم الناس كذلك سواء بالنسبة إلى الأئمة الطاهرين (عليهم الصلاة والسلام) الذين هم أولياء الأمور المنصوص عليهم من قبل رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو من جهة ذويهم الذين كانوا يدعون إلى الرضا من آل محمد، فإنهم كانوا أقرب منهم إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله) وكانوا يمتازون بالسماحة والشجاعة والفصاحة وحفظ الدين والفضيلة والتقوى ولذا كان الأئمة (عليهم السلام) يعارضون الخلفاء، وذووهم يخرجون عليهم وأول من خرج منهم على العباسيين (محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى) فإن المنصور كان قد بايعه بالخلافة وبايعه أكثر الهاشميين في دولة بني أمية باستثناء

الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه الصلاة والسلام)، حيث أن الإمام قال: لا يكون الملك إلا لصاحب القباء الأصفر، يعني المنصور.

فخرج محمد على المنصور وقتل بالمدينة، وخرج بعده أخوه إبراهيم بالعراق وقتل، ثم خرج الحسين صاحب فخ فقتل بالحجاز ولم يتعرض بقية الأئمة الاثني عشر (عليهم الصلاة والسلام) بعد قتل الحسين (عليه الصلاة والسلام) للحكومة ظاهراً.

فلسفة تبريهم (ع) من الثوار

لكن الذي يطالع تاريخ ثورات العلويين يستظهر من الكلمات المتكررة منهم (عليهم السلام)، إنهم كانوا يهيئون أبناءهم وأبناء عمومتهم للثورة ضد الطغاة من بني أمية وبني العباس، لكنهم كانوا يتجنبون الظهور بهذا المظهر، لكي لا يؤخذوا أولاً فيقضي بذلك على جذور الثورة وحتى لا تفشل الخطة ثانياً، وكانوا أحياناً يظهرون التبري من الثورات والثوار في الظاهر ويؤيدونهم في الباطن، شأن هذا الأمر شأن سائر موارد التقية.

الرسول (ص) والتقية

كما نجد ذلك في قصص الرسول (صلى الله عليه وآله) حيث كان يستعمل التقية والإخفاء حتى لا تفشل الخطة، وقد روي عنه (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان)(٧) وفي التاريخ أنه بعث (صلى الله عليه وآله) مفرزة استطلاع قوامها رجلان إلى بدر للحصول على المعلومات عن قريش وعن قافلتها، فلما وصل المسلمون وادي (ذفران) جاءهم الخبر بخروج قريش من مكة لنجدة قافلتهم وبناءاً على هذا الاستطلاع أخبر الرسول (صلى الله عليه وآله) أصحابه وطلب مشورتهم ورأيهم في هذا الموقف الجديد، فاتفقت كلمتهم جميعاً مهاجرين وأنصاراً على قرار مواجهة قريش، فارتحلوا جميعاً حتى إذا كانوا على مقربة من بدر انطلق الرسول (صلى الله عليه وآله) أمام جيشه حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم؟

وكان في صحبة الرسول كما في بعض التواريخ واحد من الصحابة أيضاً، فقال الشيخ لا أخبركم حتى تخبراني ممن أنتما.

قال النبي (صلى الله عليه وآله): إذا أخبرتنا أخبرناك.

ولما علم الرسول بأخبار الشيخ أن عير قريش قريبة منه، قال له وفاءاً لوعده: (نحن من ماء) ثم انصرف بصحبة الصحابي، وقد تحيّر الشيخ في الجواب وأخذ يردد ما من ماء؟

أمن ماء العراق(٨)؟ إلى غير ذلك من موارد التخفّي الذي استعمله الرسول (صلى الله عليه وآله) حيث قال سبحانه وتعالى: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه)(٩) وقال سبحانه: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)(١٠) وقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لعمار حينما سمع أنه تبرأ من الله ورسوله حفظاً على نفسه من القتل: (إن عادوا فعد)(١١) وأما أن بقية الأئمة الطاهرين عليهم الصلاة والسلام مع أنهم لم يتعرضوا ظاهراً لمحاربة الأمويين

والعباسيين لم يسلموا من أذاهم فلأن ذلك كان حسداً منهم، لما كان يرون من إقبال الناس على الأئمة وإنهم العلماء الحلماء الكرماء الذين لهم في كل مسألة جواب حاضر، ولكل معضلة حل حاسم، وهم أولاد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقد استدعى المنصور الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) من الحجاز إلى العراق مراراً وأراد قتله، فنجاه الله منه، ولكن أخيراً دسَّ إليه السمّ وقتله. وحبس هارون الإمام موسى الكاظم (عليه الصلاة والسلام) ثم قتله بالسمّ. وكذلك طلب المأمون العباسي الإمام الرضا عليه الصلاة والسلام إلى خراسان واحتال لإدخاله في ولاية العهد، ثم قتله بالسمّ، وهكذا قتل العباسيون الإمام الجواد والإمام الهادي والإمام العسكري وغاب الإمام المهدي (صلوات الله عليه) بأمر الله حتى يظهر في آخر الزمان، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، كما أخبر بذلك الرسول (صلى الله عليه وآله) في أحاديث متواترة.

الجمع الروائي فيما يرتبط بالثوار

أما أولاد الأئمة وذووهم فقد قاموا بالثورات برضى منهم (عليهم السلام) أو بإشارتهم، كما يظهر من روايات متعددة جمعناها في بعض كتبنا فإن الإنسان الذي يراجع الكلامين المتدافعين من الأئمة (عليهم الصلاة والسلام) في بعض هؤلاء الثائرين لا يسعه إلا الجمع الذي ذكرناه من الظاهر والباطن والحكم الواقعي والتقيّ. وكمثال ننقل هنا مقدمة الصحيفة السجادية للإمام السجاد (عليه الصلاة والسلام)، حتى يظهر كيف أن نفس الكلام يدل على الجمع الذي ذكرناه.

فعن متوكل بن هارون قال: لقيت يحيى بن زيد بن علي (عليه السلام) وهو متوجه إلى خراسان بعد قتل أبيه فسلمت عليه، فقال لي: من أين أقبلت؟

قلت: من الحج، فسألني عن أهله وبني عمه في المدينة، وأخفى السؤال عن جعفر بن محمد عليهما السلام، فأخبرته بخبره وخبرهم وحزنهم على أبيه زيد بن علي (عليه السلام)، فقال لي: قد كان عمي محمد بن علي (عليه السلام) أشار على أبي بترك الخروج وعرفه إن هو خرج وفارق المدينة ما يكون إليه مصير أمره، فهل لقيت ابن عمي جعفر بن محمد عليهما السلام؟ قلت: نعم، قال: فهل سمعته يذكر شيئاً من أمري؟

قلت: نعم، قال: بم ذكرني، خبّرني؟

قلت: جعلت فداك ما أحب أن أستقبلك بما سمعته منه، فقال: أبالموت تخوّفني هات ما سمعته، فقلت: سمعته يقول: إنك تقتل وتصلب كما قتل أبوك وصلب، فتغير وجهه وقال: (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب)(١٢) يا متوكل إنّ الله عز وجل أيّد هذا الأمر بنا، وجعل لنا العلم والسيف فجمعه لنا وخص بنو عمنا بالعلم وحده، فقلت: جعلت فداك إني رأيت الناس إلى ابن عمك جعفر (عليه السلام) أميل منهم إليك، وإلى أبيك؟

فقال: إن عمي محمد بن علي وابنه جعفر (عليهم السلام) دعوا الناس إلى الحياة ونحن دعوناهم إلى الموت.

فقلت: يا بن رسول الله أهم أعلم أم أنتم، فأطرق إلى الأرض ملياً ثم رفع رأسه وقال: كلنا له علم غير أنهم يعلمون كل ما نعلم ولا نعلم كل ما يعلمون، ثم قال لي: أكتبت عن ابن عمي شيئاً؟

قلت: نعم، قال: أرنيه، فأخرجت إليه وجوهاً من العلم وأخرجت له دعاءاً أملاه علي أبو عبد الله (عليه السلام) وحدثني أن أباه محمد بن علي (عليهما السلام) أملاه عليه وأخبره أنه من دعاء أبيه علي بن الحسين (عليه السلام) من دعاء الصحيفة الكاملة (إلى أن قال:) والله يا متوكل لولا ما ذكرت من قول ابن عمي أنني أقتل وأصلب لما دفعتها إليك وكنت بها ظنيناً ولكني أعلم أن قوله حق أخذه عن آبائه وإنه سيصح فخفت أن يقع مثل هذا العلم إلى بني أمية فيكتموه ويدخروه في خزائنهم لأنفسهم فاقبضها واكفنيها وتربص بها، فإذا قضى الله من أمري وأمر هؤلاء القوم ما هو قاض فهي أمانة لي عندك حتى توصلها إلى ابني عمي محمد وإبراهيم ابني عبد الله ابن الحسن بن الحسن عليهما السلام، فإنهما القائمان في هذا الأمر بعدي، قال المتوكل: فقبضت الصحيفة، فلما قتل يحيى بن زيد صرت إلى المدينة فلقيت أبا عبد الله (عليه السلام) فحدثته الحديث عن يحيى فبكى واشتد وجده به وقال: رحم الله ابن عمي وألحقه بآبائه وأجداده (إلى أن قال:) ثم استأذنت أبا عبد الله (عليه السلام) في دفع الصحيفة إلى ابني عبد الله ابن الحسن فقال: (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها)(١٣) نعم فادفعها إليهما فلما نهضت للقائهما قال لي: مكانك، ثم وجّه إلى محمد وإبراهيم فجاءا فقال: هذا ميراث ابن عمكما يحيى من أبيه، قد خصكما به دون أخوته، ونحن مشترطون عليكما فيه شرطاً، فقالا: رحمك الله قل فقولك المقبول، فقال: لا تخرجا بهذه الصحيفة من المدينة، قالا: ولم ذاك؟

قال: إن ابن عمكما خاف عليها أمراً أخافه أنا عليكما، قالا: إنما خاف عليها حين علم أنه يقتل، فقال أبو عبد الله (عليه السلام): وأنتما فلا تأمنا فوالله إني لأعلم أنكما ستخرجان كما خرج وستقتلان كما قتل، فقاما وهما يقولان لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فلما خرجا قال لي أبو عبد الله (عليه السلام): يا متوكل كيف قال لك يحيى أن عمي محمد بن علي وابنه جعفراً دعوا الناس إلى الحياة ودعوناهم إلى الموت، قلت نعم أصلحك الله قد قال لي ابن عمك يحيى ذلك، فقال: يرحم الله يحيى إن أبي حدثني عن أبيه عن جده عن علي (عليه السلام) أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أخذته نعسة وهو على منبره فرأى في منامه رجالاً ينزون على منبره نزو القردة يردون الناس على أعقابهم القهقري، فاستوى رسول الله (صلى الله عليه وآله) جالساً والحزن يعرف في وجهه، فأتاه جبرائيل (عليه السلام) بهذه الآية: (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً)(١٤) يعني بني أمية فقال: يا جبرئيل أعلى عهدي يكونون وفي زمني، قال: لا ولكن تدور رحى الإسلام من مهاجرك فتلبث بذلك عشراً ثم تدور رحى الإسلام على رأس خمسة وثلاثين من مهاجرك، فتلبث بذلك خمساً ثم لا بد من رحى ضلالة هي قائمة على قطبها، ثم ملك الفراعنة، قال وأنزل الله تعالى في ذلك: (إنا أنزلناه في ليلة القدر، وما أدراك ما ليلة القدر، ليلة القدر خير من ألف شهر)(١٥) يملكها بنو أمية ليس فيها ليلة القدر، قال: فأطلع الله عز وجل نبيه (عليه السلام) أن بني أمية تملك سلطان هذه الأمة وملكها طول هذه المدة فلو طاولتهم الجبال لطالوا عليها حتى يأذن الله تعالى بزوال ملكهم وهم في ذلك يستشعرون عداوتنا أهل البيت وبغضنا، أخبر الله نبيه بما يلقي أهل بيت محمد وأهل مودتهم وشيعتهم منهم في أيامهم وملكهم، قال: وأنزل الله تعالى فيهم: (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا

قومهم دار البوار، جهنم يصلونها وبئس القرار)(١٦) ونعمة الله محمد وأهل بيته، حبهم إيمان يدخل الجنة، وبغضهم كفر ونفاق يدخل النار، فأسرّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) ذلك إلى علي وأهل بيته.

قال: ثم قال أبو عبد الله (عليه السلام): ما خرج ولا يخرج منا أهل البيت إلى قيام قائمنا أحد ليدفع ظلماً أو ينعش حقاً إلا اصطلمته البلية، وكان قيامه زيادة في مكروهنا وشيعتنا، قال المتوكل بن هارون: ثم أملى علي أبو عبد الله (عليه السلام) الأدعية (إلى آخر المقدمة المذكورة في أول الصحيفة الكاملة) فإنك ترى آثار التقية بادية على النفي وإلا فكيف يبكي الإمام ويترحم على إنسان يخرج في غير سبيل الله فيقتل ويُقتل ومن الواضح أن قتل النفس وقتل الغير بغير استحقاق من المحرمات الشديدة وهل مثل هذا الإنسان الذي يفعل أمثال هذه المنكرات يستحق البكاء والترحم وما أشبه وكذلك ترحمهم (عليهم السلام) على المختار وبكاؤهم على زيد وتأثر الرضا عليه الصلاة والسلام حيث قرأ الشاعر قصيدته والتي فيها:-

قبور بكوفان وأخرى بطيبة وأخرى بفخ نالها صلواتي

وأخرى بأرض الجوزجان محلها وأخرى ببا خمرا لدى الغربات

وقول الإمام الصادق (عليه الصلاة والسلام): إن أهل المدينة لم يفوا بما عاهدوا رسول الله (صلى الله عليه وآله) في قصة حسين شهيد فخ إلى غير ذلك من الشواهد الكثيرة، أما قول يحيى أن الصادق (عليه الصلاة والسلام) دعا للحياة وهو للموت وما أشبه، فظاهر أنه صدر عنه أيضاً تقية من نفس المتوكل، أو لكي لا ينقله المتوكل، فيؤخذ الإمام (عليه الصلاة والسلام) بالنقل المذكور كما قرر من باب التقية من أن التقية قد تكون من نفس الإنسان السائل، وقد تكون ممن في المجلس، وقد تكون من أجل أنه قد ينقل السائل المطلب فيصل إلى الجبارين، فيؤخذ هو أو يؤخذ الإمام أو ما أشبه ذلك، وقصة تنقيص زرارة وغيره معروفة.

علماؤنا على نهج الأئمة(ع)

وقد ذكرت التواريخ كيف أن علماءنا العظام رحمهم الله كانوا يؤيدون الثورة والثوار أمثال السيدين المرتضى والرضى والمفيد بالنسبة للبويهيين والمجلسيين والبهائي وغيرهم من كبار علماء إيران للصفويين حتى ينتهي الأمر إلى الشيخ الخراساني، والمجدد والميرزا الشيرازي لثورة إيران والعراق مما نحن لسنا في هذا الفصل بصدد التفصيل لذلك فإنه يحتاج إلى كتاب ضخم.

الدول العلوية في التاريخ

ونذكر في هذه العجالة جملة من دول العلويين التي قامت في شرق الأرض وغربها ضد الأمويين والعباسيين وازدهرت ودامت وحفظت آثار رسول الله (صلى الله عليه وآله) مما يشاهد إلى الآن في البلاد.

دولة الأدارسة بالمغرب:

منها دولة الأدارسة الحسنيين بالمغرب والأندلس، وهم نحو ثمانية عشر شخصاً ومدة ملكهم نحو سبعين سنة وجدهم إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى، فقد هرب في أيام هارون من اضطهاده إلى شمال أفريقيا، فأسس هناك دولة معاصرة لدولة بني العباس ببغداد في أقوى أيام قوتها، وأظهر العدل والعمل بالكتاب والسنة ولما بلغ

هارون خبره قلق لذلك قلقاً كبيراً، وأرسل إليه من سمّه مكراً وحيلة فمات وكانت امرأته حاملة، فولدت ذكراً سموه إدريس باسم أبيه، وتناسلت ذريته ودامت دولتهم. والغريب في الأمر أن العباسيين لم يكونوا يهتمون بدولة الأمويين التي قامت لعبد الرحمن الأموي الهارب إلى الأندلس في أول دولة بني العباس وأسس بها دولة استمرت عشرات السنوات ولا أرسلوا من يحتال لسمهم مما يظهر أن خوفهم من العلويين لميل الناس إليهم وأنهم أهل الحق كان أشد خوفهم من الأمويين.

وعن تاريخ الخلفاء للسيوطي: ثم هوت الدولة الأموية بالمغرب سنة أربعمائة وستة وقامت الدولة العلوية الحسنية فولى الناصر علي بن حمود، وقام أخوه المأمون القاسم، وقام ابن أخيه يحيى بن الناصر علي بن حمود ولقب المستعلي، وتسمّى القاسم وابن أخيه يحيى بالخلافة، ثم ملك إدريس بن علي بن حمود ثم يحيى بن إدريس ثم محمد بن القاسم بن حمود، ولم يتسمّ بالخلافة، ثم بايعوا الحسن بن يحيى بالخلافة، ثم مات، فبايعوا إدريس بن يحيى بالخلافة، ثم بويع ابن عمه محمد بن إدريس بن علي، ثم بويع الحسن بن إدريس ومحمد بن القاسم بالخلافة ثم مات محمد، فولى ابنه القاسم، ولم يتسمّ بالخلافة، ثم مات محمد بن إدريس، وملك بعده إدريس بن يحيى وانقضى ملك العلويين من الأندلس سنة أربعمائة وسبع وأربعين وصار فيها أشباه ملوك الطوائف ثم استولى عليها يوسف بن تاشكين صاحب مراكش، وتعاقبت الدول التي ملكها الأسبانيون في عهد الدولة العثمانية، وأجبروا أهلها على التنصر أو الخروج منها أو القتل، فلم يبق فيها مسلم إلا مختفياً وحولت مساجدها كنائس، وبقيت كذلك إلى اليوم، وقد ذكر (غوستاف لوبون) في كتابه (الحضارة) أن تلك البلاد لم تستعد قوتها ونشاطها وعمرانها بعد تنصرها إلى اليوم.

ومن قرأ تاريخ الأندلس ولو عن لسان مسيحي مثل غوستاف لوبون فيه شيء من الإنصاف يعرف كيف كان العدل والعمران والتقدم والحضارة والازدهار في تلك البلاد إبان حكم العلويين، وليس معنى ما ذكرناه إنا نؤيد هؤلاء تأييداً كاملاً، بل معناه إنا نرى أكبر قدر من العدل الإسلامي والحضارة الصحيحة في زمانهم، فقد ازدهر الإيمان والفضيلة والعقيدة ومنحوا الناس الحريات الكثيرة التي قررها الإسلام.

دولة آل طباطبا بالكوفة واليمن:

ظهر في سنة مائة وتسع وتسعين بالكوفة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليهما الصلاة والسلام)، يدعو إلى الرضا من آل محمد (صلوات الله عليهم أجمعين)، وكان القيم بأمره في الحرب أبو السرايا السري بن المنصور، وبعد أشهر مات محمد فجأة وقد اختلفوا في موته هل كان بدس السم إليه كما نسب إلى أبي السرايا، لأنه علم أنه لا حكم له معه، أو بدس السم إليه من غيره أو مات بإذن الله سبحانه وتعالى بغير سبب ظاهر، من مرض أو ضغط دم أو نحوه، وبايع محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام)، وضرب أبو السرايا الدراهم بالكوفة باسمه وفتح البصرة والمدائن وأرسل عمالاً إلى الحجاز واليمن وانتشر الطالبيون في البلاد وفي سنة مائتين من الهجرة قتل أبو السرايا وفي سنة مائتين وواحد مات محمد صاحبه.

وقد ذكر في بعض التواريخ أنه قام من هذه السلسلة بالخلافة أبو عبد الله محمد بن إبراهيم طباطبا سنة مائة وتسع وتسعين وقام باليمن في هذا العصر الهادي يحيى بن الحسين بن القاسم بن طباطبا ومات سنة مائتين وثمانية وقام ابنه المرتضى محمد ومن بعده قام أخوه الناصر ومن بعده قام ابنه المنتجب الحسين ثم قام أخوه المختار القاسم ثم قام أخوه الهادي محمد ثم الرشيد العباس ثم استمرت هذه الدولة التي قامت على المذهب الزيدي إلى عصرنا حيث أطيح بها بسبب مؤامرات الشرقيين والغربيين.

دولة الفاطميين في شمال أفريقيا:

ظهرت الدولة العلوية الفاطمية في شمال أفريقيا ومصر إبان أخذت الدولة العباسية بالضعف ولم يجد العباسيون سلاحاً يحاربونها به أقوى من القدح في نسبها لما كان الناس عليه من الميل إلى العلويين والنفرة من العباسيين بما كانوا يظهرونه من المناكير ويتجنبون العدل ويملأون البلاد ظلماً وفسقاً وفجوراً، ولم يكن العباسيون يطمعون في الاستيلاء على ملك العلويين بقدحهم في نسبهم لكنهم كانوا يريدون الاحتفاظ بما في أيديهم خوفاً على أنفسهم من العلويين، وقد استمرت هذه الدولة ما يقارب ثلاثة قرون وأوجدوا هناك حضارة زاهرة وأبدوا عدلاً جميلاً وكان بعضهم من الاثني عشرية وبعضهم من الإسماعيلية ومن ينظر تاريخ (ابن حجلة) ونحوه من مؤرخي البلاط العباسي يرى الكذب الصريح والتناقض والافتراء المشين بالنسبة إلى هؤلاء الحكام.

الدولة العلوية بطبرستان والديلم:

وظهرت دولة علوية أخرى بطبرستان وبلاد الديلم ملك فيها الداعي إلى الحق الملقب بالداعي الكبير الحسن بن زيد الحسني سنة مائتين وخمسين من الهجرة، ثم أخوه الملقب بالداعي الصغير محمد بن زيد، ثم الملقب بالناصر الكبير، والملقب بالناصر الصغير، وقد ذكر المؤرخون أن الدولة الطبرستانية تداولها ستة رجال ثلاثة منهم من بني الحسن، ثم ثلاثة منهم من بني الحسين (عليهما السلام)، أولهم الداعي إلى الحق الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسين بن زيد الجواد بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليهما السلام) بالري والديلم، ثم أخوه القائم بالحق محمد، ثم حفيده المهدي الحسن بن زيد بن القائم الحق إلى آخر ما ذكره التاريخ، وقد قامت هذه الدولة لضعف الخلافة العباسية واختلافهم وتشتت أمرهم واشتغالهم بالفسق والفجور، وما ظهر منهم من جور العمال وعسفهم فخرج هؤلاء السادات إلى طبرستان وحاربوا المستولين عليها وطردوهم وظهرت منهم عدالة وشهامة وشجاعة وأقاموا عمود الحق والعدل وأحبهم أهل تلك البلاد وبايعوهم على الكتاب والسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فعمروا البلاد وأظهروا العدل في العباد حتى أن بعضهم ذكر أنه رأى أحد هؤلاء السادة تابعاً للإمام أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام في عدله وتقواه وورعه وكرمه وعفوه وصفحه إلى غير ذلك.

دول العلويين في الحجاز:

وظهرت دولتان حسنية وحسينية بالحجاز، دولة حسنية في مكة المكرمة، ودولة حسينية في المدينة المنورة، وأول من ملك مكة من الحسنيين جعفر بن محمد بن الحسين أو الحسن بن محمد الثائر بن موسى الثاني بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب عليهما السلام.

وذلك في أواسط المائة الرابعة من الهجرة واستمرت إمارة الحسنيين على مكة المكرمة إلى ما يقارب عصرنا حيث كان آخر من ملكها منهم الشريف الحسين بن علي الذي أقيم ملكاً على الحجاز باسم ملك العرب، ثم ولده الملك علي، ولم تطل مدة هذا الملك الأخير حيث استولى السعوديون بإيعاز من البريطانيين ومساندتهم على ملك الحجاز والسعوديون باقون في الحكم إلى اليوم، وإن كانت دولتهم أخذت تترنح وتميل إلى السقوط بما ظهرت في بلادهم من الثورات الشعبية سواء في المنطقة الشرقية أو في المسجد الحرام في قصص مفصلة في التاريخ المعاصر.

وأول من ملك المدينة من الحسينيين كما ذكره بعض المؤرخين الشريف طاهر بن محمد بن طاهر بن الحسن بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن عبد الله بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام)، فقد لحق الطاهر بالمدينة المنورة فقدمه بنو الحسين على أنفسهم واستقل بإمارتها سنين وتوفي سنة ثلاثمائة وواحد وثمانين، واستمرت إمارتها فيهم إلى سنة ثمانمائة وستة وثمانين حيث كان أميرها فيصل الجمازي.

ولا يخفى أن الشريف حسين وولده علي ممن ذكرناهم قد أظهروا التسنن والظاهر أن ذلك كان لمصلحة كما ينقل في التواريخ وقد كانت مكة المكرمة والمدينة المنورة في عهد هؤلاء الأشراف منطقة حرية وأمان وعدل حتى جاء الوهابيون فأظهروا التعصب مما هو معروف في المذهب الوهابي.

دولة المرعشيين:

وظهرت دولة مرعشية في آمل ومازندران وحواليها وكان هؤلاء سادات حسينيين من نسل الحسن المرعشي بن الحسين الأصغر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام)، وقد ملك منهم أربعة عشر رجلاً أولهم يدعى قوام الدين وآخرهم السيد مراد ملكوا ما يقارب القرنين والنصف، لكن تخلل هذه المدة ملك لغيرهم نحو نصف قرن فكانت مدة ملكهم أقل من قرنين.

دولة الكيائيين:

كما ظهرت في بلاد الكيلان والديلم دولة علوية أخرى هي دولة الكيائية نسبة إلى (كيا) بكسر الكاف وهي بمعنى العظيم في اللغة المحلية أو السيد أو الشريف، أو ما يشبه ذلك، وكان هؤلاء السادة يلقبون به وكان ظهور هذه الدولة في أوائل المائة الثامنة من الهجرة.

دولة الصفويين:

وظهرت الدولة الصفوية بإيران وحكموا نحو قرنين ونصف من الزمان وقد بلغت من القوة والعظمة درجة رفيعة جداً فنشروا العلوم والمعارف وأكرموا العلماء وأهل الدين وحافظوا على شعار الإسلام، وقد ملك منهم عشرة ملوك، أولهم إسماعيل بن حيدر، وآخرهم طهماسب الثاني بن حسين، وهم من السادات العلوية التي ينتهي نسبهم إلى الإمام الكاظم موسى بن جعفر (عليهما السلام)، وقد خلّفوا للعالم الإسلامي الكتب الكثيرة والتي منها بحار الأنوار للعلامة المجلسي وشرح من لا يحضره الفقيه لوالده، والكتب الثمينة للشيخ بهاء الدين العاملي،

وكتاب الوسائل وسائر الكتب للشيخ الحر العاملي إلى غير ذلك. وكما ألمحنا في السابق كان هناك بعض الفترات غير النزيهة في حكم هؤلاء لكن الاعتبار بالأكثرية ونحن لسنا الآن بصدد التفصيل.

دولة المشعشعيين:

وظهرت دولة الموالي آل فلاح الموسويين المشعشعيين في خوزستان الحوبزة ونواحيها وكان ابتدائها من سنة ثمانمائة وخمسين هجرية، وانتهت سنة ألف وتسع وعشرين، وذلك نحو قرنين من الزمان وعاصر بعض هؤلاء الملوك الصفوية وبسطوا عليها سيطرتهم وكان لهم رجال مذكورون في التواريخ بالتفصيل.

وقد قامت دول وإمارات علوية أخرى في العالم الإسلامي لسنا بصدد التفصيل حولها.

وفي ما ذكرناه أكبر الدلالة على أن جماعة إذا راموا إقامة حكم الله وأخذوا بأسباب الرقي والتقدم واتبعوا الأسباب الموصلة كما قال سبحانه (ثم أتبع سبباً)(١٧) وفقوا ولو حين، فلا يأس من روح الله، وكذلك المسلمون في العالم الحاضر إذا أخذوا بالأسباب التي قررها الله سبحانه لمثل هذا الهدف، تمكنوا من إعادة حكمهم تحت لواء الإسلام وحكم القرآن في دولة عالمية ذات ألف وخمسمائة مليون، وما ذلك على الله بعزيز.

الاعتماد على الذات

على ممارسي التغيير الاعتماد على النفس، إذ الاعتماد على النفس يصنع العجائب فإن الميزة التي توفرت في هؤلاء الذين قد وصلوا إلى مراتب راقية – سواء في الحقول العلمية أو العملية، وسواء كانوا مؤلفين بارعين، أو خطباء كباراً، أو مجتهدين عظاماً، أو رؤساء ناجحين، أو أصحاب قوة ومنعة وسلاح، أو تجاراً رابحين، أو ما أشبه – فإن الميزة في هؤلاء دون أترابهم وزملائهم هو اعتمادهم الكبير على النفس مما حفزهم على الوصول إلى ذلك المكان الرفيع.

وقد اتفق في الزمان السابق إن أبحرت سفينة من السفن الشراعية – في عرض البحر – ولما وقفت الريح لم تتمكن السفينة من مواصلة السير فأرست على جزيرة في وسط البحر، ولما دخل أهلها في الجزيرة رأوا هناك رجلاً فتعجبوا من تواجده في ذلك المكان وقالوا له: هل أنت من الإنس أو الجن؟ وماذا تصنع هنا؟

قال: اعلموا أني قد ركبت البحر قبل ثلاث عشرة سنة فانكسرت السفينة وغرق الكل وتعلقت بخشبة منها وجاء بي الموج إلى هذه الجزيرة ولما أصابني اليأس عن العودة إلى البلاد، فكرت في أن لا أيأس من الحياة ولا أساعد على موتي، ففكرت في أن أصنع لنفسي المأوى والأدوات والآلات والملابس ووسائل البيت وغير ذلك ففعلت كل ذلك وصنعت كل شيء من لوازم الحياة حتى موسى الحلاقة ! وأمنت شر الحيوانات المفترسة في الجزيرة، وبقيت هكذا أعيش وحدي وأصنع بنفسي مأكلي وملبسي وأُهيّئ مشربي وسائر ما أحتاج إليه.

فتعجّبوا منه أيما تعجب إذ كيف يعيش إنسان واحد في جزيرة منقطعة هذه المدة الطويلة، ويهيّئ لنفسه كل شيء مما يحتاجه من لوازم الحياة من مواد الأشجار والأحجار.

وهكذا يكون الاعتماد على النفس من أهم أسباب تقدم الإنسان إلى الأمام، فإذا كان ممارسو التغيير يعتمدون على أنفسهم اعتماداً كافياً ويصممون على الوصول إلى الهدف المنشود وهو إقامة حكم الله سبحانه وتعالى في الأرض وإنقاذ المستضعفين من براثن المستكبرين فإنهم لا بد وأن يصلوا إليه بإذن الله تعالى.

التوكل على الله

على ممارسي التغيير التوكل على الله سبحانه وتعالى في كافة أمورهم صغيرها وكبيرها، حقيرها وجليلها، فمن يتوكل على الله فإنه يكفيه ما أهمه وفي القرآن الحكيم: (ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً)(١٨).

كما أن التوكل على الله يسبب الاطمئنان وهدوء النفس وقد قال سبحانه: (فاذكروني أذكركم)(١٩).

وقال تعالى: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)(٢٠).

ومن المعلوم أن بيد الله سبحانه وتعالى قوى الكون كلها، وإنه على كل شيء قدير، وقد قيل في ذلك: –

أزمة الأمور طرا بيده***والكل مستمدة من مدده

فإذا لجأ الإنسان إلى الله، وذكره على كل حال، وتوكل عليه كفاه الأمور وأراه السرور – كما في الحديث –.

المعجون السحري:

وقد ورد في التواريخ أن أنوشيروان لما وصل إلى دفة الحكم أمر بسجن جميع وزرائه بمن فيهم الحكيم المشهور (بوذر جمهر) فنقلوا إلى سجون إنفرادية مظلمة.

وبعد مدة أرسل الملك شخصاً من قبله ليتجسس على السجناء السياسيين ويرى كيفية حالهم في تلك السجون المظلمة بعد ما كانوا وزراء وقادة البلاد.

ولما رجع الجاسوس قال للملك: رأيتهم كلهم في حالة يرثى لها، من كثرة ما أصابهم من الضعف والذلة، والبكاء والحزن المسيطر عليهم، باستثناء (بوذر جمهر) حيث رأيته كحالته السابقة وكأنه جالس على كرسي الرئاسة لم يتغير من حاله شيء.

ولما سألته عن سبب ذلك؟

قال لي: إني أستعمل بعض الأدوية العلاجية التي تبقي على صحتي ونشاطي.

فقلت: وما هو ذلك الدواء؟

قال بوذر جمهر: أنه مركب من عدة أشياء:

أولها: التوكل على الله.

وثانيها: العلم بأن كل حال يزول لا محالة.

وثالثها: الصبر.

فإني أفكر في هذه الأمور الثلاثة كل يوم وأستلهم منها نشاطي وصحتي.

وهكذا يكون التوكل على الله تعالى سبباً لقوة الإنسان من ناحية، وموجباً للطف الله وعطفه من ناحية أخرى مما يوجب الوصول إلى الهدف بإذن الله سبحانه وتعالى.

التغيير لأسباب خارجية:

ثم إن الإنسان لا يعلم أن التغيير في أي وقت يكون وبأي سبب يتم، فلربما يكون التغيير بسبب خارج عن إرادة الإنسان فقد حدّثنا أحد علماء مشهد المقدسة – من الذين ابتلوا بسجن البهلوي الأول في قصة مسجد (كوهرشاد) المشهورة. والتي أباد فيها البهلوي الأول من الناس ما يقارب عشرة آلاف إنسان بريء، كما حدثنا بذلك جماعة من الثقاة – .

وقال: إنا كنا مسجونين في زنزانات مظلمة، لا نجد منفذاً إلى الهواء والنور، وكنا في أشد الضيق، ولم تكن لنا وسيلة إلا التوكل على الله والاستعانة به والتوسل إليه بالإفراج عنا بمحمد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين، وكان الحكم الصادر بحقنا هو حكم الإعدام لأن البهلوي كان قد اتهمنا، وألقى جريمة ما ارتكبه من قتل المسلمين الأبرياء على عواتقنا فأصبحنا كما قال الشاعر: –

غيري جنى وأنا المعاقب فيكم فكأنـي سبـابـة المتندم

فبينما نحن في كآبة وحزن، وانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى إذ فاجأنا خبر الإفراج عنا، والإطلاق لسراحنا، وإذا بأحد الضباط من قبل البهلوي يدخل علينا ويقول لنا: أنتم أحرار فيما تريدون أن تفعلوا، ثم أخرجنا من السجن. فتعجبنا من ذلك كثيراً ومن أنه كيف لم يبدل حكم الإعدام في حقنا بالسجن المؤبد، ولم يأخذ منا وثيقة تعهد أو ما أشبه ذلك وبعد الخروج من السجن أخذنا نتحرى ونفحص عن السبب؟

فعلمنا أن جماعة من علماء الهند نشروا في الجرائد والمجلات، إن البهلوي دكتاتور، وإنه يضطهد العلماء والمؤمنين، والدليل على اضطهاده للعلماء سجنه لفلان وفلان وفلان – قال العالم: – وكان اسمي من جملة تلك الأسماء – فعلمنا أن هذا الإعلام المضاد قد وصل خبره إلى البهلوي فأراد أن يحفظ كرامته وكرامة حكومته أمام الرأي العام. فأمر بإطلاق سراحنا فوراً من دون قيد أو شرط.

وهكذا تكون ثمرة التوكل على الله سبحانه وتعالى حيث أنه مسبب الأسباب ومفتح الأبواب.

وبهذا الصدد ينقل أن أحد الملوك غضب على إنسان فأمر بربطه بأسطوانة في قصره حتى يحضر الجلاد ويضرب عنقه، فلما حضر الجلاد طلب الرجل من الملك أن يتفضل عليه ويأمر بقتله مربوطاً بالأسطوانة الثانية، لا هذه الأسطوانة.

ضحك الملك وقال: ما الفائدة في ذلك؟

قال: من الأسطوانة إلى الأسطوانة يكون الفرج.

ففتحوا وثاقه من الأسطوانة المشدود إليها وأرادوا ربطه بالأسطوانة الثانية وإذا بالملك يموت فجأة، ويضطرب وضع القصر، ويتحرر الرجل ولا يصيبه مكروه.

١ . سورة يوسف: الآية ١١١.

٢ . سورة الجن: الآية ٢٧.

٣ . سورة الجن: الآية ٢٧.

٤ . سورة الأعراف: الآية ٥٨.

٥ . سورة الإسراء: الآية ٥٥.

٦ . سورة الإسراء: الآية ٢١.

٧ . بحار الأنوار: ج٧٤ الباب ٧ من كتاب الروضة ص١٦٤.

٨ . البداية والنهاية ج٣ ص٢٦٣.

٩ . سورة آل عمران: الآية ٢٨.

١٠ . سورة النحل: الآية ١٠٦.

١١ . حلية الأولياء ج١ ص١٤٠.

١٢ . سورة الرعد: الآية ٣٩.

١٣ . سورة النساء: الآية ٥٨.

١٤ . سورة الإسراء: الآية ٦٠.

١٥ . سورة القدر: الآية ١-٣.

١٦ . سورة إبراهيم: الآية ٢٨-٢٩.

١٧ . سورة الكهف: الآية ٨٩.

١٨ . سورة الطلاق: الآية ٢-٣.

١٩ . سورة البقرة: الآية ١٥٢.

٢٠ . سورة الرعد: الآية ٢٨.

التغيير الأخلاقي

المبادرة

يلزم على الممارسين أن تكون أمورهم حسب التعقل وتطلب الظروف لا حسب ردّ الفعل، حيث أن الإنسان إذا هيّأ نفسه لردّ الفعل يكون دائماً في أزمة يخلقها طرفه، ولذا قالوا في علم المناظرة (كن سائلاً ولا تكن مجيباً) فإن تفكير الإنسان في الجواب له يوجب إعداد السائل لسؤال آخر، وبذلك يكون المجيب موقع تهاجم السائل دائماً، وطبيعي أن يدافع عن نفسه، والمدافع في ضيق دائماً، فإن الجواب ورد الفعل حالهما حال الدفاع، وقد قال علي (عليه السلام): (ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلوا)(١). ومعنى رد الفعل أن الطرف يسحب الإنسان حيث أراد هو، لا حيث يريد الإنسان نفسه.

رعاية المحيطات الستة

من الضروري أن يلاحظ الممارسون صحة المحيطات الستة التي يزاولها الإنسان، وهي النفس والجسد والبيت والمحيط الاجتماعي والطبيعي والصناعي، فإن كل محيط لبنة في صرح الإستقامة العامة أو الإنحراف العام، فالمواظبة على سلامة النفس عن الأخلاق السيئة، وعلى صحة الجسد عن الأمراض والعاهات، وعلى استقامة البيت العائلي عن الزيغ، وعلى تناسب المحيط الاجتماعي في الأخذ والعطاء وتوفّر السلع والخدمات في مختلف الجوانب الاقتصادية والسياسية والفكرية والثقافية والتربوية وغيرها.

وعلى نظافة المحيط الطبيعي سلباً واتجاهه إلى الإنتاج إيجاباً فلا يكون المحيط الطبيعي ملوثاً أو قاحلاً، ولا يكون راكداً أو جامداً، وعلى توفر الصناعة حسب الإمكان في مختلف جوانب الإحتياج لأن الصناعة توجب التقدم.

وقولنا (حسب الإمكان) حتى لا ينافي ما ذكرناه سابقاً من (التقشف) فإن التوفير على الأصل، ما لم يصادم الأهم الذي هو التقشف والزهد. توجب الضرب إلى الهدف.

عدم الانشغال بالهامشيات

من الضروري على ممارسي التغيير أن لا يشتغلوا بالأمور الجانبية التافهة، والإصلاحات السطحية البسيطة، فإن الاشتغال بالجانبيات والتوافه يمنعهم عن الوصول إلى أهدافهم فإنه ليس للإنسان قدرتان – مهما كان ذلك الإنسان عظيماً –: قدرة الإصلاح الجانبي، وقدرة الإصلاح الكبير، ولذا نجد في سيرة رسول الله (صلى الله عليه وآله) الاهتمام بالإصلاح الأساسي أكثر من الاهتمام بالإصلاح الجانبي، فقد كان في جيشه حتى المنافقين، فلم يشتغل بإصلاحهم عن الإصلاح العام لأنه كان يرى أن تقديم الإسلام إلى الأمام وتركيز لواء التوحيد: (لا إله إلا الله) أهم من إصلاح فلان وفلانة المانع إصلاحهما من تقديم لواء الإسلام ورحمته الشاملة ولعل هذا الأمر هو السرّ في فشل بعض الحركات الإسلامية التي ظلت تهتم بالصغائر مثل اهتمامها بالكبائر. إذ الواقع أن الكبائر إذا

صلحت، صلحت الصغائر تلقائياً ولا عكس، وهل يتمكن جماعة مهما أوتوا من حول وطول أن يجمعوا بين الأمرين؟.

إن الانشغال بالتوافه يعد من سمات المجتمع الجاهل المتخلف مما يسبب اشتغال الناس بالتوافه المخجلة أحياناً بدل الاشتغال بعظائم الأمور، فإن الجاهل يعمل العمل الحقير أو المنحرف متبجحاً بينما أنه إذا كان عالماً خجل من ذلك العمل، كما يشاهد الإنسان في أعماله التي عملها في حال جهله ويقايسه بأعماله التي ينبغي أن يعملها حال تقدمه في العلم والفهم.

وبهذا الصدد ينقل عن أعرابي أنه ما كان رأى دجلة في حياته لأنه كان يعيش في منقطع من الأرض فسمع بالخليفة وعطاياه وطمعاً في المال جاء إلى بغداد، لكن لا من طريق دجلة وإنما من طريق آخر، واستصحب معه شيئاً من ماء المطر الذي كان مجتمعاً في غدير عنده، وظن أن هذا أفضل هدية يقدمها للملك، ويأخذ بسببها جائزة سنية، فدخل القصر واستغرق في الحيرة من تلك المظاهر الفخمة حتى وصل إلى الملك وقدم له ذلك الماء الذي كان مجتمعاً في الغدير في إناء من جلد، أخذ الملك منه الماء وشرب منه شيئاً تعطفاً عليه وأعطاه جائزة، ولما خرج الرجل من القصر مر على الجانب الثاني من بغداد الذي تخترقه دجلة (وكان القصر قد بنى على شاطئها) ورأى ماء دجلة خجل كثيراً وتصبب عرقاً مما فعله بإهدائه الماء التافه للخليفة، مع أنه يتمتع بذلك الماء الوافر العذب الرقراق ومن هنا قالوا: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وعلى هذا المعنى حملوا الاعتراف بالتقصير الوارد عن المعصومين (عليهم الصلاة والسلام) في الأدعية وغيرها، فإنه ليس من جهة المعصية كالكذب ونحوه، فإن أمثال الكذب إنما هي من معصية العوام، وكذلك ليس من جهة ترك المستحب أو فعل المكروه ولا من جهة ترك الأولى مثل أن يكون الأولى لمن يكون مع جماعة أن يكون بكل الآداب فإذا ترك أدباً لم يفعل مكروهاً ولم يترك مستحباً وإنما ترك الأولى وعليه نزّل ما حكي في القرآن الحكيم من بعض أفعال الأنبياء (عليهم السلام) كأكل آدم من الشجرة، وخلاف موسى على معلّمه بعد أن وعده، وغضب يونس، إلى غير ذلك.

بل من جهة ما كانوا يأتون به من لوازم الجسم بل كثير من ذلك الأمر الذي أتوا به – واعتذروا في الأدعية إلى الله من إتيانه – كان واجباً عليهم، لكن حيث لم يكن يليق بحضورهم (عليهم السلام) في محضر الله سبحانه وتعالى، كانوا بتلك الاعترافات والتخضعات يملأون الفراغ الحادث من جهة الفقر الإمكاني الذي هو من شأن الإنسان كمن يمد رجله في مجلس العظماء من جهة كسر ونحوه فإنه يعتذر منهم ويخجل أمامهم مع أنه يجب عليه ذلك أو لا يتمكن من جمع رجله إطلاقاً.

تجنب الطفولة السياسية

من الضروري على ممارسي التغيير تجنب الطفولة السياسية لأنها توجب تأخر الإنسان، فكما ان الطفولة الذاتية تمنع من التفات الناس حول الطفل كذلك الطفولة السياسية تمنع الإنسان من التقدم في البعد الذي يريده ولا

يلتف الناس حوله وحيث لا يتمكن هو من التقدم لا يتمكن من تقديم الأمة إلى الأمام، فعلى ممارسي التغيير أن يتجنبوا الطفولة على الإطلاق.

مظاهر الطفولة السياسية:

والطفولة السياسية لها جوانب كثيرة، نشير إلى جملة منها:-

الأول: الاشتغال بالتوافه والجانبيات.

الثاني: الاستهانة بالناس بمختلف أقسامها.

الثالث: عدم احترام الناس اللائق بهم.

الرابع: الانغلاق وعدم الانفتاح على الناس والجماعات الأخرى.

الخامس: تصور الإنسان نفسه فوق الآخرين ذاتاً أو عملاً أو فكراً.

السادس: المباهات والتفكير بأنه أتى بما لم يأت به غيره، أو المباهات بأن زعيمه أتى بما لم يأت به غيره من الزعماء.

السابع: كثرة الشكوى بدون هدف صحيح.

الثامن: الغرور.

التاسع: الكبر.

العاشر: الاستبداد.

الحادي عشر: تصور أن العمل يثمر فوراً.

الثاني عشر: عدم الحزم.

الثالث عشر: عدم تقدير الأمور حق قدرها.

الرابع عشر: القاطعية العمياء(٢)، بينما الرجل السياسي الرشيد يلزم أن يكون مرناً، وقد قال أحد السياسيين المحنكين: لو علمت أن خمسين في المائة من أعمالي السياسية صحيحة ومطابقة للواقع لابتهجت ابتهاجاً كبيراً، بينما السياسي غير المحنك يتصور أن كل المائة من أعماله وآرائه صحيحة مطابقة للواقع.

الخامس عشر: اليأس.

السادس عشر: الكسل والركون إلى الراحة والترف.

السابع عشر: تطلب الملاذ والشهوات.

الثامن عشر: عدم الاتزان في ضحك أو بكاء أو ما شابه من الأمور الإجتماعية أو الأمور السياسية أو غير ذلك بالإفراط والتفريط فيها.

التاسع عشر: عدم التأدب بآداب الناس وقد روى عن أمير المؤمنين(عليه السلام):

بنـي إذا كنـت في بلـدة فعـاشر بآداب أربابـها

والمراد هو التأدب بالآداب الصحيحة غير المنحرفة.

العشرون: التبجح والبطر والأشر والفرح بشكل اعتباطي.

الواحد والعشرون: التحزم الاعتباطي.

الثاني والعشرون: عدم الاتفاق في العمل.

الثالث والعشرون: زعم أن كل الناس على باطل أو سيئو النية، وأنه المحق الوحيد فقط وأنه هو الوحيد الذي يفهم وأنه هو الوحيد الذي له نية حسنة.

الرابع والعشرون: الانزعاج حتى من الصغائر.

الخامس والعشرون: عدم الحلم وكظم الغيظ.

السادس والعشرون: المقاطعة والمنابذة.

السابع والعشرون: سوء الخلق.

الثامن والعشرون: الإصرار على أمر ظهر بطلانه.

التاسع والعشرون: التقلب من وجه إلى وجه، كما يحدث ذلك كثيراً عند بعض السياسيين الضيقي النطاق.

الثلاثون: عدم الوفاء.

الواحد والثلاثون: عدم الصفاء.

الثاني والثلاثون: زعم عدم إمكان التغيير.

الثالث والثلاثون: زعم أن كل شيء ممكن قد عمل به، فلم يبق مجال للعمل من جديد.

الرابع والثلاثون: الأنانية وحب الذات.

الخامس والثلاثون: كون الظاهر والباطن على شكلين.

السادس والثلاثون: كون الإنسان ذا لسانين.

السابع والثلاثون: العجلة في الأمور.

الثامن والثلاثون: الغضب والحدّة.

التاسع والثلاثون: قصر النظر.

الأربعون: ترك الصغائر من المشكلات وعدم معالجتها حتى تكبر.

الواحد والأربعون: عدم تحمل المسؤولية.

الثاني والأربعون: عدم اتخاذ القرار، والرأي الصائب.

الثالث والأربعون: عدم الثقة اللازمة بالنفس.

الرابع والأربعون: الجبن.

الخامس والأربعون: عدم إصلاح النفس.

السادس والأربعون: المراء والرياء.

السابع والأربعون: عدم الاطراد في توسعة الحركة.

الثامن والأربعون: الكذب ومن أقسامه خلف الوعد.

التاسع والأربعون: الظهور بالمظهر غير اللائق.

الخمسون: الحرص والطمع، والجشع والهلع.

الواحد والخمسون: رؤية الصغير من الأمور كبيراً والكبير منها صغيراً.

الثاني والخمسون: عدم العمل انتظاراً للغيبيات وقد قال سبحانه: (وقل اعملوا..)(٣) وقال: (أن ليس للإنسان إلا ما سعى)(٤).

الثالث والخمسون: الاتكال في العمل على نفسه فقط والاستغناء عن الله سبحانه.

الرابع والخمسون: العمل ابتغاء مدح الناس وثنائهم.

الخامس والخمسون: عدم علو الهمة.

السادس والخمسون: عدم الاهتمام بتكون الأعداء، فإن من طبيعة الرجال الكبار أن يتكون لهم الأعداء بسرعة بسبب أمور تافهة ثم ينموا العدو فيقف سداً دون المآرب الكبيرة.

السابع والخمسون: التبختر وعرض العضلات.

الثامن والخمسون: إفشاء الانتصار أو الانكسار فإن كلا من الأمرين يوجب مشكلات للإنسان.

التاسع والخمسون: كون الكلام أكثر من الواقع بل وحتى بقدر الواقع، فإن اللازم أن يكون العمل أكثر من الكلام.

الستون: إبقاء العداوات وإنماؤها.

الواحد والستون: إضاعة الصداقات وتضييع الأصدقاء.

الثاني والستون: دنوّ الهمة وضيق الأفق.

الثالث والستون: تتبع عثرات الناس.

الرابع والستون: استعمال المدفع لقتل جرادة كما يفعله كثير من السياسيين المتطفلين.

الخامس والستون: الوقوع في المهاترات حسب إرادة الخصم أو الجاهل أو الحسود.

السادس والستون: الاهتمام بالصغائر، والغفلة عن الكبائر.

السابع والستون: نسبة ما يجري في البلاد من الانحرافات إلى صغار الموظفين دون رئيس الدولة أو بالعكس.

إلى غير ذلك مما يجده المتتبع في الاجتماع المنحط.

الطفولة: شأن القيادة الفردية:

ومن طبيعة القيادة الفردية هي الطفولة دائماً وإلا لم تكن القيادة فردية، وإذا كانت القيادة فردية اتخذت:-

١ - طريق النفاق، ومن الواضح أن القائد الذي يسلك طريق النفاق ليصل إلى ما يصبو إليه، وينزه نفسه في الظاهر عما يفعله في السر، سرعان ما ينكشف أمره للناس فيسقط حتى عن مقداره الواقعي.

٢ - الفوضى والتهريج مكان الواقع والحقيقة، ولذا تتأخر الأمة باستمرار.

٣ – تكثير المناصب للملتفين حول النظام بينما تترك سائر الكفاءات، مهملة فإن الحكومات الدكتاتورية تعطي مناصب متعددة لأفراد معدودين من الذين يؤيدون النظام ويصفقون للقائد الأوحد، مع وضوح أن طاقة الفرد محدودة فلا يتمكن الفرد الواحد من إدارة مهام عديدة ومناصب كثيرة، فإنه مما لا طاقة له، ويسبب ذلك فساده وفساد عمله وقد قال سبحانه: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت)(٥) وقال: (.. ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين)(٦) فاللازم أن لا يكلف الشخص إلا بقدر طاقته، حتى يستطيع القيام بتكليفه على أحسن وجه، وهذا الأمر المهم مفقود في القيادات الفردية المستبدة.

٤ – الاقتحام العاطفي والتهور، وقد رأينا كيف أن الدكتاتوريين تهوروا في الاقتحام في أمور لا طاقة لهم بها مما سبب فشلهم، كما اقتحم عبد الكريم قاسم في حرب الشمال وعبد الناصر في حرب اليمن إلى غير ذلك.

٥ – ضرب الكفاءات لأن الكفاءة لا تكون إلا بمناقشة الفكر والآراء، والأخذ بالصائب منها، وهذا مما لا يلائم الدكتاتور حيث ان الدكتاتور يريد تنفيذ رأيه فقط لا رأي الآخرين، ومن الواضح أن تنفيذ الرأي دائماً يلازم العنف، ولذا نرى كل دكتاتور يفتح أبواب السجون والمعتقلات وتعمل في زمانه مقصلة الإعدام ليل نهار، بينما الحكومات الاستشارية تكون على العكس من ذلك.

الطفولة على مستوى الحكومات:

والطفولة السياسية كما قد تكون في الأحزاب السياسية والحركات الإسلامية وغيرها، تكون كذلك في الحكومات الاستبدادية ولذا نجد أن كل المؤتمرات العربية وغير العربية التي تعقد هنا وهناك لا توجب إلا مزيداً من السوء والتأخر. والسر في ذلك هو أن المؤتمرات لا يحضرها سوى نفس أولئك الحكام الدكتاتوريين، وبالمؤتمر يقوى الدكتاتوريون أكثر فأكثر لأنهم قد انضموا بعضهم إلى بعض، وكلما قويت الدكتاتورية أكثر يكون التأخر أكثر، لأن مشكلة بلاد الإسلام بصورة عامة هي الدكتاتورية.

إن عبد الناصر مع أنه كان بخمسين مليون مصري لم يتمكن أن يقاوم إسرائيل حتى أُسبوعاً واحداً، بينما لبنان ذات الثلاثة ملايين تمكنت أن تقاوم إسرائيل إثنتي عشرة سنة إلى الوقت الحاضر، وذلك لأن في لبنان أحزاباً حرة يبلغ عددها ثلاثمائة وخمسين حزباً هذا وإن كان المجاز منها مائة وخمسة وثلاثين حزباً إلا أن المجال السياسي مفتوح أمام الجميع وحيث أن الأمر بيد الناس لم تتمكن إسرائيل من ان تهزمهم وإن ساندتها دول أوروبا بما فيها أميركا.

وهكذا نرى أن مصر تغير نظامها من خط السادات إلى خط حسني مبارك بإطلاق رصاصة واحدة، بينما لبنان لم يتغير نظام الحكم فيه حتى مع إطلاق ملايين الرصاصات.

وأحسن مثال على ذلك، هو مؤتمر باندونغ الذي انعقد من رؤساء تسع وعشرين دولة في سنة ألف وتسعمائة وخمسة وخمسين ميلادية فإنه وإن اشتمل على رؤساء أكثر من نصف العالم: آسيا وإفريقيا وغيرهما وكان أهم هاجس للمؤتمرين هو الخروج عن سلطة الشرق والغرب إلا أنهم بالعكس من ذلك دخلوا تحت السلطتين أكثر مما

مضى، فمثلاً الصين ذات الألف وثلثمائة مليون دخلت في مظلة الغرب، وغيرها تحت مظلة الشرق كما أن (ناصر) وسع دائرة إسرائيل إلى أضعافها، فمساحة سيناء وحدها التي سلمها ناصر إلى إسرائيل أكثر من ستين ألف كيلو متر مربع، هذا مع الغض عن الجولان والضفة وغيرهما.

فالدكتاتورية كلما كانت أكثر كان التأخر أكثر، وهذا هو ما نشاهده في كل بلاد الإسلام بلا إستثناء، ولذا ينحصر العلاج في الخروج عن الدكتاتورية بتسليم الناس زمام أمورهم.

وفي ذلك اليوم الذي عالجنا فيه الدكتاتورية، وأحللنا محلها الاستشارية يعرج المسلمون من حضيض التأخر إلى مستوى الشرق والغرب بل ويفوقون عليهم ويتمكنون من إنقاذ المقهورين، لا في العالم الثالث فحسب بل وحتى الذين يعيشون في بلاد الشرق والغرب ويعانون من الطبقية والعبودية، بإذن الله تعالى.

السلام

من الضروري لممارسي التغيير أن يجعلوا في مقدمة أهدافهم مسالمة الجميع، وأن يعيش الكل بسلام، فكما أن للإنسان نفسه الحق في أن يعيش بكرامة وحرية، ورفاه وسلام، عليه أن يترك الآخرين يعيشون كذلك كما قال علي (عليه السلام): (أحبب لغيرك ما تحبه لنفسك)(٧).

حرمة الدماء والنفوس

على ممارسي التغيير المنع البات عن سفك الدماء، وإهانة الآخرين، والترفع عليهم.

فلا يعيبوا أحداً من الناس ولا يؤذوه بل يدعون إلى الكلمة الطيبة وطهارة القلب وتزكية النفس، وأن لا يزكوا أنفسهم ويروا أنفسهم فوق الآخرين، وقد قال سبحانه: (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا)(٨).

تجنب الوعود الفارغة

من الضروري على ممارسي الحركة عدم بذل الوعود – بلا ميزان – للناس، سواء قبل الوصول إلى الحكم أو بعد الوصول إليه، فإن الإنسان قد يحاول بسبب الوعود الخلابة أن يلف الناس حوله، بينما ذلك يأتي بعكس النتيجة فإنه كثيراً ما لا يتمكن الإنسان من الوفاء بوعده فينفض الناس من حوله.

نعم يجب عليهم أن لا يدّخروا وسعاً لتقويم كل اعوجاج، وللوقوف في وجه كل من يعمل ضد حرية الناس وضد حقوق المسلمين وغير المسلمين، وأن يتحملوا في ذلك مسؤوليتهم الكاملة أمام الله عز وجل وأمام الأمة وأمام الأجيال القادمة.

نصرة الحق

الالتزام بقول الحق في المنازعات سواء كان الحق للإنسان أو على الإنسان، أما أنه يقول الحق لو كان الحق في جانبه، ولا يقول به لو لم يكن بصالحه بل كان بصالح طرفه الآخر، أو يجعل كله له بينما يكون بعضه لصاحبه أو أن الباطل موزع بينهما أو الحق موزع بينهما فذلك مما لا يأتي بالنتائج المطلوبة، وقد نهى الله تعالى عنه بقوله:

(ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب)(٩).

وقال سبحانه: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين أن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وأن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً)(١٠).

وقد ذكروا أن الفترات الذهبية التي مرت على الهند قبل الإسلام هي فترة حكم أحد الملوك حيث كان يجنح إلى التعقل والتدبير دائماً، وكان لتعقله وتدبيره يعارضه ملوك آخرون أقل منه شأناً، حتى أنه تجمّع أولئك الملوك يوماً تحت لواء أحدهم لمحاربته، لكنه تمكن من تجنب الحرب ومداراتهم، إلى أن قدّم رئيس وزرائه استقالته وفضّل أن يعتزل الحكم ويتزهد في غابة، آنذاك فكر الملك في رئيس بديل له، وحيث كان يريد قلع جذور النزاع بينه وبين أولئك الملوك الصغار، اختار رئيس أولئك المعارضين رئيساً لوزرائه، فنعمت الهند بقيادة هذا الملك الحكيم وعاشت بأمن وسلام مثاليين.

لا.. للطغيان

على ممارسي التغيير عدم الطغيان بسبب حصول القدرة لهم قبل الحكم أو بعده، وذلك لا يكون إلا بتوفير النفسيات الرفيعة من جانب، وهو رادع نفسي عن الطغيان، وتوزيع القدرة على الجهات الكفوءة في البلاد من جانب آخر، وهو رادع خارجي عن الطغيان، وذلك حتى لا تطغى قدرة على قدرة، فإن القدرة إذا طغت لا بد وأن تسقط حسب موازين الله سبحانه وتعالى الكونية، هذا مع الغض عن أن الله سبحانه وتعالى للظالم بالمرصاد، وفي الشعر المشهور:-

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرا فالظلم آخره يأتيك بالندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

أهمية سياسة الإغماض:

ذكر في التاريخ أنه وقعت بين سلطان خراسان وسلطان كابل معركة.

وحيث رأى جماعة من ضباط سلطان خراسان أن سلطانهم في حالة انهيار وأن الظاهر انهزامه ووقوع الأمر بيد سلطان كابل، كتبوا إلى سلطان كابل يريدون منه الأمان ويدلونه على عورات البلاد وأنه كيف يتمكن من التغلب على سلطان خراسان وعرف بذلك سلطان خراسان لكن لم يقل شيئاً، ومن الصدف قويت شوكته وأخذ سلطان كابل ينهزم إلى أن انتصر عليه سلطان خراسان، وبعد الانتصار جاء سلطان خراسان بحقيبة مملوءة من الرسائل – التي كانت في حوزة سلطان كابل من مكاتبات ضباطه – إلى وسط ساحة كانت هناك، وقال لهم: أيها الضباط إني أعلم أن جماعة منكم كاتبوا سلطان كابل يريدون هدم بلادنا وهذه المكاتبات موجودة الآن في وسطكم لكني لم أقرأها حتى يرين قلبي عليكم ثم أمر بإحراقها.

وقال: كلكم تبقون في وظائفكم وأني أعلم أن الذي أصابكم هو من الضعف البشري ولست آخذكم بالضعف، وبذلك قويت شوكة السلطان ودخلت محبته في القلوب أكثر فأكثر مما سبب أن أخلص له أولئك الضباط إخلاصاً شديداً.

الشجاعة المزيجة بالحكمة

فإنها تسبب تقدم الإنسان سواء كان فرداً أو جماعة أو أمة، فالفرد الشجاع متقدم في المجتمع، كما أن الجماعة المتصفة بالشجاعة تتقدم في المجتمع وتقدم غيرها أيضاً، والأمة الشجاعة تسمو وتتقدم، بل الشجاعة هو الإقدام المزيج بالحكمة وإلا فبدون الحكمة لا يسمى شجاعة بل تهوراً، والتهور كالجبن كلاهما خطر على الإنسان فرداً أو جماعة أو أمة بسبب التأخر. وهنا نذكر نماذج بطولية ليقتدي بها ممارسي التغيير ويسببوا تقدم المسلمين وانتشالهم عن هذا التأخر المشين وذلك لا يتم إلا بإرجاع ما يلي:

١ – الحريات الإسلامية، وقد أشار إليها القرآن الحكيم حيث قال سبحانه: (يضع عنهم أصرهم والأغلال التي كانت عليهم)(١١).

٢ – الأخوة الإسلامية، كما قال سبحانه: (إنما المؤمنون أخوة)(١٢).

٣ – والأمة الواحدة، بسبب سقوط الحدود الجغرافية كما قال سبحانه: (وإن هذه أمتكم أمة واحدة)(١٣).

مكافحة الجهل

ومما نحتاجه في ممارسة التغيير محاربة الجهل الذي خيم على المسلمين أكثر من قرن مما سبب تأخرهم ولو كان المسلمون يفهمون الحياة لم تكن تركيا وإيران تقع فريسة للغرب والشرق بهذه الفضاحة والفظاعة فقد كانت الجهالة مسيطرة على الحكام وعلى الشعوب وكان الحكام لا يرون إلا شهواتهم العابرة بسبب توغلهم في الجهل بالأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية كما كانت الجهالة مخيمة على الأمة حيث انقسموا إلى كثرة لا يهمهم الأمر، وقلة تتزلف إلى الحكام مهما رأوا فيهم من الفساد وأقل من قلة تعي لكنها لا تتمكن أن تفعل شيئاً لقلتها فإن قوله سبحانه: (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله)(١٤) معناه: أن القلة التي يأذن الله لها حسب الأسباب التكوينية. وإلا فلا شك أن الإمام الحسين والإمام موسى بن جعفر والإمام الصادق (عليهم السلام) وأصحابهم الخاصين ومن إليهم كانوا من القلة لكنهم لم يكونوا من القلة التي تتغلب غلبة ظاهرية عسكرية أو سياسية، وقد دفعنا نحن المسلمين ثمناً باهظاً من جراء الجهالات فبينما كانت أوروبا وأمريكا تسير حثيثاً نحو الصناعة والنظام والديمقراطية وما إلى ذلك كنا نحن نغط في سبات عميق وجهل شائن فأن غاية ما كان يعمله قلة من الحكام والأمة تقوية الظاهر وكانوا هم أيضاً أقل من القليل، فكانوا يتصدون لبناء المساجد والحسينيات وتسبيل الأوقاف لأجل الفقراء وزواج العزاب ومساعدة العجزة.

وفي المدارس الزمنية كان الهم الوصول إلى الوظيفة والمنصب – عبر القراءة والكتابة ومعرفة الأوليات– وتحصيل الشهادة وكان هذا هو كل الهدف المنشود لأكثر طلاب المدارس، ولذا لم تخرج المدارس كشيخ الطائفة والعلامة ونصير الدين وابن سينا والمحقق والشيخ البهائي والمقدس الأردبيلي وصاحب الجواهر والشيخ مرتضى الأنصاري،

ومن إليهم بينما الأمة الحية دائماً تولد العباقرة وبسبب هذه الجهالة تحطمت الإمبراطويتان الإيرانية الشيعية والعثمانية السنية تحطماً ذريعاً، ولم تحكم التفرقة بين البلاد فقط بصنع الحدود الجغرافية وتحول البلاد إلى دويلات، وإنما تعدت إلى تحطم الأمة وتمزيقها إلى قوميات وأحزاب متحاربة لا أحزاب بناءة كما في الغرب وأخذ كل جانب يتجسس على الجانب الآخر، ويحاربه إلى أن وصلت الحالة إلى ما نشاهده الآن من التأخر، وقد عمل الغربيون فينا تبعيضاً وتفرقة.

التواضع

من مقومات دعاة التغيير وممارسيه التواضع وعدم التكبر، فإن العمل والتقدم بحاجة إلى أكبر قدر ممكن من التواضع حتى يرى الإنسان العامل سائر الناس كنفسه، وبحاجة إلى التواضع بالنسبة إلى الحق والهدف، فإن الأنانية أمام الخلق أو أمام الحق يوجب التخلف سواء في الفرد أو في المجتمع، إذ المجتمع مكون من أفراد، فإذا كان أفراد المجتمع غير متواضعين، بل أنانيين متكبرين، فإن المجتمع يصبح مجتمعاً متخلفاً، بينما الفرد يتقدم بتواضعه كما يتقدم المجتمع بتواضعه، وقد ذكروا قصصاً كثيرة في هذا الصدد منها ما يلي: –

أياز والغرفة المغلقة:

وصل (أياز) بتواضعه إلى ما لم يصل إليه الأحرار من المرتبة الرفيعة في الدولة، حتى صار مستشاراً للملك رغم كونه عبداً أسود لا يؤبه به في ذلك المجتمع الطبقي القديم، فقد كان يستشيره في كل شؤونه، وكان أياز بمحضه النصح فحسده الوزراء والضباط على تلك المرتبة الرفيعة، ولما لم يجدوا له مغمزاً فتشوا عن دخيلة أمره تفتيشاً دقيقاً لعلهم يجدون ما يسقطه عن عين الملك، وأخيراً وجدوا أن له غرفة ظنوا أنها ممتلئة بالمجوهرات الثمينة، فذهبوا إلى الملك ووشوا به وقالوا أن أياز يستولي على أموال الدولة وقد خبأها في غرفة في القصر، وأنه كل يوم عند وروده إلى القصر قبل وصوله إلى الملك يذهب إلى تلك الغرفة ويفتحها ويدخلها وحده، ثم يخرج منها ويغلق الباب ولا يدع أحداً يشاركه الدخول في الغرفة، وكذلك يفعل عند المغرب حين يريد الانصراف من القصر، فإنه يذهب إلى الغرفة مرة ثانية وهكذا ألحّوا على الملك بهذه الوشاية، حتى أوغروا صدر الملك ضده وظن الملك أن الأمر كما ذكروا، وفي ذات يوم كان أياز عند الملك فقال له: يا أياز أريد أن أذهب معك إلى تلك الغرفة لنرى ما فيها، فرحّب أياز بالأمر وصحب الملك والوزراء والضباط والوشاة الحاسدون معه إلى الغرفة ففتحها ودخلوها فلم يجدوا فيها إلا جلد كبش وعصاً عوجاء وزوج نعال من جلد بعير فقال الملك: ما هذا يا أياز؟

قال أياز: كانت هذه أمتعتي قبل أن أصل إلى خدمة الملك، ثم منّ الله علي فوصلت بخدمة الملك، وصرت مستشاراً له، وحيث أن الإنسان يسرع إليه التكبر حيث جئت بهذه الأثاث التي كانت أثاثي في الزمان السابق، ووضعتها في هذه الغرفة وكل يوم أمر عليها حتى أتذكر سابق عهدي ولا أكون مستعلياً ومتكبراً في نفسي على الحق أو على الخلق، ورأى الملك كتابة هذين البيتين على جدار الغرفة:

أتذكر إذ لحافك جلد شاة وفي رجليك نعلاً من بعير

فسبحان الذي سواك شخصاً وعلمك الجلوس على السرير

فأعجب به الملك وازدادت مكانته عنده.

أياز وصندوق المجوهرات:

وذات مرة سافر الملك بصحبة بعض وزرائه وكان معهم صندوق من المجوهرات، فوصلوا إلى موضع خطر وإذا بالصندوق يقع من على البعير وتتبعثر المجوهرات على الأرض، فنزل كل من كان مع الملك إلى الأرض حتى يجمعها، أما الملك فأخذ يسير حتى يرى ماذا يجري وإذا به يرى أن أيازاً لا يلتفت إلى تلك المجوهرات، وإنما بقي يتبعه أينما ذهب، فقال له: ألا ذهبت مع إخوانك وأصدقائك لجمع المجوهرات؟

قال أياز: أيها الملك إنك أثمن من المجوهرات، إنّا إذا فقدنا المجوهرات نتمكن أن نحصلها في ظلك، أما إذا فقدنا الملك فلا نتمكن أن نحصل لا الملك ولا المجوهرات بعد ذلك، ولذا فإني تبعتك حتى لا يصيبك مكروه فاستحسن الملك مقاله وقربه وأدناه أكثر فأكثر.

ترجيح الكلمة على الجوهرة:

وينقل في قصة ثالثة، أن أرباب السلطنة وشوا ضد أياز عند الملك، وكلما حاول الملك إقناعهم بإخلاصه وواقعيته وإطاعته وفهمه لم يقبلوا منه، قال الملك: سأجرب ذلك أمامكم حتى تعرفوا أنكم على خطأ.

وفي يوم من الأيام أعطى الملك جوهرة كبيرة تسوي مئات الألوف إلى أحد وزرائه وأعطاه حديدة وقال له: أكسر هذا الجوهر.

قال الوزير: أيها الملك أنه لا يليق كسر هذا الجوهر لأنه يسوي مئات الألوف، وإذا كسرته انخفضت قيمته، ولعله لا يسوي بعد ذلك إلا مائة أو نحوها.

فأعطاه الملك إلى وزير ثان وثالث ورابع وخامس وهكذا، وكلهم أبوا عن كسره، وكان أياز من جملة من كان جالساً، فقال الملك لأياز: اكسر هذا الجوهر فوضع أياز الجوهر على الأرض وهوى عليه بالعمود الحديدي فكسره، فاعترض عليه كل الوزراء لماذا كسرت هذا الشيء وأوصلت قيمته من مئات الألوف إلى المئات أو الأقل.

أجابهم (أياز): إن كلام الملك أهم من هذا الجوهر فهل أترك كلام الملك لهذا الجوهر، وهنا توجه الملك إلى وزرائه وقال لهم: أعرفتم لماذا أستشيره؟

إنه يقدر كلامي ومواقفي وأفكاري، بينما أنتم تذهبون إلى ما تصبون إليه بدون مراعاة لكلامي.

ولا نريد من هذا الكلام تصحيح عمل أياز في نفسه وإنما نريد بيان أن التواضع يوجب ارتفاع شأن الإنسان – وإلا فالمثال يقرب من جهة ويبعد من جهة – ومثل عمل أياز قول الشاعر (السعدي) ما معناه: (كل عيب يرتضيه السلطان فهو فن).

فإن سعدي على معلوماته الواسعة وتعمقه في الأمور لا يريد أن يقول أن هذا هو الواقع وإنما يريد أن يقول قد يتطلب الظرف ذلك فإن لكل كلام مجالاً.

الزهد والورع

على الممارسين للتغيير التقشف والاكتفاء الذاتي فإن كان الممارس للتغيير غنياً صرف الزائد في طريق التغيير وأن كان فقيراً لم يتعب نفسه في تحصيل الزائد على ضرورياته الأولية في حياته الفردية، فإنّ صرف الوقت في تحصيل الزائد مما يضر بالممارسة، ولذا نجد أنبياء الله سبحانه وتعالى كافة وحتى الأثرياء منهم كسليمان بن داود (عليه السلام) كانوا يعيشون حياة التقشف والقناعة والزهد، وكانوا يصرفون حتى قسطاً كبيراً من أوليات حياتهم الفردية وضرورياتهم الشخصية في تبليغ الرسالة وممارسة التغيير، وهداية الناس وإنقاذهم من أغلال القوانين المقيدة والكابتة لحرياتهم.

وكذلك كان الأئمة الأطهار عليهم الصلاة والسلام حتى نزلت في حقهم (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)(١٥) وفي دعاء الندبة: (بعد أن شرطت عليهم الزهد في درجات هذه الدنيا الدنية وزخرفها وزبرجها)(١٦) فالإنسان إذا صنع ملابسه بيده غزلاً وخياطة، وبنى بيته بنفسه هندسة وعملاً، وهيّأ طعامه بنفسه إعداداً وطبخاً وغير ذلك وفر على نفسه قسطاً كبيراً من الاكتفاء الذاتي واستغنى في كثير من شؤونه الفردية عن الآخرين، كما أنه يوفر على نفسه المال الذي يصرفه في هذه الأمور، فيستطيع أن ينفقه ويخدم الممارسة والتغيير بصورة أوسع.

وهكذا يكون التقشف في كل مجالات الحياة الفردية لممارسي التغيير، من سفر وحضر، وبناء وسكن فالسفر قد يكون بالسيارة الفارهة، أو بالطائرة المريحة، أو بالقاطرة الجاهزة، وقد يكون بالسيارة من الدرجة الثالثة أو بركوب الدابة أو بالمشي على الأقدام أو غير ذلك. ومن الواضح أن السفر المتقشف يوفر للإنسان المال كما أن الإنسان الذي يبني مسكنه بيده يوفر على نفسه المال أيضاً. وقد كان جماعة من طلاب العلوم الدينية في كربلاء المقدسة قد بنوا دورهم بأنفسهم حيث كانوا يأخذون التراب ويجعلونه طيناً، ثم يجعلون الطين لبناً وبعد ذلك يرصفون اللبن بأيديهم ويجعلونه جداراً للدار وللغرف ولسائر مرافق البيت نعم لم تكن بيوتهم بذلك الجمال الذي يصنعه البناءون ولكنهم وفروا على أنفسهم المسكن حيث كانت الأراضي – بحسب القانون الإسلامي الذي سنّه رسول الله (صلى الله عليه وآله) بقوله: (عادى الأرض لله ولرسوله ثم أنها لكم مني أيها المسلمون)(١٧) – تعرض مجاناً بلا ثمن أو بثمن زهيد جداً.

الاكتفاء الذاتي عبر التقشف:

يجب الاجتناب عن التجمل مطلقاً فالأواني تكون من الخزف ونحوه مما تصنعه نفس البلاد والآلات من النخيل والأشجار – ولا أنسى كيف أن كربلاء المقدسة كانت تعطي من النخل فقط ثلاثين قسماً من الصناعة – وتكون الفرش من القطن والصوف مما ينسجان باليد، وتكون الأدوية من العقاقير والأعشاب، ونحوهما مما تنتجها البلاد، والألبسة من المغزل والنسيج البيتي، والوقود من الحطب والفحم والبعر ونحوها، والمأكل من منتجات البلاد لحماً أو فروعه ومن الثمرات، وتكون المراكب الخيل والبغال والحمير، والضياء من الشمع، والمساكن من الآجر والجص والخشب إلى غير ذلك إلا في قصوى حالات الضرورة فإن من الواضح أن من أنواع الاستعمار هو الاستعمار الاقتصادي لبلاد الإسلام والذي هو شايع الآن فيشترون منا المواد الخام بأثمان رخيصة جداً ثم يبيعونها

لنا بأثمان باهظة جداً، فإذا اتخذ الممارسون للحركة التقشف والاقتناع بمنتجات البلاد اليدوية ونحوها يكونون قد قضوا – بذلك – على نصف الاستعمار على أقل تقدير، فإذا سرت هذه الروح في الأمة لا بد، وأن ينحسر الاستعمار عن البلاد، ومن الواضح أن هذا الأمر مشكل وأحياناً مشكل جداً، إلا أنه إذا وجد في الأمة حافز التغيير لا بد وأن يسهل الأمر كما نرى ذلك بالنسبة إلى الأمم التي تريد التقدم، فإن حافز التغيير يظهر في الأمة قدرات هائلة لم تكن ظاهرة بل تكون مغمورة من دون فعلية أما إدارة التغيير فهي التي تظهرها فيها بمثابة الأزهار والأوراد والثمار التي تظهر إذا زرعت بذورها في الأرض بمستوى صحيح بينما إذا لم تزرع أو كان المستوى غير صحيح لم تظهر تلك الأزهار والثمار والشذى والجمال هذا بالإضافة إلى أن إرادة التغيير تظهر في الأمة قيادات رشيدة في كل بلد وقرية ومجتمع وأمة بما لو لم تكن إرادة التغيير لم تظهر تلك القيادات الرشيدة، ولذا قال سبحانه: (كزرع أخرج شطئه)(١٨) وقال تعالى: (أولئك هم الراشدون)(١٩) وقال علي (عليه الصلاة والسلام) في حكمة بعث الأنبياء: (ليثيروا لهم دفائن العقول)(٢٠) وإذا حصلت إرادة التغيير في الأمة فإنها بالإضافة إلى استسهال التقشف توجب ما ذكرناه من القدرات الهائلة والقيادات الرشيدة والثاني من ولائد الأولى لأن القيادة الرشيدة كامنة في الأمة ومن جملة قدراتها ويكون ذلك في مختلف المجالات التعليمية والصناعية والزراعية والإدارية وغيرها.

صورتان متقابلتان:

وإليك صورتين من مئات الصور المتقابلة بين حياة المسلمين الأولى وحياتهم الثانية وذلك في قصتي زواج (بنت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاطمة الزهراء بعلي عليهما السلام) و(بوران بالمأمون العباسي).

صداق الزهراء (عليها السلام) وأثاثها:

أما الصورة الأولى، فهي أثاث فاطمة الزهراء (عليها السلام) لزواجها، وقد ذكر الرواة والمؤرخون أن مهرها كان بضع وثلاثين درهماً – والجمع بين هذه الرواية وروايات أربعمائة وخمسمائة درهم اختلاف قيمة الدرهم في ذلك الزمان كما يظهر لمن راجع التواريخ، وعلى أي حال – فكان مما اشترى لها صلوات الله عليها جهازاً لعرسها فراشان من خيش مصر حشو أحدهما ليف وحشو الآخر من جز الغنم، ونطع من أدم، ووسادة من أدم حشوها من ليف النخل، وعباءة خيبرية، وقربة للماء، وكيزان وجرار، ومطهرة للماء مزفّتة، وستر صوف رقيق، وقميص بسبعة دراهم، وخمار بأربعة دراهم، وقطيفة سوداء، وسرير مزمل بشريط وأربعة مرافق من أدم الطائف حشوها أذفر (وهو نبات معروف) وحصير هجري ورحى لليد ومخضب من نحاس وقعب للبن، وشن للماء، ولما عرض المتاع على رسول الله (صلى الله عليه وآله) (وكان في حجرة أم سلمة) جعل يقلبه بيده ويقول: اللهم بارك لقوم جل آنيتهم الخزف(٢١).

وقد روى الصفوري في نزهة المجالس عن ابن الجوزي: أن النبي (صلى الله عليه وآله) صنع لفاطمة قميصاً جديداً ليلة عرسها، وزفافها، وكان لها قميص مرقوع وإذا بسائل على الباب يقول أطلب من بيت النبوة قميصاً خلقاً،

فأرادت أن تدفع إليه القميص المرقوع فتذكرت قوله تعالى: (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون)(٢٢) فدفعت له الجديد(٢٣).

وفي رواية أن الرسول (صلى الله عليه وآله) زارها صبيحة الزفاف فرأى على بدنها ثوبها الخلق، قال: يا فاطمة أين ثوب عرسك؟

قالت: يا رسول الله تصدقت به.

قال الرسول (صلى الله عليه وآله): ولم يا فاطمة؟

قالت: يا رسول الله إنك حدثتني أن أمي ليلة زفافها بك تصدقت بثوب عرسها ولبست ثوبها السابق، فأردت أن أقتدي بها(٢٤).

زواج بوران والنفقات الخيالية:

كانت تلك الصورة الأولى وأما الصورة الثانية فهي قصة زواج المأمون العباسي من بوران بنت الحسن بن سهل، فقد ذكر المؤرخون أنهم أوقدوا في تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون مناً، في تور من ذهب، وقد بقي المأمون عند الحسن بن سهل سبعة عشر يوماً، وقيل أكثر يعدّ له في كل يوم ولجميع من معه جميع ما يحتاج إليه، وأن الحسن خلع على القواد على قدر مراتبهم وحملهم ووصلهم وكتب الحسن رقاعاً فيها أسماء ضياعه ونثرها على القواد وعلى بني هاشم، فمن وقعت في يده رقعة منها فيها اسم بعث فتسلمها وجعل الرقاع في بطاطيخ من عنبر، وكان مبلغ النفقة عليها خمسين ألف ألف درهم، وأمر المأمون غسان بن عباد عند منصرفه أن يدفع إلى الحسن عشرة آلاف ألف من مال فارس، وأقطعه (الصلح) وهو نهر كبير يأخذ من فم دجلة بأعلى واسط عليه نواح كثيرة ولما حمل المال إلى الحسن فرقه في قواده وأصحابه وحشمه ولما انصرف المأمون شيّعه الحسن ثم رجع إلى (فم الصلح) أي أول النهر وذكروا أن الحسن بن سهل كان قد بنى مدينة في الموضع المعروف بفم الصلح وأقام فيها، وبعد ما جاء المأمون إلى بغداد ذهب إلى فم الصلح بجميع أهله وعسكره، ونزل هناك فعمل له الحسن بن سهل ولجميع عسكره دعوة عظيمة جمعت أنواع المآكل والمطاعم الكثيرة التي عجز الناس عن حملها.

وفي التاريخ أن المتوكل عمل دعوة عظيمة اجتمع عليها خلق كثير فلما جلسوا على السماط قال المتوكل: انظروا هل هنا أحد ممن رأى دعوة (فم الصلح) وكان هناك شيخ طاعن في السن فقال: أنا رأيتها، فقال له المتوكل: كيف دعوتنا هذه بالنسبة إليها؟

فسكت الشيخ، فقال المتوكل: قل ما عندك ولا تخف. فقال: أقول مختصراً أو مفصلاً؟

فقال: بل مختصراً.

فقال الشيخ:

إنه لما فرغ الناس من الطعام ذلك اليوم وذهبوا إلى مواضعهم بقي تل عظيم من القلوب والكروش وغيرها وحتى تعفن، وبقوا مدة ينقلونه.

الزهد من صفات المؤمنين:

ونعود فنقول من الضروري على الحركة الإسلامية انتهاج جشوبة العيش في الحياة واجتناب الملاذ فإن جشوبة العيش توجب الصحة الجسدية أولاً والتفرغ للعمل، إذ الملاذ ومباهج الحياة تأخذ وقتاً كثيراً جسدياً مما يوجب عدم فراغ الإنسان للعمل ولذا ورد في الحديث القدسي (إني وضعت العلم في الجوع والغربة والناس يطلبونه في الشبع والوطن فلا يجدوه).

ثانياً وتوفير الوقت للتفكير فيما ينبغي لإزالة الآثار غير الإسلامية، فإن الملاذ تأخذ وقتاً فكرياً كثيراً لأجل تحصيلها وصرفها وسائر آدابها وشرائطها ثالثاً، ويكون ممارس التغيير بزهده أسوة للناس في العمل لأن الإنسان مجبول على حب من يتجنب الدنيا.

ولذا نرى الزاهدين محبوبين في الاجتماع، ولو كان الاجتماع مترفاً إلى أبعد حد فترى العالم الرأسمالي يحب المسيح الزاهد (عليه السلام) حباً متزايداً، وكذلك أصحاب الثروة من المسلمين يحبون الرسول والأئمة الطاهرين الزاهدين رابعاً، ويبقى المال الذي يصرف في الترف ليصرف في العمل للتقدم خامساً، ولتكن هذه الخشونة الجسدية مقارنة باللين الاجتماعي، كما قال سبحانه (فبما رحمة من الله لنت لهم)(٢٥) حتى يسبب تقدم المسلمين لأخذهم بقيادة الحياة بإذن الله سبحانه وتعالى، وقد أشار إلى ذلك علي (عليه الصلاة والسلام) حيث قال: (تحففوا تلحقوا)(٢٦) ولا يخفى أنه ليس المراد الجشوبة في الأكل والشرب والملبس والمسكن، فقط، بل المراد الجشوبة في كل شؤون الحياة من مراسيم الولادة والزواج والموت واليقظة والمنام والزيارة والضيافة والسفر وغير ذلك.

وقد جمع الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) صفات المؤمن في خطبة (همام) فقال (عليه السلام): أما بعد فإن سبحانه وتعالى خلق الخلق حين خلقهم غنياً عن طاعتهم آمناً من معصيتهم، لأنه لا تضره معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه فقسم بينهم معيشتهم ووضعهم من الدنيا مواضعهم فالمتقون فيها هم أهل الفضائل منطقهم الصواب وملبسهم الإقتصاد ومشيهم التواضع غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء ولولا الأجل الذي كتب لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنة كمن قد رآها، فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة وأجسادهم نحيفة وحاجاتهم خفيفة وأنفسهم عفيفة. صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة تجارة مربحة يسرها لهم ربهم، إرادتهم الدنيا فلم يريدوها وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها، أما الليل فصافون أقدامهم تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلاً، يحزنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً وظنوا أنها نصب أعينهم وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم فهم حانون على أوساطهم مفترشون بجباههم وأكفهم وركبهم وأطراف أقدامهم يطلبون إلى الله تعالى في فكاك رقابهم، وأما النهار فحلماء علماء، أبرار أتقياء قد براهم الخوف برى القداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى وما بالقوم من مرض ويقول قد خولطوا، ولقد خالطهم أمر عظيم لا يرضون من أعمالهم القليل ولا يستكثرون الكثير فهم لأنفسهم متهمون، ومن أعمالهم مشفقون إذا

زكى أحدهم خاف مما يقال له، فيقول أنا أعلم بنفسي من غيري وربي أعلم بي من نفسي، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون واجعلني أفضل مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون، فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في دين وحزماً في لين وإيماناً في يقين، وحرصاً في علم، وعلماً في حلم، وقصداً في غنى، وخشوعاً في عبادة، وتجملاً في فاقة، وصبراً في شدة، وطلباً في حلال، ونشاطاً في هدى، وتحرجاً عن طمع يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل يمسي وهمه الشكر ويصبح وهمه الذكر، يبيت حذار ويصبح فرحاً حذراً لما حذر من الغفلة وفرحاً بما أصاب من الفضل والرحمة، إذا استصعبت عليه نفسه فيما تكره لم يعطها سؤالها فيما تحب قرة عينه فيما لا يزول وزهادته فيما لا يبقى يمزج الحلم بالعلم والقول بالعمل، تراه قريباً أمله قليلاً زَلَلَهُ خاشعاً قلبه قانعة نفسه منزوراً أكله، سهلاً أمره، حريزاً دينه، ميتة شهوته، مكظوماً غيظه، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، وأن كان في الذاكرين لم يكتب من الغافلين، يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه بعيداً فحشه، ليناً قوله، غائباً منكره، حاضراً معروفه، مقبلاً خيره، مدبراً شره في الزلازل وقور، وفي المكاره صبور، وفي الرخاء شكور، لا يحيف على من يبغض، ولا يأثم فيمن يحب، يعترف بالحق قبل أن يشهد عليه لا يضيع ما استحفظ ولا ينسى ما ذكر، ولا ينابز بالألقاب، ولا يضار بالجار، ولا يشمت بالمصائب، ولا يدخل في الباطل، ولا يخرج من الحق، إن صمت لم يغمه صمته، وإن ضحك لم يعل صوته، وإن بغى عليه صبر حتى يكون الله هو الذي ينتقم له نفسه منه في عناء والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته وأراح الناس من نفسه بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة ودنوه ممن دنا منه، لين ورحمة ليس تباعده بكبر وعظمة ولا دنوه بمكر وخديعة. قال الراوي: فصعق همام صعقة كانت نفسه فيها، فقال أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام): أما والله لقد كنت أخافها عليه(٢٧).

وفي كلام آخر له، رواه نوف البكالي قال: رأيت أمير المؤمنين (عليه السلام) ذات ليلة وقد خرج من فراشه فنظر في النجوم، فقال: يا نوف أراقد أنت أم رامق؟

فقلت: بل رامق يا أمير المؤمنين.

قال: يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا الراغبين في الآخرة أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً وترابها فراشاً ومائها طيباً والقرآن شعاراً والدعاء دثاراً ثم قرضوا الدنيا قرضاً على منهاج المسيح (عليه السلام)(٢٨).

والمسلمون الأولون إنما تمكنوا من تقديم الإسلام إلى الأمام بذلك التقديم الهائل والذي بقي دفعه إلى اليوم، لأجل ممارستهم تلك الحياة الخشنة التي عاشوها ولما صار المسلمون إلى حياة الترف والبذخ تأخروا ذلك التأخر الهائل الذي يكوى الكل بناره هذا اليوم.

نماذج تأريخية من حياة المسلمين:

للمسلمين مئات القصص الدالة على ذلك في أول الإسلام من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، من جملتها: أن سعيد بن عامر واحد من الذين خرجوا في جماعة بدعوة من زعماء قريش ليشهدوا مصرع أحد من المسلمين الأوائل هو (خبيب بن عدي) فقد وقف سعيد بن عامر معهم يشاهد أسير قريش مكبلاً بقيوده والرجال والنساء

يدفعونه إلى ساحة الموت دفعاً لينتقموا من النبي (صلى الله عليه وآله) في شخص هذا الصحابي، وليثأروا لقتلاهم في بدر – لأن القصة وقعت بعد بدر – وكان خبيب يقول لهم: إن شئتم أن تتركوني أركع ركعتين قبل مصرعي فافعلوا وتركت قريش خبيباً حتى يصلي ما يريد ونظر سعيد بن عامر إلى خبيب وهو يستقبل الكعبة ويصلي ركعتين ثم رآه يقبل على زعماء القوم ويقول والله لولا أن تظنوا أني أطلت الصلاة جزعاً من الموت لاستكثرت من الصلاة، وقد رأى سعيد بن عامر المشركين يمثلون بخبيب حياً فيقطعون من جسده القطعة تلو القطعة وهم يقولون له أتحب أن يكون محمد مكانك وأنت ناج، فيقول خبيب والدماء تنزف منه: والله ما أحب أن أكون آمناً وادعاً في أهلي وولدي وأن محمداً يؤخذ بشوكة فيلوّح الناس بأيديهم في الفضاء ويتعالى صوتهم أن اقتلوه، ثم أبصر سعيد بن عامر خبيباً يرفع بصره إلى السماء ويقول: اللهم أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تغادر منهم أحداً، وقتل تحت ذلك التعذيب القاسي ولم يكن سعيد مسلماً إلى ذلك اليوم، فلما رأى ذلك اهتاج وجاشت به نفسه فقام سعيد في ملأ من الناس يعلن دخوله في دين الله الإسلام، ويعلن قبوله لرسالة محمد (صلى الله عليه وآله) وبراءته من آثام قريش وأوزارها وأصنامها وهكذا بقي سعيد حتى زمان الخليفة الثاني حيث ولاه ولاية حمص، وجاء الخليفة إلى الشام فلما نزل مدينة حمص لقيه أهله فقال لهم: كيف وجدتم أميركم؟

فشكوا إليه وذكروا أربعة من أفعاله كل واحد منها أعظم من الآخر، قال الخليفة: قلت ما تشكون من أميركم؟

قالوا: لا يخرج إلينا حتى يتعالى النهار. فقلت: وما تقول في ذلك يا سعيد؟

فسكت قليلاً، ثم قال: والله كنت أكره أن أقول ذلك، أما وأنه لا بد منه فإنه ليس لأهلي خادم فأقدم كل صباح فأعجن لهم عجينة ثم أخبزه لهم ثم أتوضأ وأخرج إلى الناس، ثم قال لهم: وما تشكون منه أيضاً في شكواكم الثانية؟

قالوا: إنه لا يجيب أحداً بليل، قال: فما تقول في ذلك يا سعيد؟

قال: إني والله كنت أكره أن أعلن عن هذا أيضاً، فقد جعلت النهار لهم والليل لله عز وجل، قال: وما تشكون منه أيضاً في شكواكم الثالثة؟

قالوا: إنه لا يخرج إلينا يوماً في الشهر، قلت: وما هذا يا سعيد، قال: ليس عندي ثياب غير التي علي فأنا أغسلها في الشهر مرة وأنتظرها حتى تجف ثم أخرج إليهم في آخر النهار، قال: وما تشكون منه في شكواكم الرابعة؟

قالوا: تصيبه من حين إلى آخر غشية فيغيب عمن في مجلسه، قال: وما هذا يا سعيد؟

قال سعيد: شهدت مصرع خبيب بن عدي وأنا مشرك ورأيت قريشاً تقطع جسده وهي تقول له: تحب أن يكون محمد مكانك وأنت ناج، فيقول: والله لا أحب أن أكون آمناً في أهلي وولدي وأن محمداً (صلى الله عليه وآله) تشوكه شوكة وإني والله كلما ذكرت ذلك اليوم وكيف أني تركت نصرته إلا ظننت أن الله لن يغفر لي وأصابتني تلك الغشية عند ذلك وهكذا كان المسلمون الذين تخرجوا على مدرسة رسول الله (صلى الله عليه وآله) متقشفين زاهدين حتى تمكنوا من تركيز لواء الإسلام في شرق الأرض وغربها بما امتد إلى هذا اليوم.

حياة التقوى والورع:

إن المسلمين الأوائل اجتنبوا المحرمات أشد اجتناب بخلاف ما نشاهده في أكثرية حكام المسلمين اليوم وفي كثير من المسلمين. فمثلاً لما خرج عبد الرحمن الداخل من البحر أول قدومه الأندلس أتوه بخمر ليشرب، فأبى وقال: إني محتاج لما يزيد في عقلي لا لما ينقصه فعرفوا من ذلك قدره، ثم أهديت إليه جارية جميلة، فنظر إليها وقال: إن هذه لمن القلب والعين بمكان، وإن أنا لهوت عنها بمهجتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن لهوت بها عما أطلبه ظلمت مهجتي فلا حاجة لي بها. الآن قيسوا ذلك بما حدث في الأندلس من أن المسلمين أقبلوا على شرب الخمور وارتكاب الفواحش مع الجاريات الجميلات وتركوا الصلاة حتى سقطت الأندلس كما بين في القضايا المشهورة.

المحاكم العشرة للإنسان

ثم إنا قد ذكرنا مسؤولية الإنسان في أفكاره وأعماله أمام المحاكم المقررة من الله سبحانه له تكويناً أو تشريعاً وموجز ذلك: أن المحاكم التي يحكم فيها للإنسان أو يحكم فيها عليه عشرة:-

الأولى: محكمة النفس حيث أنها أول محكمة داخلية مصدقة أو مكذبة، محسنة أو مقبحة لفكر الإنسان أو عمله.

الثانية: محكمة البدن حيث أن كثيراً من الأعمال والأفكار تعود بالصحة أو المرض على البدن.

الثالثة: محكمة التاريخ حيث يسجل في صفحات الكتب ونحوها خير الإنسان أو شره.

الرابعة: محكمة الاجتماع حيث أن الاجتماع المعاصر وكذلك الاجتماع المستقبلي يقول أن الفرد الفلاني كان خيراً أو كان شريراً، فعل حسناً أو فعل سيئاً.

الخامسة: محكمة القضاة فيما إذا سيق الإنسان إليها حيث تؤيد جرمه إذا كان مجرماً أو تصدّق براءته إذا كان بريئاً.

السادسة: محكمة الآثار التي تبقى من خير الإنسان أو شره، حتى أنهما يسريان إلى عقبه وقد قال سبحانه: (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء)(٢٩) وقال سبحانه: (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً)(٣٠).

السابعة: محكمة الزمان حيث تعكس على الإنسان خيره وشره، وقد تقدمت منا بعض القصص في هذا الشأن ومنها قصتا المرحوم الشيخ عبد الزهراء الكعبي رحمه الله مع الأبوين اللذين أساء إليهما أولادهما. كما ذكرنا في بعض كتبنا ما نقل من قصة الكوز الذي أخرج في حفريات الآثار القديمة في مصر فلما سلط عليه إبرة (الكرامافون) أخذ يعكس صوت صانع الكوز الذي بقي محفوظاً في ذراته وطياته.

الثامنة: محكمة المحيط الطبيعي كخراب سامراء أو أهرام مصر أو ما إلى ذلك وفي الحديث: (إنه حق على الله سبحانه وتعالى أن يعرض كل مكان عصى الله فيه للشمس حتى تطهره بأشعتها)(٣١) كناية عن خراب ذلك المكان.

التاسعة: محكمة القبر قال سبحانه: (ثم أماته فاقبره)(٣٢) حيث أن الإنسان يحاسب في القبر على كل أعماله ومعتقداته والقبر – كما في الحديث الشريف – أما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران(٣٣).

العاشرة: محكمة القيامة بما يتلوها من الجنة والنار قال سبحانه: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى)(٣٤) وهذه المحكمة أصعب المحاكم حيث أن الحاكم هو الله سبحانه وتعالى الذي يرى كل شيء ويسمع كل صوت ويعلم حتى ما في ضمير الإنسان فإنه عالم بذات الصدور. وقد قال سبحانه وتعالى: (ويحذركم الله نفسه)(٣٥) وقد ورد في بعض التفاسير: أن آخر آية نزلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله) هي قوله تعالى: (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله)(٣٦) فالآية أما بصدد القبر أو بصدد القيامة فعلى الإنسان أن يخاف هاتين المحكمتين اللتين تنعقدان بعد خروج الروح عن جسده.

وعلى ممارسي التغيير أن يضعوا هذه المحاكم العشرة نصب أعينهم ويعملوا بحضور منها فإن الإنسان إذا عرف مسؤوليته الخطيرة لا بد وأن يلاحظ ويحاسب بدقة كل حركاته وسكناته، سواء كانت في ممارسته الفردية أو الاجتماعية أو غيرهما. وفي حديث مأثور: أن الإمام السجاد (عليه السلام) كان يسير على ناقة له فالتاثت به ناقته، فرفع العصا ليضربها، لكنه أمسك يده ولم يضرب الناقة، فلما سئل عن سبب ذلك؟

قال: خوف القصاص(٣٧).

وقد ذكرنا قصة سوادة مع رسول الله (صلى الله عليه وآله)، إلى غيرهما من القصص الكثيرة الواردة في كتب السيرة والأخلاق، والله سبحانه المستعان.

١ . نهج البلاغة: الخطبة ٢٧.

٢ . المعبر عنها في لسان الروايات بـ (الخرق) (دام ظله).

٣ . سورة التوبة: الآية ١٠٥.

٤ . سورة النجم: الآية ٣٩.

٥ . سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

٦ . سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

٧ . انظر بحار الأنوار: ج٧١ الباب ١٥ من أبواب حقوق المؤمنين ص٢٢٦.

٨ . سورة النساء: الآية ٤٩.

٩ . سورة المائدة: الآية ٢.

١٠ . سورة النساء: الآية ١٣٥.

١١ . سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

١٢ . سورة الحجرات: الآية ١٠.

١٣ . سورة المؤمنون: الآية ٥٢.

١٤ . سورة البقرة: الآية ٢٤٩.
١٥ . سورة الحشر: الآية ٩.
١٦ . مفاتيح الجنان المعرب: ص٥٣٢.
١٧ . مستدرك الوسائل: ج٣ الباب١ من كتاب إحياء الأموات ح١ ص١٤٩.
١٨ . سورة الفتح: الآية ٢٩.
١٩ . سورة الحجرات: الآية ٧.
٢٠ . نهج البلاغة: الخطبة ١.
٢١ .كشف الغمة: ج١، ص٢٦٩.
٢٢ . سورة آل عمران: الآية ٩٢.
٢٣ . نزهة المجالس: ج٢، ص٢٢٦.
٢٤ . انظر نزهة المجالس: ج٢، ص٢٢٦.
٢٥ . سورة آل عمران: الآية ١٥٩.
٢٦ . غرر الحكم: ص٢٤٣ الرقم ٤٦٠٤.
٢٧ . نهج البلاغة: الخطبة ١٩٣.
٢٨ . نهج البلاغة: قصار الحكم الرقم ١٠٤.
٢٩ . سورة الطور: الآية ٢١.
٣٠ . سورة النساء: الآية ٩.
٣١ . سفينة البحار: ج١ ص٤٨٨ (مادة ذنب).
٣٢ . سورة عبس: الآية ٢١.
٣٣ . بحار الأنوار: ج٦ الباب ٨ ص٢٦٧.
٣٤ . سورة النجم: الآية ٣٩-٤١.
٣٥ . سورة آل عمران: الآية ٢٨.
٣٦ . سورة البقرة: الآية ٢٨١.
٣٧ . مستدرك الوسائل: ج١٨ ص٢٦٢، مؤسسة آل البيت (عليهم السلام) لإحياء التراث.

معوقات عملية التغيير

التعذيب

إن أي تعذيب مهما كان لونه ومهما قيل في مبرره، ممنوع ومحرم قطعاً لم ينزل الله به من سلطان فعلى الممارسين للحركة أن يتجنبوه مهما كلف الأمر سواء في داخل الحركة أو خارجها وسواء قبل وصولهم إلى الحكم أو بعد وصولهم إليه، وسواء بالنسبة إلى الأصدقاء أو مع الأعداء فإن من يهين كرامة الإنسان لا يتمكن أن يدافع عن كرامة الإنسان ومن يمارس التعذيب ولو لمرة واحدة ويقول إني أريد إيصال الإنسان إلى الكرامة لا يكون كلامه إلا هراءاً وسخفاً، فإنه لا يصل إلى الهدف أولاً، ويحاكم محاكمة المجرمين في المحاكم الإلهية ثانياً، وتهدر كرامته في المجتمع الذي يطلع على ممارسته ثالثاً وهناك قسم من أصحاب القدرات يتصورون أنهم لو مارسوا التعذيب لا تصل أنباؤه إلى المجتمع، ناسين قوله تعالى: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون)(١).

التعذيب.. ظاهرة غير إسلامية:

لا شك أنه من الممكن أن يستظهر الإنسان الحق – الذي يريد بعض استظهاره لا بسبب التعذيب – ويتوصل إلى الواقع، بواسطة الأدلة والشواهد وتكثير الأسئلة والأجوبة أو ما أشبه ذلك من القضايا المعروفة في قضاء أمير المؤمنين(عليه السلام).

فلا يقال: إنه إذا لم يمارس التعذيب في حق المجرمين فسوف لا يعترفون بالواقع، وبالتالي يبقى بعض الحق خافياً – كما هو منطق الدكتاتوريين –.

فإنه يقال: –

أولاً: بقاء بعض الحق خافياً أفضل من إهانة الحق بالتعذيب.

وثانياً: في التعذيب أيضاً يبقى بعض الحق خافياً حيث أن بعض المعذبين يعترفون على أنفسهم زوراً وكذباً للتخلص من آلام التعذيب وهو أيضاً تغطية للحق.

أساليب الكشف المشروعة:

وبهذه المناسبة نلمح إلى بعض القضايا التي اتفقت وأمكن القضاة ومن إليهم من استظهار الحق فيها بدون التعذيب، مع أنها كانت قضايا معقدة وأحياناً في غاية التعقيد.

فمثلاً: اتفق في بعض البلاد في زماننا أنه وجد إنسان مقتول على قارعة الطريق ولم يعلم قاتله، لكن الخبير تمكن من الإطلاع على القاتل بسبب النظر إلى عيني القتيل حيث أن مرآة العين تحتفظ بآخر صورة من الصور التي انتقشت فيها. والتوصل إلى الواقع عبر هذه الأساليب النفسية المشروعة وإن كان محتاجاً إلى الأجهزة والخبروية إلا أن ذلك متيسر في العالم الحاضر بينما قد اتفق لحاكم في زماننا محاولة اغتياله – حسب زعمه – فأخذ يزج على

أثرها مجموعات كبيرة من الناس إلى السجن، حتى قالت بعض الإحصاءات بأنه سجن ما يقارب المائتي ألف شخص، وأذاقهم أشد أنواع العذاب والتنكيل.

طريقة التحليل النفسي:

وفي قضية ثانية اتفقت لحجة الإسلام السيد محمد باقر الشفتي الأصفهاني رحمة الله عليه حيث عثروا على قتيل في الشارع أيام كان يحكم أصفهان، وكلما أراد سماحته الإطلاع على قاتله لم يتمكن وأخيراً استعان بطبيب نفسي خبير ففحص الجثة كاملاً ثم أمر بإحضار جميع القصابين، فلما حضروا أوقفهم صفاً واحداً بحيث يكون قفاهم إلى مجلس حجة الإسلام الشفتي ووجوههم إلى الطرف الآخر، وبعد لأي من الزمن قال الخبير لأولئك القصابين: اذهبوا حيث شئتم، فلما تحركوا للذهاب صاح فيهم وقال: أنت أيها القاتل إلى أين؟

وإذا بأحدهم يلتفت إلى الخلف فجأة من دون اختيار، فأمر الخبير بإلقاء القبض عليه ولما حقق عن الأمر تبين أنه هو القاتل، فقيل للخبير: من أين عرفت ذلك؟

قال: إني لما فحصت الجثة رأيت آثار مسح السكين على ملابس المقتول، وهذا لا يكون إلا من عادة القصابين حيث ينظفون سكين الذبح على جلد الخروف ومن حيث أن المجرم يعرف نفسه، ونفسه أيضاً تعترف بالجريمة وإن أضمرها صاحبها، وأصر عليها لتنكره وتغطّى عليه، لكنها تفلت أحياناً عن الاحتفاظ بإنكار الجريمة إذا فوجئت بالاستجواب.

وقد قال أمير المؤمنين (عليه السلام) (ما نوى امرؤ شيئاً إلا وظهر في صفحات وجهه وفلتات لسانه)(٢).

قاعدة الدوران والترديد:

وينقل عن سماحته أيضاً أنه جاءته امرأة وقالت: سيدنا إن أحد الأعيان اغتصب البستان المجاور لبستانه، وحيث أن له المال والقدرة أشهد جماعة كبيرة من الناس على أن البستان له وذلك في غياب مني والآن بعد إطلاعي على ذلك، ليس لي على الظاهر مستمسك يقاوم ادعاءه ويثبت حقي، فهل تتمكن من إنقاذ حقي؟

وهنا لما علم سماحته صدقها في قولها طلب ذلك الشخص وقال له: إن هذه المرأة تدعي أن البستان لها فما تقول؟

فأنكر الرجل وأخرج الأوراق والأسناد التي تؤيد أن البستان له، وقد شهد في الأوراق جماعة كبيرة من الشهود من مختلف الطبقات الذين تمكن الرجل من إرشائهم أو إغفالهم.

فقال حجة الإسلام: لا بأس، وتركه وهلة من الزمن ليستريح...

ثم توجه إليه وقال له: بكم اشتريت هذا البستان؟ قال الرجل: لم أشتره، ثم تركه...

وبعد مدة سأله قائلاً: من وهب لك هذا البستان؟ قال الرجل: لم يهبه لي أحد، فتركه...

وبعد فترة قال له: هل ورثته من أبيك أو أحد المورّثين لك؟ قال الرجل: لا لم يكن إرثاً.

وهكذا أخذ حجة الإسلام يسأل الرجل في فترات متقطعة عن كيفية تحصيله للبستان والرجل يجيبه في كل منها – بلا التفات منه إلى نتيجة أجوبته – بالنفي، حيث دل مجموع الأسئلة وأجوبة الرجل، على نفي الملك عنه، آنذاك

التفت إليه حجة الإسلام قائلاً: إنك قد نفيت عن نفسك كل أنواع الملك للبستان فمن أين صار هذا البستان ملك لك؟

وهنا لما رأى الرجل أنه سقط في يده، لم يحر جواباً وأخذ يتلجلج مما ظهر للجميع تزويره للأسناد والأوراق.

فأخذ حجة الإسلام الأوراق المزورة وأمر بإحراقها في المجلس، ثم حكم بالبستان للمرأة إلا أن يثبت غيرها أن البستان له.

بين اللف والدوران:

ينقل في أحوال أحد القضاة أن إنساناً جاء إليه وقال له: كان لي شراكة مع صديق في مال فدفنا المال معاً تحت شجرة خارج المدينة، وبعد مدة احتجت إليه فذهبنا معاً لنأخذ المال فلم نعثر عليه فظننت ظناً قوياً بأن الصديق نفسه هو الذي ذهب وأخذ المال لأن غيرنا لا يعلم بذلك إطلاقاً.

فقال له القاضي: ألك شاهد أو دليل على ذلك؟

قال: كلا سوى أنه ليس أحد غيرنا يعلم بالمكان.

فطلب القاضي صديقه وسأله عن المال والشجرة، فأنكر علمه بشيء من ذلك.

فقال له القاضي: لا بأس، اجلس هنيئة فجلس.

ثم توجه القاضي إلى الشاكي وقال: اذهب إلى الشجرة التي دفنت المال تحتها وانظر ماذا ترى فأخبرني به.

قال الرجل: وما الفائدة من ذهابي إلى الشجرة؟

قال: لعل الله سبحانه وتعالى يقذف في قلب من أخذ المال، فيرجعه إلى مكانه، أو تجده هناك والمال معه فتأخذه منه.

فلم يقتنع الرجل بذلك لكنه ذهب إطاعة لأمر القاضي.

وبعد مدة من ذهاب الشاكي توجه القاضي إلى هذا الجالس وقال له: أظن أن صديقك قد أبطأ؟

قال الرجل: لا، لم يبطئ.

قال القاضي: ولماذا؟

قال: لأن الشجرة بعيدة عن المدينة بمقدار تستدعي هذا البطء.

فتوجه إليه القاضي وقال: الآن اعترفت على نفسك قم وائت بالمال، وإلا فما علمك بالشجرة المعينة، فلم ير الرجل بداً من الإذعان وتسليم المال، فقد اعترف على نفسه من حيث لا يعلم.

ولما رجع الشاكي سلمه القاضي المال وقال له: إنما أمرتك بالذهاب إلى الشجرة حتى أفتح طريق الإستجواب مع هذا الرجل وأستخلص منه الاعتراف، وكان كما أردت، فخذ مالك وانصرف غانماً.

بين السبر والتقسيم:

ينقل أن شخصاً جاء إلى عضد الدولة البويهي واشتكى له قائلاً: دفنت مالاً تحت شجرة خارج المدينة بغداد ولم يكن هناك أحد يراني فلما رجعت بعد مدة وحفرت الموضع لأستخرج المال لم أجد شيئاً.

فقال له عضد الدولة: هل تعرف نوعية تلك الشجرة؟

قال: نعم.

قال: وما كان نوعيتها؟

قال: شجرة الخروع.

عند ذلك طلب عضد الدولة أطباء بغداد، فلما حضروا سألهم قائلاً: أيكم وصف لمراجعيه من المرضى في هذه الفترة من الزمان جذور الخروع؟

قال أحدهم: أنا.

قال: أتعرف المريض الذي وصفت له هذا الدواء؟

قال الطبيب: نعم إنه أحد وزرائك فلان.

فأحضر عضد الدولة ذلك الوزير وقال له: هل عالجك هذا الطبيب بجذور الخروع؟

قال الوزير: نعم.

قال: ومن أين حصلت عليها؟

قال: أرسلت أحد غلماني فجاءني بها.

قال: أحضر ذلك الغلام.

فأحضر الوزير غلامه، وعندما حضر توجه إليه عضد الدولة وقال: هل أنت جئت بجذور الخروع للوزير؟

قال الغلام: نعم.

قال: من أين جئت بها؟

قال: من شجرة في البرية.

قال: في أي موضع كانت الشجرة؟

قال: في موضع كذا خارج مدينة بغداد.

وهنا تطابقت المواصفات، واعترف الغلام على نفسه من دون أن يشعر، بأنه اعترف ضمناً بأخذه المال المدفون هناك.

عندها قال له عضد الدولة: عليك أن تأتي بمال هذا الرجل فإنه ليس هناك أحد غيرك، أخذ ماله المدفون تحت الشجرة.

فلما رأى الغلام أنه قد اعترف من حيث لا يعلم، لم ير بداً من الإقرار وإحضار المال بكامله، سوى مبلغ ضئيل كان قد صرفه، عفا صاحبه عنه.

وهكذا تمكن عضد الدولة أن يستخرج خفايا تلك القضية الغامضة بهذا الأسلوب الذكي.

نباهة وذكاء:

ينقل في قصة أخرى عن عضد الدولة البويهي: أنه جاء إليه تاجراً وقال له شاكياً: إني أردت الذهاب إلى الحج وكانت عندي دنانير ذهبية زائدة تبلغ ألف دينار، فأودعتها عند أحد التجار وذهبت إلى الحج فلما رجعت من الحج، ذهبت إليه وطالبته بالوديعة، فأنكرها عليّ.

قال له عضد الدولة: ما عليك إلا أن تذهب إلى محل التاجر في الغد وتجلس أمام محله بحيث يراك، وإني سوف أجعل عبوري غداً من ذلك الطريق، ولما أراك، أقبل عليك وأرحب بك وأطلب منك أن تصحبني وتنزل على ضيافتي، وكلما أظهرت لك شوقي ودعوتك إلى داري فأظهر أنت الامتناع وتسويف الزيارة إلى موعد آخر.

فذهب التاجر في الغد وجلس أمام محل ذلك التاجر فأنكر عليه التاجر جلوسه هناك فلم يعبأ به، وفي الأثناء وإذا بعضد الدولة يمر بموكبه الملكي من ذلك الشارع، ولما بصر بالشخص الجالس هناك توجّه إليه – ونزل عن فرسه احتراماً له، ورحّب به – وسلم عليه واعتنقه وهو يقول له: في أي وقت جئت إلى بغداد؟

قال الرجل: منذ أيام.

قال عضد الدولة: ولماذا لم تنزل بنا؟

قال: لأعمال شغلتني عن ذلك.

فأخذ عضد الدولة يلح عليه بأن ينزل ضيفاً عنده والرجل يأبى من ذلك – حسب الاتفاق المسبق بينهما – .

وأخيراً قال له عضد الدولة: هل لك من حاجة؟

قال الرجل: كلا، غير سلامتكم.

فودعه عضد الدولة وذهب.

ولما رأى التاجر هذا المنظر، ارتجف خوفاً، واصفر لونه، وأقبل بعد ذهاب عضد الدولة نحو الرجل مسرعاً وقال له: يا أخي ما هي علامة وديعتك فلعلي نسيتها؟.

فبين له الرجل علامة وديعته وأعلمه بمقدارها فذهب التاجر، وجاء بعد لأي من الزمن بالوديعة كاملة.

وهكذا تمكن عضد الدولة أن يستخرج مال الرجل بهذه الصورة.

إلى غيرها من القصص الكثيرة المذكورة في الكتب المعنية بهذا الشأن مما لسنا بصددها وإنما كان القصد الإلماع إلى ذلك.

وقد ذكرنا في كتاب (الحدود) وكتاب (القضاء) حرمة التعذيب وعدم وجوده في نظام الإسلام إطلاقاً، وقد أشرنا إلى شيء من ذلك في بعض القصص السابقة عن الرسول (صلى الله عليه وآله) .

ولا يتصور الإنسان أنه يتمكن أن يبني كشفه للحقائق على التعذيب ثم يتمكن من الإقلاع عنه لما استتب له الأمر، فإن أمثال هذه الأمور حالها حال الشجرة كلما تقدم بها الزمان أخذت في النمو أكثر فأكثر.

السجون

لا.. للسجون والمعتقلات:

وكما يلزم على ممارسي التغيير عدم ممارسة التعذيب إطلاقاً على ما ذكرناه، كذلك يلزم عليهم تقليص السجون والسجناء، إلى أقل قدر اضطراري فإنه بالإضافة إلى أنه كبت حريات الناس محرم قطعي في الشريعة الإسلامية فإن السجن من أبرز مصاديق كبت الحريات وإنه لا يمكن أن يكون من يدعو إلى الإسلام يخالف الإسلام في حكم مهم من أحكامه، بالإضافة إلى ذلك كله فإن للسجن أضراراً كثيرة لا يجبرها شيء، ولا ينبغي للعاقل أن يلجأ إليه إلا في قصوى حالات الضرورة من جهة الأهم والمهم والضرورات تقدر بقدرها، فلا بد من ملاحظة ما يلي:-

١ - الكم: أي عدد الأيام.

٢ - السبب: أي أسباب السجن.

٣ - الكيف: أي شدة السجن وخفته.

٤ - الاستمرار: أي اتصال مدة السجن وتقطعه.

وقد قسّمت بعض القوانين العالمية السجن إلى (المغلق) و (نصف المغلق) و (المنفتح)، ففي الأول: يبقى السجين طول المدة المحكوم فيها في السجن، وفي الثاني: يقسط سجن شهر مثلاً على عشرة أشهر كل شهر ثلاثة أيام فلا يكون للمدة اتصال، وفي الثالث: يذهب السجين وقت المنام إلى السجن أما في النهار فيذهب إلى مزاولة أعماله.

نسبة الذين يسجنون في الإسلام:

وقد أحصينا في بعض مباحث (الفقه) عدد الذين يسجنون في الإسلام، فلم يتجاوزوا عشرين شخصاً وكلهم قد أجرموا جرماً واقعياً لا جرماً قانونياً، حيث أن تسعين في المائة أو أكثر، في هذه النسبة من هؤلاء السجناء في عالمنا الحاضر إنما يسجنون لمخالفتهم القوانين الكابتة التي رفضها الإسلام رأساً وحرمها قطعاً. فهم في الحقيقة أبرياء في نظر العقل والشرع، ومع ذلك يسجنون بحجة مخالفتهم للقوانين التي وضعها إما شخص المستبد، أو مجلس وزرائه، أو مجلس ثورته، أو على أحسن الفروض مجلس الأمة فيما لو كانت الانتخابات حرة - مما ليس لها وجود في العالم الإسلامي في الحال الحاضر-.

السجن في عهد الإمام علي (ع):

وقد نقل كتاب الغارات عن أبي إسحاق بن مهران قال: رأيت علياً (عليه السلام) أسس محبس الكوفة إلى قريب من طاق الزياتين قدر شبر قال: ورأيت المحبس وهو من (خص) وكان الناس يفرجونه ويخرجون منه فجدد علي (عليه السلام) بناءه وسمعته يقول عنده:

ألا تراني كيساً مكيساً بنيت بعد نافع مخيساً

باباً حصيناً وأميناً كيساً(٣)

فإن الإمام (عليه السلام) كان سجنه عبارة عن الجريد وما أشبه ذلك ولكن السجناء حيث كانوا يفرون من هذا السجن بإفراج القصب والجريد اضطرّ (عليه السلام) إلى أن يجدد بناءه ويجعل له باباً حصيناً، وأميناً كيساً، حتى لا يفر المعتقلون منه وينالون جزاءهم العادل.

أضرار السجن

أما أضرار السجن فأقسام: سياسية، واجتماعية، واقتصادية، وثقافية، وصحية، وغيرها.

الأضرار السياسية:

أما الأضرار السياسية فكثيرة، منها:-

تعقيد نفسية السجين وتنشيط نقمته على الدولة والشعب.

أما على الدولة فلأنه يعدّها ظالمة غاشمة تستحق الإبادة والزوال، ومن هذا المنطلق يعمل للتنقيص منها وإزالتها وتخريب ما يرتبط بها.

وأما على الشعب فلأن الإنسان المعقد يكره الناس جميعاً حيث يراهم قاصرين أو مقصرين في حقه، فإنه قل ما يعترف مجرم حقيقي بجرمه ويرى نفسه مقصراً ومجرماً – فكيف بالمجرم القانوني . ؟

حتى أن السارق في كثير من الأحيان يرى أنه قد اضطر إلى السرقة لعدم توفر المال له مثلاً، بينما يرى الأغنياء يسرقون أموال الفقراء تحت مظلة القوانين المزيفة.

متى تنفذ العقوبات؟

ولذا نرى أن الإسلام أجاز تنفيذ العقاب بعد تحقق سلامة الإجتماع كما يستظهر ذلك من الآيات والروايات فقد قال سبحانه: (والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد)(٤).

وقال سبحانه: (ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون)(٥).

وقال سبحانه: (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها)(٦).

وورد: (إن الحكم والحدود لإمام المسلمين)(٧) ومعنى ذلك: أنه في ظرف وزمان وجود إمام المسلمين تجري الأحكام، ومعنى وجود إمام المسلمين كونه مبسوط اليد بقيام حكم الإسلام، ومن الواضح أن حكم الإسلام إنما يقوم إذا توفرت الحريات للناس وتمكن كل إنسان أن ينال من العلم والمال والجاه حسب كفاءته ومؤهلاته، وذلك يوجب تمكنه من المكسب والمسكن والمنكح وإلى غير ذلك من شؤون حياة الإنسان المناسبة لكرامته، فإذا لم يكن الجو إسلامياً، لم يتمكن الإنسان من المال الذي يدير أمور معاشه، فكيف تقطع يده لسرقة؟.

كما أنه لم يتمكن من المال الذي يوفر له الزواج، فكيف يجلد؟

وإذا كانت الخمور والفجور تملأ البلاد طولاً وعرضاً فكيف يجري الحد على متعاطيها؟

إلى غير ذلك.

لا يقال: فعلى هذا يلزم ترك المجرم الحقيقي بلا عقاب.

لأنه يقال: التأديب شيء، وإجراء الحد بموازينه شيء آخر، ولذا نرى أنه إذا جاءت امرأة إلى الحاكم تشتكي رجلاً اعتدى عليها جنسياً، أو إذا جاء إليه غلام يشتكي مثل ذلك تحقق الحاكم عن أمرهما فإن ظهر له

صدقهما أدّب المعتدي، وإن لم ينفذ عليه الحد لأن الحد لا يكون إلا بشروط خاصة: بالإقرار أربع مرات أو بشهود أربعة، على ما ذكره الفقهاء في كتاب الحدود.

وإذا أقر الرجل بالسرقة مرة، أخذ منه المال ولم يقطع يده إلى غير ذلك.

ولذا ورد في الحديث: (الإسلام يجبّ عما قبله)(٨) و (الإيمان يجبّ عما قبله)(٩) وكذا (وصول العادل إلى الحكم يجبّ عما قبله) كما دل عليه حديث الإمام الرضا (عليه السلام) وهذا بحث فقهي خارج عن مهمة الكتاب.

هذا بالإضافة إلى (رفع الإكراه) – وقد ذكرنا في بعض كتب الفقه أنه شامل للإكراه الأجوائي كشموله للإكراه الفردي – و(رفع الاضطرار) و(ما لا يعلمون) و(ما لا يطيقون)(١٠) والمراد بما لا يطيقون العرفي كما قرر في محله – كما (أن الحدود تدرأ بالشبهات)(١١) والشبهة من قبل الحاكم موضوعاً وحكماً أو الشبهة من قبل المحكوم موضوعاً أو حكماً إلى غير ذلك.

ومنها أن السجناء كثيراً ما ينظّم بعضهم بعضاً للفساد، أو لسياسة منحرفة أو ما أشبه ذلك وكذا يعلّم بعضهم بعضاً طرق الحيل والمكر والخداع وما أشبه، لأن المجرمين – تبعاً للفراغ الموجود في السجن – ينقل كل واحد منهم للآخر ما عمله في حياته من إجرام وجنايات كما هو المشاهد في غالب سجون العالم، وذلك بدوره يؤدي إلى الأضرار السياسية.

الأضرار الاجتماعية:

وأما الأضرار الاجتماعية، فكثيرة أيضاً، منها:–

أولاً: السجين يتصور سقوطه في المجتمع ويرى أن المجتمع قد نبذه وطرده، وبذلك يحاول أن يكون ضد المجتمع في كل تصرفاته وأعماله، فينقلب عن كونه عضواً صالحاً إلى عضو فاسد.

ثانياً: يتشتت تأهل السجين وذووه من زوجة وأولاد وعائلة في المجتمع لفقدهم من يلم شعثهم ويجمع شملهم فيسقطون عن كونهم أعضاء صالحين للمجتمع.

ثالثاً: يحتمل وقوع كلا الجانبين في الفساد الجنسي أما السجين نفسه فلأنه بشر يحتاج إلى إشباع هذه الغريزة فيمارس ألوان الشذوذ والانحراف وأما أهل السجين وذووه، فلفقدهم من يعولهم ويعتني بتربيتهم ويهتم بمراقبة أعمالهم، فيقعون في الفساد أما لتأمين حياتهم أو إشباع رغباتهم الجنسية.

الأضرار الاقتصادية:

وأما الأضرار الاقتصادية فهي تنشأ من كون السجين لا يتمكن من التكسب وتمشية أموره، فإذا فرضنا أن عائلة مكونة من خمسة أشخاص يحتاجون في كل يوم لإمرار معاشهم إلى خمسة دنانير، فإذا سجن من يعولهم ويكدّ لهم، فكيف يتمكنون من تحصيل هذا المال؟

وطبيعي أنهم يقعون بذلك في الضرر الاقتصادي والفقر، وفي كل ما يسببه الفقر من المشاكل.

وقد ورد في الحديث الشريف: (الفقر سواد الوجه في الدارين)(١٢) وقال أبو ذر رحمه الله: (عجبت للفقراء كيف لا يخرجون على الأغنياء بسيوفهم؟).

الأضرار الثقافية:

وأما الأضرار الثقافية فهي تنتج من انقطاع السجين عن المدرسة حيث لا يتمكن من مواصلة الدراسة والحصول على الشهادة فيسبب ذلك تأخره في المجتمع، ومعلوم أن تأخره يؤثر في تأخر المجتمع من الناحية الثقافية وحيث يرى أن زملاءه قد تقدموا وتفوّقوا عليه يتعقد نفسياً ضد المجتمع وينقم عليهم ويخطط للإنتقام منهم، فيضر المجتمع ضررين، أولاً: ضرر الثقافة. وثانياً: ضرر تفشي الجهالة والرذيلة.

الأضرار الصحية:

وأما الأضرار الصحية فهي تتولد من تراكم أفكار السجين وكثرة حزنه وهمه وتعقده، فإنها تسبب أمراضاً جسدية وأمراضاً روحية، وقد ثبت علمياً أن كل واحد من الروح والجسد يؤثر في الآخر، فالمهموم روحياً يمرض جسدياً، والمريض جسدياً يكتئب روحياً ويتعقد نفسياً.

هذا بالإضافة إلى ما يذهب هدراً من أوقات ذوي السجناء في لقاءاتهم مع سجنائهم مما كان يمكنهم صرفها في أمور تعود عليهم وعلى مجتمعهم بالخير والتقدم.

وإلى ما يسببه السجن من مضادة ذوي السجين للدولة والمجتمع بسبب نقل السجين كآبته وأحزانه وهمومه وأفكاره إلى ذويه عند الالتقاء به.

وإلى ما يكون من نشوب المشاكل والمخاصمات في داخل السجن للسجناء أنفسهم فإنهم ليأسهم على الحياة وتأثرهم بضيق السجن يكثرون من المنازعات والمشاجرات مما يفسد الأخلاق ويربيهم على الخشونة والغلظة.

وإلى تسرب المواد المخدرة إلى السجناء في أكثر الأحيان وأضرارها المتعددة والمخطورة غير خفية.

وإلى تسرب القمار إليهم فإنهم لعدم الاشتغال بما يقضي عليهم الوقت يتعاطون القمار لسد الفراغ وتفويت الوقت، ومفاسد القمار كثيرة.

وإلى أن السجن لما كان غالباً من نصيب الشباب بنات وبنين، لأنهم المسرعين عادة إلى كل دعوة وانحراف، يتربى الجيل المستقبلي منحرفاً، كما وينعكس انحرافهم على المجتمع نفسه بعد خروجهم من السجن.

وإلى تضييع وقت جهاز الدولة في إدارة السجن والسجناء.

وإلى تضخم جهاز الدولة وتضخم الجهاز، ضرر مزدوج – على ما ذكرناه في كتبنا السياسية والاقتصادية –.

وإلى إضاعة أموال الأمة التي تصرف لأجل إدارة السجن والسجناء.

وإلى أنه لما كان غالب من يدخل السجن هو من الطبقة الفقيرة – حيث أن الأغنياء أولاً: يتوفر لهم ما يريدون من المال والثروة، والبضاعة والخدمات فلا يرتكبون بعض أنواع الانحراف كالسرقة مثلاً التي توجب دخولهم السجن بخلاف الفقراء. وثانياً: إذا ارتكبوا الانحراف كانت أموالهم حائلة دون سجنهم بالرشوة والتحايل على القانون وغير ذلك – فإن السجن يكون ظلماً إضافياً على الفقير حيث سبب له المجتمع أولاً: فقره. وثانياً: سجنه.

إلى غير ذلك من المفاسد الكثيرة للسجن، مما يحتاج تفصيلها إلى مجلد مستقل ولسنا نحن الآن بصدد ذلك في هذا الكتاب.

ولذا فاللازم أن يلاحظ كل ذلك في جانب ويقاس إلى فائدة السجن في جانب آخر، ويؤخذ بالثاني بقدر أقصى مراتب الضرورة.

فضح التعذيب والحرمان وآثاره في محنة الأمة:

وأخيراً نقول أن من اللازم على ممارسي التغيير فضح:

١ – التعذيب في السجون.

٢ – والحرمان الذي تعاني منه الأمة، في مختلف الأصعدة.

٣ – وتجزؤ بلاد الإسلام بسبب الحواجز النفسية والحواجز الجغرافية، كل هذا الفضح يتم بتأليف أو نشر عشرات الملايين من الكتب، وبمختلف وسائل الإعلام الممكنة.

١ – فإن التعذيب في السجون، في كل سجون العالم الإسلامي، سواء في بلد يسمى بالإسلامي أو في غيره، جريمة شنعاء يندى لها جبين الإنسانية. بالإضافة إلى أن التعذيب يسبب تثبيط عزائم الجماهير بالتحرك لإسقاط الدكتاتور، فإن السجن ليس له من الأهمية في لا وعي الإنسان، مثل ما للتعذيب من أهمية، فإن الإنسان كثيراً ما لا يهتم بالسجن – بل ولا بالإعدام – بمثل ما يخاف من التعذيب النفسي والجسدي.

وقد استغلت الحكومات الاستعمارية، أمثال بريطانيا وأمريكا وفرنسا وروسيا والصين، وما يدور في فلكهم من العملاء، هذا التخوف للإبقاء على سلطانهم في بلاد الإسلام، فإذا تمكن المسلمون من فضحهم، نجم عن ذلك تمهد السبيل لإنقاذ المسلمين، إن عبد الناصر لما سقط، قام المسلمون في مصر بحملة متوسطة في فضحه بما كان يقترفه من التعذيب في سجونه، مما أثر في سقوط القومية في مصر، بل سقوط القومية العربية في كافة البلاد، فصارت كالأموية التي أسقطها المسلمون منذ ثلاثة عشر قرناً فلم تقم لهم قائمة.

وهكذا يلزم إسقاط هذا السلاح الشائن من يد الدكتاتوريين في كل البلاد الإسلامية، ومصر بعدها وإن كانت تستعمل التعذيب، لكن بنسبة أقل، بعد تلك الفضيحة التي مُني بها عبد الناصر.

٢ – أما الحرمان، فالعالم الإسلامي كله، حتى البلاد التي يتفجر في أراضيها النفط كشلال السيول، تعاني من أشد أنواع الحرمان والتأخر الزراعي، والصناعي، والثقافي، وحتى أن أكثرية الشباب لا يجدون إلى الزواج سبيلاً لفقرهم، بينما يمشون على أرض من الذهب، وتتدفق أموالهم إلى خزائن الغرب والشرق.

إن هذا الحرمان بحاجة إلى الفضح، حتى يسبب ذلك تحرك الأمة لأجل الإنقاذ، ومن الطبيعي أن حكام هذه البلاد يمارسون سياسة التجهيل للأمة، حتى ترضى بما تحصل من كسرة خبز للعيش، فإذا وعت الأمة إمكانياتها الكبيرة جداً، لا بد وأن تتحرك لأجل إنقاذ حقها، وهي خطوة في طريق تشكيل حكومة ألف مليون مسلم التي توفر للأمة الرفاه والتقدم والرخاء بإذن الله تعالى.

وهذا الفضح أيضاً بحاجة إلى عشرات الملايين من الكتب في مختلف المستويات واللغات.

٣- وأخيراً يأتي فضح الدور الذي قام به المستعمرون وعملائهم، لتجزئة البلاد الإسلامية، جغرافياً، وفضح السدود والحواجز التي خلقوها بين أنفس المسلمين، حتى صار مسلم كل قطر ينظر إلى مسلم القطر الآخر بنظر أنه أجنبي، بما تبع هذين العملين (تجزئة البلاد والحواجز) من تضعيف المسلمين وتشتيتهم والسيطرة عليهم.
فاللازم فضح الاستعمار وقوانينه أولاً، وفضح التجزئة والحواجز النفسية ثانياً.
فهل من الأخوة الإسلامية، أن يرى العربي أخاه العجمي، والتركي أخاه الهندي، والأندونيسي أخاه الفلبيني، وهكذا.. أجنبياً؟.
أو هل من الأخوة الإسلامية أن يرفع الأخ في وجه أخيه الحواجز ويصطنع أمامه المشكلات إذا أراد السفر إلى قطر إسلامي؟
وهكذا في سائر الشؤون المنافية للأمة الواحدة.
هل في الإسلام سجون؟
روى الفقهاء في باب الإيلاء من كتاب الطلاق عن حماد بن عثمان عن أبي عبد الله (عليه السلام) أنه قال: المؤلي إذا أبى أن يطلق كان أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام يجعل له حظيرة من قصب ويحبسه فيها(١٣)، فانظروا إلى السجن في الإسلام فإنه عبارة عن غرفة صغيرة من القصب ولعلها كانت في بعض ساحات البلد ثم يجعل هذا الإنسان العاصي الذي لا يطلق سراح زوجته ولا يعاشرها بمعروف ويعاملها بخلاف ما قال سبحانه: (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان)(١٤) في مثل هذا السجن جزاءاً لتجرئه على الله سبحانه، ومخالفته لنداء العقل والفطرة الإنسانية بالنسبة إلى الزوجة كي لا تكون كالمعلقة متحيرة في أمرها، لا هي ذات بعل ولا هي مطلقة.
محاربة القوانين المبتدعة
ونعود فنقول أن من أهم ما يجب على ممارسي التغيير هو محاربة هذه القوانين المنحرفة المطبقة في بلاد الإسلام مما أهداها المستعمرون إلى بلادنا، أو أننا اخترعناها تبعاً للمستعمرين من غير استثناء للدولة التي تطبقها، سواء انتحلت اسم العلمانية أو الدينية كما أن عليهم الاجتهاد والسعي لخرق ما يستطاع من هذه القوانين المخترعة المناهضة لحريات المسلمين والمضادة لأحكام الإسلام، والانفلات منها بشتى الوسائل الممكنة، وبكل الحيل المتصورة.
فمثلاً على المسلمين أن يسافروا بغير جواز وتأشيرة دخول أو خروج، وأن يقطنوا أي بلد شاؤوا من بلاد الإسلام، بلا إقامة وموافقة من داخلية أو خارجية، وأن يستوردوا كل ما راق لهم من ضروريات ما يحتاجه الناس بلا أخذ موافقة أو دفع ضرائب وجمارك، وأن يؤسسوا كل ما يحتاج إليه البلد من معامل ومصانع ومؤسسات اجتماعية وثقافية وصناعية وصحية بلا دافع ولا مانع، وأن يشتغلوا بما يحبون ويبنوا كيفما يشتهون بلا مراجعة لوزارة الأشغال والإسكان أو البلدية، وإلى غير ذلك، فلا يعبأوا بمثل هذه القوانين الظالمة التي لم ينزل الله بها من سلطان، والتي تكبل أيدي الشعب وتقيده، وتحبسه عن الإنطلاق والتقدم وعن مسايرة الركب الحضاري العالمي،

فإن الإلتزام بهذه القوانين من أظهر مصاديق الإعانة على الإثم حيث أن المستعمرين وعملائهم اهتموا لشل حياة المسلمين في كل جوانبها، وفكروا في تقييدهم، وتكبيل أيديهم وأثقال كواهلهم – عبر قوانين مصطنعة – كي لا يطيقوا النهوض والتقدم وقد حقق الغرب والشرق كل ما أرادوه.

ولذا تجد ألفاً وخمسمائة مليون مسلم لا حول لهم ولا طول ولا يقدرون على التحرك والإنطلاق ولا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً إلا وفق ما يريده المستعمرون، ومن الواضح أنه إذا كان عدو الإنسان مطلق الأيدي والأرجل وله كافة حرياته، وقد تسلح بأفتك الأسلحة، والإنسان مكبل الأيدي والأرجل، مسلوب عن كل اختياراته أعزل من كل سلاح وعتاد، فإن العدو يفعل به ما يشاء من دون أن يقدر الإنسان على أن يدفع عن نفسه ضراً أو يكسب لها خيراً ولو أن الإنسان أراد أن يحصى هذه الأغلال والقيود السائدة في البلاد الإسلامية، ويكتب فهرستاً يجمع فيه جزئياتها لشكلت مئات المجلدات الضخمة، والمصنفات الكبيرة.

نعم كلياتها واضحة مثل كبت التجارة والزراعة والصناعة والثقافة والسفر والإقامة والعمارة وإبداء الرأي والطبع والنشر وحيازة المباحات وفتح المؤسسات الخيرية وغير ذلك من كليات الحريات المكبوتة وأنا أذكر هنا ما شاهدته في ظرف أسبوع في إحدى البلاد التي تسمي حكومتها نفسها إسلامية ممن راجعني شارحاً شكواه بمجرد بث الشكوى أو لأن يأخذ مني العون الفكري أو يلتمس الدعاء لحل مشكلته وإليك قائمتها نقلاً بالمباشرة أو مع واسطة:

١ – خطيب بارع، وعبقري لامع، وعالم ناطق هتف القرآن بتقديره وتكريمه حيث يقول: (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات..)(١٥) وفتحت له الدول الراقية والشعوب المتقدمة حساباً خاصاً من الإجلال والإكرام، والتسهيلات الخاصة، تقديراً للعلم والثقافة، وتكريماً للعلماء ورجال الدين، لكنه بقي محصوراً في البلد ممنوعاً من السفر لمشكلة جوازه حيث أن الدولة لا تسمح له بالسفر حتى ينتهي أمر جوازه انتهاءاً قانونياً رغم أنه كان قد تابع معاملة جوازه مدة ثلاث سنوات فلم يتمكن من حل مشكلته خلال هذه المدة مع العلم أنه راجع عشرات المرات الدوائر المربوطة ووسط الأصدقاء والشخصيات النافذة لأجل الإجازة.

٢ – من أو قفت الدولة بناءه وصدته عن العمران لأنه لم يأخذ جواز البناء من الدولة.

٣ – من سجنته الدولة لأنه لم يتمكن من أداء دينه حيث كان ذا عسرة مع العلم أن الله سبحانه وتعالى يقول: (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة)(١٦).

٤ – من عذبت الدولة ولده في السجن بمختلف أنواع التعذيب حتى أنه حين خرج كان مبتلى بالأمراض العصبية مما سبب له الرعشة الدائمة.

٥ – من ألقت الدولة، القبض على كريمته، وأودعتها السجن، وأذاقتها ألوان التعذيب الجسمي والروحي، واعتدت على كرامتها، وطهارتها، حتى أطلق سراحها وأخرجت من السجن، وهي مصابة بالجنون فكانت تصيح ليل نهار (جاءوا جاءوا) ثم تشهق فتقع مغشياً عليها.

٦ – من أحاط بولده جلاوزة الدولة وضربوه ضرباً مبرحاً بعد أن شدوا يديه وعصبوا عينيه، حتى أدموا جسمه وكسروا أسنانه.

٧ – من أغلقت الدولة معمله لأنها تطلب منه ضريبة كبيرة وهو غير قادر على دفعها.

٨ – من أبطلت الدولة زواجه لأنه تزوج بفتاة من غير إقليمه، لأن الدولة تحرم الزواج بين جنسيتين بينما قال الإسلام: المؤمن كفو المؤمن.

٩ – من قطعت الدولةُ الكهرباءَ عن داره لأنه تأخر في دفع الأجور.

١٠ – من هدمت الأمطار سقف بيته وهو بحاجة إلى قضبان من الحديد لبنائه وترميمه، والدولة لا تعطيه حيث الإشتراكية الجديدة المغلفة باسم الإسلام أوجبت احتكار الدولة لكل البضائع ومنها الحديد، وقد قال الإسلام: (الناس مسلطون على أموالهم)(١٧).

١١ – من يريد إدخال ولده المدرسة، لكن حيث أنه من جنسية أخرى لا تسمح الدولة له بذلك.

١٢ – من سجنته الدولة لأنه قال على المنبر كذا، مما كان نقداً بناءاً بنظره لكن الدولة الدكتاتورية كانت ترى ذلك خلاف قوانينها التي لم ينزل الله بها من سلطان، بينما أمر الإسلام بالنصيحة للولاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأمرهم بالاستماع والقبول.

١٣ – من منعت الدولة شراءه الدار والعقار، لأنه من جنسية غير جنسية الدولة بينما أباحته لذوي جنسيتها وأن لم يكونوا مسلمين.

١٤ – من أوقفت الرقابة تأليفه المطبوع بعد أن صرف على التأليف مبالغ طائلة لكن الدولة رأت أن بعض صفحات المطبوع منافية لما تراه من موازين الاستبداد.

١٥ – من عطلت الدولة معمله وكبدته غرامة ثقيلة لأنه باع بسعر غير السعر الذي عيّنته الدولة، وإن كان هذا التسعير مما ينافي سلطة الناس على أموالهم التي قررها الإسلام لهم.

١٦ – من لم تسمح الدولة بتأشيرة دخول لزوجته التي بقيت لجور الحاكمين في بلد آخر غير البلاد الذي هو فيه وقد مر على هذا الأمر خمس سنوات وكلما وسط وتضرع واشتكى لم تسمع الدولة شكواه لأن القانون فوق الشكوى.

١٧ – من جمّدت الدولة رصيده في البنك لأنه لم يعتن بالقانون الفلاني.

١٨ – من صادرت الدولة داره لأنه من أنصار العهد المباد بمجرد الإتهام وبغير محاكمة.

١٩ – من أوجعوه ضرباً وأشبعوه شتماً لأنه ذكر اسم المرجع الفلاني على المنبر، وذكر اسم المراجع على المنابر في منطقهم ممنوع، بينما عيّن الإمام صاحب العصر والزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف المراجع كلهم بصورة عامة حيث قال: (أما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجتي عليكم، وأنا حجة الله)(١٨).

٢٠ – من صادرت الدولة ممتلكاته وأراضيه لأن الرجل إقطاعي في منطق الدولة فيجب أن توزع أرضه على الفلاحين رغم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: (عادي الأرض لله ولرسوله ثم أنها لكم مني أيها المسلمون)(١٩) وقد عمل بذلك المسلمون طيلة أربعة عشر قرناً وجرت عليه سيرتهم.

٢١ – من ضربته الدولة كذا سوطاً، لأنه لم يعلق صورة رئيس الدولة في محله ومتجره، وإنه لما اعترض عليه في ذلك وسئل عن السبب كان قد أجاب بعدم اعتقاده به، هذا والإسلام قد منح للناس حرية الرأي والاعتقاد، ومنع عن التعرض لهم في ذلك.

٢٢ – من مارست الدولة في حق ولده المسجون أشد أنواع التعذيب وأرجعوه إلى أبيه فاقد الشعور والعقل، وكلما حاول الأب معالجته، لم يعرف الأطباء سبب اختلال عقله كي يتمكنوا من علاجه وبعد الفحص عن السبب بالوسائط تبين أن المعذبين وضعوا رأس الولد في كيس ممتلئ بمختلف أنواع (سام أبرص)(٢٠) وتركوها تعبث برأسه ووجهه، مما سبب له الدهشة الغريبة والذعر البالغ، والخوف الكثير بحيث أفقدته شعوره وعقله. هذا والإسلام قد كرّم الإنسان وعظم قدره، وحرّم غيبته وأذاه فكيف بضربه وتعذيبه؟

تصوروا اثنتين وعشرين قصة في أسبوع واحد قيلت لنا من أصحابها أو من وسائطهم القريبة منهم، هل هناك أكثر من هذا التقييد للناس والتكبيل للأيدي والكبت للحريات؟.

حرية الحج والحدود المصطنعة

وإليك مثالاً آخر، عرضاً لنموذج واحد من نماذج الحرية الإسلامية التي كان الناس يتمتعون بها حول سفرهم إلى الحج وكيف أصبح اليوم مطوّقاً بشروط تدل على التقييد والكبت فقد كان الناس قبل خمسين سنة يذهبون إلى الحج عن طريق النجف الأشرف ولم يكن للذهاب إلى الحج أي رادع أو أي مانع وكيف يكون المسلم رادعاً أو مانعاً عن الحج. وقد قال سبحانه وتعالى في القرآن الحكيم في التنديد للكفار: (ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواءاً العاكف فيه والباد)(٢١).

وفي آية أخرى: (ولا آمين البيت الحرام)(٢٢).

وفي الأدعية التي تتلى في شهر رمضان: (وارزقني حج بيتك الحرام في عامي هذا وفي كل عام)(٢٣) ولهذا كان الإنسان إذا أراد الحج في تلك الأيام ركب السيارة – أيام وجدت السيارات، وقبل ذلك ركب بعيره – وذهب إلى الحج بدون تأشيرة دخول أو خروج، وجواز أو جنسية، ورسوم أو جمارك، أو ما أشبه ذلك وكانت أجرة السفر إلى الحج في تلك الأيام – أي قبل نصف قرن تقريباً – زهيداً جداً لا تتجاوز التسعة دنانير بالدينار العراقي فكان الزائرون يحملون الأخبئة على السيارات ويأخذون معهم شيئاً من الطعام وشيئاً من الماء ويسافرون إلى الحج فإذا حان وقت الصلاة نزلوا في مكان مناسب حسب نظرهم، ونصبوا الأخبية، واستراحوا في ظلالها، ثم تهيئوا لصلاة الجماعة، وبعد الصلاة تناولوا ما أعدوه لأنفسهم من الطعام، ثم ارتحلوا وواصلوا سيرهم، حتى يحين وقت صلاة أخرى فينزلون وهكذا يفعلون حتى يؤدوا مناسك حجهم ويقضوا ما أوجب الله عليهم، ثم يرجعون إلى أوطانهم بلا رادع ولا مانع.

لكن أمر الحج اليوم، أصبح مشكلاً للغاية وذلك لما طوقوه بألف تعويق وتعويق وألف مشكلة ومشكلة وألف محذور ومحذور وألف قيد وشرط.

الحج المؤجّل:

إن رجلاً كبيراً طاعناً في السن اشتكى لي وقال: إني أريد الحج وأنا طاعن في السن فراجعت الدولة لذلك، فأخبروني بأن الترتيب الذي سيتم وفقه ترخيص الزائرين والسماح لهم بالحج، لا يوافيك إلا بعد خمسة أعوام، فعليك الآن بصب المبلغ في حساب الدولة وخزانتها، والصبر والتربص إلى خمس سنوات حتى يسمح لك بتأشيرة الحج.

قال هذا وأضاف: وأنا مع كبر سني لا أعلم هل أبقى حياً هذه المدة الطويلة وأوفق للحج أم أكون في زمرة الأموات فأبقى مديوناً محروماً عن الحج؟.

منافع الحج المهدورة:

قال سبحانه وتعالى بالنسبة إلى الحج: (ليشهدوا منافع لهم)(٢٤).

لكن لنرى هل هذه المنافع بقيت محفوظة، أم أصبحت كأخواتها من الأحكام مهدورة، فمن ناحية نرى أن عملاء الغرب والشرق قد هدموا البقاع المطهرة في البقيع وغيرها من الأماكن المقدسة حتى صارت تلك البلاد مجالاً لزرع الخلاف والنفاق بين المسلمين فعوض أن يشهدوا منافع لهم كما قال الله تعالى في كتابه الحكيم: يشهدون بؤرة الخلاف والتفرق ويرجع كل حاج إلى بلده وهو ممتلئ غيظاً وغضباً مما سبب ابتعاد المسلمين بعضهم عن بعض وقد ابتكر الغربيون بدعة جديدة، نفذوها عن طريق عملائهم في تلك البلاد في السنوات الأخيرة، منعت من اتصال الزائرين بعضهم ببعض والتعرف على الآخرين، ومشاطرتهم مشاكلهم ومآسيهم، والتوصل إلى حلها ورفعها، فإني أتذكر في السنة التي تشرفنا فيها إلى حج بيت الله الحرام وكنا بصحبة سماحة الوالد قدس الله سره وذلك قبل ما يقارب من ثلاثين سنة كان الزائرون جميعاً وحدة واحدة فالعربي والعجمي والآسيوي والأفريقي ومختلف المذاهب والفرق. كان يجمعهم رغم اختلافهم المواقف الشريفة وكذلك المسكن والمأكل والمشرب كما هم عليه اليوم في الصلاة والمسعى وغيرها وكان والدي رحمه الله يصلي بالناس جماعة في المدينة المنورة في بستان مرجان أو في عرفات أو منى أو مكة المكرمة، وكان يحضر صلاته المسلمون بمختلف الأشكال والألوان والجنسيات واللغات ويتعارف بعضهم مع بعض قبل الصلاة وبعدها ويعرف كل طائفة منهم مشاكل الطائفة الأخرى ويتعرف على سائر المسلمين وعلى مذاهبهم وفرقهم ويحنوا بعضهم على بعض ويتعاطفون فيما بينهم ويتناقشون مختلف القضايا أما في هذه السنوات الأخيرة فقد بعثر المستعمرون وعملائهم هذا التجمع أيضاً فلكل بلد مكانه الخاص في المدينة المنورة وفي مكة المكرمة وفي عرفات ومنى بل أضاف المستعمرون وعملائهم على حجاج إيران وغير إيران عادة الحملات التشويهية الكاذبة لتفريق أهالي البلد الواحد بعضهم عن بعض وتمزيق وحدتهم فأصبح الزائرون بدل أن يشهدوا منافع لهم يشهدون مضار لهم من السباب والتهم والتفرق والتمزق وهكذا سببت القوانين الكابتة المتداولة في هذه البلاد تفرقاً وتشتتاً، وابتعاداً وتباغضاً.

العلماء يحرّمون الجنسية:

ولا ينسى التاريخ كيف حمّل البهلوي الأول الجنسية والجواز على الإيرانيين بالسيف والسوط والسجن والتعذيب ومصادرة الأموال وهدر الدماء بينما كان الإيرانيون بصفتهم الإسلامية وصبغتهم الدينية يريدون الحرية الإسلامية الصحيحة ويطالبون بها ولهذا أخذ العلماء يقاومون البهلوي في هذا الشأن حتى أن أحد علماء تبريز صعد المنبر وأعلن بكل صراحة أنه لا يجوز أخذ الجواز والهوية وما أشبه وأن الإنسان إذا دار أمره بين ترك الحج لأجل عدم المجوّز القانوني وبين الحج بهذه الأشياء التي صنعها المستعمرون كان عليه أن لا يذهب إلى الحج وتسقط عنه الفريضة لأن الحفاظ على الحريات الإسلامية التي من أجلها بعث الله سبحانه نبي الإسلام لينقذ الناس من العبودية وقيودها، حيث يقول: (يضع عنهم إصرهم، والأغلال التي كانت عليهم..)(٢٥) أهم من فريضة الحج ومناسكه.

كما أن أحد كبار علماء شيراز صعد المنبر في مسجد الوكيل بشيراز (وهو مسجد ضخم) وكان غاصاً بأهله فأعلن فيهم أن من لم يأخذ الجواز فليقم على قدميه، فقام جمع قليل وكان الجالسون هم الأكثرية، مما يدل على أن الذين أخذوا الجواز يشكلون أكثرية الناس، وهنا صرخ العالم قائلاً: أيها الناس اقرأوا الفاتحة على الإسلام والمسلمين في إيران فإن المستعمرين أرادوا بسبب الجواز والجنسية أن يقيدوكم ويسلبوكم حرية الإسلام، ويجعلوكم عبيداً مأسورين، لا تملكون لأنفسكم نفعاً ولا ضراً وكان كما قال ذلك العالم حيث سبب البهلويان تحطيم إيران زراعياً وصناعياً وتجارياً وغير ذلك مما جعل الناس محتاجين في كل شيء إلى الاستعمار، والاحتياج ينتج العبودية كما قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (احتج إلى من شئت تكن أسيره)(٢٦).

بداية النفوذ الاستعماري:

كما لا ينسى التاريخ حوادث النصف الثاني من القرن الأخير أي قبل زهاء خمس وأربعين سنة، أبان نفوذ الإستعمار وسيطرته على البلاد الإسلامية حيث كنا في العراق وكان عملاء الحكومة يرتادون المدارس الدينية والمجالس ويصرون على الناس بأخذ الجنسية العراقية في قبال شيء زهيد هو ربع دينار أو أقل من ذلك فكان العلماء والخطباء ينددون بقانون الجنسية والجواز ويحرضون الناس على مخالفته وعدم تعقيب معاملاته، ويشيرون إلى أن ذلك إنما هو بداية الإستعمار وتقييد الناس وكبت حرياتهم.

وقد نقل لي أحد علماء كربلاء الكبار (رحمة الله) قائلاً: قبل ثمانين سنة تقريباً كان الزوار يأتون إلى مدينة كربلاء المقدسة زرافات زرافات، وجماعات جماعات بحيث يغطون كربلاء المقدسة وما يتجاوز من ثلاثة فراسخ طولاً وعرضاً، فكانوا ينامون في الليالي من القنطرة البيضاء في طريق بغداد إلى الخان الهندي في طريق النجف الأشرف على الأرض وهكذا بالنسبة إلى عرض البلد وإن الغربيين لما سيطروا على البلاد الإسلامية منعوا كل ذلك حتى عادت الزيارات لا تحتوي الآن حتى على عُشر أولئك الزوار مع وضوح أن الزيارة في تلك الأيام كانت بالمشي أو بالدواب وفي الحال الحاضر بالوسائل الحديثة، الميسورة لجميع الناس وكل المشتاقين في عرض البلاد الإسلامية

وطولها، بحيث لو كانت الزيارة حرة لازدلفت إلى كربلاء المقدسة في كل مناسبة من مناسبات الزيارة جمهرة كبيرة من الناس تعدّ بالملايين.

وهكذا يكون بالنسبة إلى الحج وزيارة قبر النبي (صلى الله عليه وآله) وسائر الأئمة الأطهار (عليهم السلام).

الاستعمار والتجمعات الجماهيرية:

هذا وقد نقل لي أحد الثقاة قائلاً: في أوائل احتلال البريطانيين للعراق قال الحاكم البريطاني في بغداد (واسمه: كوكس) لممثله في كربلاء أحص نفوس الزائرين واكتب لي عددهم.

فقال ممثله: هذا ما لا يمكن ولما علم الحاكم صدق الممثل، وأن كثرة الزائرين بدرجة لا يمكن إحصاؤهم وعدهم.

قال: لا بد وأن نعمل عملاً نقيد كل هؤلاء بالقيود ونضع أمامهم العراقيل حتى نتمكن من الوقوف أمامهم وصدهم عن مثل هذا التجمع الجماهيري الكبير، الذي في وسعه القيام بكل مهمة وتنفيذ أي أمر عصيب حتى ولو كان رفض السلطة والإحتلال، وبعد تطبيق قانون الجنسية والحدود الجغرافية وما إلى ذلك تمكنوا مما أرادوا، وعلى أي حال فهذه القوانين هي التي مزقت المسلمين شر ممزق وأنزلتهم دار الهوان، فكل من يتعلل في رفضها ويسعى في تطبيقها على المسلمين، تحت أي عنوان وبأي اسم كان فهو مدسوس في صفوف المسلمين وإن تزيا بزي المصلحين وهتف بالموت للإستعمار وعملائه الخائنين، ونادى بسبّ الدخلاء والمدسوسين.

وما علينا بعد أن علمنا أن هذه القوانين هي مفتاح الشر والويلات في بلاد الإسلام، إلا أن نحاربها حرباً شعواء بكل إمكاناتنا، ونرفضها رفضاً تاماً في كل شؤوننا، لأن قبولها والعمل بها من أشد المحرمات، إذ هي التي أذهبت بدين المسلمين ودنياهم وجعلتهم عبيداً أذلاء بعد ما كانوا سادة أعزاء، وقد ذكرنا في كتاب (المرض والعلاج) أن مرض المسلمين هي القوانين المصطنعة وعلاجهم هو التخلص منها وليس القصد قوانين الحدود والجنسيات والهويات وما أشبه فقط بل كل القوانين الكابتة ونحوها سواء كانت كبتاً للزراعة أو التجارة أو الصناعة أو السفر أو الإقامة أو العمارة أو الثقافة أو القوانين التي أوجبت تمزيق وحدة المسلمين أو أحدثت الحدود بينهم أو زرعت الفرقة والعداء فيما بينهم كي لا يكونوا أخوة كما أمر القرآن الحكيم أو غير ذلك.

الحكام وخرق القانون

إن الغرض من قوانين الحكم الموضوعة في بلاد الإسلام (في قبال قوانين الإسلام المستنبطة من الكتاب والسنة) هو الحيلولة دون زوال الحكام أو زوال امتيازاتهم أو امتيازات ذويهم، وبعد ذلك فكل الشرائع والأعراف في منطق هؤلاء الحكام إلى الجحيم، وقد قال لي الحاكم الأعلى في دولة عربية ما نصه: (أني لا أتقيد بقوانين مجلس الأمة) وكان كما ذكر ولهذا ابتليت تلك البلاد بهزات عنيفة. وقال حاكم آخر سمعته عبر وسائل الإعلام يقول: (القانون لا يقيدني) فلماذا تضعون القوانين أيها الحكام؟ وهذا لسان حالهم جميعاً بلا استثناء ويدل على ذلك سلوكهم اليومي وتأخر البلاد أكثر فأكثر.

١ . سورة التوبة: الآية ١٠٥.

٢ . انظر نهج البلاغة: قصار الحكم ٥٢٦.

٣ . الغارات: ص٧٩.

٤ . سورة الشورى: الآية ١٦.

٥ . سورة السجدة: الآيتان ٢٨-٢٩.

٦ . سورة الأعراف: الآية ٨٥.

٧ . انظر وسائل الشيعة: ج١٨، ص٧، الباب٣.

٨ . بحار الأنوار: ج٤٠، ص٢٣٥. وكنز العرفان: ج١، ص١٦٦.

٩ . هذا مضمون حديث استبصار المخالف (منه دام ظله).

١٠ . الخصال: باب التسعة ح٩.

١١ . مستدرك الوسائل: ج٣، ص٢١٩، الباب٢١ ح٤.

١٢ . بحار الأنوار: ج،٦٩ ص٣٠.

١٣ . مستدرك الوسائل: ج١٥، ص٤٠٧، الباب١١ من كتاب الايلاء ح١ و٣.

١٤ . سورة البقرة: الآية ٢٢٩.

١٥ . سورة المجادلة: الآية ١١.

١٦ . سورة البقرة: الآية ٢٨٠.

١٧ . بحار الأنوار: ج٢ ص٣٧٣ ح٧.

١٨ . وسائل الشيعة: ج١٨ الباب ١١ ح٩ ص١٠١,٨

١٩ . مستدرك ج٣ كتاب إحياء الموات ص١٤٩.

٢٠ . هو الوزغ، انظر حياة الحيوان.

٢١ . سورة الحج: الآية ٢٥.

٢٢ . سورة المائدة: الآية ٢.

٢٣ . مفاتيح الجنان المعرّب ص١٧٩.

٢٤ . سورة الحج: الآية ٢٨.

٢٥ . سورة الأعراف: الآية ١٥٧.

٢٦ . غرر الحكم ص١١٣ الرقم ٢٤٠٧.

القانون الإسلامي وحقوق الإنسان

القانون الإسلامي وحقوق الإنسان

لو قارنّا بين الممارسات القمعية، والجاهلية الجديدة إلى سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله) من الشفقة والرحمة حتى بالنسبة إلى أعدائه لوجدنا بعد المسلمين عن سيرته في الحكم والتي نقتطف منها:

١ – بالنسبة إلى الذين أرادوا قتله في العقبة حيث عفا عنهم.

٢ – وبالنسبة إلى المرأة اليهودية التي سقته السم مما انجر إلى استشهاده (صلى الله عليه وآله) في آخر الأمر حيث عفا عنها(١).

٣ – وبالنسبة إلى الأطفال الذين كانوا يأتون بهم إليه (صلى الله عليه وآله) ليدعو لهم أو يؤذن في آذانهم فإذا بالوا في حجره وأراد ذووهم تأديبهم كان (صلى الله عليه وآله) يقول: لا تزرموه فإني أغسل ثوبي ويذهب أثر ذلك عنه.

٤ – وبالنسبة إلى الطفل الذي بكى في صلاة جماعته فخفف صلاته وقال لمن اعترض عليه (لماذا خففت صلاتك يا رسول الله؟) ألا سمعتم صراخ الطفل(٢).

٥ – وبالنسبة إلى (سوادة) حيث أراد الاقتصاص من الرسول (صلى الله عليه وآله) لأنه زعم إن عصى الرسول المسماة (بالممشوق) لاحت بطنه فأحضر الرسول (صلى الله عليه وآله) العصى وهو على المنبر في المسجد أمام الملأ من أصحابه وهو إذ ذاك مريض ورفع ثوبه عن بطنه وأمر سوادة أن يقتص منه(٣).

٦ – وبالنسبة إلى الذين اتهموا زوجته بالفاحشة ووردت بذلك آيات من القرآن الحكيم تعلن براءتها(٤).

٧ – وبالنسبة إلى صفية حيث رآها محمرة العين من البكاء بعد فتح خيبر وقالت أن بلال مر بها على مصارع قتلاها من اليهود فقال الرسول (صلى الله عليه وآله) معترضاً على بلال: هل نزع الله الرحمة من قلبك يا بلال(٥)؟.

٨ – وبالنسبة إلى العبدين المشركين اللذين كان المسلمون يضربونهما ليأخذوا اعترافهما بالنسبة إلى جهة حربية فزجرهم الرسول (صلى الله عليه وآله) ونهاهم عن ضربهما.

٩ – وبالنسبة إلى أنه (صلى الله عليه وآله) لم يتمكن من النوم في الليل بعد انتهاء حرب بدر لأنه سمع أنين بعض الأسرى الذين شد بعض المسلمين الحبل على أيديهم.

١٠ – وبالنسبة إلى حاطب حيث تجسس ضد المسلمين لكفار مكة بما لو حقق تجسسه أثره لسبب مقتلة عظيمة وبطل محتوى ما أراده الرسول (صلى الله عليه وآله) من فتح مكة سلمياً، إلى غيرها من القصص الكثيرة التي تزخر بها سيرته العطرة(٦).

لا تعذيب ولا اغتيال

أما حكاية تعذيبه (صلى الله عليه وآله) بعضاً واغتياله بعضاً فلا أدل على كذب القصتين من أنهما ترتبطان باليهود الذين خلقوا هذين الإفكين ليحطوا من كرامة الرسول (صلى الله عليه وآله) كما هي عادتهم من قديم الزمان وإلى اليوم كما أن حديث أمره (صلى الله عليه وآله) بقتل جماعة كبيرة من يهود بني النضير أيضاً هي من اختلاق اليهود ويؤيد ذلك بالإضافة إلى عدم صحة السند حتى في رواية واحدة من تلك الروايات كما يظهر لمن راجعها وهل يمكن الحكم برواية غير نقية السند وقال (سبحانه): (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا)(٧) فبالإضافة إلى بداهة القول بأن الرواية غير صحيحة السند لا تقبل، وبالإضافة إلى أن أمثال ذلك خلاف سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله) من بدء بعثته إلى يوم استشهاده طيلة ثلاث وعشرين سنة، اختلاف روايات قتلى بني النضير اختلافاً كبيراً مما يوجب العلم باختلافها لمن راجعها ولذا لا تجد مثل هذا الاختلاف في سائر حروبه ومغازيه وسائر سيرته مع المؤمنين والمنافقين والكفار نعم إن اليهود يفترون الكذب ثم يرمون به البريء وقد قال سبحانه (ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً، ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً)(٨).

الافتراء على الرسول (ص)

وكان اليهود كثيراً ما يفترون الكذب والإثم ليجلبوا به النفع لأنفسهم مثل قصة تزويرهم ورقة عن لسان الرسول (صلى الله عليه وآله) بأنه رفع عنهم الجزية وعرضوا تلك الورقة على بعض الخلفاء ولما بحث الخليفة عن الحقيقة ظهر أن الورقة من اختلاقهم بدليل أن الشاهدين اللذين كتبا شهادتهما في تلك الورقة كان أحدهما ميتاً قبل تاريخ كتابة تلك الورقة المزعومة، وثانيهما لم يسلم عند تاريخ تلك الورقة. نعم إنهم يحرّفون الكلم عن مواضعه وكانوا يقتلون الأنبياء حتى أن نبيهم موسى (عليه السلام) لم يسلم من أذاهم حيث قال لهم: (يا قوم لم تؤذونني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم)(٩) وهذا فصل طويل أردنا الإلماع إلى جانب منه وإنما تفصيله يحتاج إلى مجلد مستقل والله المستعان.

شبهات وأوهام

وفي الخاتمة لا بأس بالإشارة إلى أن كثيراً ما يستشكل على الإسلام مقارناً بالقانون السائد في الغرب بأمور فمثلاً يقولون:

لا يمكن للإسلام النهوض أمام الغرب بحيث يستهوي الأفئدة ويستقطب الناس، بعد التفافهم حول الأسلوب الغربي في الحياة واقتناعهم به، وشحن أذهان كثير من المثقفين من المسلمين بذلك، ولذا لا يريدون حياة إسلامية جديدة بل يرفضونها، بالإضافة إلى أنهم يخشون من أن إعادة الإسلام إلى الحياة تعيد مآسي الأمويين والعباسيين والعثمانيين ومن إليهم، فقوة الغرب من الخارج وضعف إرادة كثير من المسلمين في إعادة الحياة الإسلامية من الداخل أوجبا عدم نهوض المسلمين، ونحن في هذا الفصل نلمع إلى الجواب عن هذه الأمور والتفصيل يطلب من مظانه: من الكتب المفصلات، المتعرضة للإجابة عن الشبهات التي أثارها البعض، أو اختلجت في أذهان بعض حول الإسلام علمياً أو عقيدياً أو تطبيقياً.

حول القانون

الأمر الأول: إن القانون في الغرب بيد الناس وهم يسيرونه إلى حيث يرون مصالحهم وهذا أقرب إلى طبيعة البشر من كون القانون بيد غيره يقننه كيف يشاء ثم يجبره على تطبيق هذا القانون الذي لم يضعه هو بنفسه بل كثيراً ما يرى الإنسان ذلك القانون مخالفاً لمصالحه، فالفارق بينهما هو الفارق بين من يقود السيارة وبين من يركب السيارة حيث يذهب به السائق إلى حيث يريد وإن كان الراكب لا يعلم المصير والمسير أو يرى أن السائق يخالف في سيره مقصد الراكب وإرادته.

هذا بالإضافة إلى أن القانون إذا كان بيد الناس يطبقونه حسب مقتضيات كل زمان ومكان أما إذا كان القانون خارجاً عن إرادتهم فهو يطابق زماناً دون زمان ومكاناً دون مكان والإنسان مجبور في مسايرته وتطبيقه على نفسه بما يخالف زمانه ومكانه. والجواب:

قانون المعاملات

إن قوانين الحياة أما معاملات أو عبادات: أما قوانين المعاملات في الإسلام، فكلها عرفية دارجة بين العقلاء من الناس، ولذا قال الفقهاء: (إن الأحكام الشرعية في باب المعاملات إمضائيات) ولا فرق بين قانون الغرب أو قانون الإسلام من هذه الجهة بل يفضل قانون الإسلام على قانون الغرب بأن تقييدات القانون الإسلامي بكثير، وبإلقاء نظرة سريعة إلى باب المعاملات في الفقه الإسلامي ومنها إلى باب المعاملات في القانون الغربي يعلم الفرق الشاسع بينهما حيث كثرة القوانين الكابتة في الثاني دون الأول الذي وضعت قوانينه حسب الحكمة والصلاح.

هذا بالإضافة إلى أن القانون الغربي في المعاملات صيغ على النحو الرأسمالي أو الشيوعي وكلاهما يحد من حريات البشر ويوجب أن لا يكون سعي الإنسان لنفسه، بينما صياغة القانون في الإسلام على نحو يجعل سعي الإنسان كله لنفسه، بدون رأسمالية توجب ذهاب الأرباح إلى كيس قلة مختارة، ولا شيوعية توجب ذهاب الأرباح إلى كيس الدولة، ومن الواضح أن العقل والمنطق وطبيعة الإنسان الفطرية تميل إلى هذا القانون أكثر من ذلك القانون.

قانون العبادات

وأما قوانين العبادات في الإسلام فكلها عقلانية يستسيغها العقل الإنساني إذ هي أمور توجب صفاء النفس وصقل الروح وتقوية الاجتماع وقد ذكرنا في بعض كتبنا الأخلاقية بأن العبادات كلها أخلاقيات.

فالصلاة: وهي من عبادات الإسلام وعبادات سائر الأديان السابقة تهذيب وترغيب إلى الفضيلة وتطهير وتهجير عن الرذيلة، تفتتح بالتكبير لله المنعم وهو فضيلة وتختتم بالسلام على البشر والملائكة وهو فضيلة، وما بينهما تذكير بنعم الخالق رب العالمين الرحمان الرحيم الذي بيده الحكم والجزاء (مالك يوم الدين) وتنزيه للرب العظيم الأعلى عن كل ما لا يليق به.

وطبيعي أن من يعلم هذا ويتوجه إليه ويكرر اللقاء به في كل يوم خمس مرات، في ممساه ومصبحه ووسط من النهار وطرفه، تصفو نفسه من القذارات وتخلص من الكدورات، وبذلك يستقيم مسلكه ويبتعد عن الرذائل

والآثام ولذا ورد في القرآن الكريم: (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر)(١٠) وقد مثلها النبي (صلى الله عليه وآله) بالنهر الجاري الذي يغتسل فيه الإنسان كل يوم خمس مرات، حيث لا يبقى فيه درن ولا قذارة بل طهارة ونظافة(١١)، وتعديل سلوك وعرفان حقائق، وإلى جنب ذلك كله دروس إجتماعية، وإحساس بالوحدة الإنسانية الكبرى. (إياك نعبد)(١٢) لا نعبد غيرك (وإياك نستعين)(١٣) لا نستعين بسواك فالمصلي يرى نفسه واحداً من البشر يطلب لهم الخير من الرب العظيم، ويتحسس لهم بالوحدة الإنسانية الكبرى في إجتماع يضم الشريف والوضيع والغني والفقير والعالم والجاهل في الجمعة والجماعة والسفر والحضر، وهذا التحسس نواة للتآلف والتراحم والتعاطف والتبادل وكلها فضائل بشرية وأخلاق سامية وهل الأخلاق الرفيعة إلا هذه.

والصوم: قربة وتطهير، قربة إلى الله وزلفى لديه، وتطهير من الذنوب والمعاصي، إنه خاص به، وإلا فما يمنع الشخص من الأكل والشرب في مكان ليس فيه غيره حيث لا يراه أحد ولا يعلم به أحد، وبذلك يتولد الشعور بالمسؤولية أمام المالك العظيم ثم ينمو هذا الشعور الإنساني حتى يسيطر على جهاز الجسم كله وبه يبتعد الإنسان عن الرذيلة ويقترب من الفضيلة، وفي الحديث القدسي: (الصوم لي)(١٤).

والصوم: جهاد مع النفس ورياضة للروح، بها تتقوى على تحمل المكاره، والصبر عند الشدائد، أليس يمتنع الإنسان عن الأكل والشرب وهو يشتهيهما ويرتدع عن الملامسة ونفسه تتوق إليها؟

إن الصائم يشعر بالجوع والعطش، فتطهر روحه وتسمو نفسه ويقترب بفكره مع الفقراء والمعدمين فيحس ألَمهم ويدرك ما يدركون، فيرق لهم ويعطف عليهم.

ثم شهر رمضان: اجتماع في الليالي للعبادة، وتفرق في النهار للمعاش، كله جد وعمل، دنيا وآخرة، تبادل حب ووداد، واجتماع فوق صعيد الطهارة، وتحليق في أجواء الروح، أليست هذه من الفضيلة؟

ويلمح إلى هذا تعقيب الآية بقوله سبحانه: (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)(١٥) تقوى وابتعاد من الرذيلة، وتقرب ودنو إلى الفضيلة.

والحج: مؤتمر بني الإنسان من كل الأقطار والأمصار، ومن مختلف الألوان واللغات، بلا فارق بين عرب ولا عجم ولا شرق ولا غرب ولا لسان ولا لون، قال سبحانه (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس)(١٦) فهو كالعمود الفقري الذي يحفظ الإنسان عن التضعضع والتفكك (وهو امتناع عن الملذات، وتطهير عن الذنوب وتذكير بيوم العرض الأكبر).

هنا مثال الخير والفضيلة في (الكعبة) الكريمة، أمرنا بالطواف بها تذكيراً إلى أنا نطوف حول الفضيلة والخير، كما نطوف بأجسامنا حول بيت الله الذي هو حق وعدل وخير:

وهناك مثال الشر والرذيلة (الجمار) أمثلة الشيطان الرجيم، أمرنا برميها إشارة إلى أنا نرمي الشر ونقذف به إلى جانب، فلسنا من الشر والرذيلة في شيء وليست الرذيلة والشر منا بمكان.

والناس يجتمعون في صعيد واحد، كلهم محرم ومجتنب عن لوازم الجسم والبدن، وكلهم بلبس واحد وفي مكان واحد (عرفات) و (مزدلفة) و (منى) وكلهم أمام رب واحد، فهل تعقل فضيلة أحسن من هذه؟

إلى غير ذلك من خصوصيات العبادات التي ذكرناها في كتاب (الأخلاق الإسلامية) وكتاب (عبادات الإسلام) وذكرها غير واحد من العلماء في كتبهم المعروفة.

حول الحريات

الأمر الثاني: إن الغرب وفر للناس الحريات حتى حريات الجنس بخلاف الإسلام الذي وقف أمام الحريات خصوصاً حريات الجنس ومن الطبيعي أن يميل الإنسان إلى الحرية دون الكبت، فالتبليغ للإسلام في العالم الذي ذاق طعم الحريات، هو تبليغ للكبت والحرمان، ولا أحد يترك الحرية والانطلاق إلى الأسر والتقييد.

بين الحريتين

والجواب: أن حريات الحياة أما صادقة وأما كاذبة، والإسلام قد أقر الصادقة منها دون الكاذبة، بينما الغرب عكس الأمر، فأقر بالكاذبة منها دون الصادقة، فقد جعل مكان الحرية اللاحرية ومكان اللاحرية الحرية وكلاهما خلاف رغبة الإنسان وميوله.

أما جعل اللاحرية مكان الحرية فلأن الإسلام جعل كل إنسان حراً في كل شؤون الحياة – ما عدا الحريات الضارة بالفرد أو المجتمع – بينما جعل الغرب مكانها ألف قيد وقيد، كما ذكرنا في كتاب (الصياغة) وكتاب (نريدها حكومة إسلامية) وغيرهما.

وأما جعل لحرية مكان اللاحرية فلأن الحرية الوحيدة التي قررها الغرب هي حرية الفساد، كقضايا الجنس والفحشاء، والخمر والقمار، وإعطاء الحرية بهذه الأمور تساوي إعطاء الحرية للسرقة والقتل والهرج والمرج.

ولذا نرى أن عقلاء الغرب ينادون بلزوم إسقاط هذه الحرية ويحذّرون من مغبّة أمرها ويرون أنها لو دامت لأودت بهم وبحضارتهم عن قريب، وعلى هذا فالحريات في الإسلام هي حريات الصادقة وهي أقرب إلى طبع الناس من حريات الغرب.

حول المرأة

الأمر الثالث: جعل الغرب التساوي بين الرجل والمرأة في كل الشؤون بخلاف الإسلام الذي جعل نصف الحياة – المتمثلة بالمرأة – شللاً لعدم منحها حقها كاملة.

والجواب: إن التساوي في الحقوق بين الرجل والمرأة مع اختلافها في الخلقة مع الرجل، جعل قسماً من التساوي في صالحها، وقسماً بضررها، والإسلام قد ساواها مع الرجل فيما يكون في صالحها، ولم يساوها فيما يكون بضررها، فهو في الواقع قد أعطاها الكثير، ومنعها القليل، بينما الغرب أعطى الأقل للمرأة وأخذ منها الأكثر، فقد أخذ منها الكرامة والعزة وسلبها الكفاف والعفاف، وجعلها تتسكع على أبواب الرجال لعلها تجد الدفء والحنان، فسلبها السعادة والهناء، ومنحها بعض التوافه والهامشيات وعلى أثرها تشتت الأسر، وكثر الطلاق وتفسخت الحياة الزوجية الكريمة، وأصبحت باردة بلا روح، فالتجأت المرأة بل والرجل أيضاً إلى إشباع عواطفهم خارج إطار البيت والأسرة، والحياة الزوجية، فشاع الفساد، وكثرت العوانس والأرامل، ونساء الدعاية، والأولاد غير الشرعيين الذين عادوا على المجتمع بالشر والفساد.

إنه من غير شك أن المرأة قد نالت بعض الحريات في الغرب لكن حريتها هذه عادت عليها بالضرر فحريتها أشبه بالحرية التي تمنح للأطفال في ذهابهم إلى المدرسة وعدم ذهابهم، فإنها حرية لا شك فيها، لكن الكلام في أن أيهما أفضل إلزامهم في الذهاب إلى المدرسة أفضل لهم ولمجتمعهم، أم حريتهم والسماح لهم بعدم الذهاب إلى المدرسة خير لهم ولمجتمعهم.

وكذلك بالنسبة إلى العامل والعمل، فهل إعطاء الحرية للعامل في أن يترك العمل ليبقى متسكعاً على أبواب البيوت وتبقى عائلته جائعة، أم عدم إعطاء الحرية له في ذلك؟

ومن يرى نظام الغرب وظواهره الخلابة ينخدع به ظاناً أن حرية المرأة أيضاً من تلك الظواهر المعجبة، بينما إعطاء حرية الجنس والفوضى للمرأة من نقاط ضعف الغرب لا من نقاط قوته، ولو لم تكن للمرأة حرية الفوضى لكان وضع الغرب أحسن مما هو عليه اليوم بكثير.

إن مثل من يمدح ذلك الضعف القاتل، مثل الذي كانوا يمدحون السلاطين حتى في أخطائهم، بينما الخطأ خطأ، صدر من الكبير أو الصغير، بل الخطأ من الكبير أكبر ولذا قالوا: (زلة العالِم زلة العالَم)(١٧) ونرى أن (سعدى) الشاعر الحكيم يقول: (كل عيب استحسنه السلطان فهو فن).

إن الاغترار بالجانب الحسن من مجتمع ما لتحسين كل ما يأتي من ذلك المجتمع، خلاف موازين العقل والمنطق، لكن حيث لم يكن لنا بلاد يطبّق فيها الإسلام بما يستلزمه من التقدم العلمي والتقني، والثقافة والاقتصاد والنظافة والنظام، والتكافل الاجتماعي وما إلى ذلك من المحسنات، ولم يكن لنا مجال لأن نمنح المرأة حقها الطبيعي الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط، ثم نقايس بين بلدنا هذا الإسلامي وبين الغرب، ليرى العقلاء بوضوح أفضلية الإسلام من غيره – لم نتمكن من أولئك البعض الذي انبهر بمباهج الغرب المغرية، وأصبح من أنصار حرية المرأة على النحو الغربي، أن نقنعه بأن نظام الإسلام وحقوق المرأة فيه، خير من النظام الغربي وكل ما فيه، إذ الناس عادة لا يؤمنون إلا بشيء ملموس لهم، يرونه بأعينهم، ويحسونه بحواسهم، كما قال سبحانه: (بل يريد الإنسان ليفجر أمامه)(١٨) ولكن يكفيهم المقايسة بين النظامين بمراجعة التاريخ الصحيح، والمصادر الأصيلة للفريقين، ثم ترك الحكم للوجدان السليم، فإنه يقضي لا محالة للإسلام دون الغرب.

حول العقوبات

الرابع: وجود العقوبات القاسية في الإسلام وليس كذلك في الغرب.

والجواب:

أولاً: إن الإسلام وازن بين سلامة المجتمع وطهارته وبين جعل العقوبات الصارمة وقطع مادة الفساد، فرجّح الأولى لأهميتها دون الثانية، لذلك فتح مجال الحريات الصادقة أمام الجميع وتكفل شؤونهم الحيوية، وأوليات ما يحتاجون إليه، ولم يسد في وجوههم إلا ما فيه فساد الفرد والمجتمع، وهي قليلة جداً – كما أشرنا إليها – ولم يُقدِم عليها إلا من فيه الشذوذ، وعليه فالعقوبات المفروضة في الإسلام كالصفر أمام الحريات الإسلامية وهي من باب اللابديّة

والأهم والمهم، بينما الغرب فرض عقوبات أكثر من عقوبات الإسلام (كَمّاً) إذا القوانين الكابتة للحريات الموضوعة في الغرب أضعاف أضعاف القوانين الإسلامية، ولذا ترى في مقابل كل مائة مجرم في الغرب مجرماً واحداً في الإسلام، كما ألمعنا إلى ذلك في كتاب الصياغة.

أما (الكيف) فالعقوبة الصارمة لا تكون في الإسلام إلا بشروط كثيرة، ما معناه أن العقوبة نادرة وبمنزلة المعدوم، وتلك العقوبة النادرة لا بد منها إذا أردنا سلامة المجتمع كما أن العقلاء كافة مطبقون على عقوبة المجرم بالسجن إذا أريد الحفاظ على سلامة المجتمع.

وإليك من باب المثال شروط قطع يد السارق حتى تعرف كم يكون القطع نادراً؟

وأنه يكاد يلحق بالمعدوم، وإذا توفرت هذه الشروط كان العقلاء يرون لزوم القطع لأنه يطهر المجتمع عن الخوف والقلق فيكون القطع من باب تقديم (الأهم) عقلاً على (المهم) الذي هو الإكتفاء بالسجن أو الغرامة أو ما أشبه، وحيث نذكر هنا شروط قطع يد السارق يعرف منها – في الجملة – شروط سائر العقوبات التي قد يقال أنها قاسية.

شروط حد السارق

أما شروط قطع يد السارق فهي على أقسام بالنسبة إلى (السارق)، وبالنسبة إلى (المسروق منه)، وبالنسبة إلى (السرقة)، وبالنسبة إلى (الحاكم)، وبالنسبة إلى (الشاهد)، وبالنسبة إلى (الجوّ)، وبالنسبة إلى (محل السرقة)، وحيث لا نريد التفصيل نلمع إلى الشروط إلماعاً فاللازم عدة أمور:

١ – أن لا يكون السارق طفلاً.

٢ – ولا مجنوناً.

٣ – ولا سفيهاً أعمالياً.

٤ – ولا مكرهاً إكراهاً فردياً.

٥ – ولا مكرهاً إكراهاً أجوائياً.

٦ – ولا مضطراً.

٧ – ولا سكراناً.

٨ – ولا غافلاً.

٩ – ولا ناسياً.

١٠ – ولا جاهلاً بالحكم بأن لا يعلم أنه حرام.

١١ – ولا بالموضوع بأن لا يعلم أنه سرقة، بل شك في كونه سرقة أو ظن أنه ليس بسرقة.

١٢ – ولا يكون السارق شريكاً للمسروق منه.

١٣ – ولا أباً.

١٤ – ولا كافراً لا يرى هذا الحكم حيث يحكّم في حقه قانون الإلزام: (ألزموهم بما التزموا به)(١٩).

١٥ – ولا أن يكون قد أخذ المال من باب التقاص والمقابلة بالمثل.

١٦ – ولا أن تكون هناك شبهة أو إدعاء الإكراه ونحوه.

١٧ – ويجب أن تكون السرقة سراً لا جهراً.

١٨ – وأن تكون السرقة بالمباشرة لا أن تكون بالواسطة.

١٩ – وأن لا يكون المسروق منه مباح المال كالكافر الحربي.

٢٠ – وأن يكون المال بمقدار النصاب المعين في الإسلام، فما فوق فإذا كان أقل من ذلك المقدار فلا يجري القطع.

٢١ – وأن يكون في الحرز.

٢٢ – وأن يكون الذي يجري حد القطع هو الحاكم الشرعي.

٢٣ – وأن يكون هناك شاهدان عادلان، أو إقراران من نفس السارق.

٢٤ – وأن يكون الجو إسلامياً وإلا فلا يجري الحد في جو غير إسلامي على ما ألمحنا إليه فيما سبق.

٢٥ – وأن لا يكون عام جوع ومخمصة.

٢٦ – وأن لا تكون الأرض التي سرق فيها أرض العدو فإنه لا يجري الحد في أرض العدو.

٢٧ – وأن لا يلتجأ السارق إلى الحرم، وإلا فلا يحد في الحرم.

٢٨ – وأن لا يكون هناك عفو من الحاكم.

٢٩ – وأن لا يظهر السارق لمال المسلمين، الإسلام بعد السرقة – لا فراراً وإنما اقتناعاً بالإسلام – فإن الإسلام يجبُّ عما قبله.

٣٠ – وأن لا يتوب قبل الوصول إلى الحاكم لأنه إذا تاب فلا حد عليه.

٣١ – وأن لا يوجب القطع السراية أو الموت، وإلا فلا يقطع.

٣٢ – وأن يخرج المال عن الحرز ويستصحبه معه لا ما إذا أكله مثلاً في نفس المكان.

٣٣ – وأن لا يكون مؤتمناً كالأجير، وإلا فلا قطع.

٣٤ – كما لا يقطع الراهن.

٣٥ – ولا المؤجر.

٣٦ – وأن لا يكون المقرّ له المسروق منه منكراً، كما إذا قال السارق: سرقت من زيد. وقال زيد: لم يسرق مني شيئاً.

٣٧ – وأن لا ينكر السارق سرقته بعد الإقرار، فإن جماعة من الفقهاء ذكروا أنه لو أنكر لا يقطع.

٣٨ و٣٩ – وأن يكون كل واحد من السارق والمسروق منه، يرى ملكية المسروق، أما إذا سرق الكافر الخمر مثلاً من المسلم أو سرق المسلم الخمر من الكافر فلا يقطع.

٤٠ – وأن لا تكون السرقة الثالثة أو الرابعة حيث لا قطع حينئذ.

٤١ – وأن يكون للسارق اليد فإذا لم تكن له يد فلا قطع.

٤٢ – وأن لا يعفو صاحب الحق المسروق منه عن السارق قبل الوصول إلى الأمام، وإلا فلا قطع.

٤٣ – وأن لا يسيء الحدّ سمعة الإسلام حيث يجري الحاكم قانون الأهم والمهم فيبدل القطع إلى الغرامة والسجن أو نحوهما، فهذه أكثر من أربعين شرطاً يجب توفرها جميعاً حتى يمكن إجراء الحد وقطع يد السارق، وكم تجعل هذه القيود والشروط الحد قليلاً، بل ومعدوماً، فإنه من المعروف: (الشيء كلما زاد قيوده قل وجوده).

وننقل بهذه المناسبة مقالاً عن (الاعتصام) المصرية الصادرة في ذي القعدة عام ألف وأربعمائة وسبعة:

(جلست اللصة التائبة أمام رجال المباحث تبكي وتعترف قائلة: السجن لن يشفيني من داء السرقة أرجوكم اقطعوا يدي حتى لا أسرق مرة أخرى.

وتعترف وهي في عمر لا يزيد على ثلاثين سنة، وهي زوجة لزوج كفوء وربة بيت وأم لأربعة أطفال، وزوجها من أثرياء مدينة الإسكندرية ولا يبخل عليها بشيء، مسكنها يحتوي على كل ما تصبوا إليه المرأة.

ورغم ذلك كله يقول ملفها في مباحث الإسكندرية: إنها سرقت إثنتي عشرة شقة عام ألف وتسعمائة واثنتين وثمانين ميلادية، ودخلت على أثرها السجن ثم خرجت منه بعد قضاء فترة العقوبة، لكنها عادت للسرقة مرة أخرى، وكانت تحرّيات المقدم طارق زمزم بإشراف العقيد عبد المجيد سليم قد كشفت عن اللصة وراء سرقة عدد من الشقق بأسلوب المفتاح المصطنع، وعندما تمكن النقيبان عادل كيلة وخالد النبراوي من القبض عليها جلست تعترف ببساطة، أمام العميدين محمد القمحاوي ومحمود ياسين.

وتقول: إني بعد ما خرجت من السجن أقسمت أن لا أسرق أبداً ولكن اتفق ذات مرة أن فقدت مفتاح شقتي فقمت بتجربة بعض المفاتيح ففتح أحدها الباب، ووجدت شيطاني يوسوسني: إذاً من الممكن أن تفتحي أي شقة بمفتاح غير مفتاحها الأصلي، وكانت الإجابة العملية عندما ذهبت لزيارة إحدى قريباتي، وقفت أمام باب إحدى الشقق وضغطت الجرس فلم يرد جوابي أحد، وبسرعة أخذت أجرب المفاتيح حتى فتح الباب أحدها، وشعرت بلذة غريبة وأنا أتسلل إلى الشقة وبعدها كنت أكرر التجربة حتى نجح رجال المباحث في القبض عليّ) وإلى آخر ما ذكرته المجلة.

١ . بحار الأنوار: ج٦٨ الباب ٩٣ ح٩ ص٤٠٢.

٢ . مستدرك الوسائل: ج١ الباب ٥٣ من أبواب صلاة الجماعة ح٥٤.

٣ . المناقب: ج١، ص٢٣٥.

٤ . انظر تفسير القمي: ج٢، ص٩٩. والبداية والنهاية: ج٤، ص١٦١.

٥ . البداية والنهاية: ج٤، ص١٩٨.

٦ . البداية والنهاية: ج٤، ص٢٨٢.

٧ . سورة الحجرات: الآية ٦.

٨ . سورة النساء: الآية ١١١-١١٢.

٩ . سورة الصف: الآية ٥.

١٠ . سورة العنكبوت: الآية ٤٥.

١١ . وسائل الشيعة: ج٢ الباب ٢ ص٦ ح٣.

١٢ . سورة الفاتحة: الآية ٥.

١٣ . سورة الفاتحة: الآية ٥.

١٤ . الكافي: ج٤، ص٦٣ ح٦.

١٥ . سورة البقرة: الآية ١٨٣.

١٦ . سورة المائدة: الآية ٩٧.

١٧ . انظر غرر الحكم الرقم ٥٥٥٢ و ٥٥٥٤.

١٨ . سورة القيامة: الآية ٥.

١٩ . وسائل الشيعة: ج٧، ص٥٩٨، الباب٣ من أبواب ميراث المجوس، ح٣.

خطوات في سبيل التغيير

تقليل القوانين والموظفين

ومن هنا نشير إلى أنه يلزم على ممارسي التغيير أن يهتموا بتقليل القوانين وتقليل الموظفين مهما أمكن، فإن كل قانون وكل موظف يكبت من حريات الناس بقدر ما، فاللازم ملاحظة القدر الضروري منهما، والضروري منهما شيء قليل جداً. أما أن يجلس جماعة في مجلس – تحت أي شعار واسم كان – سواء باسم مجلس الأمة أو مجلس الأعيان أو مجلس الوزراء أو مجلس قيادة الثورة أو ما أشبه ذلك، ويقنّنون القوانين الكابتة فإن ذلك لا يعود إلا بالشر على الدولة والأمة معاً، فإن كثرة القوانين توجب سقوط احترام الدولة عند الناس، لأن ذلك يسبب خرق الناس للقوانين وعدم إطاعتهم لها، وإذا تعلم الناس خرق القانون لم يعودوا يفرّقون بين القوانين الواقعية والقوانين الهامشية، فإن كثرة القوانين نوع من أنواع الكبت والضغط وفي المثال المعروف: (الضغط يولد الانفجار) ولذا نرى قلة المحرمات جداً في الإسلام حتى أن المحرمات كلها لا تصل إلى ثمانمائة، فهي دون الألف بكثير بينما المحللات تصل إلى مئات الألوف وتتجاوزها.

إزالة الولاء للقوميات

على الممارسين للتغيير أن يهتموا لإزالة القوميات والإقليميات والوطنيات التي تفرق المسلمين وتبدد شملهم، ومن الواضح أن الغرب والشرق لا يخافان من هذه الأمور الصورية كالقوميات وغيرها، وإنما يخافان من الإسلام وحده، وعدم خوف الكفار من القوميات وما إليها ليس بجديد، وإنما كان من غابر التاريخ وسابق الزمان، فيهود شبه الجزيرة المتواجدون في فدك وخيبر والعوالي والبيان وغيرها وكذلك مجوس اليمن الذين كانوا أتباع إيران، والمسيحيون الذين كانوا متواجدين في شبه الجزيرة في نجران وغير نجران والتي حدثت مع بعضهم قصة المباهلة المذكورة في القرآن الحكيم وغيرهم من الملل والنحل هل كانوا يخافون من القومية أبان ظهور الإسلام أو كانوا يخافون من الإسلام؟ ولو راجعنا قضاياهم مع الإسلام ومع رسول الله (صلى الله عليه وآله) المعروفة والمذكورة في ثلة من آيات القرآن الحكيم ومتواتر التاريخ والروايات، لرأينا أنهم لو كانوا يخافون القومية ويهابونها لم تكن مثلاً بين اليهود وبين قومية مكة المتمثلة في صناديد قريش وسائر العشائر الوثنية معاهدات سياسية وعسكرية، وإنما كانوا يأمنون جانبها ويتعاونون معها ضد الإسلام ويقولون كما قصّ القرآن علينا: (هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً)(١).

إحياء القوميات محاولة استعمارية

ولننقل هنا ثلاثة نماذج من الذين رفعوا لواء القومية في البلاد الإسلامية وهم: أتاتورك في تركيا، والبهلوي الأول في إيران، وعبد الناصر في مصر، حيث كان هؤلاء الثلاثة قادة القومية العربية، والقومية الفارسية، والقومية التركية، نذكرهم هنا بالخصوص كي يقاس عليهم غيرهم من أبطال القوميات الأخرى.

أتاتورك والطورانية التركية

النموذج الأول: كانت تركيا قبل ظهور أتاتورك، وسقوط الإمبراطورية العثمانية بلدة إسلامية مستقلة، يحكمها آل عثمان، وكانوا مع تجبرهم واستبدادهم وظلمهم كما هو معروف في التاريخ وانحرافهم وزيغهم عن الإسلام القويم، يحافظون على الظواهر الإسلامية، ويدافعون عن استقلال بلاد الإسلام ويحمون ثغوره وحدوده ويحرسون وحدته وسيادته، ولم يقدموا يوماً على بيع البلاد والعباد للأجنبي الطامع، ولم يجعلوا المسلمين عبيداً للإستعمار الغاصب، بينما نرى أن أتاتورك لما جاء إلى تركيا هو وجلاوزته أفرغوا نقمتهم ونقمة أسيادهم المستعمرين على الإسلام والمسلمين وشنوا ضدهما حملاتهم القاسية وقذفوهما بالرجعية والتأخر، والخمود والركود، وما أشبه ذلك من التهم الكاذبة. وقد فتح يدي جلاوزته بالإعتقال والمصادرة والسجن والتعذيب، والسوط والسيف والنهب والسلب، والهتك والقتل لشعب تركيا المسلم، كما واعتبر التبعية العمياء للتمدن الغربي، وإشاعة فساد الغرب ومجونه في البلاد، أساساً ومحوراً للحكم في تركيا وقد أظهر كفره وعداءه للإسلام حينما وصف الإسلام بقوله بالنص: (إنه ليس إلا قوانين ونظريات شيخ عربي أمي جاهل)، وتشدق بهذا تبريراً لمحاربة أحكام الإسلام فمنع الحج إلى مكة المكرمة وحاربها بكل الوسائل، وحرّم اللغة العربية والشعائر الدينية، وألغى الأذان والشعائر الدينية، ونشر المخامر والمقامر والملاهي والمفاسد، وحرّم لبس العمامة والجبة والأزياء الإسلامية، وكشف حجاب النساء بالقهر والقوة وفعل ما فعل حتى قال الدكتور الشناوي في كتابه (نحو إسلام سياسي) بهذا الصدد: (حقق أتاتورك استقلالاً ظاهرياً ناجزاً انتهى بالإلحاق والتبعية لنفس الخصم داخل حلف الأطلنطي، ونصر نفس الحلف القبارصة اليونان على القبارصة الأتراك لأن الأتراك مسلمون).

وهكذا كان دأب الحياة وسنة الكون فإن (من أعان ظالماً سلّطه الله عليه)(٢) فأتاتورك يتملق لأسياده، ويتجاسر على الإسلام ونبيه الكريم لإرضائهم، ويمنع الأذان والصلاة والحج والعمامة ليكسب ودّهم، لكن كل هذه لا تكفي في تقليل وتلطيف قهر هؤلاء الحلفاء الأسياد، بل تتعدى بعد دفنه لنصرة القبارصة اليونان رغم عدوانية وكفر أتاتورك ودولته لدرجة منع السلاح عن تركيا بعد غزوها لقبرص مع أنها هي التي تحميهم من روسيا وهذا هو موقف الحكومات العلمانية التي تدعي لنفسها التسامح والبعد عن الأديان كرهاً أو حباً.

وإضعاف هذه المواقف درامية نستطيع تسجيلها لدى الإشتراكية التي تدعي التقدمية والتحرر الفكري ولدى الشيوعية التي تهتف بحياة الطبقات الكادحة وتزعم نصرتها ولا نريد أن نقول: إن الوطنيات والقوميات والعلمانية والاشتراكية كلها تتحالف ذاتياً ضد الإسلام فهذا سنبينه في مكان لاحق.

ولا نريد أن نقول: إن الرجل الأبيض الغني وهو بنسبة التسعين من واحد من المائة مستعمر لبلاد الإسلام ومستغل لثرواتها وخيراتها وباقي النسبة إما وطني أو قومي أو علماني أو اشتراكي لا يهتم بالإسلام بل ربما عمل لإقصائه عن الحكم وإبعاده عن الحياة وكل أنصار الإسلام حالياً هم عند الرجل غير الأبيض وغير الغني ولا نريد أن نقول: إن هذا الأبيض الغني الإستعماري أو العلماني أو الضد رجعي يأكل ويستهلك ثمانين في المائة من خيرات العالم ورفاهه، والخدمات الموجودة فيه ثم يقول للرجل الفقير وبكل صراحة: حدّد مواردك ومصارفك أو انتحر، ويفرض عليه ذلك عملياً عبر قوانين وضعية مصطنعة. ومن الطريف أنه يصف هذا الموقف الظالم

اللاإنساني: بأنه رؤية مستقبلية وتقدمية وأنه يمنع من الانفجار السكاني الذي يهدد العالم فقد اخترع هذا الرجل المتخم أسطورة ضخمة جداً تغطي على الكرة الأرضية حتى لتحجب عنها الشمس وهي أسطورة الانفجار السكاني التي خلت نبؤتها في أي كتاب سماوي أو حديث نبوي وكأن هذا الرجل أصبح هو الإله المسؤول عن الأرض ويخشى انفجار هذه الأرض، الواقع إن ما يخشاه هذا الرجل ليس انفجاراً سكانياً ولكن انفجاراً عقائدياً ضده، بل إنه يتصور تصورات المحموم بأن انفجاراً إسلامياً كبيراً على الأعتاب سيقود هذه الجماهير المضطهدة، وستنتقم منه أشد انتقام فإن (يوم المظلوم على الظالم أشد من يوم الظالم على المظلوم)(٣).

وعلى أي حال فقد عرضت القومية التركية الطورانية التي دعا إليها أتاتورك تركيا إلى الإنزواء والفساد وأثقلتها بالديون والأوزار وألحقتها بالتبعية والتخلف، فهذه قواعد عسكرية أمريكية مزروعة في تلك الأراضي وقد صارت تركيا لا دين لها ولا دنيا بعد أن روجت القومية التركية وإلى الآن وبعد أكثر من نصف قرن تقريباً لا زالت الحريات مكبوتة في تركيا إلا حرية الفساد والفجور، وإلا حرية الصهاينة والمستعمرين.

البهلوي والقومية الفارسية

النموذج الثاني: سيطر البهلوي على إيران، فرفع فيها لواء القومية الفارسية وفصل البلدة المسلمة عن سائر بلاد الإسلام ومنع الحج والزيارة والأذان والجماعة والمنبر والخطابة، والوعظ والإرشاد والتشرف إلى الأعتاب المقدسة والأماكن المشرفة، وأشاع الخمور والفجور وصادر المؤسسات الخيرية والمدارس الدينية، واستملك الأوقاف والأملاك الشخصية، ونهب الخيرات، وسلب الثروات، وقتل عشرات الألوف من العلماء، وحارب الثقافة الدينية ومنعها منعاً باتاً، وطارد رجالها أي مطاردة، وأجبر النساء على التبرج والاختلاط بالرجال وفتح المواخير والمخامر والمقامر وحطم الاقتصاد والصناعة والزراعة، وعمل ليل نهار لربط عجلة البلاد بالغرب وأضمر العداء والحرب لأهالي خوزستان بجرم عربيتهم، وحطم منطقتهم تحطيماً، وأبادها زراعياً وثقافياً بعد أن قتل أميرهم الشيخ خزعل غيلة وغدراً وذلك في قصة مشهورة، طلب فيها زيارته له للقيام – حسب ادعائه – بمفاوضات سلمية ومباحثات سياسية، فاستضافه لذلك رسمياً في طهران وطمأنه بالوفاء والأمان، لكنها لم تكن مفاوضات سلمية ومباحثات سياسية، بل كانت خطة مدروسة، وقضية مدسوسة راح ضحيتها الشيخ خزعل وعشائره العربية في خوزستان حيث اختطفه البهلوي غدراً، وأودعه السجن عدواناً ودس إليه السم في السجن ظلماً فمات على أثره.

تحدث الدكتور المسؤول عن سجن الشيخ خزعل واسمه (الدكتور أحمد) أثناء زيارته لكربلاء المقدسة قبل أكثر من أربعين سنة تقريباً حيث كان يُظهر الندم والتوبة عما ارتكبه من القتل والجريمة في حق المسلمين بأمر من البهلوي قائلاً: – أعطاني البهلوي سماً قاتلاً وأمرني أن أدسه في طعام الشيخ خزعل وبعده أمنعه من شرب الماء لأن شرب الماء يذهب أثر السم، قال: وكان يوماً شديد الحر، والسجن غير مجهز بالمروحة وغيرها وكان في زنزانة انفرادية وكان يصوم تلك الأيام وعند الإفطار قدمت له اللبن المسموم فلما شربه أحس بالسم فطلب مني الماء لكني غيبت نفسي عنه وأشرفت عليه من بعيد أراقب حركاته وسكناته وكيفية موته، فرأيته وهو يضرب نفسه تارة

بجدران السجن من شدة حرارة السم وأخرى يضرب رأسه من كثرة ألمه ويصرخ: العطش، العطش، لكني تركته كذلك حتى مات ملطخاً بدمائه.

كما أن البهلوي ارتكب جريمته الوحشية ضد العلم والثقافة فسفّر العلماء الأبرار الذين لم يتمكن من قتلهم كالسيد حسين القمي وأولاده الكرام أعلام الأمة ومصابيح العلم والفضيلة والشيخ ميرزا صادق التبريزي والسيد الأنكجي وغيرهم وقتل من تمكن من قتله وذلك بلا رادع ولا مانع حتى أن أحد ضباطه العسكريين.

قال: أمرنا البهلوي ونحن عشرة من الضباط أن نرمي صناديق مغلقة، كان قد جمعها جلاوزته في صحراء أطراف طهران يبلغ عددها ما يقارب الخمسين ولما رميناها بوابل من الرصاص إذا بنا نسمع الضجة من داخلها، ثم رأينا الدماء تسيل بغزارة من أطرافها، وبعد ذلك جاء جلاوزته الذين رافقونا إلى الصحراء لأجل هذه المهمة. فألقوا بالصناديق في حفرة كبيرة كانت قد أعدت من قبل ثم ساووها بالتراب، وعفوا أثرها.

وأضاف الضابط العسكري قائلاً: أثارت هذه الواقعة المؤلمة دهشتي، فرحت أستفسر عنها، وبعد التحقيق تبين أن ثلة من رجال الدين، وأصحاب المنبر والخطابة قد اختطفوا من بيوتهم وبعد إجراء عمليات التخدير البوليسية تجاههم، وضعوهم في تلك الصناديق، ثم رشقوهم بالرصاص ودفنوهم في الصحراء في حفرة لا أثر لها ولا علامة.

والنتيجة: أن إيران التي كانت قلعة الحرية والاستقلال والخير والرفاه صارت مستعمرة ذليلة من مستعمرات بريطانيا وتأخرت على أثره تأخراً ذريعاً يرثى له، وبعد حذف البهلوي الأول من الحكم، انتقلت إيران على يد البهلوي الثاني من حوزة بريطانيا إلى مستعمرات أمريكا ونفوذها، حيث جرائم البهلوي الثاني بعد أبيه البهلوي الأول معروفة لدى الجميع.

عبد الناصر والقومية العربية

النموذج الثالث: عبد الناصر وهو ثالث الثلاثة الذين رفعوا لواء القومية. فكما أن أتاتورك رفع لواء القومية الطورانية في تركيا والبهلوي رفع لواء القومية الفارسية، كذلك رفع عبد الناصر لواء القومية العربية في مصر لكن تحت مظلة أميركية، وهوى بمصر بعد ما كانت كنانة الإسلام وحصن العرب إلى درك خطير وهوة سحيقة من التأخر والتخلف وحطم فيها كل شيء باسم الإشتراكية من زراعة وصناعة واقتصاد وثقافة وغير ذلك، وأباح لإسرائيل في مهزلة مسرحية صحراء سيناء وجولان والضفة، وسيناء وحدها تقدر بأكثر من ستين ألف كيلو متراً، ثم خلف ورائه السادات ليكمل الخطة المرسومة من قبل الأسياد لاقتطاع مصر كلها باسم الصلح ومنحها لإسرائيل، وكان كذلك فقد اختزلت مصر الإسلامية من بلاد الإسلام ودخلت في مضلة أمريكية إسرائيلية وتم كل شيء، كما وحطم الشخصية الإنسانية في مصر فتلك قضايا تعذيبه في السجون – التي أوجدها لخنق الأصوات وكبت الحريات، وملأها بالأحرار من المسلمين الذين يريدون لمصر العزة والكرامة – لدى الناس مشهورة وفي مئات الكتب مسطورة فإنه كان يعذب الأبرياء في السجون بمختلف وسائل التعذيب المتطورة وأقسى أنواعها مما كان يودي بحياة السجناء الأحرار.

فمثلاً كان يمارس في حقهم عمليات الكي بالنار، وبالآلات الحديثة إلى حيث تشوى أجسامهم، وكان يسلط الكلاب البوليسية الجائعة عليهم فتنهش أجسامهم.

هذا إلى جانب التعذيب الروحي لهم فقد كان أمر جلاوزته بإنتهاك حرمة السجناء من بنين وبنات والإعتداء الجنسي عليهم وقذفهم بوابل من السباب وركيك من الكلام، وصب أقسام الإهانة والتحقير عليهم.. وأخيراً صارت مستعمرة أمريكية إسرائيلية.

١ . سورة النساء: الآية ٥١.

٢ . كنز العمال: ج٣ الرقم ٧٥٩٣.

٣ . نهج البلاغة: قصار الحكم الرقم ٢٣١.

الفصل الرابع: من أساليب الاستعمار
برمجة الخطط الاستعمارية

سياسة التشويه

مرض أحد العلماء قبل ثلاثين سنة وأدخل المستشفى، وكان المرض مرض الموت، فجاءه إنسان وقال له: سيدنا اغفر لي ذنبي الذي أذنبت في حقك، قال: إني غافر لك، لكن على شرط أن تبينه لي.

قال: إن الذنب عظيم، ولو عرفته لم تغفره لي.

قال: مهما كان الذنب عظيماً فإني مستعد للغفران، لكن بشرط بيانه، وكان بمحضر العالم جماعة.

فقال الرجل: إن البريطانيين يعطونني راتباً محترماً منذ ثورة العشرين – حيث أن هذا العالم كان مساهماً في (ثورة العشرين) – وكل شغلي الذي أتقاضى في قباله هذا الراتب أن أجلس وأقوم في هذا المكان وذاك، وفي كل مكان، وأقول: إن العالم الفلاني عميل بريطانيا وذلك لتشويه سمعتك أمام الناس، فقال السيد العالم: قد عفوت عنك لكن إياك أن تكرر العمل في المستقبل.

وفي قصة مشابهة مر إنسان على أحد البلاد الإسلامية قال: دخلت المسجد فإذا بي أرى إنساناً هناك بزي الصالحين سألني عن بلدي ولما عرف أني من البلد الفلاني، قال: أنا مستعد أن أعطيك من الدولة الإسلامية الفلانية راتباً محترماً في قبال أن تقول في كل مجلس وندوة أن الرئيس الفلاني كافر، بينما كان الرئيس مسلماً وفيه نوع ما من الصلاح والإصلاح، قال: فأبيت، وقلت: إني لا أفعل هذا الفعل، لأني أخاف الله سبحانه وتعالى، والرئيس الفلاني وإن كان فاسقاً لكنه ليس بكافر وهكذا الغربيون والشرقيون بضّعوا الأمة بما تحطمت وحدتها فلم تتمكن من القيام أمام الاستعمار.

وفي مذكرات (غينيازد الغوركي) يقول إنه كان يبذل لعملائه في طهران ستين ألف (مناط) من الذهب في قبال إشاعتهم الأكاذيب التي تنفع دولة روسيا (التزارية).

وقد سقطت فلسطين من أيدي المسلمين إلى يد اليهود كما تحولت الأندلس – من قبل – إلى بلد المسيحيين وذهبت الجمهوريات الست الإسلامية وهي (أرمينيا) و (أذربيجان) و (قرقيزيا) و (قاذقستان) و (تركستان) و (طاجكستان) إلى يد الشيوعيين الروس بسبب هذه الجهالة والتفرقة والدسائس الإستعمارية التي عملها في المسلمين الغرب والشرق، وقد تقبلها الضعاف النفوس من المسلمين حكاماً وشعوباً فهدموا بناءهم بأيديهم.

فعلى من يريد تقديم المسلمين إلى الأمام أن يبدل جهل المسلمين إلى العلم وتفرقتهم إلى الوحدة وبذلك يمكن التغيير بإذن الله سبحانه وتعالى ومنذ زمان بعيد بذر الشرقيون والغربيون في البلاد الإسلامية بذور الدمار التي أتت بهذه الثمار البشعة فإنهم بذروا بذور القومية والإقليمية وغيرها في زمان القاجار والعثمانيين، فأتت بهذه النتائج والآن يبذرون أيضاً حتى تأتي بثمار أبشع وتفرقة أكثر.

والفقر والمرض والجهل والحدود الجغرافية وكبت الحريات وغياب الأخوة الإسلامية والفوضى والاستبداد كلها بذور تبذر الآن أكثر من ذي قبل ولا بد أن تأتي بالثمار البشعة بعد قرن إلا إذا عولج الأمر معالجة جذرية بالرجوع إلى العلم والفضيلة والتقوى ووحدة الأمة والأخوة وإلا فمن الواضح أن الصليبية والصهيونية والشيوعية وولائدها تعمل ليل نهار، لا لأجل عدم يقظة المسلمين فحسب، وإنما لأجل تجهيلهم وتفرقتهم أكثر فأكثر.

ونعود فنقول إن كل مآسي المسلمين ناشئة عن الجهل والرذيلة (فالواجب على ممارسي التغيير تبديل جهلهم إلى العلم ورذيلتهم إلى الفضيلة وبذلك ينتهي كل شيء مشين ويتبدل التأخر تقدماً والفرقة وحدة، وليس هذا الأمر من المستحيل فقد رأينا الدول التي تسمى بالديمقراطية خففوا من هاتين المشكلتين ولو بقدر فتمكنوا من أن يتقدموا ذلك التقدم الهائل فهم الآن يصنعون المراكب الفضائية التي تنزل البشر على القمر ونحن لا نتمكن بعد حتى من صنع الإبرة وحتى اللحوم للأكل تأتينا من الخارج، وقد نسينا ما كانت بلادنا تنتجه من اللحوم والحبوب وما أشبه، أليس ذلك من ولائد الجهل والتفرقة والرذيلة.

ومن ذلك نعلم أيضاً أن بداية الاكتفاء الذاتي – الذي هو مقدمة للاكتفاء الذاتي في بقية المجالات – هو الاكتفاء الذاتي علمياً وفكرياً بغير إفراط ولا تفريط أما التفريط في الفكر أو الإفراط فيه فلا يأتي إلا بالتأخر.

وبهذا الصدد ننقل القصة التالية:

بين الإفراط والتفريط

أن رجلاً رأى في سوق النخاسين عبداً يباع بأرخص من قيمته الطبيعية فسأل عن السبب.

قالوا له: أنه يطبق أوامر المولى حرفياً بلا زيادة ولا نقيصة فأعجب بذلك.

وقال: هذا عبد حسن غاية الحسن، فإن العبد الذي يطبق أوامر المولى حرفياً هو عبد جيد. فاشتراه وفرح بشرائه بهذا الثمن البخس، وفي الغد عندما أراد أن يذهب إلى صلاة الجماعة أمر عبده بأن يأتي بسجادته إلى محل الصلاة، فأطاع العبد وجاء بسجادته وفرشها ووقف عليها الإمام (وهو سيد العبد) يصلي وبعد انتهاء الصلاة رجع إلى داره وبعد لأي من الزمن قال للعبد: أين السجادة؟

قال العبد: يا سيدي لم تأمرني أن أستصحبها إلى الدار من المسجد، وأنا أطبق الأوامر حرفياً كما تعلم.

فصاح عليه السيد: ويلك إن السراق يذهبون بها، فاذهب إلى المسجد وانظر هل السجادة لا تزال موجودة أم أنها سرقت، فجاء العبد إلى المسجد ورجع بدون السجادة.

قال له المولى: فأين السجادة؟ وهل كانت موجودة؟

قال العبد: نعم إنها كانت موجودة في المسجد لكني لم أت بها لأنك لم تأمرني بالإتيان بها، بل قلت لي: (انظر هل هي موجودة أم لا) فصاح عليه المولى: اذهب وأت بها.

فذهب ورجع خائباً، وقال: إنها قد سرقت فاضطر المولى إلى أن يبيع العبد وبعد مدة مر على سوق النخاسين فرأى عبداً يباع بقيمة رخيصة أيضاً، قال: ولماذا هذا العبد بهذا الرخص؟

قالوا: لأنه يطبق أوامر المولى ولوازمه، فقال في نفسه هذا عبد حسن، وتعجب من أنه لماذا لا يرغب فيه الناس؟

واشترى العبد وبعد مدة مرض السيد، فقال لعبده: اذهب وائتني بالطبيب، فذهب العبد وأبطأ مدة أكثر من المقدار الذي يحتاجه الإتيان بالطبيب، ثم جاء إلى البيت ومعه ما يقارب عشرة من الأشخاص، قال السيد له: ويلك لماذا أبطأت ومن هؤلاء العشرة؟

قال سيدي: إني أطبق الأوامر بلوازمها كما قالوا لك عندما أردت أن تشتريني وقد قلت لي اذهب وأت بالطبيب فذهبت وأتيت بهذا الطبيب، ثم فكرت في أنه قد يأمر الطبيب بالدواء لك، فجئت بالعطار الذي يصنع الأدوية، ثم قلت في نفسي قد يموت السيد، فجئت بالغسال والكفان والحناط والمصلي على الميت ومن يحمل التابوت وحفار القبر ومن يقرأ القرآن على القبر، وما إلى ذلك فانزعج السيد منه انزعاجاً كبيراً، وبعد أن برأ من مرضه كان أول ما فعل أن باع العبد.

إن كلاً من الإفراط والتفريط ينتهي إلى غير المقصد، فقد أودى هذان الأمران بالمسلمين.

فإن الخطأ في المقدمات لا يأتي إلا بالخطأ في النتائج فمن تصور عدم تفشي الجهل والرذيلة – بالمعنى الأعم – بين المسلمين فليس عليه إلا الملاحظة والاستقراء كما أن من تصور أن الجهل يأتي بالعلم والرذيلة تأتي بالفضيلة، فهو غافل عن السنن الكونية وأن كل بذر يولد المثل لا المضاد، وفي قول الحكماء: (إن العدم لا يولد الوجود، والوجود لا يولد العدم والضد لا يولد الضد، والمثل لا يولد المثل المغاير، وإنما يولد الصنو) يعني أن السواد لا يولد إلا صنوه لا أنه يولد سواداً على شكل آخر، ولا ننسى قبل نصف قرن إبان كنا في كربلاء المقدسة كيف كانت فيها ظاهرتان (موت الأطفال) بكثرة لعدم وجود أسلوب طبي صحيح لمكافحته، فلما جاء الأطباء أخذ الموت يتقلص ويتقلص كما لا ننسى أنه أبان ذلك كيف كانت (الملاريا) تجتاح البلاد سنة بعد سنة، وكان الناس يبتلون بها بأعداد كبيرة، فلما جاء إلى البلد (محافظ ذكي) جفف المستنقعات التي كانت في أطرافه – والتي كانت تولد البعوض والعفونة وجراثيم الملاريا – وردمها لم يعد ذلك المرض في كربلاء وإلى الآن.

ومن الواضح أنه حين ما يزول عن بلادنا الجهل والرذيلة لا يتمكن الحكام أن يقفزوا على الحكم بسبب:

١ – الوراثة.

٢ – أو الانقلابات العسكرية.

٣ – أو الانقلابات غير العسكرية التي تنتهي باستبداد الانقلابيين بالأمر بدون انتخابات حقيقية، بحيث تملك الأمة أمرها وتلك هي بؤرة المشاكل في بلادنا، فإذا أخذت الاستشارية بالزمام انتهت المشاكل.

بريطانيا: نريد عراقاً مطيعاً

ومن لطيف الأمر أن أحد وزراء العراق في عهد الانقلاب قال: ذهبت إلى بريطانيا وكانت لي صداقة مع وزير الخارجية البريطاني.

فقلت: إنكم ماذا رأيتم من العراق حتى أحدثتم فيه انقلاب عبد الكريم قاسم، بينما كان العراق بلد أمن وسلام، وحرية ورخاء، ونعمة وازدهار؟

فأجاب الوزير البريطاني: – ضاحكاً– (السبب هو أنا ما كنا نتمكن من الأخذ بزمام العراق إلى حيث مصالحنا وعندكم مجلس الأمة ومجلس الأعيان والصحافة شبه الحرة وتعدد الأحزاب شبه الحرة والراديو والتلفزيون اللذان ينقلان الوقائع والأحداث فإنا كنا إذا قدمنا بمشروع كما تقدمنا (بمشروع ميثاق بغداد) أو (معاهدة بورتشموث) كانت التداولات الكثيرة وأخيراً لا تأتي لنا بنتائج مرضية، وهذا مما لا نتمكن من الصبر عليه، فأتينا بعبد الكريم قاسم وصنعنا الانقلاب حتى نزرع هناك من إذا أمرناهم أطاعونا بدون نقاش) إنها حقيقة قالها الوزير البريطاني لهذا الوزير الانقلابي، ومن هذا المنطلق يكون الجهل والرذيلة في بلادنا، وإذا تفشت الأمية السياسية ونحوها في أمة أخذت في التحطم حتى لا ترى لها من باقية وقد ذكرنا في بعض كتبنا أن الانقلابات العسكرية والحكومات الوراثية ونحوهما من أخطر ما مني بها المسلمون وأنه يجب الحيلولة دونها في المستقبل.

رحلة نيبور

وهنا نجد أن من النافع أن نقتبس لقطات من كتاب (رحلة نيبور) في القرن الثامن عشر وكتاب (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) لكي نعرف مدى يقظة الكفار وتخطيطهم واطلاعهم على أوضاعنا وحالاتنا ومدى الجهل في بلادنا ولكي نكون على علم ببعض جذور ما يجري الآن في بلادنا ولأجل الإلماع إلى ما كان فيه العراق من الضعف السياسي والإجتماعي والاقتصادي مما آل إلى الاستعمار الذي نشاهده اليوم، فبينما كان الغربيون في أشد اليقظة للإنقضاض على بلاد الإسلام، كان المسلمون يغطون في نوم عميق، وبين ذا وذاك سقط العراق بأيدي الغربيين وقد رأينا العراق قبل نصف قرن تقريباً وعشنا في ربوعه فكان بلداً في غاية التأخر من النواحي العمرانية والاقتصادية والسياسية وكان الناس يلتزمون بالشعائر الإسلامية نوعاً ما، لكن زالت معالم الإسلام تدريجياً بانتشار المخامر والمقامر والملاهي والمباغي والمصارف بسبب إصرار حكومة الملكيين ثم الجمهوريين حتى وصل الأمر إلى قبض حكومة عفلق بالزمام مما أزاح كل معالم الإسلام، وإنما ذكرنا هذا الفصل لنعرف جذور المشكلة فنعالجها بإذن الله تعالى، وأنا لا أريد تصديق كل ما في الكتابين وإنما أردت الإلماع فقط، وإلا فعلى المحققين أن يميزوا الغث من السمين، كما أن سائر بلاد الإسلام ابتليت بما ابتلى به العراق قديماً وحديثاً، فعلى ممارسي التغيير الاهتمام لمعرفة الجذور ومعالجتها لعل الله سبحانه يهيء للمسلمين حكومة إسلامية واحدة بسبب الوعي الكامل، والهمة العالية وما ذلك على الله بعزيز.

كان العراق في سالف الأيام مركزاً لتمدن السومريين والبابليين والآشوريين وأخيراً صار مركزاً للتمدن الإسلامي، وكانت بغداد مركزاً لهذا التمدن وقبلة ترنوا إليها أنظار الشرق.

الحروب الصليبية كانت البوابة الرئيسية لدخول الاستعمار في الشرق. لذا عملت الحكومات الغربية على التغلغل في البلاد الإسلامية من أجل استثمار الثروات الطبيعية ومنابع المواد الخام الغنية وجعلها سوق رائجة لمنتوجاتها الاستهلاكية، وأرادت أن تدخل الشرق بعناوين براقة وأساليب مموهة فتذرعت بالارتباط بالدول الإسلامية وبإرسال السوّاح والذين يطوفون حول العالم بأعداد هائلة بالإضافة إلى أن الاستعمار قصد تحطيم بلاد الإسلام لأجل إزاحة الإسلام عن الحياة.

مجموعة نيبور:

في القرون الثلاثة الأخيرة كانت مجموعة (كارستن نيبور) من أهم المجموعات الأوروبية الغربية التي تسللت إلى بلاد الشرق وكان ذلك قبل مائتي عام.

لقد تولد (كارستن نيبور) من فلاح ألماني من ضاحية (سيليزيا) في مدينة.. (لدنغورث) في محافظة (لاونبرغ) في ١٧ آذار ١٧٧٣، وكان يساعد أباه في الزراعة، وعندما أكمل دراسته الثانوية التحق بجامعة (كوتنكن) من أجل تحصيل علم الرياضيات وعلم الفلك.

في عام ١٧٦٠م جهز ملك الدانمارك فردريك الخامس مجموعة من أجل إرسالها إلى بلاد الشرق الأقصى وجنوب شبه الجزيرة العربية، وأرسل في طلب نيبور من أجل الإنضمام إلى هذه المجموعة.

بناء على هذا في يوم ٤/كانون الثاني عام ١٨٦١م كان على متن الباخرة الدانماركية المسماة (كرينلاند) خمسة أشخاص مختلفي الجنسية وعلى عاتق كل منهم مهمة تختلف عن مهمة الآخرين، واثنان منهم ألماني الجنسية وآخران من الدانمارك والخامس من السويد وأعمارهم لا تزيد على الأربعة وثلاثين عاماً ولا تنقص عن الثمانية وعشرين عاماً، وهم:

١ – البروفسور بيتر فردريك كريستيان فون هافن (دانماركي) رئيس المجموعة ومسؤول مركز تحقيقات ومعرفة الألسن واللغات القديمة.

٢ – الدكتور كريستيان كارل كريمر (دانماركي) متخصص في تحقيقات العلوم الطبيعية.

٣ – الضابط المهندس كارستون نيبور (ألماني) الذي أوكلت إليه مسؤولية التحقيقات الجغرافية والفلكية والرياضية.

٤ – الهر جورج ويلهلم بورينفذ (ألماني) مسؤول رسم الفنون وحفرها وطباعتها على النحاس.

٥ – البروفسور بيتر فورسكال (سويدي) طبيب المجموعة ومتخصص في علم النبات.

وأبحرت الباخرة الدانماركية كرينلاند صباح ١٧٦١/١/٤م من ميناء كوبنهاكن وتوجهت إلى تركيا ومصر والسويس وجدة واليمن. وزاروا خلال هذه الرحلة اليمن وتعرفوا إلى أحوالها وطبيعتها ومنابعها ثم توجهوا إلى مدينة بومباي الهندية وفي هذه الرحلة مات جميع أفراد المجموعة باستثناء نيبور. فصمم هذا على الذهاب إلى الصين إلا أنه مرض مرضاً جعله يلتزم بحمية غذائية لمدة ستة أشهر وعندما استعاد صحته صمم على العودة إلى وطنه وبعث مع أول باخرة تقصد لندن جميع الأوراق والتحقيقات والخرائط والتقارير التي جمعتها مجموعته للحفاظ عليها من التلف والضياع، أما نيبور فغادر بومباي الهندية قاصداً بندر عباس، ثم شيراز وبعد توقف طال أربعة وعشرين يوماً إلى بوشهر.

نيبور يتوجه إلى البصرة:

ومن هناك وفي يوم ١٧٦٥/٥/٢٨م توجه إلى البصرة.

ورسم خارطة البصرة و ٧٣ محلة منها، كما رسم ٢٥ نوعاً من أنواع تمرها ورطبها مع شرحها. وتلبس بالملابس العربية وغيّر اسمه فصار (عبد الله) من أجل التحفظ من حساسية الناس تجاه الأوروبيين والغربيين.

وبعد مدة من الزمن عاد نيبور إلى بلاده ثم زار البصره مرة ثانية وفي رجوعه من العراق إلى بلاده زار مدينة الموصل وحلب وديار بكر وأنطاكية والإسكندرية ويافا والقدس وعكا وصيدا وصور وطرابلس الشرق واللاذقية ودمشق واسطنبول وقوتيه وبورصه واورند قرب حدود بلغاريا، وبخارست ووارشو وبرسلا وألمانيا ثم انتهت جولة نيبور.

وكلفت هذه السفرة الحكومة الدانماركية حوالي خمسين ألف جنيه استرليني بقيمة هذا اليوم.

خرائط نيبور:

واستطاع نيبور أن يرسم خرائط صنعاء وشيراز (برسبوليسر)، والبصرة وبغداد والموصل والنجف الأشرف والقدس، ودمشق والبحر الأحمر، وبعض هذه الخرائط لحد هذا اليوم يستفاد منها في كل العالم.

ولقد عثرت مجموعة نيبور على خطوط وكتابات مسمارية كثيرة كانت مكتوبة حول التمدن في الشرق. وكانت لهذه الخطوط والكتابات المسمارية أهمية كبرى في علم التاريخ وفي علم الآثار والمتاحف بالنسبة للشرق.

وعندما عاد نيبور إلى ألمانيا كتب كتابه حول السياحة إلى الشرق تحت عنوان (صنعة جزيرة العرب) وطبعه، وبعد ذلك ترجم إلى اللغة الإنكليزية والفرنسية، ثم ترجم القسم المربوط بالعراق إلى اللغة العربية تحت عنوان (رحلة نيبور إلى العراق).

أن القسم الخاص بالعراق من رحلة نيبور على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: سفرة نيبور من البصرة إلى بغداد.

الفصل الثاني: سفرة نيبور، من بغداد إلى الموصل.

الفصل الثالث: وصف مدينة الموصل وشمال العراق.

بغداد قبل ثلاثة قرون:

بغداد في الخريطة التي وضعها نيبور كانت على الوضع التالي:

١ – باب المعظم (أو باب السلطان).

٢ – الباب الوسطى.

٣ – باب الطلسم.

٤ – باب الظلمات (الباب الشرقي).

٥ – صوقابي (باب الجسر).

٦ – بطرية المدافع.

٧ – السراي (قصر الباشا).

٨ – مدرسة المستنصرية.

٩ – منارة سوق الغزل.

١٠ – ضريح الشيخ عبد القادر (الكيلاني).

١١ – تكية البكتاشية.

١٢ – مرقد الست زبيدة.

١٣ – ضريح بهلول دانه.

١٤ – قبر يوشع.

والقسم الأعظم من المدينة متهدم وغير مسكون، والقسم المسكون كائن على ضفتي نهر دجلة وقرب قصر الباشا، وبغداد بالنسبة إلى بقية مدن الشرق أكثرها سكاناً وحدائقاً وأسواقاً، وشوارعها ضيقة ومليئة بالأزقة والفروع وبيوتاتها من الحجر وعالية تقريباً.

ولأن هندسة بيوتها خاطئة وغرفها ليست صالحة للسكن في فصل الصيف لذلك عمدوا إلى إنشاء سراديب يلجأون إليها في هذا الفصل القائض. وفقراؤها عراة اتخذوا الشوارع والأزقة مساكن لهم يفترشون الأرض ويلتحفون السماء.

والسور الذي بني حول بغداد ليس صالحاً للمقاومة والدفاع عن المدينة، والخندق أيضاً خال من الماء وهذا الوضع الدفاعي المتردّي لهذه المدينة يسمح ويساعد على دخول القوات الأوروبية بكل سهولة.

أما الجانب الغربي من المدينة، ففيه قلعة صغيرة تعرف باسم قلعة ايج، لحفظ البارود وكان يحرسها مجموعة من القوات النيجرية.

وكانت القوات النيجرية مرتاحة من حيث أداء مهمتها، وذلك أنها في غرفة الحراسة يقضون أوقاتهم بلعب النرد.

وكان في بغداد مكان يشبه في وضعه (حسينية) يسكن فيه أعداد من الدراويش التابعة بعضها للبكتاشية وبعضها للمولوية وقسم منها للرفاعية، وآخرين للنقشه بندية، والقلندرية والشاكرية، وكان أيضاً مكان آخر تابع لأصحاب الشاكرية وهو مأوى الفقراء المسلمين القادمين من الهند.

إن مؤسس الطريقة القادرية هو الشيخ عبد القادر الكيلاني الذي ولد في عام ٥٦٠ هجرية وعاش ٩٠ سنة.

وفي القسم الغربي من بغداد توجد بساتين واسعة غير آهلة بالسكان، والقسم الذي ينتهي ببغداد القديمة يقع فيه مرقد الإمام موسى الكاظم (عليه السلام).

والمعبد أو المكان الذي كانت تجتمع فيه البكتاشية في بغداد قد بناه قليج أرسلان ابن الملك مسعود السلجوقي في عام ٥٨٤ هجري وفي بغداد أيضاً قبر زبيدة زوجة هارون الرشيد التي ماتت في سنة ٢١٦ هجري وحسن باشا قد دفن زوجته عائشة بين مصطفى باشا بجوار زبيدة.

وقبر العالم المشهور بالكرخي أيضاً في بغداد، وكان اسمه سابقاً (أبو ظاهر) وهو قد بدّل كلمات (الأب) و (الأبن) و (روح القدس) إلى (بسم الله الرحمن الرحيم) لذلك أخذته أمه وسجنته في السرداب لمدة أربعين يوماً بلياليها ومنعت عليه الغذاء إلا الماء والخبز، وبعد أربعين يوماً عندما أخرجته من السرداب رأت أن حاله أحسن من السابق فتعجبت لذلك وقالت: لا بد وأن روحاً خبيثة قد دخلت بدنك فطردته لذلك، أما هو فقد ذهب إلى الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) باب الحوائج وتوسل به وأسلم وأصبح بعد ذلك من أعاظم المدينة يشار إليه بالبنان.

أن (نيبور) قد ذكر في مذكرته المسماة: رحلة نيبور إلى العراق حوالي ثمانية وأربعين اسماً من ولاة الأتراك في الدولة العثمانية الذي نصبوا من قبل الحكومة العثمانية على بغداد وأول هؤلاء الولاة كان (كوجك حسن باشا) (١٠٤٨- ١٠٤٩هـ) وآخرهم كان عمر باشا (١١٧٨هـ).

ومنذ أن تسلم عمر باشا السلطة صمم على إبادة قبيلتي خزعل وكعب إلا أنه لم يوفق لذلك.

الوالي العثماني:

وفي زمن الدولة العثمانية كان الدستور لا مركزياً وذلك لأن الوالي كانت جميع الأمور (حتى القوة التشريعية) بيده ولا يرجع إلى الحكومة العثمانية في أي أمر من الأمور.

نعم، كان الوالي يرجع في الأمور المهمة جداً إلى الشورى المنتخبة من قبل المدينة ويوكلها إليهم، وهم عبارة عن:

١ – الشيوخ ومنفذي الأمور، وهم حاكم مقاطعة البصرة وحاكم ماردين وجميع حكام المدن السابقين.

٢ – باشا آقا وهو رئيس فرقة الخيالة (رئيس اللاوند).

٣ – الآقا أو الرئيس الأعلى للقوات النيجرية.

٤ – رئيس العلماء (وهو الذي ينتخب من قبل علماء المدينة).

٥ – القاضي أو (حاكم المدينة) وهو من جماعة الملالي.

٦ – مفتي المذهب الحنفي.

٧ – مفتي المذهب الشافعي.

٨ – نقيب الأشراف ورئيس كل السادة وهو من سلالة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) .

٩ – خطيب مسجد شيخ عبد القادر الكيلاني.

١٠ – خطيب مسجد أبي حنيفة.

الباشلق:

من أهم المدن التي كانت تابعة لولاية الباشلق هي:

البصرة، وأربيل، وماردين، والديوانية، وقزانى، والرماحية، والنجف، وكربلاء، والطاووق، والطون كوبري، وقره طاغ، ومندلي، وبدرة، وخراسان، ومهروت وبهرزو، قزلرباط، وخانقين، وقصر شيرين، وشهربان، وحرانية، ونيكجة، وبروان، ودجيل، وتكريت، وسامراء، والدور، وزنكاباد، وبلاد دروزين (بلد روز)، وخزنابات، وعانة، وجبة، وهيت، وحديد، والروس، وكبيسة.

وكان العرب (وهم البدو الرحل) وبعض المجموعات الأخرى، لا يرضون أن يسودهم الباشا وهو الحاكم التركي بل كانوا يريدون أن يترأسهم ويسودهم واحد من رؤساء عشائرهم.

كردستان:

أما كردستان فهي أرض وافرة الزرع كثيرة النعمة تجود على أهلها بالتين والعنب والقطن والرز وغيرها من المحاصيل الزراعية المهمة.

أما لغة سكان كردستان فخليط من ثلاث لهجات أو لغات:

١ – الكلدانية.

٢ – العربية.

٣ – التركية.

فترى لهجة مشكلة من الكلدانية والعربية، وأخرى تحتوي على مفردات تركية كثيرة.

ومن الصفات البارزة عند الأكراد والتي تستولي على طبعهم هي الشجاعة.

الموصل وشمال العراق:

يقول نيبور: في أثناء سفرتي إلى شمال العراق رأيت مجموعة من اليهود قدموا إلى الموصل لغرض الاستجمام والسياحة، فوقعت حادثة نزاع بين مسلمي الموصل وهؤلاء اليهود، وكان اليهود خائفين جداً.

ويضيف نيبور: إن اليهود جبناء جداً وأذلاء، وهم يعيشون تحت سلطة المسلمين بذلة وهوان، ولم يفكروا يوماً أن يرفعوا السلاح بوجه الحاكم التركي على فلسطين ويأخذوا حقوقهم ولا أن ينتزعوا فلسطين ليجعلوها بلدهم ودولتهم.

وفي (طوز خور ماتو) رأيت الملح والقير أو الزفت وأنابيب النفط. وما كان الناس يستفيدون من القير إستفادة كاملة، أما النفط فكانوا يستفيدون منه في المصابيح الزيتية من أجل الإنارة.

كركوك:

أما كركوك فواقعة في أرض مغطاة بالزروع وكأنها عروس ترتدي لباساً جميلاً أخضر، وليس فيها إلا قليل من العمران، والمسكون من هذه المدينة هو جزء صغير وكذلك جنوب المدينة.

وفي هذه المدينة توجد مساجد مهمة يقال: إن فيها قبور الأنبياء وهم (دانيال) و(ميخائيل) و(ضانيا) و(اليعازر) و...

ويقطن هذه المدينة أربعون شخصاً كلدانياً ونسطورياً وهم من التابعين لكنيسة الروم.

أراضي مدينة كركوك عائمة على بحيرة من النفط وأيضاً غنية بالقير.

وفي مدينة (قوش) وهي مدينة في شمال العراق، رأى نيبور امرأة مسلمة تصلي، فكتب يقول:

شككت في أنه كيف تصلي المرأة وتركع وتسجد والحال أن علماء أوروبا يختلفون في أن المرأة هل تدخل الجنة أو تبقى خارجها، والرجل فقط يدخل الجنة.

أربيل:

في هذه المدينة وفي أطرافها يقطن فرق اليزيدية وهم ممنوعون من إقامة شعائرهم الدينية، لأن الأتراك لم يسمحوا لهم في ذلك. هذه الفرقة تعتقد باحترام وتقديس شمر بن ذي الجوشن وأحفاده، وهو الذي قتل الحسين، ولذلك فهم يوالون شمر ويبتعدون عن أعدائه.

أما الشيعة الذين يعتقدون بأن الحسين أعظم الشهداء وسيدهم فيعتقدون بضلالة هؤلاء اليزيديين.

وعند اليزيديين صور كثيرة للحيوانات هي موضع تقديسهم واحترامهم.
وعندما يتوجه اليزيدي إلى المدينة لغرض بيع ما ادّخره من دهن وبيض، حين يعرف أهل المدينة بأن هذا القادم (البائع) يزيدي يشرعون بإيذائه ولعن الشيطان وفي هذه الحالة يهرب البائع اليزيدي مخلفاً وراءه ما جلبه للبيع من دون أن يبيعها أو يستلم ثمنها، من أجل الابتعاد وعدم سماع لعن الشيطان.
وحيث أن اليزيدية فرقة من فرق المسلمين فهم يتابعون بقية الفرق في الختان، ولكنهم يشربون الخمر ولكن بشكل قليل لا يصل إلى درجة السكر. ويصومون خلال السنة فقط ثلاثة أيام، ويذهبون إلى الحج كل عام.
ومؤسس فرقة اليزيدية هو الشيخ عادي وهو مدفون بين مدينة عقرة والموصل.
قوش:
أما مدينة القوش (وهي إحدى المدن الواقعة في شمال العراق) فهي من المدن المقدسة عند اليهود، وذلك لأن النبي (ناحوم يهودر) ولد في هذه المدينة ومات فيها أيضاً.
وفي طريق الموصل يوجد قبر النبي يونس (عليه السلام) وهو أيضاً مقدس من قبل اليهود هناك، ومن الأبنية التاريخية في الموصل هو (الجامع الكبير) الذي بناه نور الدين والي دمشق.
ويوجد مسجد مهم آخر في نفس المدينة هو المسمى بمسجد النبي جرجيس، وفي خارج المدينة يوجد أيضاً مسجد يسمى بالجامع الأحمر.
ولطائفة المسيح في الموصل عشر كنائس، إلا أن أكبرها صغير جداً.
ويوجد في الموصل خمسة عشر بيتاً خاصاً للغرباء والمسافرين القادمين من المدن الأخرى.
وأهل المدينة هم من المسلمين المنتمين إلى الطائفة السنية، والقسم الأكبر منهم من المذهب الحنفي، والبقية ينتمون إلى المذهب الشافعي.
وعدد بيوت اليهود في هذه المدينة ألف ومائتا بيت، وحوالي ربع هؤلاء هم من (النساطرة) والكلدان غير المنحرفين والباقي من اليعاقبة.
مائة وخمسون بيتاً في الموصل هم من اليهود إلا أنهم يعدون بين الناس من الحقراء والأذلاء.
ويوجد أيضاً في مدينة الموصل عدد كبير من معامل النسيج ومعامل طرح الألوان والنقشات، ومعامل طرحها على الأقمشة المنسوجة، والحرفتان الأخيرتان بيد المسيحيين هناك.
الأقليات المتواجدة هناك يجب عليها إعطاء الجزية للوالي التركي.
في عام ١٧٤٣م ولمدة واحد وأربعين يوماً حاول الترك أن يفتح مدينة الموصل ويستولي عليها إلا أنه في النهاية لم يوفق إلى ذلك، وفي خلال هذه المدة رمى على هذه المدينة أربعون ألف قذيفة.
وفي كتاب (أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث) لـ (لونكريك) يتحدث المؤلف بشيء من التفصيل حول تاريخ العراق وبغداد ويتطرق في حديثه إلى تسلط المغول والإيرانيين في زمن الدولة الصفوية، وتسلط الأتراك بعد

الصفويين على العراق، ويؤكد كثيراً على مسألة الشيعة والسنة، ويذكر أن واحداً من العوامل التي دعت الدولة العثمانية بالهجوم على الصفويين في العراق هو الاختلاف المذهبي بينهما.

وفي زمن الدولة الصفوية والعثمانية عمّرت العتبات المقدسة وكذلك قبر الشيخ عبد القادر الكيلاني وغيره من المشهورين.

ومن المظاهر الملموسة والواضحة في زمن الدولة العثمانية هو تداول إعطاء وأخذ الرشوة بين حكام الولايات من أجل الحصول على بعض المناصب أو في تقسيم الأراضي الزراعية. وهذه الظاهرة كانت سارية في العراق وفي بعض مدن إيران مثل تبريز.

النزاع الإيراني . العثماني

لقد وقعت بغداد وهي عاصمة العراق بيد الإيرانيين تارة وبيد العثمانيين أخرى، وبعد أن فتح العثمانيون بغداد أخذوا الحاكم الإيراني على بغداد بأمر من القائد العثماني ووضعوه في سفينة مملوءة بالمواد المشتعلة وحرقت عليه السفينة حتى صار رماداً فذرّ رماده في نهر دجلة وفي هذه الحروب قتل أكثر من أربعين ألف.

وفي مدة محاصرة بغداد كان الناس من شدة الجوع يذبحون الحيوانات غير المأكولة ويأكلونها، حتى آل الأمر إلى قتل أبنائهم لغرض دفع ما ألمّ بهم من الجوع، ولما فتح شاه عباس بغداد، زار العتبات المقدسة وعاد إلى إيران ونصّب (صفي قلى) حاكماً لبغداد.

واستطاع العثمانيون للمرة الثانية استرجاع بغداد من يد الإيرانيين بقيادة السلطان مراد وقد وقعت فيها حروب خلّفت أكثر من ثلاثين ألف قتيل. وعمّر السلطان قبر الشيخ عبد القادر ووسّعه بأن أضاف إليه أرضاً كثيرة كان أكثرها مصادرة، وجعلوها وقفاً لهذا القبر.

هذه الوقائع قد جرت حوادثها في القرن السادس عشر الميلادي في العراق. وفي القرن السابع عشر الميلادي ازداد نفوذ الدولة التركية في شمال العراق. ولمدة خمسين عاماً كان بين الأتراك والإيرانيين نزاعات مستمرة من أجل الإستيلاء والسيطرة على بغداد.

ومناوشات كثيرة ومطاحنات عديدة كانت تحدث بين الجيش الإيراني والجيش التركي، وفي زمن (نادر قلى شاه) مؤسس سلسلة الافشارية في إيران، وقع الصلح بين الإيرانيين والأتراك على العراق، وكتبت لذلك معاهدات كانت خاتمة للحروب الطاحنة والعداءات المشتركة بين إيران وتركيا.

وكانت تلك المعاهدات تقتضي باحترام الشيعة من قبل الأتراك وجعل المذهب الشيعي المذهب الرسمي، وأعلن عن ذلك وصار المذهب الشيعي هو المذهب الحقاني في العراق.

لقد قتل وجرح آلاف الأشخاص من الطرفين في الحروب التي كانت تقع بينهما، ولقد وقعت الحرب بينهما في عام ١٧٠٠م واستمرت حتى عام ١٧٤٥، وفي هذه المدة وقعت معاهدات بين الطرفين، وبعد موت نادر شاه تغيرت مجريات الأمور.

ومدينة البصرة أيضاً كانت مورداً لتنافس الأتراك، والإيرانيين والأكراد، وأيضاً في تلك الفترة وفي القرن السابع عشر الميلادي دخلت هذه المدينة شركة هندية شرقية.

وكانت تجري حروب ومطاحنات بين الأتراك والإيرانيين من جهة، والأكراد من جهة أخرى، والمدن الحدودية الواقعة بين الحدود الإيرانية والتركية والتي يقطنها الأكراد كانت تتعرض لهجمات الجيش الإيراني والتركي.

نشأة الوهابية:

وفي العراق نشأ وترعرع المذهب الوهابي بقيادة محمد بن عبد الوهاب وانتشر المد الوهابي حتى شمل الحجاز في الجزيرة العربية.

في السنين الأولى لولاية أحمد باشا على بغداد كان محمد بن عبد الوهاب طالباً في جامعة العلوم الدينية في بغداد، كما أنه قد درس في مكة ودمشق والبصرة.

كانت أفكاره المغرضة وأفكار تابعيه بعيدة عن القرآن والسنة النبوية، وفي أيام الحج كانوا يهجمون على قوافل الحجاج الإيرانية والعربية ويسلبونهم جميع ما لديهم من أموال وحليّ وغيرها.

وفي عام ١٨٠١م قاموا بحملة شديدة على مدينة كربلاء (المقدسة) وسرقوا جميع ما في المدينة من ذهب وفضة وأواني تحفية ومصابيح وشمعدانات وأموال وفرش ثمينة وما أشبه ذلك، وقتلوا الآلاف من أهل المدينة في مجزرة عامة، وحسب الاحصائيات في تلك الحقبة من الزمن كان عدد القتلى الذين قتلوا على يد الوهابيين في كربلاء خمسة آلاف قتيل، وعدد الجرحى عشرة آلاف جريح.

التدخل المباشر

العلاقات العراقية – الأوروبية:

وابتدأت روابط العراق بالدول الأوروبية في القرن الثامن عشر الميلادي، وفي هذه الفترة قَدِمَ إلى العراق حوالي ثلاثون سائحاً لغرض الاطلاع وكسب المعلومات عن أوضاع العراق، والسوّاح كانوا من فرنسا واليونان، ومن الشركة الهندية الشرقية التابعة للإنكليز، ومن بعض الدول الأوروبية الأخرى.

وأول القنصليات التي أنشئت وافتتحت في العراق هي القنصلية الفرنسية في بغداد والبصرة في عام ١٨٠٢م وكان افتتاح أول قنصلية إنكليزية في بغداد، المرحلة الأولى لنفوذ الإنكليز واستعمارهم للعراق.

وخلال سيطرة الدولة العثمانية على بغداد انتشر وباء الطاعون لعدة مرات في بغداد ومات بسبب الإصابة بهذا المرض الآلاف.. وكذلك فر الآلاف من بغداد خوفاً من الإصابة بهذا المرض.

الحدود الجغرافية المصطنعة:

وفي عام ١٨٥٠م شكلت هيئة مؤلفة من الإنكليز والأتراك والإيرانيين في البصرة أخذت على عاتقها تعيين الحدود الجغرافية للمنطقة.

وفي عام ١٨٦٧م أسست إدارة عمان العثمانية للبحرية فأوجدت شركة البواخر العراقية.

وفي عام ١٨٤٣م خطط لتأسيس خط السكة الحديدية الإنكليزية الهندية التي تمتد إلى وادي الفرات، ورسمت خارطته أيضاً.

وفي عام ١٨٤٩م قام (جون رايت) برسم خارطة أخرى لإيجاد خط سكة حديدية تمر عبر وادي الفرات.

النفوذ الاستعماري:

وكانت الحكومة الإنكليزية ورعاياها في المنطقة، يحاولون تقوية نفوذهم وتوسعته في المنطقة، فكانوا يوجدون طرقاً برية جديدة ويتذرعون بذلك من أجل توسعة نفوذهم هناك، لذلك قدمت الشركة الهندية الشرقية اقتراحاً وضمنته بطلب للسماح لها بالتعاون مع دولة إنكلترا من أجل تأسيس الطريق البري الذي يربط بين سورية والخليج.

وفي عام ١٨٥٧م بدأ العمل في تأسيس الطرق البرية التي وضع خرائطها المهندسون الإنكليز، تحت اعتبار وجعل هذه الخطط والبرامج تركية، وفي صيف ١٨٦١م صار الطريق البري الذي يربط بين اسطنبول وبغداد جاهزاً للاستفادة منه. وبعد ذلك وضعت خارطة خط خانقين بغداد، ثم خط الفرات، وأوصلت خطوط التلغراف العراقية بالخطوط التلغرافية التركية والإيرانية في الخانقين، والخليج والهند في مدينة الفاو.

وبعد ذلك وضعت خرائط الخطوط البرية التي تربط بين كربلاء والنجف، وبين الكوت والعمارة، وبين بدرة ومندلي، عن طريق دجلة. ثم أوصلت الطرق عن طريق الكارون إلى الخطوط البرية الإيرانية في أهواز.

وفي أواخر القرن التاسع عشر الميلادي أنشأت في العراق المعامل والمصانع والمستشفيات ودور العجزة والمدارس ونشر المجلات والصحف وخط سكة الحديد في الكاظمية، وابتدأت بذلك حياة جديدة في بغداد والعراق.

وبعد ذلك شكلت البلديات ودوائر الخدمة العسكرية الإجبارية وبعض الدوائر والدواوين الأخرى.

وفي القرن التاسع عشر الميلادي بدأت القبائل والعشائر في العراق تتوسع، واتخذت كل قبيلة قرية أو محلة أو قضاء أو أصغر من ذلك موطناً لها لا يحق لغيرها التصرف فيه، بحيث صار العراق في هذا القرن بالذات دولة العشائر والقبائل.

في عام ١٨٥٠م كانت نسبة المتعلمين والمثقفين في مدن العراق (٥٠%) خمسون بالمئة، وفي عام ١٩٠٠م (٥-١٠%) خمسة إلى عشرة بالمائة.

وفي المدن الكبيرة كان لليهود والنصارى مدارس وكذلك مدارس، الاتحاد الإليانسي الإسرائيلي.

وفي كل مسجد كانت توجد مدرسة يديرها ويرأسها أحد طلاب العلوم الدينية (روحاني) وكانت هذه المدارس تختلف اختلافاً كبيراً عن المدارس اليومية من حيث الكمية والكيفية والنوعية.

ونسبة الطلاب والمتعلمين بين غير المسلمين في العراق عالية.

وفي عام ١٨٩٨م أسست المدرسة الثانوية للبنين والمدرسة الابتدائية للبنات.

الدوائر الاستعمارية:

وفي هذا القرن (التاسع عشر الميلادي) شكلت دائرة الجنسية والأحوال الشخصية، ودائرة الطابو ودائرة الأوقاف.

وفي عام ١٨٦٨م تأسست دائرة البريد البريطانية الهندية في بغداد والبصرة، ولذلك وضعت صناديق البريد في أنحاء المدن كما انتشر موظفو البريد في المدن من أجل إيصال الرسائل والرزم إلى أصحابها على عناوينها.

وكان تأسيس خط سكة الحديد في العراق عام ١٩٠٣م موضوعاً ذا حساسية عند الناس، وفي عام ١٩١٢م وصلت أوّل باخرة تحمل معدات إنشاء هذا الخط الحديدي إلى العراق، وفي عام ١٩١٤م كان خط بغداد – سامراء الحديدي كاملاً وجاهزاً للاستفادة.

كذلك أسست إدارات الجمارك البرية والبحرية، والخلاصة أن بغداد كانت تحت نفوذ حكومة تركيا حوالي أربعة قرون.

ثم خرجت من نفوذهم إلى نفوذ بريطانيا رسمياً، أو نفوذ عملاء بريطانيا في إستقلال رسمي إلى هذا اليوم.

التجسس

التحسب للأعداء

لقد أخذت البلاد الكافرة من الشرقيين والغربيين تملأ بلادنا بالعملاء والجواسيس المدربين، فتسنى لهم إخماد كثير من جذوة الإسلام في قلوب المسلمين مما توصلوا إلى مآربهم كيف شاءوا، وفي هذا الفصل نذكر بعض القصص التي تشير إلى هذه الحقيقة كي تكون مرشدة متواضعة للإنسان الذي يريد العمل السياسي لأجل إنقاذ الإسلام والمسلمين من براثن الكفار والمستعمرين.

يقظة الاستعمار.. ورقدتنا..

نقل أحد التجار الذين كانوا يعملون بين النجف وبغداد ويتاجرون بالإسمنت: أنه بعد وصول عبد الكريم قاسم إلى الحكم والصداقة التي عقدت بين روسيا وبين العراق طلب مني بعض الشركات الروسية العاملة في العراق نوعاً خاصاً من الإسمنت فقلت لهم: ليس عندنا هذا النوع لأن حجر هذا النوع لا يوجد في العراق وإنا نستعمل الحجر الموجود وهو أجود أقسام الحجر ونعطيكم الإسمنت من ذلك الحجر، فقال لي المهندس الروسي المشرف على إحداث المصنع الذي كان ينصب في العراق حسب الاتفاق بين العراق وروسيا: نعم، يوجد من هذا الحجر في أرض العراق.

قلت: كلا، لا يوجد.

قال: اركب معي في السيارة حتى أدلك عليه، فركبت معه في سيارة وركب معنا بعض خبراء المصنع وذهب السائق بنا من النجف الأشرف إلى قريب الحدود السعودية العراقية ثم نزل وكان ينظر في أثناء الطريق إلى خريطة بيده ويسأل أين هنا؟ وأين هنا؟

حتى أنه وصل إلى مكان وسأل أين هنا؟

فقلنا له هذا المكان يسمى (بعرعر) وهي منطقة بين السعودية والعراق فقال انزلوا بنا فنزل وأخذ يفحص الأرض من هنا وهناك إلى أن وصل إلى مكان وقال: هذا المكان هو الذي فيه هذا النوع من الحجر فلما نزلنا ورأينا صدق ما قال، تعجبنا منه كيف عرف هذا الشيء بينما نحن أصحاب الاختصاص لا نعرفه. فقلنا له: من أين عرفت ذلك؟

قال: إننا نأخذ الصور بواسطة الأقمار الصناعية وأنه لما سألت المسؤولين السوفيات عن وجود هذا الحجر وعدم وجوده أبرقوا في جوابي: إن هذا الحجر موجود وأنه في المكان الكذائي من أرض العراق.

قال التاجر المذكور: فأخذنا من ذلك المكان الأحجار التي أرادوها وعملناها إسمنتاً وقدمناها لهم لبنائهم المصنع المتفق عليه بين الدولتين.

الأطماع التوسعية للاستعمار

وشبه هذه القصة نقلها إنسان آخر بعد الحرب العالمية الثانية، قال: كنت ضابطاً في الجيش الإيراني ولما جاء البريطانيون والروس والأمريكان وقسموا إيران بعد الحرب كنت أنا في فيلق من الجنود البريطانيين وضباطهم، في أطراف كردستان، وذات مرة كنا نمشي بين الجبال لمهمة فنفذ ماؤنا، فسألنا قائد الفيلق: هل يوجد هنا ماء؟ قلنا: لا، قال: ألا يوجد هنا نهر أو بئر أو عين؟

قلنا: لا يوجد هنا إطلاقاً، قال الضابط الإيراني – وكان هو من أهالي كردستان ودليلاً للجيش البريطاني في تلك الجبال والمنحدرات – فأخرج الضابط البريطاني خريطة من حقيبته ونظر في الخريطة ملياً ثم قال: نعم، يوجد هنا ماء وهو في المكان الكذائي المسمى بكذا قال الضابط الإيراني: وكنت أنا أعرف المناطق كلها لأني من أبناء تلك الجبال، لكني قلت في نفسي: إنه مخطئ في ذلك، فأنكرت عليه وجود الماء في تلك المنطقة، فقال الضابط البريطاني: نعم موجود هنا حسب هذه الخريطة وأمرني بأن أمشي معه وبصحبتنا جماعة إلى بعض تلك المنعطفات والمنحدرات، ولما مشينا مقدار كيلوات ووصلنا إلى جبل كذا الذي سماه ذلك الضابط البريطاني، وإذا بنا نجد عيناً عذبة باردة من الماء الزلال فأخذنا منه وأخذت أتعجب أنه كيف يعرف هذا وهو رجل أجنبي ما لا أعرفه أنا ابن تلك المناطق، لكن لا عجب لأنهم يفحصون عن هذه الأشياء بسبب عملائهم ومخترعاتهم فيطلعون عليها ويثبتونها في الخرائط العامة لهم حتى إذا احتاجوا إلى مثلها اكتشفوها بما لا نعرفه نحن أبناء المنطقة.

وقد رأيت أنا في الكويت كتاباً من مجلدات كبيرة باسم (دليل الخليج) وكان في الكتاب قوائم بكل خصوصيات الكويت والبحرين والإمارات وقطر وغيرها ولما طلبت من صاحب المكتبة أن يدلني على المكتبة التي اشترى هذا الكتاب منها.

قال: إن هذا الكتاب لا يشترى وإنما أمير قطر أهداه إلي، فإنه هو الذي استأذن من البريطانيين في طبعه باللغة العربية، فطبعه وأخذ يهديه إلى أصدقائه الخاصين وحيث أنا كنت من أصدقائه أهدى لي دورة منه.

مسقاة نوروز خان

كان في طهران محل لسقاية الماء يدعى بـ (مسقاة نوروز خان) وفجأة انتشر بين الناس أن المسقاة أصبحت تشفي المعلولين والمرضى المزمنين، فمثلاً شفت إنساناً أعمى عرف بأنه أعمى منذ صغره ويعرفه أهل المحلة كاملاً، وشفت إنساناً كان أعرج منذ صغره فأخذ يمشي على رجليه مشياً معتدلاً.

وهكذا مما سبب التفاف الناس حولها التفافاً غريباً فأخذ الناس يزدحمون على المسقاة وينامون حولها وأخذوا ينصبون الخيم هناك وصارت المنطقة سوقاً رائجاً غريباً، وحتى أن جماعة من المتعمقين المتدينين اعتقدوا بذلك وأنه حلت في المسقاة روح خيرة تسبب هذا العمل كيف لا وقد رأوا بأنفسهم ذاك الأعمى والأعرج قبل شفائهما، ورأوا شفائهما شفاءً كاملاً، وهكذا أخذ الناس يتجمعون حول المسقاة حتى وصل عددهم إلى الألوف وأحياناً إلى أكثر من ذلك وأخذ قسم من الناس ينذرون للمسقاة كما أن إنساناً فتح هناك مقهى يعطي الشاي مجاناً للجماهير باسم أنه نذر ذلك وأخذ الناس يعطون له السكر والشاي أما من جهة أنهم نذروا للمسقاة أو من جهة للتبرع وذات مرة زار السفير البريطاني السفير الروسي وقال له: أن الشيعة أهل خرافة ومهزلة ومن مهازلهم

أنهم يعتقدون لا بالرسول والإمام فقط وإنما يعتقدون حتى بالمسقاة ونحوها، ونقل له قصة مسقاة نوروز خان واستصحبه إلى رؤيتها وهناك لما وصلا أخذا يتضاحكان فإذا بهذا الذي يتبرع بالشاي أخذ هو وأصدقائه سطلاً من الماء الحار وهجموا على مركبة السفيرين وإذا بالسفير البريطاني يهرب في وسط الجماهير أما السفير الروسي فلم يمكنه الهرب ووقع بأيديهم فصبوا على رأسه الماء الحار الفائر وأخذوا يضربونه أشد الضرب وهو يستغيث ولا من مغيث واجتمعت عليه الجماهير وأخيراً قتل في نفس المكان.

وجاء ممثلون من السفارة الروسية واستلموا جثته وتعكر الصفو بين روسيا وإيران تعكيراً كبيراً مما اضطرت إيران إلى التنازل لروسيا عن بعض حقوقها وأغلقت السفارة الروسية في طهران واستبد البريطانيون بتوجيه الملك القاجاري وبعد مدة تبين أنه كان الأمر كله من مكائد البريطانيين، أما مسألة شفاء الأعمى وشفاء الأعرج فإنهم قد أخذوا الأعمى إلى بعض بلادهم فعالجوه فصار مبصراً، لكنهم بذلوا له المال وأرادوا منه تغطية ذلك عن الناس حتى تحين الفرصة المناسبة، وكانت قصة المسقاة فأشّروا إليه بإظهار بصره وأنها قد شفته، وأما مسألة الأعرج فقد كان ذلك الأعرج إنساناً سليماً فوقع وانكسرت رجله وقد رآه الناس مدة سنوات يعرج ويتكفف الناس فأخذوا هذا الأعرج أيضاً وعالجوه وجبروا كسر رجله حتى صارت رجله رجلاً عادية لكن أوصوه بعدم إظهار ذلك، حتى يشيروا إليه ثم أنه حسب إشارتهم جاء إلى المسقاة مظهراً أنه يريد الشفاء ثم بعد ذلك أظهر أنه قد شفي وطافوا بهذين الاثنين في كل محلات طهران وعلى العلماء والشخصيات حتى يظهر أن المسقاة هي التي شفتهما ومعهما شهود عدول يشهدون بأنهم رأوا أنهما جاءا إلى المسقاة وهو أعمى وهذا أعرج وقد شوفيا ليلة الجمعة في نصف الليل على تفصيل لكن بالتالي تبين أن القصة كانت مكيدة لأجل تخريب الصفو بين إيران وبين روسيا حتى يستبد البريطانيون بالتوجيه والاستفادة.

في كرمان

وقد أحدثوا شبه هذه القصة في كرمان فقد نقل أحد الطاعنين في السن من علماء كرمان قائلاً: كان في كرمان قنصليتان: قنصلية ألمانية، وقنصلية بريطانية، والقنصلية البريطانية ترى الألمانيين مزاحمين لهم في المنافع والتوجيه، فعملوا هذه المكيدة وهي: أنهم في شهر محرم أوعزوا إلى رؤساء المعامل التي تصنع السجاد بتعطيل العمل في هذه العشرة احتراماً لمحرم وأن من السفارة المال ومن رؤساء المعامل أن يقيموا عزاءً كبيراً جداً مزدحماً بعمالهم، ويطعموا هناك ظهراً ومغرباً وصباحاً كل من يريد الأكل، وهكذا صار، حيث عطلت المعامل في تلك العشرة وأصبح المكان المهيّأ للعزاء مزدحماً، بآلاف من الناس وأخذ الخطباء من الصباح إلى الليل يقرأون على الإمام الحسين (عليه الصلاة والسلام).

وهكذا أخذ يشتد الأمر إلى أن وصل إلى يوم عاشوراء وفي يوم عاشوراء بعد أن أكل الناس جميعاً الطعام وكانوا تقريباً أكثر رجال أهل المدينة وإذا بكل واحد منهم أخذ سكيناً أو آلة من الآلات التي يحاك بها السجاد وخرجوا في تظاهرة صاخبة جداً متوجهين إلى القنصلية البريطانية والقنصلية الألمانية يقولون في هتافاتهم (نحن لا نريد الأجنبي) وذلك باللغة الفارسية ثم أقبل المتظاهرون إلى القنصلين فأخذوهما وأزواجهما وأركبوهما الحمار في صخب

وتهريج ووجهوهما إلى نحو بوشهر وفرح الناس عامة بأن الأجنبي خرج من بلادهم وعدوا هذه من شهامة رؤساء المعامل حيث ما كانوا يعرفون المكيدة التي كانت بين بعض رؤساء المعامل وبين القنصلية البريطانية وأن المال كان يعطي من قبلهم لأجل هذه الغاية وبعد ستة وعشرين يوماً من إخراج القنصلين رجع القنصل البريطاني وحده يستبد بالأمر وقام بمصالحة صورية بينه وبين زعماء الأهالي الذين أخرجوه بعنوان أن هذا قنصل لا بأس به وإنما الذي كان فيه البأس هو القنصل الألماني الذي استراحوا من شره والحمد لله.

قضايا جانبية

كما أن في العراق فعل البريطانيون قبل نصف قرن ما يشبه (المسقاة) المذكورة فادعوا أن بعض الأموات أخذوا يظهرون المعاجز مما سبب التفات الناس حولهم فمرروا قضيتهم التي كانوا يريدون الوصول إليها في غفلة من الناس حيث كان الناس مشغولين بالانبهار في المعجزات الموهومة.

ولا ننسى كيف أنهم خلقوا قضية جانبية حول الشهادة بالولاية لعلي (عليه الصلاة والسلام) وهل أنها من الأذان أم لا؟

مما سبب أن ينغمر العراق من أدناه إلى أقصاه حينما أرادوا إبرام معاهدة مع رئيس الوزراء العراقي في ذلك الوقت في نفع البريطانيين وضرر العراقيين وفي غمرة اشتغال الناس في ذلك الحدث الجانبي أبرموا المعاهدة وربطوا العراق بعجلة الاستعمار أكثر فأكثر.

زرع الجواسيس

وفي الحدود بين الباكستان الشرقية والصين ظهر درويش كان يرتاد تلك المناطق ويعطي الأدوية والأدعية ويحل المشكلات ويمر على الحدود إياباً وذهاباً على طول الخط ويرتبط بالعشائر الذين كانوا على الحدود وبعد مدة ظهر أنه عميل وإنما يريد جمع أخبار العشائر لدولته وكان له عصى وبعد تفتيش عصاه تبين أن فيها اللاسلكي وكان يأخذ الأخبار من العشائر ويعطيها إلى أسياده بواسطة ذلك اللاسلكي.

وقصة (إيليا كوهين) عميل إسرائيل في سوريا مشهورة حيث أخذا أخيراً وأعدم.

في مقبرة وادي السلام

وفي النجف الأشرف وجد فقير في مقبرة وادي السلام كان دائماً في المقبرة وأحياناً يأتي إلى الصحن المقدس والناس يرحمونه ويعطونه المال والطعام، وقد كانت إحدى رجليه مكسورة وملفوفة ثم شكوا فيه وفتشوه، وإذا بالرجل المكسورة صحيحة في الواقع وإنما يخفي فيها لاسلكياً يربطه بالجهات الأجنبية، وقد جعل من كسر رجله الظاهري ستاراً لأجل اللاسلكي المخفي هناك.

في صحن الإمام الحسين(ع)

وفي صحن الإمام الحسين (عليه الصلاة والسلام) كان فقير، كنا نشاهده، يتكفف الناس والناس يرحمونه واتفق أن صارت معركة بين جانبين بالخناجر وأصيب هذا الرجل الفقير ولما ذهبوا به إلى المستشفى في كربلاء المقدسة وفتشوا حقيبته وجدوا فيها جوازاً بريطانيا وأنه من الضباط البريطانيين ولما جاءه رئيس الصحة وسلم عليه وأخذ له

التحية قال الضابط: الآن وقد انكشف أمري فلا حق لكم في معالجتي أخبروا سفارتنا في بغداد حتى يأتوا إلينا ويأخذونا إليهم فأخبروا السفارة وجاءت طيارة عمودية إلى المستشفى وأخذوا الفقير الذي كان يعيش في صحن الحسين (عليه السلام) سنوات مع ما معه من الحقيبة والملابس إلى بغداد ولم يعرف بعد ذلك خبره.

في مسجد السهلة

وكان هناك رمال يلازم مسجد السهلة القريب من النجف الأشرف ويلف على رأسه لفة بيضاء لا كعمة الروحانيين وإنما كلفة الكسبة وبعد انقلاب عبد الكريم قاسم في العراق في سنة ثمان وخمسين ميلادية ظهر أنه من الجواسيس المرتبطين بالجهات الغربية وخرج من العراق ولم يعرف بعد ذلك له أثر.

في أفغانستان

وفي أيام أمان الله خان في أفغانستان ظهر درويش في إحدى المساجد وكان هذا الرجل في العبادة والزهد والتقوى والورع ممن يستسقى به الغمام.

وذات مرة خطب للناس الذين كانوا ملتفين حوله ويصلي بهم الجماعة قائلاً: إني رأيت رسول الله (صلى الله عليه وآله) البارحة في المنام وقال لي أنتم في ذل ما دامت هذه الحكومة تسودكم والعلاج أن تزيحوها.

وتعجب الناس وقالوا كيف نزيح الحكومة وكيف أمرنا رسول الله بذلك ونحن لا نملك سلاحاً، والحكومة تحمل السلاح الكافي وطلبوا منه أن يطلب من رسول الله في منام مستقبلي حسب إدعائه هو أنه كيف يتمكنون بلا سلاح أن يحاربوا الدولة ويزيحوها؟

وبعد ما يقارب الأسبوع خطبهم قائلاً: إني رأيت في المنام أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال في جواب سؤالكم: إن في الموضع الفلاني من الصحراء سلاح مخزون كثير يمكنكم أن تذهبوا إلى ذلك المكان وتأخذوا تلك الأسلحة لتزيحوا الحكومة بها، فتقدم الدرويش ومعه جماهير من في المسجد ولما اطلع الناس على ذلك التفوا حولهم حتى صار موكباً كبيراً جداً وذهبوا إلى الصحراء إلى الموضع الذي زعم الدرويش أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أشار إليه وحفروا الأرض وإذا بمخزن كبير من السلاح المحتاج إليه في إقامة ثورة شعبية ومن هناك توجهوا إلى محاربة الحكومة وأقاموا ثورة شعبية مما اضطر أمان الله خان الذي كان هو عميل بريطانيا أيضاً إلى الفرار وانقلبت الحكومة بسبب رؤيا هذا الدرويش ظاهراً، لكن الواقع أن البريطانيين أرادوا إزاحة أمان الله خان فعملوا هذه المكيدة وما كان ذلك الدرويش إلا من الضباط البريطانيين الذين دربوا في الهند على أيديهم والسلاح هم أتوا به إلى ذلك الموضع على حين غفلة من أهل المدن المحيطة بتلك الصحراء.

في المدينة المنورة

ومثل هذه الرؤيا لكن في جهة عكسية رآها العالم الكبير للوهابيين إبان تخريبهم قبور الأئمة الطاهرين (عليهم الصلاة والسلام) وأصحاب رسول الله وزوجاته (صلى الله عليه وآله) ومن إليهم في المدينة المنورة وفي غيرها فإن محمد عبد الوهاب – الذي رباه البريطانيون لتنفيذ مآربهم كما في كتاب (مذكرات مستر همفر) – كان مأموراً

بهدم القبور لإيجاد البلبلة بين المسلمين فهدموا القبور مرتين مرة قبل مائة وثمانين سنة تقريباً لكن لما استولى المسلمون على المدينة المنورة أعادوا القبور إلى وضعها السابق.

ومرة ثانية قبل أكثر من ستين سنة وفي هذه المرة لما أرادوا هدم قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله) – حسب ما يدعون من أنه بدعة – وإذا بمسلمي الهند ومصر وبعض بلاد إفريقيا هاجوا وماجوا واضطربوا وأقاموا المظاهرات المعادية للدولة ولما خاف البريطانيون من انفلات الأمر من أيديهم أوعزوا إلى عميلهم العالم الوهابي أن يقول للناس إني رأيت البارحة رسول الله (صلى الله عليه وآله) في المنام فأمرني أن أترك قبره، فقلت يا رسول الله لماذا؟ قال: لأن المصلحة في بقاء قبري إلى حين.

وبذلك أجاب عن الوهابيين الملتفين حوله الذين كانوا يقولون إن كانت القبور بدعة فلماذا بقاء قبر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وإن لم تكن بدعة فلماذا هدم تلك القباب الأخر للأئمة وأولاد النبي وأصحابه وزوجاته ومن إليهم؟.

على جسر بغداد

وكان في كربلاء المقدسة درويش هندي يأتي إلى صحن الحسين وصحن العباس (عليهما الصلاة والسلام)، وقد رأيته مكرراً ويصيح بأعلى صوته (يا علي) وكان هذا شعاره وبعد الحرب العالمية الثانية نقل لي أحد الأصدقاء أنه رأى ضابطاً بريطانياً على جسر بغداد ومعه جماعة من الضباط الصغار فأخذ هذا الشخص – الناقل للقصة – يذكر مساوئ البريطانيين باللغة الفارسية لأصدقائه الذين يعبرون معه الجسر باتجاه معاكس لسير أولئك الضباط.

قال هذا الرجل: ولما التقيت به سمع كلامي وإذا به يتوجه إلي مع جماعته ويقول لي باللغة الفارسية المكسرة والمشوبة بالهندية ما معناه: إنك إلى الآن لم تترك انتقاص البريطانيين؟ فقلت له متعجباً من كلامه: من أين عرفت أني انتقص بريطانيا ولغتك غير لغتي؟

فضحك وقال: أنا ذلك الدراويش الذي كان في صحن الحسين وصحن العباس وفي المخيم أحياناً، وكنت أقول (يا علي)، فلما قال لي هذا أمعنت النظر إليه فإذا به هو هو وإنما ذلك اليوم كنت أراه ملتحياً وهو في زي الدراويش وعلى جسده ثوباً بالياً، أما اليوم فهو في لباس الضباط الكبار وكأنه قائد فرقة لأن معه ضباطاً صغاراً أصغر منه رتبة وتبين أنه كان جاسوساً بريطانياً يتجسس في العراق لأجل البريطانيين قبل الحرب العالمية الثانية، وبعد الحرب انتهت مهمته فالتحق بالضباط.

ونقل لي أحد تلاميذ الشيخ ميرزا محمد تقي الشيرازي (رحمة الله عليه): أن سبب موته كان أن سقي السم في بعض العقاقير الطبية حيث تبين أن العطار الذي أعطاه الدواء كان من عملاء بريطانيا مدة، فلما أصيب الشيخ ميرزا محمد تقي (رحمة الله عليه) بالزكام أخذوا منه الدواء، فدس العطار السم في ذلك الدواء فلما شربه الشيخ ابتلى بحمى شديدة وتوفي على أثر ذلك. قال هذا العالم ولما وضعناه في المغتسل خرج من فمه وأنفه دم كثير جداً مما سبب تعجب الذين كانوا قد حضروا في المغتسل لتشييع جثمانه الطاهر.

وهكذا ينقل مثل هذه القصة عن الميرزا الكبير المجدد بعد قصة التنباك بأن موته كان من سقيه السم بواسطة بعض عملاء بريطانيا.

ضابط في الحوزة العلمية

نقل لي أحد علمائنا الكبار من المراجع (رحمهم الله) قائلاً: كنت قبل اندلاع ثورة العشرين التي فجرها الإمام الشيخ محمد تقي الشيرازي ألقي على رجال الدين في النجف الأشرف محاضرات دراسية.

وكان أحد الطلاب الذين يحضرون الدرس رجلاً لا يلبس زي أهل العلم، لكنه كان يظهر الإخلاص المتزايد للدين وأهله وللدرس والطلبة وكان من أنشط الحاضرين ومن الرعيل الأول في التقوى والتدين ظاهراً وكان يعلوه الفقر والفاقه بدرجة حتى أني كنت أرق له كثيراً وأشاركه أحياناً معاشي القليل إيثاراً له على نفسي ثم لما وقعت الحرب بين العراقيين بقيادة الإمام الشيرازي وبين بريطانيا حيث أرادت استعمار العراق كنت أنا في زمرة الثوار المجاهدين تحت قيادته الرشيدة (رحمه الله) فلما سم بدسيسة بريطانية. وانتهت الثورة بظفر بريطانيا أُلقي القبض عليَّ وعلى جماعة آخرين من زملائي في الثورة من قبل الدولة، وحكم علينا جميعاً بالإعدام وفوجئت ذات يوم من أيام سجني في زنزانتي الانفرادية أن دخل علي ضابط بريطاني تصورت أني أعرفه لكني كلما توسمته لم أتذكره فقال لي الضابط هل عرفتني؟

قلت: لا من أنت؟

قال: أنا تلميذك فلان ولما قال ذلك تذكرته بهندامه المتواضع ووجهه الملتحي وظاهره الفقير لكنه كان الآن محلوق الذقن مرتدياً ملابسه العسكرية مما سبب ضياعي لشخصه.

قلت: فماذا تريد الآن؟

قال: جئتك أعلمك كيفية التخلص من الإعدام، فإن محاكمتك ستتم على يدي فإذا جاؤوا بك إلى المحكمة، أمام قضاة آخرين، فقل كذا وكذا حتى لا تثبت عليك الجريمة، وتبرأ من التهمة وأني سأكتب لك العفو والخلاص لأنك رجل مخلص وشهم كريم كنت قد أحسنت إليَّ مدة طويلة، وواصل العالم رحمه الله حديثه بقوله: وبالفعل هكذا كان ووقع كل ما قال، وأنقذت من الإعدام فانظر إلى هذه القصة الواقعية، فإنها قصة بسيطة في ظاهرها وعميقة في مغزاها وفكّر كيف تمكن ضابط بريطاني أن يدخل في بلد من أقدس بلداننا نحن المسلمين بدون أن ينتبه له أحد ويمضي سنوات طويلة في تجسسه على المسلمين ومعرفة طرق حياتهم حتى يستطيع الاستعمار من القيام بمهمته بسهولة وبساطة. هذه قصة من العراق وأما القصة من إيران:

راهب للتجسس في جبال طهران

فقد نقل لي أحد السادة أن وزيراً قاجارياً (قبل ثمانين سنة تقريباً) كان قد صادقه أيام زيارته للعراق فنقل له ذات مرة هذه القصة وهي أنه كان في الجبال بين طهران وخراسان راهب مسيحي متبتل متعبد معروف في أو ساط الناس بالزهد والتقشف والانقطاع إلى الله وكان في صومعة في الجبل منذ أكثر من خمسين سنة ولكن فوجئت ذات مرة بكتاب من الراهب يدعوني فيه لزيارته في يوم كذا، وحيث كنت أعرف زهده وتقواه وكنت أجلّه وأحترمه

لبّيت الطلب وحضرت في ذلك اليوم عنده وإذا بي أجد عنده مجموعة تضم زهاء مائة فرد من شخصيات البلاد وكلهم كانوا قد دعوا لزيارته في هذا اليوم وكان الراهب رجلاً كبيراً طاعناً في السن بادية عليه آثار الزهد والورع وبعد أن استقر المجلس بنا قال الراهب اعلموا أني لم أكن راهباً في يوم من الأيام وإنما كنت من البريطانيين الذين تزيّوا بهذا الزي لخدمة وطنهم وكنت أقوم في هذه المدة الطويلة بدور التجسس عما يحدث في إيران وأفغانستان والحصول على معلومات البلدين من طريق العملاء وإنهائها إلى دولة بريطانيا والآن حيث أحس باقتراب موتي أتوب إلى الله (سبحانه وتعالى) مما عملته وأني أظهر لكم إسلامي حيث عرفت حقانية دين الإسلام وأرجو إذا متّ أن تجهزوني كما تجهزون المسلمين.

قال الراهب هذا الكلام وانهمرت عيناه بالدموع مما أثار فينا أكبر قدر ممكن من العطف والحنان وبعد أن رجعت إلى طهران لم يمض زمان طويل إلا وأخبرت بموت الراهب وعمل حسب وصيته وأضاف السيد الناقل قائلاً: – وظني أن هذه الخطوة منه كانت سياسية أيضاً حتى يبين لنا قوة دولته وأنه كيف يجب أن يخشى الناس منها على طريق الدعاية السوداء.

أقول وسواء صدق الراهب في إسلامه أو كذب فالقصة ترينا كيف أن دولة أجنبية تتغلغل في بلاد الإسلام هذه المدة المديدة بدون دراية ولا رقابة من المسلمين وذلك من جراء عدم معرفتهم الكاملة بالسياسة.

في عشائر العراق

وكان في العراق قبل الحرب العالمية الأولى جاسوسة بريطانية تسمى (مس بيل) ولها مذكرات مطبوعة باسم (مذكرات مس بيل) نقل لي أحد الخطباء الكبار من أهل الحلة: أنه رآها ذات مرة – وكان يعرفها – في زي البدويات وهي تمشي راجلة في الصحراء فسألته عن (نهر كذا)، قال الناقل: فقلت لها هو هناك، وأشرت إلى موضع مخالف لموضع النهر، فقالت: كلا، بل هو هناك وأشارت إلى الموضع الحقيقي للنهر، وقد كانت هذه الجاسوسة تذهب إلى العشائر في زي بدوية ختانة وماشطة وعطارة وحفاية تحفي البنات وتتجسس على العشائر، وترسل بأخبارهم إلى لندن مدة مديدة قبل ثورة العشرين وكانت دليلاً للجيش البريطاني إبان احتلالهم للعراق.

الجاسوسة العجوز

نقل أحد السواق الطاعنين في السن وقال: قبل ما يقارب من ثمانين سنة كانت لي سيارة وكنت أشتغل بها بين بلد وآخر فطلبني أحد الشيوخ وقال لي: إن هناك عجوز من عشيرته تريد السفر إلى بغداد وحيث أنك رجل أمين أرسلها معك بشرط أن لا تتكلم معها إطلاقاً وأنك إذا خنت قتلتك – وكان الشيخ قادراً على ذلك – فكم تأخذ أجرة السيارة؟

قلت: ثلاث عشرة روبية.

قال: لا بأس لكن على هذا الشرط، فقبلت الشرط. ثم قال لي: إن الطريق طويل بين بلدنا – وذكر السائق اسم ذلك البلد مما لا أريد ذكره – وبين بغداد وكلما أرادت هي شيئاً من قضاء حاجة أو شراء شيء عند المقاهي أو ما أشبه ذلك أشارت إليك فتقف حتى تقضي حاجتها بدون أن تكلمها.

قال السائق: فجاءت امرأة وركبت السيارة وأخذت أسوق السيارة من ذلك البلد متجهاً إلى بغداد، وفي الطريق كلما أرادت حاجة أشارت بضرب باب السيارة بيدها فوقفت ونزلت وقضت حاجتها أو اشترت شيئاً من المقهى ونحوه، وطالت السفرة أربعاً وعشرين ساعة حتى وصلنا إلى بغداد فأشارت إلى الشارع الكذائي فدخلت فيه وإذا بها تؤشر أن أقف على باب، فوقفت ورأيت شرطياً واقفاً على الباب، فتعجبت من وقوف الشرطي لكني لم أقل شيئاً، فنزلت المرأة ودخلت، وبعد نصف ساعة تقريباً من وقوفي وانتظاري جاء إنسان ليقول لي: إن المسافرة التي كانت معك تريدك، فدخلت وإذا بي أرى بيتاً كبيراً من بيوت الحكومة، والشرطة بكثرة في داخل البيت، والناس يدخلون ويخرجون من باب آخر غير الباب الذي دخلت منه، فأشار الدليل إلي أن أصعد فصعدت إلى الطابق الثاني فأدخلني غرفة كبيرة وفي الغرفة رجل مسن جالس خلف منضدة كبيرة وإلى جانبه فتاة في زي العسكريين فقلت في نفسي متعجباً: ما هذا؟ ومن هذا؟ ومن هذه؟

فقالت الفتاة: لا تعرفني؟

قلت: لا، وأنا مستحي منها، لأنها كانت شبه عارية في ملابسها العسكرية.

فقالت: أنا العجوز التي جئت بها من البلد الفلاني إلى بغداد فقد تظاهرت بذلك، فقلت لها: ومن أنت؟

قالت: أنا مس بيل، ثم أعطتني أربع عشرة روبية، وقالت: ثلاث عشرة روبية حسب القرار، وروبية لأمانتك.

فانصرفت وأنا غارق في التعجب من هذا الأمر.

في عشائر إيران

وكان أحد جواسيس بريطانيا كما نقل بعض في (جهار محال بختيار) من إيران قد تشبه بالعشائر حتى تصورت العشائر أنه أحد أفرادهم البعيدين عنهم فاحترموه غاية الاحترام وبقي هناك أكثر من عشرين سنة وتزوج منهم زوجة لكنه امتنع أن يولدها وتجسس على العشائر ولما أراد القفول إلى بلده باع زوجته بحمار وركب ذلك الحمار إلى بوشهر ومن بوشهر ركب السفينة وأبحر إلى لندن وبعد ذهابه تبين – حسب تصريحاته في مذكراته – أنه كان من الجواسيس، في إيران وكان يتجسس عليها لصالح بريطانيا.

تخطيط الاستعمار

وفي مذكرة لسفير ألمانيا قبل نصف قرن تقريباً كان يتواجد في طهران يقول فيها تحت عنوان (الملا والسوق): إننا يجب علينا أن نحطم الملا والسوق لأننا كلما أردنا من خطوة إصلاحية – حسب تعبيره – بسبب الملك، يراها (الملا) مخالفاً لموازين الإسلام أو يرى فيها شائبة استعمار فيوحي إلى أهل السوق الذين يقلدونه بغلق السوق والاضراب أو المظاهرات، فيفعل السوق ذلك وتشل الحركة التجارية ويهيج الناس ويموجون، مما يضغط على الملك بسحب كلامه فلا نتمكن من استعمار البلاد ما دام الملا والسوق موجودين فاللازم علينا أن نشتت السوق حتى لا تكون هناك وحدة واحدة سوقية تكون ظاهرة للعيان بل تكون هناك دكاكين مبعثرة في طول طهران وعرضها كما أنه يجب أن نأخذ النفوذ من العلماء والحيلولة بين الشعب وبينهم وذلك بفتح المدارس ونحوها حتى نتمكن من تنفيذ أوامرنا وإلا فما دام هذان الأمران لا نتمكن من إجراء الخطوات الإصلاحية في طهران.

وقد ذكرت الجاسوسة البريطانية المشهورة (مس بيل) التي كانت حقبة من الزمن في العراق في مذكراتها التي ترجمها (جعفر الخياط) وطبع في (لبنان): إنهم في ثورة العشرين رأوا أن الذي أثر عليهم وسبب انهزامهم كانوا هم العلماء لأنهم نافذو الكلمة في الشعب، ففكروا في الحيلولة بين العلماء وبين الشعب وذلك بفتح المدارس التي تربي جيلاً خارجاً عن نفوذ العلماء وحينئذ لا يتمكن العلماء من شيء. وهكذا فعلوا في العراق حتى وصل الأمر فيه إلى تحطيم الحوزات العلمية وتهجير المؤمنين عن العتبات المقدسة إلى غير ذلك مما فعله عبد الكريم قاسم وإلى اليوم الذي يحكم صدام نيابة عن الغربيين.

في عبادان

وقد نقل أحد الثقاة أنه كان لأحد العراقيين مشكلة قانونية كبيرة في إيران فأخذ من علماء النجف الأشرف توصيات إلى الجهات الكبيرة المسؤولة في إيران. وجاء إلى إيران لحل مشكلته وراجع أولئك المسؤولين وكلما توسط أحد أولئك في حل مشكلته لم ينفعه وأجاب المسؤولون أنهم لا يقدرون على حل هذه المشكلة وإنما القادر على حلها هو الملك فقط فيئس الرجل عن حلها.

ثم أرشده شخص في بغداد مرتبط بسفارة بريطانيا أن يراجع أحد رؤساء شركة النفط في عبادان، لكن الرجل قال في نفسه كيف يتمكن رئيس شركة النفط من حل هذه المشكلة التي عجز عن حلها حتى رئيس الوزراء الإيراني، وأخيراً قرر مراجعته حيث أن صاحب الحاجة كالغريق يتشبث بكل حشيش، فراجع ذلك الرئيس في شركة النفط فكتب الرئيس إلى جهة مختصة (كتاباً) صغيراً بحل مشكلة الرجل وبمجرد أن رأت تلك الجهة التي بعث الكتاب إليها حلت المشكلة سريعاً، أورث دهشة المراجع وبعد التحقيق تبين أنه من العملاء المخفيين لبريطانيا والذي ينفذ أمرهم في كل الجهات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

في كرمانشاه

كما نقل قبل أربعين سنة تقريباً أحد الأصدقاء الذين ذهبوا إلى إيران – ونحن إذ ذاك في العراق – أنه وصل إلى طهران وحدثت له مشكلة وكلما حاول حلها بواسطة الجهات المسؤولة لم يتمكن من حلها فأرشده إنسان إلى أن يذهب إلى كرمانشاه ويراجع (حزب الحمير).

قال: فتعجبت من هذا الكلام لكني لاضطراري ذهبت إلى كرمانشاه وسألت بتكتم عن الحزب؟

قالوا: نعم هنا حزب يسمى بحزب الحمير فراجعت مقر الحزب وإذا بي أرى أن المقر ممتلئ من التصاوير والتماثيل المصنوعة للحمار وكان فوق رأس الرئيس لائحة قد كتب عليها: (حزب الحمار أحسن الأحزاب، ومن لم يصدق فهو بقرة).

فلما أبديت له المشكلة رحب بي فسألته عن هذا الحزب؟

قال: الناس بحاجة إلى الترويح عن أنفسهم ونحن شكلنا هذا الحزب لأجل ذلك وفي أيام الربيع نذهب إلى الصحراء ونفعل كما يفعل الحمير في المزارع من التمتع بالأعشاب. وإنا نرى أن التكليف ساقط عن الإنسان لأن

الله سبحانه وتعالى غير محتاج إلى صلاة الإنسان وصومه، وإنما خلق الإنسان لينتفع الإنسان، لا لينتفع هو بعبادة الإنسان وطاعته.

قال الرجل: ورأيت أيضاً في المقر أن كل من يأتي من أفراد الحزب من البنين والبنات (المكشفات العاريات اللاتي كن يأتين بشكل مثير جداً) يعطى شعار الحمير أي لا يسلم بعضهم على بعض وإنما يخرج صوتاً يشبه نهيق الحمير، وكان كذلك حال كل أفراد الحزب إذا التقى بعضهم ببعض. ولما ذكرت للرئيس المشكلة قال: لا بأس فكتب (كتاباً) إلى عطار في طهران أدرج فيه: أن حامل الكتاب من أصدقائنا وينبغي حل مشكلته.

قال الناقل: لكني استهنت بالأمر استهانة كبيرة وأنا غارق في الحيرة من هذا الحزب ومما له من فروع في طهران وبعض المدن الإيرانية الأخرى لكني أخذت (الكتاب) وراجعت ذلك العطار ولما أعطيته الكتاب قال: لا بأس وكتب تحت الكتاب شيئاً وقال: راجع السفارة البريطانية وأعطه لفلان واحد من المستخدمين.

قال: فذهبت إلى السفارة وسلمته الكتاب فأبدى لي اهتماماً كبيراً وصحبني إلى السفير وحل السفير مشكلتي بما تعجبت منه أكبر العجب. نعم إن (حزب الحمير) كان حزباً بريطانياً صنعه البريطانيون تحت هذا الستار حتى يجلبوا إلى هذا الحزب أكبر قدر ممكن من البنين والبنات ويسببوا إدخالهم في الفساد أو في الشبكة الجاسوسية البريطانية في إيران.

إن الغرب والشرق بسبب عملائهم وأسلحتهم يديرون بلاد الإسلام أسوأ إدارة، إن إدارتهم حتى لبلاد أنفسهم سيئة فكيف بمستعمراتهم، وإن كان لها الاستقلال الشكلي، وهل هذه إدارة؟

أمراض وقلق وطبقية حادة وثروات وحروب، وقد هيأوا لإبادة الحضارة أسوأ أدوات الفتك والدمار، نعم من خرج عن مظلة السماء وتعاليم الأنبياء، لا بد وأن يبتلى بأمثال ذلك (وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً)(١) ولنسمع إلى طرف من هذه الحضارة الزائفة لنرى صدق الله سبحانه.

١ . سورة الكهف: الآية ٤ .

الفصل الخامس: الديكتاتورية عدو التغيير

بحوث في الديكتاتورية

بحوث في الديكتاتوريّة

كيف يأتي الدكتاتور إلى الحكم، وما هي مقومات بقائه؟ ولماذا يسقط؟ وكيف يبنى الحكم بعد سقوط الدكتاتور؟ إذا عرفنا الجواب عن هذه الأسئلة الأربعة نعرف كيف نهيّئ للمسلمين حكماً إسلامياً زاهراً خالياً عن الدكتاتورية، مطبقاً لأحكام الإسلام التقدمية، فإنه بمجرد أن تطهر أجواء بلاد الإسلام عن الدكتاتورية تسير الأمة إلى الأمام لبناء حضارة إسلامية صحيحة تنقل المسلمين من الحضيض الذي وصلوا إليه الآن إلى الأوج الذي أراده الإسلام، لا للمسلمين فحسب بل لكافة البشرية، فإن إنقاذ المستضعفين أيضاً مهمة إسلامية كما قال سبحانه: (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين)(١).

كيف يأتي الدكتاتور؟

أما كيف يأتي الدكتاتور إلى الحكم، فالجواب أنه يأتي بسبب جهل الأمة، إما جهلاً سلبياً بأن يجهلوا أن مشاكلهم نابعة من الحكم، بل يتصوروا أنها نابعة من شيء آخر، أو جهلاً إيجابياً وهو أسوأ الجهلين لأنه جهل مركب وهو أن يتصوروا أن من (الدين) الإبقاء على هذا النحو من الحكم، أو يتصوروا أن قدر المسلمين البقاء في ذيل القافلة والتخلف إلى ما شاء الله، أو ما أشبه ذلك من أنحاء الجهل بكلي قسميه.

فبعض يتصور أن مشكلة البلاد الإسلامية هي التمسك بمبدأ القومية سواء منها الفارسية أو العربية أو الكردية أو الهندية أو غيرها، وأنه إذا نبذوا القومية تمكنوا من التقدم إلى الأمام.

وبعض يتصور أن المشكلة نشأت من التمسك بمبدأ الحدود الجغرافية، فهذا حد العراق، وهذا حد مصر، وهذا حد إيران، وهذا حد باكستان، وهذا حد أندونيسيا، فإذا نبذوا الحدود الجغرافية صلحت الأمور.

وبعض يتصور أن المشكلة تكمن في عدم نظام صحيح للتربية فإذا صلح نظام التربية انحلت المشكلة.

وبعض يتصور أن المشكلة في عدم إدراك الناس روح التراث الإسلامي، فإذا أدركوا روح التراث الإسلامي انحلت مشكلتهم.

وبعض يتصور أن المشكلة في الفرد المسلم نفسه، فإنه غير مربى بتربية إسلامية صحيحة فإذا تمكنا من حل هذه المشكلة في نفوس المسلمين تقدم الإسلام تلقائياً إلى الأمام.

وبعض يتصور أن المشكلة هي عبارة عن توسع جهاز الحكم فبينما جهاز الحكم إبان الحكم الإسلامي كان صغيراً جداً توسع وتوسع حتى شمل كل مرافق الحياة، فإذا تمكنا من إرجاع الحكم إلى حجمه الطبيعي انحلت المشكلة.

إلى غير ذلك من التعليلات التي يجدها الإنسان في مجتمعاتنا.

الجهل ركيزة الحكومات الدكتاتورية

وهنا يأتي سؤال وهو أن النظام الدكتاتوري إذا لم يكن مستنداً إلى الأمة، ولا إلى الواقع والمنطق والبرهان، فكيف يتمكن أن يترعرع ويشب ويعيش ويصل إلى الحكم، ثم كيف يتمكن من البقاء على الحكم لفترات طويلة، كما نشاهد ذلك بالنسبة إلى الأمويين والعباسيين والعثمانيين من العهد الماضي وبالنسبة إلى الشيوعيين والرأسماليين بالنسبة إلى العهد الحاضر؟

والجواب: إن الاستبداد إنما ينمو ويترعرع ويعيش ويقفز على الحكم ويبقى بسبب جهل الناس ولذا يصر الإستبداد دائماً على سياسة التجهيل، ويغلق نوافذ المعرفة على الناس بألف وسيلة ووسيلة، أما الحكومات الأموية والعباسية والعثمانية فلم تكن كل واحدة منها حكومة واحدة ممتدة، بل كان يذهب الاستبداد المحض بموت ملك ويأتي من هو أقل منه استبداداً فيتنفس الناس، كما يحدثنا بذلك التاريخ بالإضافة إلى أن فترات الحكم العباسي تراوحت بين انفراج كثير في أوله، ثم تبدلت العهود، وحكم الفرس والترك وغيرهما.

أما بالنسبة إلى العصر الحاضر فالرأسمالية التي هي أقل مأساة من الشيوعية أقوى وأكثر دواماً منها، فبالإضافة إلى بعض الحريات التي فيها، يتبدل الحزب الحاكم بين فترة وأخرى، وهل من الممكن أن يتصور إنسان يُحكّم عقله ورويته إن نظام لينين وماو وهتلر وموسيليني وأمثالهم كان يتمتع بشيء من البصيرة والواقعية، حتى تمكن من الاستيلاء على الحكم أو كانت الأحزاب الشيوعية في هذه البلاد أكثرها عنفاً وفتكاً، فبينما كان العقلاء لا يريدون سفك الدماء وعلاج الفاسد بالأفسد كان هؤلاء لا يتورعون من أية جريمة في سبيل الوصول إلى الحكم.

وقد قال (هارولد لاسكي) في كتابه (تأملات في ثورات العصر): (وليس هناك من أدرك ضخامة حماقتها وأخطائها، بل وجرائمها مثل لينين مهندسها الأول) (قال ذلك بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي) ولو مدحنا كل من وصل إلى الحكم وخطّأنا كل من لم يصل لكان هتلر وموسيليني ونيرون وستالين والحجاج ويزيد وفرعون وهارون ومأمون ونمرود على رأس قائمة الممدوحين.

الدكتاتورية.. هي سبب تأخر المسلمين

إن كل ما ذكر صحيح لكن بقدر لا على نحو الإطلاق، فإن نظام التعليم المنحرف والحدود الجغرافية وكبت الحريات بتضخم جهاز الدولة وغير ذلك، كلها تساهم في تأخر المسلمين وجعلهم في ذيل القافلة لكن الظاهر أن المشكلة كامنة في دكتاتورية الحكم بتمركز القدرة في أيدي جماعة قليلة تنتهي بالآخرة إلى فرد واحد، فإن من طبيعة القدرة المتمركزة كبت القابليات وإبادة الكفاءات ومنع الناس من أن يفكروا أو يقولوا – فإن وضع الجو إذا صار جواً دكتاتورياً مات فيه الفكر أيضاً – وفي مقابل ذلك يلف الدكتاتور حول نفسه جماعة من الامّعات الذين لا يهمهم إلا البطن والشهوات.

فإذا تمكن المسلمون من توزيع القدرة لا بد وأن يظهر الإسلام الذي فيه حل كل المشاكل الاقتصادية والسياسية والتربوية والاجتماعية وغيرها.

إنه لا شك في أن الإسلام كمجموعة أحكام معروف لدى الفقهاء المجتهدين الذين بذلوا وسعهم لاستنباطها، أما الموضوعات فهي بحاجة إلى الخبرات الواسعة الزمنية من سياسية واقتصادية وغيرهما، ولذا اشتهر بين الفقهاء أن الموضوع يؤخذ من العرف وإنما الحكم يؤخذ من الشرع، وحيث أن الكفاءة في الأحكام وفي الموضوعات متوفرة في المجتمع على نحو القوة وإنما الذي يحول دون ظهورها على نحو الفعلية هو دكتاتورية الحكام، فإذا تمكن المسلمون من إزالة هذه الدكتاتورية – التي تظهر تارة بالمظهر الملكي، وأخرى بالمظهر الجمهوري، وثالثة بالمظهر العلماني، والرابعة بالمظهر الديني، وإلى غير ذلك – نمت القابليات في الأحكام وفي الموضوعات، وهناك يكون البدء بالتقدم.

مقومات بقاء الدكتاتور

وإذا عرفنا أن الجو الجاهل هو الذي يأتي بالدكتاتور إلى الحكم نعرف الجواب عن السؤال الثاني وهو ما هي مقومات بقاء الدكتاتور؟

فإن العلة المبقية هي العلة المحدثة، فما دام الجهل مسيطراً على المجتمعات الإسلامية يبقى الدكتاتور، وإذا سقط الدكتاتور تسلم دكتاتور آخر مكانه، ولا تهم بعد ذلك الألفاظ من الملكية والجمهورية والدينية والعلمانية وغيرها، وإنما الجوهر هو الدكتاتورية، ولهذا نشاهد – في البلاد الإسلامية – أنه لا فرق في الجوهر بين كل الأشكال المتواجدة في مختلف الأقطار.

إن السبب الذي يأتي بالدكتاتور إلى الحكم ثم يبقيه – ما بقي ذلك السبب – هو جهل الجماهير وتطبعها بنزعة منحرفة تجعل من عبادة الفرد والتسليم له مذهباً دينياً وتريهم أن كل ميل إلى الحاكم يكون كالميل إلى الدين.

تقديس الحكام

وقد رأينا كيف أن عبد الناصر كان يقدس تقديساً غريباً وكانوا يقولون له: (لبيك) كما يقال لله سبحانه وتعالى لبيك عند الحج، ورأينا كيف أن عبد الكريم قاسم كان في نظرهم مختاراً من قبل العناية الإلهية، حتى قال أحد الشعراء في حقه: (الله أرسله لينقذ أمة).

فهو إذاً مرسل من قبل الله سبحانه وتعالى، ولا يعجز عن شيء، ولا يخضع للقوانين التي يخضع لها البشر، بل هو يتلقى وحياً خاصاً من السماء لا بسبب جبرائيل وإنما بسبب الإلهام إلى قلبه وكان بعضهم يقول: (يلهم إلى قلبه) وهل هو أقل من النحل الذي قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم: (وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون)(٢) أو هو أقل من أم موسى حيث قال سبحانه: (وأوحينا إلى أم موسى)(٣)؟! فهو محاط بالعناية الإلهية وهو الزعيم الأوحد كما كانوا يعبرون بذلك عن عبد الكريم قاسم وهو فوق الجميع وعبد الكريم قاسم كان بنفسه يقول: (أنا فوق الميول والاتجاهات).

وهكذا الحال بالنسبة إلى شاه إيران وعبد السلام عارف وغيرهم من الدكتاتوريين الذين كانوا لا يرضون إلا بأن يعاملوا معاملة الإله، وكان أتباعهم يمجدونهم بهذا التمجيد، وقد سمعت أحد الإمّعات، يقول لرئيسه: (إنه رسول هذا الزمان) وتدريجياً يغترّ الزعماء بما يسمعونه من زبانيتهم، ولهذا تراهم يعبرون – هم – عن أنفسهم بأنهم رسل

عقيدة وأنه لا تحيط بقدرتهم قوة البشر، ويصفون أنفسهم كما يصفهم أتباعهم أيضاً، بأنهم جاءوا وأصلحوا بما لم يكن له مثيل في سالف الزمان حتى إلى عشرات القرون.

وحيث أنهم يحاطون بغموض إلهي غيبي خارج عن قدرة البشر فهم لا يخضعون لفحص العمليات العقلية العادية، كما أنه ليس من المناسب أن يخضعوا للإجراءات الاستشارية، فإذا أراد إنسان أن يفعل الصواب كان عليه أن يطيعهم طاعة عمياء، وإذا أراد أن يفعل الخطأ فهو أن يشك في حكمة الرئيس الأوحد أو ممثله، وأحكام الممثلية تجري حتى بالنسبة إلى الشرطي العادي الذي يمشي في الشارع، فهو ممثل الزعيم الأوحد وقد قال أحدهم:

(حكمي حكم الرئيس وحكم الرئيس هو حكم الله).

إبادة المعارضة

وحيث أن الزعيم صار كالإله فلا بد وأن تكون عقوبة المخالف له أيضاً عقوبة من مس كرامة الإله لا عقوبة عادية، فإذا أهان إنسان الزعيم في وقت ما ولو عند كونه إنساناً عادياً يكون جزاؤه الإبادة الكاملة لنفسه وعائلته ومصادرة ممتلكاته، كما رأينا ذلك بالنسبة إلى (أحمد حسن البكر) حيث أن مدير الأمن كان قد صفعه لمخالفة قام بها وهو إذ ذاك إنسان عادي فلما وصل إلى الحكم أمر بإعدامه ومصادرة جميع أمواله وسجن ذويه.

الحرب أداة الدكتاتور

وإذا اتفق أن اشتغل الدكتاتور بحرب كما اشتغل عبد الكريم قاسم بحرب الشمال، وعبد الناصر بحرب اليمن، فإن القداسة ترتفع إلى الألوهية الكاملة، فكل كلام حتى ضد أصغر موظف في الدولة يعد خيانة للوطن، وجزائها الإعدام والسجن، وإذا أراد إنسان أن يتكلم بكلمة يقال له: هل تهدر دماء الذين قتلوا في المعركة؟

فكلمة الإصلاح والهداية والتوجيه والإرشاد وما أشبه تصبح كلها مرادفة لهدر دماء المقتولين والتعاون مع الاستعمار إلى غير ذلك من العبارات المشابهة التي يتلقاها المصلحون في الشرق الأوسط.

طبيعة الجهاز الدكتاتوري

وفي هذا الصدد يقول أحد السياسيين: إن الحقيقة التي يجب أن يتذكرها الإنسان دائماً هي أن الجهاز الذي يستغله الخارجون عن القانون في السيطرة مكون على هيئة نمطهم الأخلاقي، وهو يتيح قوة للآلاف ممن لا عهد لهم بالمسؤولية، وهو يبرر لهم استعمال الإرهاب، والعنف بوصفهما أسلوباً للسيطرة على حياة المواطنين العاديين، ويضفي إستعمال القوة بدون أي قانون على أولئك الذين عهد إليهم بها إحساساً بآفاق لا حدود لها في متناول أيديهم، فهو يرضي خيلاءه بأنواع التبرير العقلي والمصلحة الشخصية على أنها الواجب ويحررهم من الاعتماد على القيم، وذلك عن طريق مقارنة هذه القيم بما لاقاه الشعب في الماضي من فشل وعن طريق إثبات أنها قيم غير مجزية، والناس يتعودون على الجو الذي يعملون فيه، فهنالك آلاف مؤلفة من الأعضاء الشبان في الحركات الانقلابية، لا يعرفون شيئاً مطلقاً عن أساليب الاقناع العقلي بوصفها وسيلة للحكم وإنما وسيلتهم الوحيدة السلاح، وقد علّموهم بأن لهم الحق فيما يستطيعون الحصول عليه، والشهادة الوحيدة التي يعرفونها بشرعية عملهم هي أن يكون العمل ناجحاً، والنجاح في ميزانهم غير النجاح في ميزان العقلاء، وهم يدربون على اعتبار

العنف رجولة، والازدراء بالناس كرامة، ومن ثم يفترض أن الشك والمناقشة في أي شيء صادر من القمة – الزعيم الأوحد – هي من علامات الضعف والانحراف، وكذلك يعلمهم من فوقهم أن الدنيا أمامهم ليأخذوها وأن لا حدود لحقهم إلا مقدار قوتهم، وكلما زاد تكريسهم أنفسهم لهذا المذهب الشاذ الذي يلقى إليهم من فوق زاد أملهم في تحقيق طموحهم، ولما كانوا يعيشون في سيل لا ينقطع من غرس الأفكار التي تصر على أن أي نقد يوجه إلى الزعيم أو طريقته عداء للدولة يكونون هم أيضاً أسوداً على الناس، والمبرر الوحيد الذي يبرر كل ذلك في نظرهم أن الزعيم الأوحد هو الذي انتصر وأنه وصل إلى الحكم إما بانقلاب عسكري أو بانقلاب شعبي انتهزه الزعيم الأوحد حتى سيطر على الحكم وحرف الثورة عن مجراها الواقعي إلى عبادته الشخصية.

إسقاط الدكتاتور

من الضروري الاهتمام لفضح الدكتاتوريات في العالم الإسلامي، حتى لا يكون هناك دكتاتور يحكم حسب هواه، سواء حكم باسم القانون، أو باسم الدين، أو باسم الطبقة العاملة، أو باسم الطبقة المتعالية، وذلك بواسطة تأليف ألوف الكتب في ملايين النسخ بمختلف المستويات وشتى اللغات.

ومهما تذرع الدكتاتور بالذرائع، يجب أن لا تقبل منه فإن من الواضح أن العقول خير من العقل الواحد أو عقول أقل، ومن الواضح أيضاً أن الحق للناس، فبأي حق يسلبهم الدكتاتور حقهم.

والدكتاتور لا يتنازل عن كرسيه، وإنما اللازم إنزاله، فإن الحق لا يعطى وإنما يؤخذ، وقد اعتاد الدكتاتوريون كالحكومات العسكرية الانقلابية أن يقولوا إنا صنعنا الانقلاب فلنا الحق: دون من سوانا.

والجواب: هل صنعتم الانقلاب لأجل أنفسكم أو لأجل الناس؟

فإن كان الأول فلا حق لكم في التكلم باسم الناس، وإن كان الثاني فلماذا لا تشركون الناس في الحكم، بانتخابات حرة... (ومثل هؤلاء، الحكومات الوراثية).

ومن طبيعة الدكتاتور أن يجمع حول نفسه (إمّعات) باسم إنهم الناس، بينما عقلاء القوم والسياسيون والمحنكون يعيشون في حالة العزلة أو في السجون أو المنافي، أو صار نصيبهم القبر، إن الإمّعات (مادحو الدكتاتوريين) ليسوا إلا كالخشب المسندة، لا قيمة لهم، وإنما كل ما يملكون السلاح والدعاية والمال، كما رأينا ذلك في عهد (ناصر) و (قاسم) و (الشاه) ومن إليهم وإنما بمجرد سقوطهم ظهر هراء أقوالهم، وأنهم لا يحظون بحب الشعب لهم ولو بمقدار قيراط، وظهرت فضائحهم.

وقد ذكرنا في بعض الكتب أن أهم علائم الدكتاتور:

١ – عدم وجود الأحزاب الحرة، فإذا كان البلد إسلامياً، يلزم وجود أحزاب إسلامية حرة، وإذا كان غير إسلامي، كانت علامة الدكتاتورية عدم وجود أحزاب حرة.

٢ – وعدم تبدل السلطة كل فترة من الرئيس الأعلى إلى سائر السلطات. وربما يقال، وهل في الإسلام مثل هذين الأمرين؟ والجواب: إن الحكومة الإسلامية قوامها:

(آ)– شورى المراجع الذين هم مراجع تقليد الناس.

(ب)- وأحزاب حرة إسلامية، وكلاهما يتعاونان في إدارة البلاد، حسب القوانين الإسلامية.

أما شورى المراجع فلأنهم نواب الأئمة (عليهم السلام) الذين نصبوهم حكاماً وخلفاء بقوله (صلى الله عليه وآله): (اللهم ارحم خلفائي)(٤) وقوله (عليه السلام): (فإني قد جعلته عليكم حاكماً)(٥) ولا وجه لأن يكون بعض المراجع في الحكم دون بعض، لأنه عزل لخليفة الرسول والحاكم المنصوب من قبل الإمام، ولا حق لأن يقول أحدهم أن المرجع الفلاني لا يفهم أو ما أشبه (من الاتهامات) إذ ما دام قبلته جملة من الأمة بملء إرادتها، فاللازم أن يكون شريكاً في الحكم، وإلا فلو انفتح باب الإقصاء بهذه الذرائع، لأمكن لجماعة كل مرجع أن يتهم الآخرين.

كما لا حق لحزب واحد (وإن كان إسلامياً) اتهام الآخرين بالعمالة، أو بما أشبه ذلك، وإلا كان للأحزاب الأخرى أن يتهموا ذلك الحزب الواحد الذي أخذ بزمام البلاد، بنفس الاتهام.

فإن الاجتهادات الفقهية، والاجتهادات السياسية مختلفة، فلا أولوية لإحداها على غيرها، وحيث أن الأمة تختار المجتهدين والأحزاب الإسلامية، فاللازم أن يكون الكل في مسرح السياسة والحكم بأكثرية الآراء.

وحيث أن هذا هو الإطار الإسلامي الصحيح المستفاد من الكتاب والسنة والعقل (كما فصلناه في بعض الكتب الفقهية).

فالجواب عن سؤال: هل في الإسلام تبدل (شورى المرجعية) و(السلطة)؟

هو: نعم، إن فيه تبدلهما، أما تبدل السلطة فلا إشكال فيه أما تبدل شورى المرجعية، فإنه لا يقع تلقائياً (وإن جاز شرعاً بشروطه).

والسبب في عدم تبدل شورى المرجعية، أن الأمة بعد التحقيق والتدقيق، تعين وتختار مراجع تقليدها ويكونون هم أعلى سلطة في البلاد، يديرون دفة الحكم بأكثرية الآراء ومن المعلوم أن الأمة لا تبدلهم بملء إرادتها، لأنهم مراجع تقليدها، كما نشاهد الآن أن الأمة تقلد المرجع، طيلة حياة المرجع، بدون أن يكون للمرجع قهر وغلبة وسلاح ودعاية، من أسباب الدكتاتورية.

نعم إذا سقط مرجع التقليد عن المؤهلات، مثل غلبة النسيان عليه أو ما أشبه لا يكون من الحكام حينذاك.

وربما يقال: كيف يمكن جمع مراجع التقليد في مجلس واحد، وهم في مختلف البلاد؟

والجواب: أنه يمكن أن يكون له ممثلون، في مجلس واحد، يوصلون أنظار كل واحد منهم إلى المجلس، ويرفعون التقارير إليهم، فإذا حصلت الأكثرية، كان ذلك الرأي مورد التنفيذ بسبب السلطات التأطيرية: (التشريعية) والقضائية، والتنفيذية.

وعلى أي حال فلا دكتاتورية في الإسلام لا من حيث المرجعية، ولا من حيث الحزبية، بل الإسلام دين الحريات والعدالة الاجتماعية وعليه فإذا رأينا حكومة تحكم باسم الإسلام وفيها شيء من الدكتاتورية، فاللازم أن نعلم أن الإسلام لا يقرر مثل هذه الحكومة.

لا يقال: الحاكم الإسلامي الدكتاتور يقول: أنا استشاري، ولست بدكتاتور؟

لأنه يقال: إذا صدق أنه ليس بدكتاتور، فليفسح المجال للبحث الحرّ من المعارضة في مختلف وسائل الإعلام، فهل هو أفضل من رسول الله (صلى الله عليه وآله) وعلي (عليه السلام) وحيث كان المسلمون وغير المسلمين، يفتحون معهم المناقشات الحرة بمسمع من الناس وبمنظر منهم؟

كما يدل على ذلك (كتاب احتجاج البحار، واحتجاج الطبرسي) وغيرهما، أما أن يبتعد الحاكم عن الناس، ويقتنع بحضور الناس عنده للمباركية بدون المناقشة معه، ويحرك عماله لتنفيذ أوامره ويفتح باب السجون وينصب المشانق، ويرسل الجلاوزة لمصادرة الأموال، وتكيل وسائل أعلامه وعملائه التهم لكل من يريد قولاً معارضاً فإن ذلك من لوازم الدكتاتورية.

وعلى الأمة أن تعي حتى لا تستغل باسم الديمقراطية، أو الانقلاب على الفساد، أو الاستشارية، أو الإسلام، أو ما أشبه ذلك.

وإذا تسلط الدكتاتور على الأمة بألف اسم، وتحت ألف ستار، فاللازم على المصلحين أن يتمسكوا لإزالة الكابوس، بالقوة الشعبية، فإن هناك قوتين لا ثالث لهما، قوة السلاح حيث تقع يد الحكومة، وقوة الشعب التي تتمكن أن تقاوم قوة السلاح، فإذا تمكن المصلحون أن يتمسكوا بهذه القوة بتعقل وروية أزالوا تلك القوة، فإنها القوة الفائقة التي تتمكن أن تسحب قوة السلاح عن الباطل إلى الحق.

والطريق الطبيعي لسحب القوة عن يد الحكومة الدكتاتورية، توعية الشعب بملايين الكتب، ثم تكتيل الشعب تحت ألوية النهضة والثورة، والتحرك لأجل إزعاج الدكتاتور بالإضرابات والمظاهرات، وكلما توسعت هذه القوة، تقلصت قوة السلاح، إلى أن تسقط قوة السلاح عن يد الدكتاتور.

ومن المهم جداً تحييد السلاح أولاً، حتى لا يدخل الميدان لصالح الدكتاتور، وغالباً يمكن تحييد السلاح بعدم أخذ الشعب في إضراباته، ومظاهراته السلاح، بل تكون حركته سلمية، تتجنب العنف والشدة، كما ذكرناه في بعض المباحث.

كيف يسقط الدكتاتور ولماذا؟

وأما السؤال الثالث وهو لماذا وكيف يسقط الدكتاتور؟

فالجواب إن الحكم الدكتاتوري لا يمكن أن يبقى، لأنه مبني على الإرهاب، والإرهاب لا يمكن أن يدوم، وقد قال الحكماء قديماً: (القسر لا يدوم) والإرهاب ملازم للقسر لأن الإنسان يتطلب السلم والأمان، والإرهاب خلاف السلم والأمان، ولذا تنبأ العقلاء في الخمسينات وقبلها بسقوط الشيوعية وهاهي قد سقطت في أرجاء من العالم من ناحية، وفي الصين من ناحية ثانية، وهي تترنح للسقوط في الاتحاد السوفيتي، كما أن العقلاء – حتى من نفس اليهود – تنبأوا بسقوط دولة إسرائيل المغتصبة لأنها بنيت على غير السلام وهاهي بوادر السقوط تظهر للعيان وفي المثل: (إن السياسي يتمكن أن يخدع بعض الناس في بعض الوقت لكنه لا يتمكن خداع كلهم في كل الوقت – بل حتى في بعض الوقت –).

تسريع عملية السقوط

نعم إذا وجدت الحركة المنحرفة – دولة كانت أو غيرها – المقاومة الملائمة السريعة – سواء من الداخل أو من الخارج – سقطت بسرعة، وإلا سقطت ببطء فالفرق هو في الزمان لا في النتيجة.

وكثيراً ما يطوِّل عمر الانحراف زعم الناس أن الانحراف لو سقط يخلفه انحراف أكثر، وقد رأينا في العراق أن الحكم القاسمي كان يستمد حياته من توهم أن الزعيم لو سقط تبدل الأمر إلى أسوأ، وكذلك بقي شعب ألمانيا وإيطاليا مع هتلر وموسيليني بزعم أنهما أفضل من الشيوعية التي ستخلفها لا محالة إذا سقطا، فإذا تمكن المصلحون من إبعاد هذا الزعم من العقول كان سقوط الدكتاتور أسرع.

ماذا بعد سقوط الدكتاتور؟

ومن الأسئلة الثلاثة المتقدمة ظهر الجواب عن السؤال الرابع، فإن من يخلف الدكتاتور هو دكتاتور آخر، إذا بقيت الجماهير في جهلها وعدم مبالاتها، أما إذا تحول جهل الجماهير إلى العلم وعرفوا من أين أتت المشكلة وكيف يمكن علاجها؟ فإنهم لا يدعون دكتاتوراً آخر يأتي مكان الدكتاتور السابق.

ضرورة طرح البديل

ومن هنا فإذا اهتم الناس في بلد دكتاتوري لإسقاط الدكتاتور بدون أن يكون لهم منهج للحكم القائم مقامه أو كان لهم منهج لكن المنهج لم يكن واضحاً في بنوده وخصوصياته فإنهم يقعون مرة ثانية وثالثة ورابعة فريسة لدكتاتور جديد.

ولذا نجد أن مصر والعراق وغيرهما وقعت ضحية دكتاتور جديد بعدما أسقط الشعب الدكتاتور السابق، فمصر ناصر تحولت إلى مصر السادات، وعراق الملكيين تحول إلى عراق الجمهوريين.

وعلى هذا فعلى ممارسي التغيير أن يهتموا لشيئين: إسقاط حكم الدكتاتور وتبديله إلى حكم صحيح واضح المعالم.

سياسة الأساطير

إن انهيار الدكتاتور لا بد أن يستند إما لهزيمة خارجية، أو أن تعم البلبلة الداخلية كل الطبقات التي تنشأ عن مؤامرة في الداخل حيث يكون الإرهاق وعدم الأمن قد أثار خيبة أمل على نطاق واسع بين الجماهير، ومن الواضح أنه لا يمكن تحدي السلطة القائمة التي بيدها المال والسلاح والإعلام تحدياً مقترناً بنجاح إلا إذا ظهر فشل زعماء الحكومة بشكل واضح لعدد كبير من الناس لأن طبيعة أسلوب الدكتاتور هو تحطيم إرادة أولئك الذين يحاولون المقاومة بإلصاق التهم بهم وقتلهم وسجنهم وتبعيدهم ومصادرة أموالهم والتشتيت بينهم وما إلى ذلك حتى لا يتمكنوا من المقاومة، وهذه المقاومة لا تستطيع الاستمرار في معارضتها للدكتاتور إلا عندما لا ترى أملاً في النجاح وإلا فستغرق في لجج من الخمول اليائس، وهذا هو ما يطلبه الخارجون على القانون الذين قفزوا إلى الحكم إما بانقلاب عسكري أو بانقلاب شعبي حرفوا مسيره وصاروا من سراق الثورة فإن الشعب اليائس يطيع الأوامر التي تصدر إليه، ومن الواضح أن المقاومة تأتي مع الغضب ولا يثور الغضب مع وجود أسطورة تحفها قدسية فوق البشر إلا بإدراك أن الأسطورة التي قبلها الناس قد ثبت بطلانها.

ولذا كان الإسرائيليون يصرون على أن لهم الجيش الذي لا يقهر.
وهكذا نجد كل دكتاتور يتكلم بمثل ذلك فقد كان (نوري السعيد) يقول: (الرصاصة التي تقتلني لم تخلق بعد).
وكان عبد الكريم قاسم يقول: (نحن أقوى من الموت وأقوى من الحديد).
وكان القوميون الذين يقدسون ناصر يسمونه (الزعيم الخالد) يعني أنه يبقى ما بقي الدهر.
وكان أحدهم يرى (أنه الله) لأنه كان يقول بوحدة الوجود والموجود على الاصطلاح الفلسفي.
وحيث أن من أساليب الدكتاتوريين خلق اليأس في نفوس الناس عن سقوطهم وأنهم جاءوا ليبقوا وليسوا كالأفراد العاديين لهم بقاء وفناء يوعزون إلى استخباراتهم بخلق المنامات المكذوبة ونشرها بين الناس حتى ييأس الناس عن سقوطهم، كما حدث في زمان البهلوي الأول حيث اختلقوا رؤيا عمّموها على كل الأوساط وصدقها بعض المغفلين والسذج حتى من المتدينين وكان مضمون الرؤيا أن إنساناً من المقدسين رأى في المنام في مسجد السهلة الإمام الحجة (عجل الله تعالى فرجه) فسأله عن وقت ظهوره؟ فقال (عليه السلام): (إني أظهر وحكم البهلوي قائم بعد) وها نحن نكتب هذا الكتاب وقد مر على سقوط البهلوي أكثر من أربعين سنة والإمام الحجة صلوات الله عليه لم يظهر بعد.
فضح الدكتاتور
ومما ذكرناه يظهر أن أية محاولة إصلاحية تريد إزاحة الدكتاتور عن الحكم، يجب – لكي تنجح – أن تكون أكثر قوة نفسية ويقظة ونشاطاً حتى يكون في وسعها أن تفضح أساطير الدكتاتوريين وأجهزتهم وأن تلقي عليها ظلالاً من الشك والترديد، وأن يكون في وسعها أن تثبت ضعف الدكتاتورية لكي تقنع حتى أولئك الذين يقفون منها موقف الإذعان السلبي ويسمحون لها بفرض نفسها عليهم وتقنعهم بأن سلطتها في طريقها إلى الانهيار.
وقد قال أحد المعارضين لأحد الحكام بعد أن سقط: لقد كنت أحرّض عليه حتى الراعي في الصحراء فإذا رأيته قلت له: كيف خليفتك؟
فإذا قال: نِعمَ الخليفة، أو قال: لا أدري، كنت أذكر له مظالم الخليفة ومظالم حاشيته حتى أجعله ضده... فإن من القطرات تجتمع البحار ومن ذرات الرمال تجتمع التلال ومن الخلايا الصغيرة الحية التي لو اجتمع الآلاف منها على رأس إبرة كان أوسع من كل تلك الخلايا يتكون بدن الإنسان والحيوان والشجر.
ومما تقدم تبين جواب أن الدكتاتور في أي جو يتسلط على الحكم؟ ومن هو؟ وكيف يفكر؟ وكيف يعمل؟ وكيف يبقى؟ وما هي عوامل بقائه؟
وما هي الأسباب التي تقف دون وصول الدكتاتور إلى الحكم؟ وكيف يزول؟
آثار الدكتاتور
أما آثار الدكتاتور هي إفساد الأخلاق والدين والفضيلة والسياسة والاجتماع والاقتصاد وغيرها، وقد ذكر جملة منها الأمير شكيب أرسلان في كتابه طبيعة الاستبداد، هذا بالإضافة إلى أن الدكتاتور كثيراً ما يخلف الدمار وأحياناً يطول الدمار قروناً من الزمان لما أوجده من الحروب والقومية وتفريق الطبقات وغيرها، ولذا نشاهد أنه إلى

الآن يعاني العالم من آثار دول المحور الذين اتحدوا لنشر الدكتاتورية في العالم وانتهوا إلى الحرب العالمية الثانية، مما سبب انقسام بلاد ألمانيا شر تقسيم إلى اليوم، وإيطاليا صارت مسرحاً للفوضى، واليابان ضعيفة يتحكم فيها الأوصياء. فإن من الصحيح أن الذنب غير المباشر يقع على عاتق البلاد الغربية التي ضيقت على العالم بأساليبها اللاإنسانية، لكن من الصحيح أيضاً أن المباشر لتأخر هذه الدول هي الدكتاتورية، ومن الواضح فلسفياً أن نسبة الشيء إلى السبب القريب أولى من نسبته إلى السبب البعيد – أما قولهم بانتساب الشيء إلى الأقوى من السبب والمباشر فهو في مرحلة أخرى إذ السبب لو كان أقوى لم يكن للمباشر دور مهم –.

الوقوف أمام الدكتاتورية

على العقلاء أن يقفوا أمام نمو المقتضى للدكتاتورية، فإذا فرض أنهم لم يتمكنوا من ذلك فالواجب عليهم أن يوجدوا مانعاً يقف أمام الدكتاتورية، مثل ذلك مثل السيل فعلى الدولة أن تقف دون حصول السيل فإذا لم تتمكن من الوقوف لزم عليها أن توجد الحاجز أمام السيل حتى لا يجرف المدينة فإذا تمكنوا من الحيلولة أمام نمو المقتضى كان انعدام المعلول أمراً طبيعياً.

ولا يخفى أن نسبة عدم المعلول إلى عدم العلة تسامحي، لأن العدم لا يكون مؤثراً ولا متأثراً، وفي المثل (ثبّت العرش ثم أنقش) فإذا لم يكن شيء فكيف يكون علة أو معلولاً؟

وما يشاهد أحياناً من نسبة عدم المعلول إلى عدم العلة مجازي، وهو عبارة أخرى عن بقاء المقتضى للشيء السابق فإذا قال: (لم أسافر لأنه لم تكن وسيلة نقل) فليس معنى ذلك أن عدم السفر معلول عدم الوسيلة فكلاهما عدم والعدم لا يكون علة ولا معلولاً ولا معللاً أحدهما بالآخر، وإنما العبارة الحقيقية لذلك أن يقول بقيت في المدينة لبقاء علة البقاء مع تشوقي للسفر.

تقرير المساواة الشاملة

وعلى أي حال فإذا أردنا عدم تكون الدكتاتورية في رحم الزمان – لكي لا تصل إلى الحكم في يوم ما – يجب تقرير المساواة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها بين الأمة، كما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (الناس سواسية كأسنان المشط...)(٦) وقد أشرنا إلى ذلك سابقاً، فإن كل تمييز في الاجتماع أو الاقتصاد أو السياسة وغيرها ينتهي إلى التضارب والتحارب الذي يؤول بدوره إلى الدكتاتورية.

ومن الواضح أنه ليس معنى المساواة الاقتصادية تصحيح الاشتراكية أو الرأسمالية فإن الاشتراكية تنشأ من التخطيط الواسع من قبل الدولة والتخطيط الواسع يقضي على الحرية، والرأسمالية كذلك تنشأ من التخطيط الضيق والتخطيط الضيق ينتهي إلى القضاء على الحرية، فإن التخطيط إذا كان أزيد من الحق أو أقل منه كان على خلاف الحرية، إن التخطيط لازم لكن بقدر دون إفراط ولا تفريط ولذا نشاهد في القرآن الحكيم والسنة المطهرة الإلماع إلى ذلك، فقد قال سبحانه: (فلكم رؤوس أموالكم)(٧) وقال تعالى: (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم)(٨).

الدستور وحده لا يكفي

وليس المهم وضع الدستور القائل بالتساوي في الأمور المذكورة وإلا فالدستور في كل البلاد الدكتاتورية يقول ذلك، لكن الدستور بالآخرة يكون ألعوبة بيد الدكتاتور فيقول أحدهم أنا فوق القانون، ويقول الآخر لا يقيدني القانون، ويقول الثالث أنا أمشي كما أرى لا كما يراه القانون وقد سمعت كل ذلك من حكام ثلاثة كانوا يحكمون بلاداً في الشرق الأوسط، بل المهم أمران:

التربية السليمة

الأول: تربية الناس تربية نفسية تريهم أن الحق للآخرين كما أن الحق لأنفسهم، وهذا أمر قد يطول زماناً وقد يقصر إلا أنه هو ضمان سلامة المجتمع، ولذا قال الشاعر:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت *** فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقبل ذلك قال الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم): (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)(٩).

المؤسسات الحافظة للتوازن

الثاني: وجود المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية التي تحفظ التوازن، وإلا فإن الناس الذين تربوا بالتربية الأخلاقية كثيراً ما يوجد فيهم الدكتاتور الذي يضرب بكل شيء عرض الحائط.

وما دام لم يعالج الأمر بهذا النحو من المعالجة ستبقى الأمة ترتطم في المشاكل وتزيد مشاكلها يوماً على يوم.

ومن يعمى عن رؤية الواقع، أو يصم عن سماع صوت الحق، أو يبكم عن قول الحق لا يكون مثله إلا كمثل القرود الثلاثة الذين قصد افتراسهم الدب، فوضع أحدهم يده على فمه حتى لا يقول كلمة يثير بها الدب أكثر فأكثر، ووضع الآخر يده على عينه حتى لا ينخلع قلبه من رؤية الدب، ووضع الآخر يده على أذنه حتى لا يسمع صوت الدب، حتى جاء الدب فافترسهم جميعاً بينما إذا صاح الأبكم فلعله كان يجد النجدة بسبب وحوش الغاب، ولو رأى الأعمى فلعله كان يتمكن من الهروب، ولو سمع الأصم فلعله كان يتسلق شجرة فينجو بنفسه عن الافتراس.

بؤرة المفاسد

أغلب المشاكل الفردية والاجتماعية في جميع أبعاد الحياة ناشئة عن الاستبداد، فإن العصمة خاصة بأناس ذكروا في آية التطهير بالنسبة إلى الأمة الإسلامية حيث كانت العصمة في أشخاص آخرين كالأنبياء السابقين ومن إليهم. أما في هذه الأمة فالعصمة خاصة بهم، أما غيرهم فالطريق الأقوم لحل المشكلات هي أكثرية الآراء في نطاق سعة النظرة للجماعة التي تقود جانباً من الحياة حكومة كانت أو حزباً أو جمعية أو غيرها، أما أن يتصور الإنسان مقياس الاستبداد فيما لو أبدى رأياً للرئيس فلم يأخذ به كان الرئيس مستبداً فهو سذاجة في فهم الحياة وهل الاستشارية الأخذ برأي كل فرد، وأن زعم الفرد أنه ناصح، وأن رأيه ناشئ عن المصلحة مائة في المائة، بل إن أي رئيس يأخذ برأي الفرد في غير نطاق الأكثرية الناشئة آراؤهم عن سعة النظرة هو رئيس غير قابل مضافاً إلى أنه هل يمكن الأخذ برأي هذا ورأي الآخر المناقض أو المضاد له؟

تمركز القدرة

ثم إن الكيفية النفسية التي يبنى عليها المجتمعات لا تظهر للعيان وإنما تعرف بآثارها، وهذا ما يعبر عنه في بعض العلوم بتحويل الكيفية إلى الكمية، فإذا أراد الإنسان أن يعرف مدى نظافة أمة أو قدر علمها أو سخائها أو دينها يرجع إلى الكمية الظاهرة التي هي من آثار الكيفية فيفحص عن قدر صرفها للماء والصابون وأدوات التنظيف أو عدد مدارسها وكمية كتبها ومكتباتها وجرائدها وسائر وسائل إعلامها وأُمور ثقافتها، أو قدر إنفاقاتها كالضيافات في المناسبات وما أشبه ذلك، أو عدد مساجدها ومحلات عبادتها والتزامها بسلوكياتها الدينية والأخلاقية وهكذا، وبهذا الميزان إذا أردنا أن نعرف حريات أمة ننظر إلى أنه هل الأمر بينها شورى في مختلف المراحل من شورى المرجعية مثلاً في البلاد الإسلامية إلى الشورى في سائر مرافقها الحيوية؟

وعن تعدد أحزابها الحرة وغير ذلك، فإنه إذا لم تكن شورى المراجع ولا الأحزاب الحرة لا بد وأن تتجمع القدرة في مركز واحد، وكما أن من طبيعة النار والماء والهواء الفساد والإفساد إذا لم تزمّ بأزمة ملائمة من الآلات والسدود والسقوف والأبنية ونحوها كذلك من طبيعة القدرة المتمركزة في مكان واحد، إنها تفسد بنفسها وتفسد الحياة بكل جوانبها فمن كان ذا أخلاق رفيعة واستقبال للناس وقيام بخدماتهم ونحوها لما لم يكن ذا منصب وقدرة تراه إذا تمركزت القدرة في يده تتغير أحواله إلى الأنانية وحب الذات والأثرة واغتنام ما تمكن من المال وترك الآخرين في البلاء هذا بالنسبة إلى إفساد القدرة المتمركزة لصاحبها.

أما بالنسبة إلى إفسادها المجتمع فلأن طريق التقدم وصول الكفاءات إلى المراكز العالية، والكفاءات لها آراؤها، والقدرة المتمركزة لا تريد إلا رأي نفسها والتسبيح بحمد صاحبها، ومن الواضح أنهما طرفاً نقيض ولذا تجمع القدرة المتمركزة حول نفسها الإمّعات والمصفقين، وتقضي على العقلاء وأصحاب الكفاءات وبذلك يأخذ الأمر في الانحطاط والسقوط ومن هنا قال علي (عليه السلام) ما مضمونه: (من علائم زوال الحكومات تقديم الأراذل وتأخير الأفاضل)(١٠).

وانظروا إلى عبد الناصر حين جمع حول نفسه الإمعات كيف كانوا يصفقون له وإن قال التناقض في مجلس واحد كما تقدم في كلام كشك حول انفصال سوريا.

تمركز القدرة: منبع الفساد

إن تمركز القدرة سواء كانت باطلة صورة وسيرة، أو كانت القدرة في ظاهرها حق وفي باطنها الباطل، يوجب المآسي.

مثلاً العراق في زمان الملكيين وفي زمان البعثيين، كان على وتيرة واحدة من أن الحكومة لم تكن حكومة شرعية، لكن الفارق أن القدرة في زمان الملكيين كانت موزعة، ولذا لم يحدث حتى جزء من مليون جزء من هذه المآسي الحالية، بينما القدرة في زمان البعثيين صارت متمركزة في جماعة واحدة، ولهذا حدثت هذه المآسي التي لا تكفي لذكرها حتى عشرة مجلدات، أما القدرة الحقة فإنها أما أن تتمثل في الأنبياء والأئمة (عليهم السلام) وهم معصومون، وأما أن تكون بالشورى فلا تمركز.

وما يرى أحياناً من الإختلاف بين قدرتين حقتين فهما لاختلاف الزمان والمكان والشرائط، كما نشاهد في قدرتي الحسن والحسين (عليهما الصلاة والسلام)، وقد ذكرنا في كرّاسي (امامان) و(ثورة الإمام الحسن عليه السلام) إن الحسن (عليه السلام)، لو كان في عصر الحسين (عليه السلام) لفعل مثل فعل الحسين (عليه السلام)، كما ان الحسين (عليه السلام) لو كان في زمان الحسن (عليه السلام) فعل نفس فعل الحسن (عليه السلام).

أو للاختلاف بين العدل والإحسان كما في قصة داود وسليمان (عليهما السلام) إذ كانا يحكمان في الحرث، حيث حكم داود بالعدل وسليمان بالإحسان فهما كنفرين استأجرا أجيرين كل أجير بدينار فأعطاه أحدهما الدينار والآخر دينارين، لوضوح أن الحكم أما جائر أو عادل أو محسن فليس معنى أن الحكم ليس بجائر إنه عادل في قبال الإحسان لأنه قد يكون عدل وإحسان وقد يكون عدل وليس بإحسان – بهذا المعنى الأخص –.

لا... للدكتاتورية

يجب أن نعرف أنه ليس لممارس التغيير أن يقابل الدكتاتور بالدكتاتورية، فإن الدكتاتورية دكتاتورية سواء كانت دكتاتورية روسيا القيصرية أو روسيا الشيوعية فالنتيجة واحدة حيث أن الناس ليسوا في أمن وسلام، سواء من هذا أو من ذاك، وكذلك الحكام ليسوا في أمن وسلام فإن مطاردة الحكام بعضهم لبعض ومطاردة الحكام للناس ومطاردة الناس للحكام تجري في الدكتاتوريات المتقابلة، وهذا هو السر في أن الأحزاب الإسلامية وغير الإسلامية الذين أخذوا بالزمام في الشرق الأوسط لم تتمكن من تهيئة الرفاه للناس، لأنهم على الأغلب دكتاتوريون مقابل دكتاتوريين، ومن شأن الديكتاتور أيما كان لونه التضييق على الناس.

أسلوب الاستشارية

إن المجتمع الاستشاري عبارة عن علاقات روحية متبادلة بين أعضاء الحكومة وبين الحكومة والشعب وبين الشعب والحكومة على حسب الواقعية والعقلانية وذلك يتطلب أن تكون المسؤولية الفعالة للحكام تجاه المواطنين مما يمكن دعمها باستمرار دون الالتجاء إلى العنف بأي معنى كان العنف وذلك لا يكون إلا بأن يختار الشعب حكامه بواسطة مؤسسات دستورية بحيث لا يتعرض الناس للتمييز على أساس العنصر أو الجنس أو الثروة أو اللون أو غير ذلك، ويكون الحاكم على تلك المؤسسات نظام يعطي للناس حق التصرف التام الذي يجعل في اختيار الحكام سلمياً ودورياً، ولذا يجب أن يعتمد الاستشاري على سيطرة العقل على أفكار الناس دون سيطرة التمايزات الإقليمية أو اللونية أو اللغوية أو غيرها فإذا أحسن الناس بأن لهم الحق في أن يستفيدوا من مواهبهم وإمكاناتهم حملوا الحكم في قلوبهم فلا تقع المعارضة بين الحكومة وبين الشعب ولا بين الحكام بعضهم مع بعض وإنما تكون الانتخابات الحرة والتقدم والكفاءات هي التي تسيطر على الجميع ومثل هذا البلد يكون مهوى قلوب الأحرار.

المجتمع وحدة متساوية

ثم يجب أن نعلم أنه من المجال أن يبقى المجتمع نصفه حر ونصفه عبداً ونصفه مرتفع ونصفه منخفض، فإن المجتمع مثله مثل الماء تتساوى سطوحه فإذا صببت ماءاً في أواني متعددة مختلفة الأشكال والحجوم متصلة بعضها ببعض، لا يمكن أن يبقى بعض الماء في سطح مرتفع وبعض الماء في سطح منخفض، وكذلك حال الاجتماع فإنه

لا يمكن وجود اجتماع متصل بعضه ببعض – كما هو حال الاجتماع دائماً – ويكون نصفه حر ونصفه عبد ونصفه مطلق ونصفه مقيد، فأما أن يطغى المجتمع المقيد على المجتمع المطلق، أو بالعكس، وهكذا في الثروة وغير الثروة، ولذا فمن المحال على الحكام الذين يترفعون عن الآخرين ويحتكرون لأنفسهم امتيازات خاصة، على الشعب التي تختلف فيهم السطوح أن يستمر الأمر كذلك لهم وحيث أن الحكام هم قلة والمجتمع هم الكثرة، فإنه دائماً في أخير المطاف يغلب المجتمع الكثير على المجتمع القليل، أما بالنسبة إلى اختلاف سطوح المجتمع ارتفاعاً وانحطاطاً فإنه يسبب أن تقع الحروب الأهلية بين الجانبين إلا إذا أصلح المصلحون بما يوجب تساوي السطوح بأن يتمكن الكل من العلم ومن المال ومن الحكم ومن المكانة الاجتماعية على حسب الكفاءات وقدم المساواة (باستثناء عدم الكفاءة في بعض لتخلف عقلي أو ما أشبه ذلك) وحيث نجد اليوم صحوة في العالم الإسلامي واهتماماً بفكرة التغيير وهنا وهناك أحزاب ومنظمات ونشاطات وجمعيات ونحوها. فمن الضروري الآن التركيز على المعاني الواقعية لا المعاني العاطفية التي تسود هذه الجمعيات والمجتمعات على الأغلب وحيث أن المجتمعات الإسلامية متخلفة في الحال الحاضر غاية التخلف، فاللازم معرفة سمات التخلف حتى نجتنبها ونبدلها إلى سمات المجتمع المتقدم.

تدرّج الديكتاتورية

والإنسان تدريجياً يصير دكتاتوراً، فإن الدكتاتورية وإن كانت مجبولة في نفوس غالب الأفراد، لكن الأكثر إن الإنسان تدريجياً يصبح مستبداً.

ولذا شاهدنا أناساً كانوا استشاريين فلما وصلوا إلى الحكم صاروا دكتاتوريين، ثم تضايقت حلقات الدكتاتورية إلى أن بلغت الأوج، وهكذا حال كل الصفات الرذيلة من التنعم والتلهي والترفه والانغماس في لذائذ الجنس وجمع المال وغير ذلك فإنها تدريجياً تنمو وتتصاعد، فإن الملكات في الإنسان خيرها وشريرها كالزرع ينمو تدريجياً حتى يُعطي الثمار البشعة أو الحسنة، ولذا قال سبحانه (مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة) (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة)(١١) حيث أن الكلمة طيبة أو خبيثة تنمو تدريجياً حتى تعطي الثمار، فمن اليوم الأول لا يكون الإنسان عادلاً كاملاً أو زاهداً كاملاً أو شجاعاً كاملاً أو كريماً كاملاً أو عالماً كاملاً، وإنما بالتدريج حتى يصل إلى القمة ولذلك ليس علاج الدكتاتور أن تقول له لا تصبح دكتاتوراً أو أن تعظه أو ما أشبه ذلك، فإن الشجرة إذا غرست نمت، شئنا أم أبينا، ولو هذبناها وشذبناها فلا يكون مانعاً عن أصل نمو الشجرة، وإنما علاج الدكتاتورية أن يكون في مقابل الدكتاتور قوة أخرى بحيث تكون تلك القوة مراقبة للدكتاتور حتى لا ينمو ومن هنا جاءت فلسفة تعدد الأحزاب والمنظمات والمؤسسات الدستورية مما ذكرنا تفصيله في كتاب (فقه السياسة) وغيره.

فالدكتاتورية كالسرطان ينشب بخلية حية، ثم ينمو وينمو حتى يأخذ جميع الجسم ويوجب له الهلاك.

وقد رأينا في الحكومات التي توالت على العراق هذا الشيء رؤية العين.

فالحكومة الجديدة لما كانت تتشكل من البعثيين والشيوعيين والقوميين ومن إليهم، كانت تسهل الأمور لأجل جذب الناس إلى نفسها، ثم تنمو دكتاتوريتهم تدريجياً حتى تكون من أبشع الدكتاتوريات، كما قد رأينا نزاعاً بين

شخصين حول مزرعة دام ثلاثة عشرة سنة، بينما كان يكفي لحل النزاع نصف ساعة أو على أكثر الفروض ساعات من نهار، ورأينا أيضاً إنساناً كان يطلب الرخصة للسفر ولم يكن له مانع قانوني، لكن الحكومة عطلته سبع سنوات تقذفه من هذه الدائرة إلى هذه الدائرة من النجف إلى كربلاء ومن كربلاء إلى الحلة ومن الحلة إلى بغداد وهكذا دواليك.

الضغط يولد الانفجار

ومن الواضح أن نهاية تضييق الحلقات في الدكتاتورية الانفجار، فإن الكبت يوجب الانفجار وإنما الفرق بين سرعة الانفجار وبطئه حسب المؤهلات الاجتماعية، فإنه عندما يحس الناس بان الإطار القانوني للنظام الاجتماعي يكبت قدرة الناس على تحقيق الامكانيات الكامنة في الزراعة أو التجارة أو الصناعة أو السفر أو الإقامة أو إبداء الرأي أو غير ذلك، لا بد وأن يكون هناك عهد ثوري على الأبواب إن قريباً أو بعيداً ولا يكشف عن طابعه الثوري شيء أكثر عمقاً من الأزمة الأخلاقية التي يعانيها النظام ولا يوجب بقاء النظام جماعة من المتزلفين والمتملقين يحوطونه ويمتدحونه فإن هؤلاء ليسوا أكثر من فقاقيع.

فإن إحساس الناس بأن القيم الأخلاقية في اضمحلال وتطلعهم إلى نظام جديد ووجود جماعات صغيرة أو كبيرة تقف بمنأى عن الحركة المركزية للقوى الإجتماعية وتدعي أن الحق في جانبها.

معناه: انهيار الحضارة المعاصرة التي يدعمها نظام يحفظ العلاقات الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية المنحرفة، وعليه فالدكتاتورية – بما ذكرناها – دليل على الانهيار النهائي بطريقة ما في الحياة، والشاهد على ذلك التاريخ فقد أدى الإقطاع إلى الرأسمالية وهي إلى الشيوعية وهي إلى الرأسمالية، وهكذا حتى يصل الأمر إلى نظام صحيح لا استبداد فيه.

١ . سورة النساء: الآية ٧٥.

٢ . سورة النحل: الآية ٦٨.

٣ . سورة القصص: الآية ٧.

٤ .كنز العمال: ج١٠ الرقم ٢٩١٦٧.

٥ . وسائل الشيعة: ج١٨ الباب ١١ ح١ ص٩٨.

٦ .كنز العمال: ج٩ الرقم ٢٤٨٢٢.

٧ . سورة البقرة: الآية ٢٧٩.

٨ . سورة الحشر: الآية ٧.

٩ .كنز العمال: ج٣ الرقم ٥٢١٧.

١٠ . انظر غرر الحكم: ص٢٤٤ الرقم ٤٦١١.

١١ . سورة إبراهيم: الآية ٢٤ و ٢٦.

نشوء الديكتاتورية

كيفما تكونوا يولّى عليكم

ومن الواضح أنه كيف ما كانت الحكومة كانت أخلاق أغلبية الناس حيث ورد (إذا تغير السلطان تغير الزمان)(١) لأنها توجه الحياة حسب رغبتها وعكسه أيضاً صحيح، حيث ورد (كما تكونوا يولى عليكم)(٢) لأن الغالب أن الحكومات تظهر من نفس الشعوب فإذا كانت الأمة خائنة أو كاذبة أو منافقة يظهر منها بعض أفرادها الذين هم بنفس تلك الصفات وإذا ظهرت أخذت في توسيع رقعة الخيانة والكذب والنفاق. والعكس صحيح أيضاً فالحديث الأول قضية الأسوة والثانية قضية الطبيعة.

ولعل الحديثان المشهوران يشيران إلى بعض صغريات هذا الأمر فقوله (صلى الله عليه وآله): (السعيد سعيد في بطن أمه والشقي شقي في بطن أمه)(٣) يراد أن على وتيرة الأم يخرج المولود، فإن كانت سعيدة في سلوكها وأخلاقها ودينها كان المولود كذلك والعكس أيضاً صحيح فهو من قبيل (الولد سر أبيه).

والحديث الثاني (الجنة تحت أقدام الأمهات)(٤) يراد أن الولد يسقط عن بطن الأم عند قدمها كيف ما كانت الأم من أهل جنة أو نار يكون الولد كذلك، فهو كناية مثل: المريض مريض في بطن أمه، والصحيح صحيح في بطن أمه، حيث أن الأم المريضة لا تنجب إلا الطفل المريض، وهكذا العكس بالنسبة إلى الأم الصحيحة والولد الصحيح، وكذلك حينما يقال: (فلان عند قدم فلان) أي على شاكلته.

وقد ألف (براساد) رئيس جمهورية الهند السابق كتابه (عند قدمي غاندي) لهذه الغاية هكذا ربما يفسر الحديثان وربما يفسران بآخر ليس هنا محل تفصيل الكلام في ذلك.

وعلى أي حال فالحكومة وليدة الشعب والشعب يمشي باتجاه الحكومة.

الانقلابات العسكرية والشعبية الدكتاتورية

الانقلابات العسكرية مرفوضة جملة وتفصيلاً، فإن الانقلاب ولو تذرع بألف ذريعة ليس إلا سبباً لتدهور أحوال الشعب إلى الأسوأ، وليس ذنب الشعب في حوادث الانقلاب العسكري بأقل من الانقلابيين، حيث أن جماعة من الجيش لا يتمكنون من الاستيلاء على الشعب إذا لم يصفق لهم الشعب، فإذا استولى جماعة من العسكريين على الحكم كان اللازم أن يرفضهم الشعب، ويعاملهم معاملة اللصوص ويقدمهم للمحاكمة.

وكلما رأينا من الانقلابات في أفريقيا وآسيا وغيرهما وجدنا أنها لم تزد الأمة إلا سوءاً، وصار حالهم أسوأ مما كان قبل الانقلاب.

والمنطق ضد تصفيق الشعب لهم، إن الإنسان إذا أراد أن يستخدم خادماً لداره، لا بد وأن يحقق عن أحواله؟ فكيف يصفق الإنسان لمن لا يعرفه وهم يريدون السيطرة على نفسه وماله وعرضه؟

وقد رأينا أن الانقلابات العسكرية التي قامت باسم إنقاذ فلسطين كانقلابات العراق ومصر وغيرهما، لم تسبب لفلسطين إلا ضياعاً أكثر، وللشعب إلا تردياً أسوأ، والغالب أن الانقلاب العسكري يسبب انقلابات أخر، فهو يولد الانقلابات مما تدمر الشعب تدميراً كاملاً وغالب ما رأيناه من انقلاب كان غربياً أو شرقياً. فكانت أمريكا أو روسيا أو الصين أو بريطانيا أو فرنسا، تصافق جماعة من الأحزاب التي هي من صنائعها، أو من العسكريين الذين هم من عملائها للانقلاب، وذلك لأجل المزيد من امتصاص دماء الشعب، ونهب ثرواتهم، وتخريب بلادهم، وقتل وسجن وتعذيب، وإذلال مشايخهم وشبابهم وبالنتيجة تحكيم قبضة الاستعمار على البلاد أكثر فأكثر.

ولذا فمن الضروري تأليف مئات الكتب، لفضح الانقلابات العسكرية، والحيلولة دون حدوث انقلاب عسكري في بلاد الإسلام (بل في كل بلد) في المستقبل.

ثم إن كان الانقلاب العسكري حسناً فلماذا لا تدع الدول الغربية أن يحدث الانقلاب في بلادها؟

وإذا كان سيئاً فلماذا تسارع إلى الاعتراف بالحكومة الانقلابية (بحجة أنه حدث داخلي) في بلادنا؟

أليس ذلك لأجل أنهم هم الذين يأتون بالانقلاب، لتحكيم قبضتهم ثم يسارعون في الاعتراف به، ثم يحفظون القافزين إلى الحكم بالأعلام والسلاح والتخطيط وغيرها؟...

أنه من غير شك أن كثيراً من الحكومات التي قام الانقلاب ضدهم، كانت حكومات سيئة لكن من غير الشك أيضاً، أن حكومة الانقلاب أسوأ من تلك الحكومات... وعلاج سوء الحكومة ان يعي الشعب حتى يرفض الحكومة السيئة ويأتي بالحكومة الصحيحة، لا أن يقوم جماعة بتخطيط من المستعمر للانقلاب، ليهلكوا الضرع والزرع، والذين يستجيرون من سوء الحكومة إلى الانقلاب العسكري، مثلهم كما قال الشاعر:

المستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

أما أسباب الإنقلاب العسكري فهي:

١ – الفراغ السياسي في البلاد، حيث أن الجاهل دائماً ألعوبة بيد الدجالين وطلاب الشهوات.

٢ – السخط العام على الحكومة، حيث أنه يهيئ لجماعة ولو صغيرة أن تتمكن – وبمباركة الناس – من القفز على الحكم.

٣ – الهزيمة الحربية للحكومة سواء كانت هزيمة في حرب أهلية كما حدث لقاسم، حيث انهزم أمام الأكراد، بعد أن وقعت حرب أهلية في شمال العراق، أو هزيمة في حرب غير أهلية كالهزيمة في البلاد العربية أمام إسرائيل.

٤ – الحروب الأهلية وانقسام البلاد وضعف الحكومة عن إنهاء الحرب (وإن لم تنهزم الحكومة) فإن الناس في أمثال هذه الحالة ينتظرون المنقذ، فإذا قفز جماعة على الحكم، باركوهم – عن لا وعي – زاعمون أنهم المنقذون.

٥ – ارتطام البلاد في مشاكل سياسية، أو اقتصادية، أو اجتماعية، بسبب سوء تصرف الحكومة.

٦ – المحافظة على النظام السابق، حيث أن أعضاء الحكومة، حينما يعرفون اهتزاز كراسيهم، وان التذمر بلغ مداه، يقومون بانقلاب عسكري صوري، من الموالين لهم لإنقاذ عروشهم، ولو بقدر، كما حدث في السودان، وباكستان.

٧ – ضعف الاستعمار السابق، وقوة الاستعمار الجديد، حيث أن القوي يطيح بعملاء الضعيف كما أطاحت بريطانيا بداود خان الأمريكي (في أفغانستان) لتأتي مكانه بـ (ترقي) ثم أطاحت روسيا بترقي لتأتي مكانه بـ (ببرك) بالنتيجة ولا فرق بين أن يكون ضعف الاستعمار السابق ناجماً عن ضعف في حكومته، أو ضعف في إدارته تلك البلاد المستعمرة، فإن بريطانيا ربّت (ترقي) في الهند منذ عشرين سنة، وكونت له كياناً ليوم انقلابه على (داود) الأمريكي.

٨ – ضرب الأمة الإسلامية في بلاد الإسلام حيث أن المستعمر يرى أنه لو ترك الأمر وشأنه، قويت القوة الإسلامية المترعرعة، وضربت مصالحه، فيأتي بجملة عملائه إلى الحكم في انقلاب عسكري، لينوب عنه في ضرب الحركة الإسلامية، كما حدث في العراق حيث قويت الحركة الإسلامية، فجاء البريطانيون بعبد الكريم قاسم، ثم بحزب البعث (لما يئسوا من قدرة قاسم على ضرب الحركة الإسلامية) وهؤلاء العملاء لم يألوا في ضرب وتبديد الحركة الإسلامية.

٩ – إرادة الاستعمار ضرب القوى الوطنية في بلاد غير إسلامية كما حدث في بعض بلاد إفريقيا.

١٠ – حب السلطة والغلبة، كما يحدث نتيجة للصراعات العسكرية، فإن العسكر إذا تولى الحكم لا يقدر على حفظه، ولذا ينقلب عليه آخرون حباً للاستئثار بالسلطة...

ولا يخفى أن كل ذلك نابع عن جهل الشعب، ولذا لا يحدث انقلاب في بريطانيا أو فرنسا، أو حتى في إسرائيل الغاصبة، حيث إن شعوب تلك البلاد لهم من وعي الحياة قدر لا يسمح للانقلاب.

ثم إن هناك ثورات شعبية تفعل نفس فعل العسكريين من التدمير والتخريب، مثل هتلر وموسليني ولينين وماو وهوشي وكاسترو وأمثالهم، مما لم يكن عملهم إلا القتل والتدمير والتخريب وإدخال البلاد في حمامات من الدم، وتعميم الإرهاب في البلاد مما هو معروف.

وإنما تحدث مثل هذه الثورات إذا هاج الشعب من الفساد والخراب، ولم يكن لهم وعي كاف في كيفية الحكم، فيشترك الشعب جميعاً في الهدم، بدون خريطة مسبقة ومؤهلات لكيفية البناء، فيستغل جماعة من طلاب السلطة، جهل الشعب للاستيلاء عليه بالإرهاب سجناً وتعذيباً وإعداماً ومصادرة الأموال وخنقاً وكبتاً.

وعلامة هذا النوع من الحكومات (وحدة الحزب) مما يتبع وحدة الخط السياسي في البلاد، أعلاماً وشخصيات في كل السلطات، فإذا لم يكن في البلاد أحزاب سياسية متعددة (واللازم في بلاد الإسلام أحزاب سياسية إسلامية تحت شورى العلماء المراجع) فهو دليل على أن الثورة الشعبية الواسعة تحولت إلى قفز جماعة إلى الحكم، وإقصاء الآخرين بمختلف المعاذير والتهم، وتكون عندئذ مأساة البلاد...

وإلا فإن صَدَق الحاكم، في مثل هذه الحكومات، فلماذا لا يسمح للبحث الحر مع من يدعيه خصوماً للبلاد؟

والحال أن الحاكم القافز على الحكم (باسم الشعب) هو العدو للبلاد.

فعلى الأمة أن تعي حتى لا يقع انقلاب عسكري، ولا ثورة شعبية تنتهي إلى (سرقة جماعة للثورة) وإلا كان المصير الدمار والهلاك.

تكاثر الموت

يكثر الموت في ظل الديكتاتورية بأسباب جديدة، بالإضافة إلى الأسباب العادية التي توجد لكل إنسان كما قال الشاعر:

لـه ملك ينادي كل يـوم لدوا للموت وابنوا للخـراب

وذلك:

١ – كالموت في جبهات الحرب التي يؤجج نيرانها الدكتاتور.

٢ – والموت بالإعدام لأسباب عديدة يجعلها الدكتاتور.

٣ – والموت بالاصطدامات من السيارات وغيرها لعدم قوة نظام المرور الذي يحول دون ذلك.

٤ – والموت بالأمراض المختلفة لعدم الأدوية الكافية ولا الأطباء الحاذقين.

٥ – والموت بالاغتيالات.

٦ – والموت بسبب عدم توفر دور الولادة، والمولِّدات الكفوءات فيموت الأطفال وأمهاتهم أحياناً عند الولادة.

٧ – والموت بالقصف.

٨ – والموت بإسقاط الجنين من الخوف ونحو ذلك.

٩ – والموت بسبب الفقر.

١٠ – والموت بسبب الانتحار لتراكم المشاكل.

بينما من الواضح أنه لا حاجة إلى الحرب، و لا وجه للإعدام، والتحسين في تربية السوّاق الفنيين وتحسين الطرق وجعل القواعد صحيحة للمرور توجب عدم الاصطدام، والأمراض المختلفة لا تهجم على الناس إذا نظمت برامج صحية للحياة، ولو هجمت أمكن علاجها، والاغتيالات إنما هي وليدة عداوات يمكن علاجها بالمحبة والأخلاق، بالإضافة إلى أن الاغتيالات التي يمارسها الدكتاتور ضد الناس لا تكون في الحكومات الاستشارية، وتأسيس دور الولادة يمنع من الموت عند الولادة والطلق، والقصف تابع للحرب وإذا لم تكن حرب فلا قصف وإسقاط الجنين ينتهي بإزالة أسبابه، وإزالة أسباب الإنتحار تؤدي إلى محوه، ولا فقر في المجتمع حتى يسبب الموت الناشئ عن الجوع وسوء التغذية.

تصاعد الاضطرابات العسكرية

كما أن جو الدكتاتور يسبب تكثير الانتفاضات والانقلابات لعدم استقامة المجتمع، سواء كانت الدكتاتورية من وحي الخارج كما نشاهده في العالم الثالث المعاصر، حيث أن الحكومات الاستعمارية تسبب الثورات والانقلابات في هذا العالم المتخلف، أو بأسباب داخلية من جهة عدم توزيع القدرة، بينما نرى عكس ذلك في المجتمع المتقدم

فإن الإيمان بنعيم الآخرة للمحرومين وانتشار الأخلاق في المجتمع وجود للجمعيات الإنسانية والدعاة والوعاظ والمرشدين وانفتاح الطريق أمام الكل للاغتراف من الاقتصاد، والسياسة، والعلم، والاجتماع، والتربية، وغير ذلك مما يوجب انعدام الحرمان القانوني وإنما التخلف الطبيعي المتدارك بالفضيلة وثواب الآخرة تجعل الناس راضين فلا تحدث ثورة ولا انتفاضة ولا أعمال تخريب ولا شك في صحة الأسس التي بنى عليها الاجتماع الذي يعيش في جو الاستشارية لأن الأخلاق تلائم الطبع، والدعوة إلى نعيم الآخرة تكون سلوة للإنسان بالإضافة إلى أنها واقعية، والحرية المتاحة لكل إنسان لا تدع مجالاً لتراكم الكراهة، والجمعيات الإنسانية في مختلف أبعاد الحياة من اقتصادية، واجتماعية، وسياسية، وغيرها ترمم الفاسد الممكن ترميمه واستقامة الحكم بالانتخابات الحرة تمتص النقمة فلا تستعد النفوس للانقضاض على الحكم، وإذا استقام الحكم توفرت في ظلاله سدّ الطرق الملتوية في وجوه طلاب الرئاسة من الانقضاض على كرسي الحكم بسبب الدبابات والسلاح، ولو فرض أن انقضت جماعة من العسكريين على الحكم لم يساعدهم الناس بل يؤخذون إلى المحاكم لتدينهم بسبب ما ارتكبوه من الجريمة وتعكير الأمن، كما حدث مثل ذلك في بعض البلاد الغربية.

إماتة روح القانون (من مآسي الديكتاتورية)

ثم من مآسي الدكتاتورية انحراف القانون أولاً من جهة الهدف فإنه ليس المحور حينئذ روح القانون بل جسم القانون الجامد والقانون إذا جمد أضر بالحقوق، بينما في القانون المستقيم، الناس يتعاملون حسب الروح لا حسب القانون، والسر أن القانون من ولائد الروح فإذا كان القانون مستقيماً وتعارض مع الروح كان المرجع الروح ولذا إذا رأى الناس أن إنساناً أثرى أكثر مما يمليه الروح كانوا أعداءً له وإن تذرّع بالقانون، وهكذا في سائر الشؤون قال سبحانه: (كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم)(٥) وفي الروايات الكثيرة: التأكيد على (الإنصاف) بمعنى أن يكون النصف لك والنصف الآخر لطرفك، لا أن يتحايل الشخص على القانون وتحت غطائه يجر الخير الأكثر إلى جانبه.

القانون لمصلحة الديكتاتور

ومن جهة أخرى إن القانون لا يوضع في ظل الحكومات الدكتاتورية لينتهي إلى خير الإنسان والإنسانية، بل لينتهي إلى نفع الدكتاتور ومن إليه.

ومن الواضح تناقض الطريقين. فمثلاً القانون الدكتاتوري يأتي بمن يصفق للدكتاتور، بينما القانون الإنساني يأتي بمن يراعي الإنسانية، ولذا نجد المحسوبية والمنسوبية تأتي بالموظفين في الحكومات الدكتاتورية، ومن الواضح أن المحسوبية والمنسوبية لا تتمكن من التقديم إلى الأمام، بينما نجد الكفاءات والمؤهلات هي التي تأتي بالموظفين في الحكومات الاستشارية.

وقد روي عن عيسى (عليه السلام) أنه أشار إلى هذا الموضوع بكلام جميل. فقال: (خلق السبت للإنسان ولم يخلق الإنسان للسبت) ولعل في الآية الكريمة إشارة إلى ذلك حيث قال سبحانه: (يسألونك عن الشهر الحرام

قتال فيه، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا)(٦).

ونشير إلى القصة التالية لإلقاء الضوء على ما نحن بصدده وهي:

أن الرسول (صلى الله عليه وآله) أرسل عبد الله بن جحش في جماعة صغيرة من المسلمين لإستطلاع أخبار قريش، وقال له: ترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم. فمرت بهم عير لقريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحضرمي وكان يومئذ في آخر شهر رجب وهو من الأشهر الحرم. وذكر عبد الله بن جحش ومن معه ما صنعت قريش بهم وما حجزت من أموالهم وتشاوروا فيما بينهم كيف يتركون العير وفيها القتلة وأموال الذين سلبوهم أموالهم، فقال بعضهم لبعض: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردّدوا وهابوا الإقدام، ثم شجعوا أنفسهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأسر المسلمون رجلين من قريش في قبال أسر قريش رجلين منهم وهما سعد بن أبي وقاص الزهري، وعقبة بن غزوان، اللذين ذهبا يطلبان بعيراً لهما ضل فأسرتهما قريش. وأقبل عبد الله بن جحش بالعير والأسيرين ومعه المفرزة الإستطلاعية حتى قدموا المدينة على الرسول (صلى الله عليه وآله)، فلما رآهم الرسول وعلم بأخبارهم قال لهم: (ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام) وأوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً حتى ينزل عليه الوحي، وأسقط في يد عبد الله بن جحش وأصحابه، وعنفهم إخوانهم من المسلمين بما صنعوا، وانتهز الكفار واليهود الفرصة فأثاروا ثائرة الدعاية: بأن محمداً (صلى الله عليه وآله) وأصحابه استحلوا الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم الحرام، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا الرجال، وحين ذلك نزلت الآية الكريمة، وفرح المسلمون بنزول القرآن بهذا الأمر، وقبض النبي (صلى الله عليه وآله) العير والأسيرين، فافتداهما منه قريش فقال: (لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا، فإنا نخشاكم عليهما فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم) وقدم سعد وعتبة بعد إطلاق قريش سراحهما، وفداهما النبي (صلى الله عليه وآله) عن الأسيرين (في قصة طويلة مذكورة في التواريخ والسير)(٧).

وقد ورد في الحديث (أن المؤمن أعز من الكعبة)(٨) وذلك واضح لأن الكعبة وضعت للمؤمن، لا أن المؤمن وضع للكعبة.

الفوضى وقلة الإنتاج

ثم إنه لو ظهرت الدكتاتورية في أي بعد من أبعاد الحياة، سواء كان الإنتاج في يد قلة أو كان الاقتصاد أو الحكم أو الأرض كما في عهد الإقطاع، مما يؤول في آخر الأمر إلى كون القوانين بيد أولئك القلة وفي نفعهم (لأنهم يضغطون على المشرعين لتشريع القوانين النافعة لهم ومن الطبيعي أن تكون القوانين حينئذ في ضرر الجماهير) نجم عن ذلك أمران:-

الأول: إنه حيث تحس الجماهير بذلك لا تقدّم الإنتاج الممكن والنوع الجيد، لأنها لا داعي لها في الإنتاج حينما ترى أن حاصل جهودها يذهب إلى كيس غيرها خصوصاً الغير الذي تكرهه أشد الكراهية. ولا نقصد من الإنتاج

فقط الإنتاج الزراعي أو الصناعي أو الاقتصادي أو ما أشبه، بل المراد الأعم من الإنتاج السياسي والاجتماعي وغيرهما أيضاً.

الثاني: حيث يوجب ذلك حرمان الأكثرية ينتهي بدوره إلى الفوضى ثم الثورة وهكذا دواليك. إلا إذا خرجت الأمور المذكورة عن الاحتكار وذلك لا يكون إلا بتوزيع القدرة في كل أبعادها بين الذين يتمكنون من القيام بمسؤولياتها.

وقود الاضطرابات

وحيث أن الطبقة المحرومة تتحمل المشاكل والحرمان، فهي أسرع المواد إلى الاشتعال في الثورات والانقلابات ولا ينفعها الوعود البراقة من أصحاب الامتيازات المتربعين على الحكم وخلف الدعايات المضللة، وإن أعباء الثورات والاضطرابات تقع على الطبقة المحرومة التي هي أكثرية الأمة، فإن كثيراً من الطبقة ذات الامتيازات كانوا بحماية القانون يهربون عن الجندية. وحتى الغارات الجوية التي كانت تحصد الأمة كانت تصيب الطبقة المحرومة التي لا تجد مهرباً إلى الأرياف والقرى، أما الحكام فكانوا يمتطون السيارات الفارهة ويذهبون إلى القصور الفخمة المرفهة التي بنوها أو استملكوها من الحكام السابقين، وإذا ذهبوا إلى الجبهات كان للرياء والشهرة وذكر أسمائهم وعرض صورهم في وسائل الإعلام، والدكتاتور وإن كان يقف أمام الراديو والتلفزيون ليمدح نفسه ويزكيها ويبرر أعماله، وكذلك يفعل المصفقون له، لكن الجماهير لا تنخدع بذلك إلا في وقت قصير وفي المثل المعروف: (إن الإنسان يتمكن أن يخدع بعض الناس في بعض الوقت، لكنه لا يتمكن أن يخدع كل الناس في كل الوقت).

الإعلام المرفوض

والناس من طبيعتهم عدم الاطمئنان بالخط الواحد وإنما يطمئنون إذا كانت هناك قوتان تقفان جنباً إلى جنب في وسائل الإعلام وتناقشان المواضيع والناس يسمعون إلى هذا وإلى هذا، ويحكمون أن الحق مع أيهما، وإذا صار لكل واحد أنصار (فرضاً) يلاحظ الناس الأكثرية، وإذا فرضنا التساوي بينهما تكون الأمة مخيرة في الأخذ بهذا أو بذاك أو يؤخذ بالإقتراع فلا ينفع مدح الدكتاتور لنفسه ولا ذمه لأعدائه ولا تصفيق الإمّعات له، وحتى إذا رأى الناس أعداء الدكتاتور يظهرون على شاشة التلفزيون ويعترفون على أنفسهم بالجرم فإن ذلك مما يثير الجماهير ضد الدكتاتور أكثر فأكثر وينفرون وينفضون من حوله ولا أدل على ذلك مما شاهده الناس من ستالين وعبد الكريم قاسم وعبد الناصر والبكر وصدام ممن كانوا يعذبون أعداءهم أشد أنواع التعذيب في الزنزانات والسجون، ثم يأتون بهم وهم منهارون ومنهكو القوى أمام التلفزيون ليعترفوا على أنفسهم أنهم مجرمون وقتلة وجواسيس ومرتشون، وإلى غير ذلك مما في القوائم الطويلة من الجنايات ثم يطلبون من رئيس الدولة الدكتاتور الأوحد العفو والصفح، وإنهم إذا عفا عنهم في المستقبل يسبّحون بحمد الدكتاتور ويشكرونه.

الاعترافات التلفزيونية

مقتضى الدليل العقلي والشرعي أن كل اعتراف أمام التلفزيون أو الراديو أو على المسجلة أو حتى الكتابة بخط اليد ليس حجة إذا عرف الإنسان الظروف والملابسات فإنه كثيراً ما يضغط الدكتاتور على الشخص حتى يعترف لفظاً أو كتابة.

ومن الواضح أن الاضطرار مرفوع عقلاً وشرعاً فحتى إذا رأى الإنسان كتابة إنسان يعترف على نفسه بالجريمة وبخط يده يجب أن لا يطمئن بتلك الكتابة، ولذا قال الفقهاء (إنه لا اعتبار بالكتابة) هذا بالإضافة إلى إمكان (المونتاج) في التلفزيون وإمكان تجميع الصور والكلمات الصوتية أو الكتابية ثم أخذ التصوير منها لعرضها على المجتمع.

ومن الواضح أن كل اعتراف يؤخذ بسبب القسر والجبر ليس بحجة شرعاً ولا عقلاً، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في الكتب الفقهية وفيها من الروايات ما استند إليها الفقهاء في ذلك ولا ننسى كيف أن (بيريا) جاء وراء الإذاعة الروسية واعترف على نفسه بأنه جاسوس لبعض الدول الغربية، وإنه مجرم ثم أعدمه ستالين الذي أجبره على تلك الاعترافات، وكذلك فعل ماوتسى تونغ في الصين، كما لا ننسى كيف أن رشيد مصلح الحاكم العسكري العام جاء أمام التلفزيون – في عهد أحمد حسن البكر– واعترف على نفسه بأنه مجرم ومرتشٍ للغرب وأنه أخذ خمسمائة دينار من الحكومة الأمريكية، لأجل تخريب البلاد مما أثار مضحكة عامة عند الناس، فإنه كيف يمكن أن يأخذ الحاكم العسكري العام الذي تحت يده الأموال الطائلة خمسمائة دينار لأجل أن يكون جاسوساً لأمريكا، وأخيراً أعدمه البعثيون حسب تلك الاعترافات. إلى غير ذلك من الصور المزرية للدكتاتوريين.

ملاحظة المعارضة

من طبيعة الدكتاتور أنه يدمر الحرية والمساواة والاستشارية داخل البلاد، لأنه يريد السلطة المطلقة، فإذا دمرها ولم يتمكن من أن يتحمل وجود هذه الأمور خارج البلاد، قام بإعلان الحرب على المعارضين له في الخارج، وحيث أن حكومته لا تتمكن من تصفية المعارضة في الخارج تقوى المعارضة الخارجية ضد الدكتاتور، مما يسبب الانتكاس له وسقوطه أخيراً، كما حدث مع هتلر وموسيليني وماو، والآن يحدث مع حكومة روسيا، وهكذا كان حال العراق أيام قاسم وعارف ومصر أيام ناصر وغيرهم من الدكتاتوريين الذين سقطوا بما فعلوه من التدمير في الداخل وأرادوا التدمير في الخارج.

مسجد يحول إصطبلاً!!

وهل يذكر التاريخ الإسلامي الطويل أن بناء المسجد يحتاج إلى الإجازة، أو الدولة تهدم المسجد بلا عذر، أو يؤجر المسجد كبيت أو يجعل المسجد إصطبلاً. وقد اتفق في كربلاء المقدسة أن مسجداً أجرته الدولة اصطبلاً فتحول المسجد اصطبلاً واشتهر به، لكن عُمّر بعد إنقاذه من الدولة وسمي بمسجد الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) (و هو المسجد الكائن في العباسية الشرقية) ونحن لما أردنا بناءه وإنقاذه من هذه المشكلة أرسلنا بعض أصدقائنا إلى بغداد مرة ومرة ومرة وعشر مرات وعشرين مرة وثلاثين مرة وأربعين مرة وإلى خمسين مرة حتى تمكنا من تحصيل الإجازة لاسترجاع المسجد وتجديد بنائه، حتى أن وزير البلديات وكان اسمه (عباس البلداوي) قال

لجماعة من أصدقائنا لما زاروه لهذا الشأن: (إنكم إذا تريدون محلاً لبناء السينما فذلك لا مانع منه أما إذا أردتم بناء المسجد فإنه لا قانون لنا يبيح هذا الشيء).!!

١ . نهج البلاغة: الكتاب ٣١.

٢ .كنز العمال: ج٦، الرقم ١٤٩٧٢.

٣ .كنز العمال: ج١، الرقم٤٩١.

٤ .كنز العمال: ج١٦، الرقم ٤٥٤٢٩.

٥ . سورة الحشر: الآية ٧.

٦ . سورة البقرة: الآية ٢١٧.

٧ . البداية والنهاية: ج٣ ص٢٤٨.

٨ . بحار الأنوار: ج٦٨ ص١٦.

الديكتاتورية شرقاً وغرباً

الشرق والغرب سواء

هناك مشتركات كثيرة بين النظام الشرقي الشيوعي والنظام الغربي الرأسمالي، ولا فرق بينهما في كثير من الأمور، فكلاهما يتفقان في عدم احترام الإنسان والاهتمام به، وجعل الإقتصاد والمادة هي المحور دون الإنسان، بينما جعل الله سبحانه وتعالى الإنسان هو المحور، ولذا كانت مآسي الإنسان في القانون الإسلامي مآسي طبيعية لا بد للبشر منها وهي أقل بكثير وكثير من مآسي الإنسان في القانون الغربي والشرقي مما سببها القانونان المذكوران.

نعم القانون الشرقي يختلف عن القانون الغربي في أمرين:-

الأول: كثرة الدكتاتورية وشدتها.

الثاني: تبديل أصحاب الإختصاص إلى موظفين للدولة ومهرّجين ومصفقين لها، مما سبب تأخر الشرق أكثر فأكثر.

ولذا نرى البلاد الشيوعية أكثر تخلفاً من الغرب على طول الخط، ويأتي يوم قريب بإذن الله سبحانه وتعالى يسقط فيه النظام الشيوعي في العالم كله، كما سقط فيما يقل على نصف قرن من الزمان تقريباً في كثير من البلاد (والتي منها الصين ذات الألف وثلاثمائة مليون إنسان).

ولا بأس بالإلماع هنا إلى جانب من جوانب دكتاتورية الشيوعيين ووحشيتهم، بذكر ما ارتكبوه في أفغانستان من التعذيب للأبرياء في السجون، وذلك مما ذكره لنا شهود عيان، ممن وقعوا في قبضة الشيوعيين الدامية، وعاينوا من التعذيب القاسي ما تقشعر له الجلود وتشمئز منه النفوس، وإلا فإن استقصاء كل جرائمهم وجناياتهم في هذا البلد المسلم يحتاج إلى عشرات المجلدات الضخمة، نكتفي بالإشارة إلى بعضها:-

رجعية فناء الديكتاتورية الماركسية

ولا أدل على عدم بقاء الدكتاتورية من تحطم الشيوعية في العالم، وانسحاب الصين ذات الأكثر من مليارد من البشر من الشيوعية بمجرد موت مؤسسها وهو (ماو)، وتململ روسيا في الحال الحاضر لنفض غبار الشيوعية عن نفسها ورفع ستالين يديه للغرب أمام هتلر بحيث أنه لو لم يساعده الغرب لكانت شيوعية روسيا منذ زمن بعيد في خبر كان.

رجعية الديكتاتورية السوفياتية

كما أنه لا أدل على تأخر الاتحاد السوفياتي في أنها لا خلاّقية لها إطلاقاً إلا بالسرقة من الغرب، حيث أن الحرية ولو النسبية منها هي مناخ الخلاقيات والإبداع كما أنه لا أدل على تأخر الاتحاد السوفياتي أيضاً من احتياجه إلى حنطة الغرب حيث بعض الحرية فيه، وفي أي يوم تمكن شعب الاتحاد السوفياتي من الانفلات عن قبضة الحكومة

الدكتاتورية لم يتأخر حتى بمقدار يوم واحد عن ذلك، والظاهر أنه قريب جداً كما انفلت الشعب الصيني من الدكتاتورية في أول فرصة بعد موت ماو.

الإرهاب الستاليني

وقد ذكر الكتاب المذكور حول ستالين قائلاً: أنه بعد أن انتزع ستالين الزعامة من منافسيه تغير جو الحزب كله فأصبح مجرد الإختلاف مع ستالين في وجهة النظر في ذاته تعبيراً عن اتجاه مناهض للثورة، وحدثت عمليات تطهير بالجملة ونفي بالجملة وإعدام بالجملة ورغم التعهدات التي جاء بها دستور سنة ألف وتسعمائة وست وثلاثين لا توجد حرية قول إلا لأتباع ستالين ولا حرية صحافة أو إجتماع، والعالم كله يعرف أن الإنتخابات هناك مهزلة، فلا يمكن لمن يخالف سياسة الحزب أن يرشح، بل وحتى أوراق الإنتخاب بدت وكأنها قصائد مديح في ستالين، وحرية الانتقال مقيدة بشكل خطير، والاتصال بالأجانب ينظر إليه بريبة، ويلقي القبض على الناس تحكماً ويقضون مدداً طويلة في السجون، بل ويعدمون دون محاكمة، ويصعب الحصول على مطبوعات أجنبية وخاصة الصحف بدون إذن رسمي، ويخضع الصحفيون الأجانب في الاتحاد السوفياتي لرقابة شديدة...

وتعرض أطفال صغار نسبياً للتشجيع والإغراء من طريق الإطراء ليشوا بآبائهم ومن الواضح أن أي نظام يدمر كل القيم باستثناء القوة وعلى استعداد للإلتجاء للحرب دون أي وازع بوصفها أداة طبيعية من أدوات السياسة أما أن يقضي عليه، أو يستبعد الجنس البشري وليس هناك حل وسط بين هذين الأمرين.

ماذا في سجون أفغانستان؟

١ – ممارسة الفاحشة مع الرجال والنساء في السجون لأجل تعذيبهم النفسي، بالإضافة إلى أنه كثيراً ما يسبب تعذيبهم الجسدي أيضاً، فقد ذكر شاهد عيان أن عشرة من الجلاوزة مارسوا الجنس مع شاب سجين فسبب له النزيف وعلى أثره نقلوه إلى المستشفى ولم يعرف مصيره بعد. وكان اعتداؤهم هذا أمام أعين السجناء وذلك بقصد إرهابهم والتنكيل بهم.

٢ – ممارسة الجنس مع الأطفال من بنين وبنات أمام أعين الآباء حتى يموت الطفل، وذلك تنكيلاً بآبائهم المجاهدين.

٣ – هاجم الجلاوزة مجاهداً في داره، فأرعبت زوجته الحامل وأخذها حالة الطلق، فألقوا القبض على الزوج وتركوها وهي في حالة مخاض، وبعد مدة جاء الجيران فرأوا أن المرأة ميتة وإلى جانبها طفلها ميت أيضاً.

٤ – ساق الجلاوزة الأب والأم إلى السجن وكان لهما ثلاثة أطفال، وبعد مدة جاء الجيران ليروا أن الرضيع مات في المهد، وأن الطفل الثاني جاء إلى السلّم ولم يقدر على النزول منه فوقع وخرّ ميتاً، وأما الثالث وهو الطفل الأكبر فكان قد مات وراء باب الدار حيث ظهر أنه جاء إلى خلف الباب يريد أمه وأباه لكن بدون جدوى، فبقي هناك إلى أن مات جوعاً وعطشاً، وخوفاً ورعباً.

٥ – يأتي الجلاوزة بأكوام مكسرة من الزجاج ثم يجرّدون السجين من ملابسه ويمرّغوه عليها مما يدمي كل جسمه.

٦ – يجعل الجلاوزة السجين بعد ما يقرّوه من كل ملابسه في برميل مملوء بكسرات الزجاج، ثم يدحرجون البرميل بعنف وشدة مما يسبب في دخول الزجاج في جميع جسمه وسيلان الدم منه.

٧ – يسلطون الكلاب الجائعة على السجين حتى تنهش لحمه وتشرب دمه.

٨ – يدرّبون الدب على اللعب العنيف مع خصيتي السجين وذلك بعد إجلاسه على كرسي مثقب وإخراج خصيتيه من ثقبه وربطه بالكرسي ربطاً وثيقاً بحيث لا يتمكن من التحرك، وفي أثناء هذه العملية يغشى على السجين مرات ومرات.

٩ – ما نقله أحدهم من أنه أدخلوه في مكان مظلم بعد أن عصبوا عينيه بعصابة، وأنزلوه من درجات سلّم، إلى أن أوصلوه إلى حوض فيه سائل وصل إلى قريب حزامه، فحسبه ماءاً لزجاً وكانت يده حرة يحركها في مختلف الإتجاهات لكي لا يصطدم بحائط أو حاجز وفجأة وقعت يده على جمجمة إنسان فذعر منها وتركها، لكن صادفت يده يد إنسان مقطوعة، فتجنبها، وإذا به يلمس ساق إنسان مفصولة، وهكذا حتى نزعوا العصابة التي كانت تغطي عينيه فوجد نفسه وسط بركة من الدماء – لا يعلم هل كانت حقيقة مملوءة بالدماء، أو لا، وإنما ملئت بالماء المصبوغ بالدم لأجل إرعاب السجين وإرهابه – وفي ذلك الحوض جثث العديد من الموتى وجماجم وأيدي وأرجل مفصولة.

قال: فما كان مني إلا أن أغمى علي من الرعب والصدمة الروحية، ثم وجدت نفسي بعد يومين أو ثلاثة أيام في المستشفى وأنا منهك الأعصاب.

١٠ – إحراق الأطفال الصغار من الذين تتراوح أعمارهم بين ثلاث سنوات إلى أربع سنوات أو ما أشبه، أمام أعين آبائهم وأمهاتهم وذويهم بعد ربط الآباء والأمهات بالجدران ونحوها، حيث يصبون النفط على الطفل ثم يشعلون فيه النار، مما يسبب له الهرولة والبكاء والصراخ والصياح إلى أن يحترق كله أمام أعين ذويه.

١١ – يصب الجلاوزة مسحوق الغسيل مع الماء على أرض الغرفة، حتى تصبح مزلقة لا تستقر عليها قدم، عند ذاك يقف أربعة من الجلاوزة في زوايا الغرفة ويأمرون السجين بالمشي على هذه الأرض الزلقة، فكل ما ذهب إلى جانب ضربه الجلواز بالسوط وأوجعه حتى يركض إلى الجانب الآخر، فتنزلق قدمه ويقع وربما تكسرت يده أو رجله أو رأسه أو بعض عظامه، وهكذا يفعلون به حتى يغمى عليه فينقل إلى المستشفى.

١٢ – إفراغ غازات سامة في بعض الزنزانات الانفرادية أو السجون الاجتماعية، وجعل السجناء فيها بعد غلقها عليهم، مما يؤدي إلى موتهم.

١٣ – قطع أجزاء من لحم السجين وأمره بأكله، وإن لم يفعل ضربوه أشد الضرب، وهكذا حتى يموت أو يغمى عليه.

١٤ – جبر المعذب أن يمارس الجنس زناً ولواطاً مع أقربائه وإلا عذبوه أشد التعذيب.

١٥ – جبره على أن يقلّد صوت الكلاب أو القردة أو الديكة أو غيرها من الحيوانات، مما يسبب إذلاله وتعذيبه نفسياً.

١٦ – جبر النساء أن يقفزن وهن عاريات أمام الرجال الأجانب.

١٧ – جبر المعذبين أن يضرب بعضهم بعضاً.

١٨ – جبر المعذبين بإطلاق الرصاص على أصدقائهم المعذبين، وإلا قتلوهم جميعاً فيما إذا حكم عليهم بالإعدام.

١٩ – جبر المعذب على إحراق قرآنه أو كتاب دعائه أو غيرهما من الكتب المقدسة التي معه.

٢٠ – جبره على سب الأنبياء والأئمة (عليهم الصلاة والسلام) وسب الله (تعالى) وسب المراجع.

٢١ – وضع الجلاوزة في ملابس بعض المعذبين بعد ربط أيديهم وأرجلهم عقارب أو حيات حتى تلدغهم.

٢٢ – ذرّ الأسيد في عيون المعذبين.

٢٣ – ذرّ الأسيد في أفواههم.

٢٤ – بقر الجلاوزة بطون الحاملات، وذبح أطفالهن الأولاد وذلك فيمن يراد إعدامهن من النساء.

٢٥ – قطع اليد والرجل بالمناشير الكهربائية.

٢٦ – نفخ البطن من طرف الأسفل أو الفم حتى ينفجر ويموت المعذب..

٢٧ – إلقاء الناس في القبر وهم أحياء ثم طم القبر بالتراب حتى يموتوا هناك..

٢٨ – إلقاؤه في حوض من ماء الثلج خصوصاً في أيام الشتاء..

٢٩ – إلقاؤه في حوض من الماء الحار..

٣٠ – جعله تحت الدوش الذي يقطر بقطرات ماء بارد أو ماء حار، وذلك يسبب أشد التعذيب على الذي تلقى القطرات على رأسه.

٣١ – إعطاؤه المسهل الشديد الإسهال، وحبسه في غرفة بدون ماء، مما يسبب له التعذيب الجسدي والنفسي من جهة الرائحة الكريهة وتلطخه بالوساخات.

٣٢ – فقأ العين.

٣٣ – قطع اللسان.

٣٤ – صلم الأذن.

٣٥ – جدع الأنف، وهذه غالباً من التعذيبات التي يصبونها على الذين يريدون قتلهم بعد ذلك.

٣٦ – قطع آلته الرجولية وشفرات النساء.

٣٧ – قطع أشفار العين.

٣٨ – إلصاق شفرة العين على الحاجب حتى لا يتمكن من غمض عينه.

٣٩ – قطع الشفة.

٤٠ – كسر الأسنان بسبب القبضات الحديدية أو الذين كانوا يلعبون الكراتيه فيتمكنون من الكسر بالضرب الشديد.

٤١ – تسليط الأضواء الشديدة على المعذب حتى لا يتمكن من النوم.

٤٢ – عدم السماح للمعذب بالخروج إلى بيت الخلاء، مما يجبره أن يتخلى في نفس زنزانته، وأحياناً يسجنون عشرة أو أكثر أو أقل في غرفة واحدة ويدعونهم بهذه الحالة حتى يتأذوا ويخجل بعضهم أمام بعض.

٤٣ – تسليط الأصوات المزعجة والمرعبة ليل نهار على السجناء، وأحياناً يسلطون الصوت والإنسان في حالة النوم فيفزع من النوم مرعوباً.

٤٤ – ملء الغرفة بدخان شديد غليظ مما يسبب الأذى في عينه وحلقه ويسلب راحته..

٤٥ – صب البول والغائط على رؤوس السجناء.

٤٦ – جبرهم على تنظيف الغرفة من القاذورات بملابسهم.

٤٧ – تعذيبهم الروحي بشرب الخمر وأكل لحم الخنزير والمحرمات عند المسلمين.

٤٨ – إعطاؤهم بعض الأدوية المسببة للجنون الموقت، وذلك يسبب له تعذيباً جسدياً ونفسياً بعد صحوه عن الجنون، لأنه فعل أفعالاً غير مناسبة أمام أصدقائه.

٤٩ – حلق رؤوس النساء وحلق لحى المتدينين.

٥٠ – تعليق النساء من أثدائهن.

٥١ – تنويم المعذب في تابوت ضيق لا يتمكن من الحركة فيه..

٥٢ – تعرية النساء والرجال وجمعهم في غرفة واحدة مما يسبب لهم أذى كثيراً..

٥٣ – تبريد الغرفة تبريداً شديداً أو تسخينها بدرجة عالية..

٥٤ – عدم الإذن للسجين بأن ينام أو يجلس أربع وعشرين ساعة أو أكثر، بواسطة جلاوزة يتراوحون على تعذيب السجين ومراقبته..

من مساوئ الرأسمالية

ولا يظن من ذلك أنّا نمدح الرأسمالية في قبال الشيوعية إذ أن كلاً من الشيوعية والرأسمالية نظام منحرف وإن كان النظام الشيوعي أكثر انحرافاً لوضوح أن الرأسمالية منحرفة.

أولاً: بسبب كثرة العاطلين لأن الإنتاج بيد جماعة خاصة، وهم لا يتمكنون من استيعاب كل العمال، والمشاريع الحكومية وإن استوعب الكل فهي موقتة لا دائمة.

ثانياً: قلة الأجور وارتفاع الأسعار لأن الرأسمالي يستغل العمال والدولة.

أما لماذا ارتفاع الأسعار فلأن المال يصرف قسم منه في السرف، وقسم منه في السرقة تحت نطاق القانون، وقسم منه في الحرب التي هي بعبع في الحال الحاضر في كل العالم، ولا ترتفع الأجور بقدر ارتفاع الأسعار ولهذا يبقى أغلبية الناس في حال احتياج حتى إلى أوليات الحياة، بينما يرفل الكثيرون من أصحاب النفوذ والامتيازات والحكم والرأسمالية، في بحبوحة من العيش الرغيد.

ثالثاً: زيادة الأغنياء غنى والفقراء فقراً، وهذا يوجب الطبقية الحادة وعدم التعاون، مما يسبب تأخير البلاد وأن فرض عدم الثورة وعدم ترفع دكتاتور على الحكم كما صار في ألمانيا وإيطاليا، وهذا التقدم الذي نشاهده في الغرب ليس وليد الرأسمالية وإنما هو وليد ما تبقى لدى الناس من الحرية التي تناهض الرأسمالية.

الديكتاتورية وأنواع الاستبداد

الديكتاتورية وأنواع الاستبداد

نذكر في هذا الفصل ألواناً من الدكتاتوريات، كما نذكر نماذج من تصرفاتهم وسلوكياتهم في حياتهم العامة والخاصة، لأن الإنسان إذا عرض عليه الشيء القبيح استقبحه وحاول أن لا يتكرر عنده مثله، كمن عرف بشاعة الكذب أو السرقة فإنه يجتنبهما، لكن اللازم جعل القدرة في قبال القدرة وإلا فإن مجرد العلم لا يكفي في إزالة الدكتاتورية، وهي:

قلع عين الأولاد:

إن بعض الملوك قلع عيني ولده حتى لا يعارضه في الحكم وكانت عادة قلع العين أمراً دارجاً عند الملوك الدكتاتوريين.

القتل جزاء الإيقاظ:

أحد الملوك وصى خادمه أن يوقظه في وقت خاص من النهار، وكان ساهراً إلى وقت متأخر من الليل فلما أيقظه الخادم في الوقت المحدد ولم يكن قد أتم نومه غضب وأمر بأن يؤخذ ذلك الخادم إلى المقصلة فأخذ وقطع رأسه ورجع الملك إلى نومه.

ذبح الأولاد:

بعض خلفاء آل عثمان كان من عادتهم أن لا يبقوا لأنفسهم إلا ولداً واحداً، فكانوا يأخذون الأكثر من الولد الواحد ويذبحونه بأيديهم اعتباراً من قصة المأمون والأمين، حيث صار بينهما التحارب والتنازع مما أدى إلى ضعف الملك فكانوا يقولون: إن قتل بعض الأولاد – حتى لا يبقى إلا ولد واحد يرث الحكم – أهون من إبقائهم حتى يتحاربوا ويتنازعوا، مع الغفلة عن أن ذهاب الحكومات ليس بسبب تنازع الولدين أو ما أشبه، فإنه كثيراً ما كان بسبب التنازع بين الملك وملك آخر أو قوة ثورية أخرى وإنما العلاج لعدم التنازع تقسيم القدرة والإنتخابات الحرة.

الروح المتشائمة:

إن عبد الملك لما جلس في قصر الإمارة بالكوفة، وأمامه رأس مصعب بن الزبير جاءه شيخ كبير وقال: أيها الخليفة إن هذا قصر مشؤوم إني رأيت في هذا القصر ابن زياد وأمامه رأس الحسين (عليه الصلاة والسلام)، ثم رأيت في هذا القصر المختار وأمامه رأس ابن زياد، ثم رأيت في هذا القصر مصعباً وأمامه رأس المختار، والحال أراك في هذا القصر نفسه وأمامك رأس مصعب ولا أعلم ماذا خبأ الدهر، يشير بذلك إلى أنه يأتي يوم أرى رأسك أمام شخص آخر، فتشاءم عبد الملك من القصر وأمر بخرابه وتحول إلى مكان آخر غافلاً عن أنه ليس الذنب، ذنب القصر وإنما الذنب هو ذنب الملوك غير العدول الذين هم يظلمون الناس فيظلمون حتى تنفجر الأوضاع ضدهم

ولهذا رأينا كيف صارت عاقبة عبد الملك حيث أخرجه العباسيون من القبر مع رؤساء آخرين من ملوكهم وذويهم في قصة مذكورة في التاريخ.

قتل الوالي القضاة!!

والي سوريا من قِبَلِ الخليفة العثماني، قتل قاضي قضاة المنطقة، وحيث كان الوالي مربوطاً بالخليفة نسباً، عفا الخليفة عنه فأرسل إليه شيخ الإسلام في تركيا قاضياً ثانياً وبعد مدة قتل الوالي القاضي الثاني أيضاً ومكانته من الخليفة منعت أن يقتص منه، فأراد شيخ الإسلام أن يرسل قاضياً ثالثاً لكن القضاة أبوا لأنهم ما أمنوا الوالي، غير أن أحد المرشحين للقضاء كان فقيراً معدماً ففكر في نفسه أن يكون قاضياً في سوريا وحيث تصور أن قتل الوالي للقاضيين كان بسبب عدم طاعتهما له عزم على طاعته حرفياً. فجاء القاضي الجديد واستقبله الوالي كعادته استقبالاً حافلاً فاستقر في مكانه يقضي بين الناس وينصب القضاة في القرى والأرياف كعادة تلك الأيام. وفي ذات يوم سأل القاضي الوالي وقال: أيها الوالي إني سمعت أنك قتلت قبلي قاضيين وإني نويت على أن أطيعك في كل الأمور، فما كان معصية القاضيين لك حتى قتلتهما، فإني أريد أن أعرف ذلك كي أتجنب معصيتك وغضبك؟

قال الوالي: إن القاضيين لم يكن لهما أية معصية وإنما قتلتهما لأني رأيت في المنام أن القاضي الأول وكذلك القاضي الثاني أرادا بي سوءاً ولما انتبهت عن النوم أمرت بقتلهما من غير جرم أو عصيان أو ذنب، ولما سمع القاضي الجديد هذا الحديث خرج من عند الوالي وركب فرسه مسرعاً نحو (الأستانة) مقر الخليفة ولما وصل إليها سئل عن سبب رجوعه فنقل لهم القصة وقال: إني كنت أتمكن من ضمان يقظة الوالي بأن لا أخالفه، لكني ما كنت أتمكن من ضمان نومه أن لا يرى أني قصدت به سوءاً فيقتلني بدون سابق إنذار.

التنجيم للديكتاتور:

ويحكى أن منجماً جاء إلى هارون العباسي وقال له: إني رأيت في المنام أنك في هذه السنة تموت. فاغتم هارون غماً كبيراً وكان جعفر البرمكي حاضراً. فسأل هارون جعفر البرمكي عن العلاج في الأمر؟

قال جعفر: إن العلاج سهل وهو أن تسأل من هذا المنجم أنه في أي وقت يموت هو وكذبّه في دعواه حتى يظهر أنه يكذب أيضاً بالنسبة إلى تحديد حياتك. فسأل هارون المنجم عن مدة عمره هو؟

فقال المنجم: عشر سنوات ويموت بعدها. فأمر جعفر هارون أن يقتله الآن حتى يظهر كذبه في عمره مما يلزم أن يظهر كذبه في عمر هارون أيضاً، عندها أمر هارون بالجلاد والنطع والسيف وضرب عنق المنجم في نفس المجلس، ثم قال لجعفر: قد فرجت عني بهذا التدبير.

وقد نقلوا في أحوال نادر أنه ذات مرة قلع عين بعض خواصه ثم ندم على ذلك وقال لجلاده أنه يجب أن نقلع عيون هؤلاء الخونة يقصد جماعة من ضباطه وقواده وذويه حتى يكون وزن العيون المقلوعة إحدى وعشرين كيلو غراماً (سبعة أمنان، في اصطلاحهم) وفي نفس الليل هجم عليه جماعة ممن خافوه وقتلوه.

العراق مطمع الحكام

وإن بني أمية كانوا يقولون أن العراق بستان لقريش، ومعنى ذلك أنهم يتصرفون بالمال كيف يشاءون كما يتصرف صاحب البستان في بستانه (بينما العراق أرض مفتوحة عنوة وهي لكل المسلمين كما في النصوص الشرعية، وقد ذكرها الفقهاء في كتاب الجهاد وكتاب إحياء الموات وكتاب التجارة بمناسبات) وكان إذا عارضهم أحد في أن العراق لكل المسلمين وأنها ليست ملكاً لبني أمية وبستاناً لهم قتلوه ونكلوا به كما في قصص متعددة.

سارق العلانية:

جيء بسارق اضطر إلى السرقة إلى الخليفة فأراد الخليفة أن يقطع يده (ومن الواضح أن المضطر لا يقطع يده كما ذكر في الفقه الإسلامي في كتاب الحدود) فقال السارق: الله أكبر سارق العلانية يقطع سارق السر، وذلك أن الخليفة كان سارق العلانية فإنه يأخذ أموال المسلمين ويعمل بها ما يشاء من البذخ والترف في قصص مشهورة.

من لا يعرف النحو؟!

إن أعرابياً جاء إلى الخليفة وقال: السلامُ عليكُ يا أميرُ المؤمنينُ ورحمةُ اللهُ وبركاتهُ –كلها بالضم– فانزعج الخليفة من ذلك وأمر جلاوزته بصفع الرجل فأخذوا يصفعونه، ولما أن شرع الجلواز في صفعه أخذ الرجل يقول: بسمُ اللهُ الرحمانُ الرحيمُ –كله بالضم– فقال له الخليفة: ويلك من صبك على الرفع؟

فقال الرجل: لئن أرفع من رفعه الله خير لي من أخفضه فاستحسن الخليفة كلامه وسأله عن قصته.

فقال الرجل: إني لما أردت لقاء الخليفة ليقضي حاجتي سألت من إنسان بماذا ألاقي الخليفة؟

قال لي: بالفقه. قلت: لا أعرف شيئاً من الفقه، قال: بالحكمة، قلت: لا أعرف الحكمة، قال: بالبلاغة، قلت: لا أعرف بالبلاغة، قال: فارفع الكلمات لأن أكثر لغة العرب الرفع، ولهذا حيث لم أكن أحسن مواضع الإعراب أخذت في رفع الكلمات فعفا عنه الخليفة.

التعذيب القديم:

وكان من أساليب الحكام السابقين أنهم كانوا يعذبون الذين يخالفونهم بمختلف أنواع التعذيب. مثل (تشميع المعذب) وكانت كيفية ذلك أن تثقب مواضع من بدن المعذب ويجعل في كل ثقبة شمعة مشتعلة، ثم يركبونه الحمار ويشدون رجليه من تحت الحمار ويطوفون به في الشوارع والأزقة في زفة واجتماع يصفقون حوله ويعلنون أنه المجرم. والمعذب من ألم الجراحات والنار كان يموت أحياناً في أثناء الطريق لكنهم لا يتركونه وشأنه حتى يمروا به كل طرق المدينة ثم يؤمر به فيدفن في حفرته، وأحياناً كانوا يسودون نصف وجه المعذب مؤرباً ويركبونه الحمار ويشدون رجليه تحت الحمار ويطوفون به المدينة في زفة حوله، وكان من أقسام تعذيبهم أن يأخذ نفران قويان رجلي المعذب وهو منكّس أو يشدون الرجلين بالسقف أو نحوه ثم يأمر السلطان بأنه يشق شقين من أسافل بدنه بسبب ساطور قوي يضربه الجلواز في أسفل بدنه ويخرجه من عنقه.

وأنهم كانوا يأمرون بسلخ جلد الإنسان المعذب ثم حشوه بالتبن وتطويفه بالبلاد حتى يتعظ به غيره.

التعذيب الجديد:

وفي ظل إحدى الحكومات المعاصرة أخذت فتاة إلى السجن وبعد ساعتين أرجعوا الفتاة إلى ذويها، فرأوا أنها اختلطت وأخذت تهذي ولما راجعوا الطبيب لم يعرف سبب جنونها وكانت تصيح وتصيح وتصيح حتى يغمى عليها وهكذا، وأخيراً التجأوا بسبب الرشاوي والوسائط إلى أن يتعرفوا على سبب جنونها، حيث لم يكن الفاصل بين أخذها وبين إرجاعها أكثر من ساعتين فقالوا: إنهم ملأوا كيساً من (السام أبرص) وجعلوا ذلك الكيس في رأسها إلى رقبتها ولشدة الهول وتحرك السام أبرص على عينها وأذنها وفمها وأنفها أصابها ما أصابها من الجنون ولم ينجح معالجة الطبيب لها شيئاً(١).

صناعة الحقائب:

وكان من أقسام تعذيب هتلر وماوتسي تونغ (كما جاء في بعض الكتب) إنهم كانوا يسلخون الجلد من المعذب، ثم يصنعون من جلده الحفائظ والجنط كما أن ماوتسي تونغ كان يجعل من القتلى سماداً لأجل المزارع، و(بوكاسا) الذي حكم أفريقيا الوسطى كان إذا غضب على إنسان أمر بأن يقتل ثم يُسلم جثته إلى طباخه ليطبخه لهم ويحشوه بالتوابل والكشمش والبصل ثم يحضر هو ووزرائه ومن إليهم ويأكلون المقتول على عادتهم القديمة في أكل الأموات.

من ديكتاتورية العباسيين:

وكان المتوكل العباسي يملأ الأكياس – بسبب جلاوزته– من الحيات والعقارب، ثم يضع تلك الأكياس قريباً منه فإذا أراد أن يضحك على الحاضرين فتح رأس الكيس ونفضه في وسط المجلس وإذا بالوزراء وسائر من حضر المجلس يهربون في كل اتجاه وأحياناً تصيبهم لدغة عقرب أو حية.

نموذج آخر:

وكان ابن الزيات صنع تنوراً من الحديد مسمراً بمسامير من خارجه إلى داخله، وكان يلقي المعذب فيه ويجعل أطراف التنور النار حتى يطبخ هذا الرجل في داخل التنور وقد ثبتت المسامير الملتهبة في جسمه، ونثرت لحمه على عظامه.

التعذيب الماركسي!!

وكان من أساليب تعذيب الشيوعيين في العراق في أيام قاسم أنهم كانوا يملأون القناني بالعقارب ثم يمدون المعذب على الأرض بعد أن يعروه عن ثيابه ويشدون يديه ورجليه ثم يفرغون تلك القناني الممتلئة من العقارب على جسمه.

كما أنهم كانوا يقتلون الإنسان ويربطون برجليه الحبل ويجرونه في الشوارع والأزقة حتى يتقطع قطعاً قطعاً.

أو أنهم بعد قتله يرفعونه على قنارة القصابين ويقطعونه قطعة قطعة.

أو أنهم كانوا يشدون رجلي المعذب بسيارتين متخالفتين في الحركة فتسرعان في السير إحديهما إلى ذات اليمين والأخرى إلى ذات الشمال حتى ينشق المعذب من وسطه نصفين.

منائر من رؤوس!!

كان بعض حكام أفغانستان وبعض البلاد الأخرى (كما ذكر في التاريخ) يقطعون الرؤوس ويصنعون منها المنائر، وأماكنها موجودة إلى الآن في أفغانستان يعرفها الأهالي ويشيرون إليها إذا مروا على تلك الأماكن.

وكان (الأوزبك) حين هجموا على خراسان يقتلون الرجال ويعلقون رؤوسهم على أعناق خيولهم ويربطون حبلاً بعنق زوجته أو ابنته أو أخته أو أمه ويشدون ذلك الحبل بالفرس، ثم يهيبون به فيعدو سريعاً، والمرأة تزحف من ورائه يميناً وشمالاً ورأس قريبها معلق على رقبة الفرس.

وقد جنى أكثر من مائة نفر من جيش بعض الغزاة الغربيين في البلاد الإسلامية على امرأة مسلمة وداسوا عفافها جميعاً في يوم وليلة.

الصلب المنكوس!!

وكان من أساليب بعض الحكام أنه يصلب من يريد قتله منكوساً إمعاناً له في التعذيب والإهانة.

كما أن ابن زياد والحجاج كانا يصلبان الناس على جذوع النخيل بعد أن يقطعا أيديهم وأرجلهم وألسنتهم.

طبخ الإنسان وأكله!!!

وقد رأى أحد السواح في أفريقيا أنهم أخذوا إنساناً وربطوه حياً بشجرة ثم أشعلوا تحته النار حتى احترق جسمه وأخذوا يقطعون منه قطعة قطعة ويأكلونه.

العمل الخيري يتحول بلاءً؟

وذات يوم مر رجل في بلد على أحد أمثال هؤلاء الحكام فرأى امرأة تبكي وحولها أطفال، فتضرعت المرأة إليه بأن زوجها طلقها ولم يعطها ورقة الطلاق، مما لا تتمكن لا من البقاء بلا عيش ولا من أن تتزوج حيث لا تملك ورقة الطلاق، وأصرت عليه أن يذهب بها إلى الحاكم ثم يطلقها قربة إلى الله، انخدع الرجل وذهب بها إلى الوالي فطلقها وبعد أن طلقها طلبت المرأة من الوالي أن يعطي نفقتها لأيام العدة وأن يأخذ الأولاد إلى داره، وكلما حاول الرجل أن يتنصل من الطلاق وأن يثبت أنه كان بإصرار منها وأنه ليس من أهل هذا البلد، لم يسمع الوالي كلامه وأجبره على أن يأخذ الأولاد فأخذ ولداً بيده اليمنى والآخر بيده اليسرى وخرج من بيت الوالي فرآه بعض أصدقائه وهم يعلمون أنه لا زوجة له، ولا أولاد في هذا البلد وسألوه عن مصدر هؤلاء الأولاد؟

فقال: إن الوالي يقسم أولاد الحرام وأصابني منهم هذين الولدين(٢).

من الديكتاتورية العثمانية:

وذات مرة اشتكت امرأة على ولدها عند الوالي في بغداد بأنه لا يعيرها اهتماماً وكان اسم الوالي (أحمد آغا) فغضب الوالي غضباً متزايداً وأمر الشرطة أن يذهبوا مع المرأة إلى دارها لجلب الولد حتى يعاقبه بالإعدام لأنه يسيء إلى أمه، لكن الأم حيث خافت من تنفيذ الوالي حكم الإعدام بحق ولدها، دلت الشرطة على شاب آخر كان يمشي في الطريق، فسحبه الشرطة إلى الوالي، فأخذ الوالي يسب الولد سباً مقذعاً، ويهدده بتنفيذ حكم الإعدام في حقه، والولد يتضرع ويصيح بأن هذه ليست أمي، فازداد الوالي غضباً، وأخذ يصر على إعدامه.

قائلاً: أنت تسيء إلى أمك ومع ذلك تنكر أنها أمك. وبعد وساطات من المرأة وجماعة من الجالسين أمر الوالي

بمعاقبة الولد وحكم عليه بأن يحمل على كتفه أمه إلى دارها بمعية الشرطة، حتى لا يخالف الولد الأمر وإلا فيصلبه في هذه المرة، وحمل الشاب الضعيف الجسم المرأة الجثيثة إلى دارها على عاتقه وكلما لقي الشاب بعض أصدقائه سألوه عن شأن المرأة المحمولة على كتفه، فيقول: إنها إمي فإذا قالوا له: إنك قد ماتت أمك منذ زمان. كان الشاب يقول: أنتم لا تعلمون وإنما هي أمي ولكن فهّموا (أحمد آغا) يعني الوالي.

حق القصاص للسارق!!

اشتكى عند والي الموصل سارق بأنه ذهب إلى دار ليسرق متاعاً، فدخل مسمار في الحائط عينه حيث لم يكن يبصر شيئاً في ظلمة الدار والآن بسبب ذهاب عينه يريد القصاص أو الدية. فطلب الوالي صاحب البيت وخيّره بين الأمرين: القصاص أو الدية. قال صاحب الدار: إني حائك والمسامير في الحيطان لأجل ربط الخيوط بها وليس الذنب ذنبي وإنما ذنب السارق الذي جاء إلى داري للسرقة. لكن الوالي لم يسمع الكلام، وقال: لا بد أن أطبق آية القرآن عليك حيث قال سبحانه: (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين)، وأراد أن يفقأ عين الرجل، فاحتال الحائك لإنقاذ نفسه وقال: أنا حائك، أحتاج إلى العينين ولكن بعض جيراننا صياد والصياد يفتح عيناً ويغمض عيناً عند إرادته رمي الصيد فإذا أردت القصاص فاقلع عين الصياد لعدم احتياجه في عمله إلى عينين، فاستحسن الوالي كلامه وأمر بإحضار الصياد وقلع إحدى عينيه في قبال إحدى عيني اللص.

جزاء من مدح علياً (ع)!!:

كان أحد طلبة العلوم الدينية في كربلاء المقدسة، قد كتب فضيلة من فضائل علي (عليه السلام) مما لم يرق ذلك للمتصرف الذي كان من أعوان (عبد الكريم قاسم) فأمر بإعدامه، ولما سأل عن سبب الإعدام قال: لأن ذكر هذه الفضيلة كفر والكفر جزاؤه الإعدام، فحاولنا بشتى الوسائل والسبل في خلاص ذلك الرجل وإخراجه من البلاد حتى لا يكون فيما تناله يد المتصرف.

كما أنه أراد إعدام طالب آخر لأنه كتب كلمة لا تلائم المتصرف ولو لم تكن الكلمة سياسية إطلاقاً مما اضطررنا إلى تهريبه إلى سوريا تحت جنح الظلام والآن الطالب الأول يعيش في طهران والطالب الثاني يعيش في لبنان.

جنود من عسل؟!

وكان معاوية يدس السم في العسل أو في اللبن أو نحوهما فيقتل خصومه، وقد قتل مالك الأشتر بسبب دسّ السم في العسل ثم لما سمع خبر استشهاده وهو في دمشق سجد لله شكراً!

وقال: (إن لله جنوداً من عسل) كما أنه قتل الإمام الحسن (عليه الصلاة والسلام) بدس السم إليه في اللبن، بالإضافة إلى زرع الخوف في المسلمين، وشن الغارات المفاجئة على حدودهم الآمنة التي كانت في نفوذ حكومة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) وقتل رجالهم وسبي نسائهم.

دفن أنصار النظام البائد:

وأبو العباس السفاح قتل جماعة بسبب عمارة بناها على الملح فأحضر أنصار الحكام السابقين في تلك العمارة ثم أمر بفتح الماء على مبانيها ولما ذاب الملح انهدمت عليهم جميعاً وماتوا!!

الضحايا تحت المائدة!

وكان الحجاج يقتل الناس أمامه ثم يفرش على أجسامهم المائدة، ويجلس هو وأصحابه أطرافه ويأخذون في الأكل والقتلى تحت المائدة يرفسون بأيديهم وأرجلهم، فكان ذلك يسبب فرحه وسروره..

خطباء النظام الأموي:

وكان معاوية يأمر بسب علي (عليه السلام) على المنابر، حتى أنه كما يقول التاريخ كانوا يسبونه (عليه السلام) فوق (سبعين ألف منبر وعشرة) فقال قائل له: يا معاوية اتق الله فلو أمرتهم بسب الله ورسوله لسبوا.

الديكتاتور: صنم يعبد:

وقد سمعنا في زماننا أن إحدى المذيعات في دار الإذاعة العراقية أذاعت من راديو بغداد أيام قاسم (إن قاسم إله الكائنات).

الديكتاتور يجوع الناس:

وخرجت مظاهرة في فرنسا يطلبون من الملك الخبز لأنهم ما كانوا يملكون الخبز، فقالت زوجة الملك: ماذا يريد هؤلاء؟

قالوا لها: إنهم يريدون الخبز. قالت: أليس الخبز في البلد؟

قالوا لا، لا خبز لأنهم لا يملكون الثمن أيضاً. قالت: فليأكلوا الكيك عوض الخبز.

من اللصوصية إلى رئاسة الحكومة:

مر أحد ملوك أفغانستان مع جلاوزته على بستان والبستاني واقف خارج البستان، فلما رأى الملك ذهب إلى داخل البستان وقطف لهم بعض الثمار وجاء به في طبق إلى الملك فأمر الملك بضرب عنقه فضربوا عنقه، ولما سألوا الملك عن سبب قتله؟

قال: إني كنت لصاً قبل أن أصل إلى الملك، ودخلت بستان هذا الرجل في ذلك الوقت وسرقت من بستانه بعض الفواكه، ولما جاء هذا الرجل ونظر إليّ عرف أني ذلك السارق القديم فأردت قتله لستر الفضيحة حتى لا يخبر أحداً بذلك.

طبيعة الاستبداد

من طبيعة الاستبداد أنه يأتي بالانحرافات والموبقات ويُوجب التقهقر والتأخر في البلاد ويسبب إذلال العباد ونذكر منها أموراً:-

منها: إنه يأتي إلى الحكم بالفرد الأسوأ فالأسوأ والأفسد فالأفسد.

ومنها: أنه يأتي بالرأي الأضعف فالأضعف لأنه لا يقبل إلا ما يلائم الهوى والهوى يخالف الهدى.

ومنها: إن القادة يصبحون أكثر ترهلاً فأكثر ويصبحون أكثر تطلباً للرفاه على حساب الآخرين.

ومنها: إن الحركة إذا كانت مستبدة تصبح أكثر انكماشاً فأكثر لخروج العناصر الخيرة منها ويأخذ مكانهم المتزلفون والمتملقون والانتهازيون والمصلحيون من غير فرق بين أن يكون الاستبداد في الحكومة أو في الحزب أو في المنظمة أو في الهيئة أو في غيرها من المؤسسات الجماعية...

ومنها: أن الحكومة أو الحركة لما لم تكن مغرية لأن الترهل لا يغري الناس لا يلتحق بها العباقرة والمصلحون والنشطون والحركيون وغيرهم من أصناف التقدميين.

ومنها: إن الاستبداد من طبيعته اضطهاد كل الطبقات حتى الطبقة الحاكمة باستثناء فرد الحاكم ويصبح بعضهم متآمراً على بعض ومن هنا جاء قولهم: (الثورة كالهرة تأكل أبناءها) وليست هذه طبيعة الثورة بما هي ثورة وإنما هي طبيعة الاستبداد سواء كانت في الثورة أو في الحكومة أو الجماعة أو التنظيم وإن لم تكن الحكومة ثورية ومن الواضح أن ما يمهد للدكتاتور لوصوله إلى الحكم هو الظلم الشامل وعدم سيادة القانون وخوف في الجميع وعدم قدرة العقلاء على الحل ونفاق من الدكتاتور حيث يظهر أنه إذا جاء أصلح ويخفي باطنه ويظهر الصلاح والإصلاح ولما يصل إلى الحكم يقلب ظهر المجن ويفعل عكس ذلك وقد كان كل من لينين وموسيليني وهتلر وناصر وقاسم والبكر وصدام والبهلوي وغيرهم من الدكتاتوريين هكذا، وكذلك كان الأمر في الأمويين والعباسيين والعثمانيين ومن إليهم.

ومن الواضح أن الخارج عن القانون لا يمكن أن يعتمد عليه والدكتاتور خارج عن القانون ولا يلتف حول الدكتاتور ويصفق له إلا الطبقات المحرومة غالباً الذين سحقتهم عجلات الحكومة السابقة فيلتفون حول الحاكم الجديد الدكتاتور بظن أنه ينجيهم وإذا هو بنفسه يضطهدهم أكثر فأكثر فالكاسب الذي كان يهدد من قبل الدكتاتور السابق وكذلك الضابط والجندي والعامل والفلاح الذي سلبت عنه الحرية والمثقف الذي فقد مكانته في المجتمع ولا يجد لنفسه مركزاً في أي مكان من المؤسسات السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها الذين يلتفون حوله.

ومن طبيعة الدكتاتور دائماً أنه يلتجئ إلى الحرب لأنه بالحرب يظهر نفسيته المستعلية، كما أنه يلتجئ إلى الإرهاب فيحوّل بسبب الحرب، القوى البشرية من الخدمة البنّاءة إلى الهدم كما أنه يحوّل بسبب الحرب والإرهاب جماعة كبيرة من الناس إلى العبودية الاقتصادية وبالنتيجة: يهبط بمستوى الملايين من الناس ويسلب منهم الحرية والرخاء المادي ويزجهم في العجز والفقر والفوضى.

الديكتاتور معقد نفسياً

وغالباً ما يكون الدكتاتور شخصاً معقداً ساقطاً في المجتمع فيحاول أن يحطم الإطار الاجتماعي لأنه لم يستطع أن يحقق نجاحاً في داخله، وهو بطبيعة الحال يستقطب حول نفسه العناصر الخارجة عن القانون وقد كتب أحد الكتاب حول موسيليني وهتلر (ما يظهر حقيقة الدكتاتور) قائلاً: إن كلاً منهما كان يمثل الفشل الذي يسعى إلى تحطيم الإطار الاجتماعي. وإن كلاً منهما استطاع أن يستغل متناقضات المجتمع لإثارة آمال تمهّد السبيل إلى القوة، وكل منهما لم يكن يعرف ماذا يصنع إلا أنه يريد نفسه وعلوه وارتفاعه، وبعد أن يحصل على شيء ليس له

إلا المحافظة عليه، وكل منهما بوصفه حاكماً كان قد حوّل أساليب العصابات التي وصل عن طريقها إلى السلطة إلى تثبيت دعائم سلطته. فبوادي التحدي تواجه بالإرهاب، وعدم القدرة على حل المشاكل الناجمة عن حيازتهما للدولة تقابل بالتوسع الإرهابي. ومن الواضح أن كل حالة من هذه الحالات تنطوي على مقتضيات التوسع فهي تنطوي أولاً على الإيقاف الكامل للقواعد المألوفة للتجارة مع ما يترتب على ذلك من ضعف الأمل في استعادة الأمة سابق نشاطها.

ثانياً: وهي تنطوي على إنكار القواعد الطبيعية في العلاقات وما يترتب عليه من قبول لأكثر أساليب سياسة القوة ويزداد معدل سرعة سياسة القوة هذه بصورة هائلة، لأن فجاجة الأساليب المستعملة ذاتها تعمل بطريقة طبيعية على زيادة التوتر والمخاوف ومن الواضح أن من استمرأ الخروج عن القانون لا يتمكن أن يحكم القانون لأنه لما لم تكن لديه فلسفة فإنه ليس أمامه سبيل يسير فيه نحو علاقات سلام وقانون، وهو مضطر دائماً إلى إشعال حرب أهلية في الداخل حتى يحافظ على قوته، كما أنه مضطر إلى إشعال حرب في الخارج حتى يحول دون هزيمته في الداخل.

الدكتاتور والقانون

سرعان ما يُكتشف معظم الذين استولوا على الحكم عن طريق ديكتاتوري إنهم لم يعيدوا النظام والقانون بأي معنى حقيقي حيث أن الإرهاب الدائم ليس إعادة للقانون والنظام. وبذلك يظهر أن مهادنة الخارج عن القانون ليست طريقاً سليماً لإعادة الدولة، بل هي طريق تؤدي إلى تحطيم كل المثل الاجتماعية والأعراف والقوانين، فإن القاتل المحترف لا يطمع فيه طاعة حكم القانون، بل هو ينزل بالمجتمع إلى مؤامرة لا يأمن فيها أحد على نفسه، لأنه حتى الخارج عن القانون يعتمد على قدرته في إرضاء وإرغام زملائه الخارجين على القانون الذين يعتمد عليهم مباشرة. والدكتاتورية دائماً تتعارض مع الحركة للتاريخ، لأنها انتكاس لا تقدم، فالدكتاتور يعكّر السلام ويستهتر بالقانون ويقضي على الثقة ويعادي الأمة ويلقي بينهم التفرقة والنفاق، ولذا فالفاشية في كل صورها: القومية والبعثية والشيوعية والوجودية ليست إلا ظاهرة عابرة في التاريخ ولا يمكن أن تكون دائمة إذ لا تستطيع أن تكتسب هدفاً إلا إذا كوّنت فلسفة، ومن الواضح أنه إذا كونت فلسفة لا تكون دكتاتورية ولذا فالدكتاتور محكوم عليه بالفشل وعلى خططه بالفوضى وعلى حكومته بالسقوط وإنما نصيب الدكتاتور قدر من الاحترام المضطر إليه، المشوب بالرعب، وذلك لجرأة الدكتاتور في التقدم، والناس عادة يحترمون المتقدمين ولو بالقهر والغلبة، أو التزوير والخداع.

وعود الدكتاتور كاذبة

نرى أن أنصار الدكتاتور دائماً يشيحون بوجوههم عن مظالم الدكتاتور، من السجون والمعتقلات ومعسكرات التعذيب، ويقولون أن هذا شيء عابر وإنه حدث بدون علم الدكتاتور، وإنهم يبشرون دائماً بحياة مشرقة طبيعية بعد فترة من الزمن، لكن لا تأتي هذه الحياة المشرقة إلا بسقوط الدكتاتور.

والمستبد دائماً يخلق الأعذار الواهية لمهاجمة أعدائه الخياليين وذلك حتى يبرر استبداده ودكتاتوريته.

لا منطق للديكتاتور

والدكتاتور لا برهان له ولا منطق.

ولذا ترون أن موسى (عليه الصلاة والسلام) لما خاصم فرعون ولقطع فرعون عن الجواب توجه إلى من في أطرافه وجلاوزته، وقال لهم كما يحكي القرآن الحكيم: (إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون)(٣).

ولما حاج إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) نمرود وقال: (إن ربي الذي يحي ويميت)(٤) قال نمرود: (أنا أحي وأميت)(٥) مغالطاً مع إبراهيم (عليه السلام) في كلامه، ثم أحضر نفرين من السجن وضرب عنق أحدهما وقال: إنه ممن أماته، وأطلق سراح الآخر وقال: إنه ممن أحياه. فرفع إبراهيم (عليه السلام) يده عن هذا المنطق الذي يقابله الدكتاتور بالعنجهية والكبر، واستدل بما لا يتمكن من المغالطة فيه قال عليه الصلاة والسلام له: (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر)(٦) لكنه أمر بإلقاء إبراهيم في النار في قصة معروفة. وكان الدكتاتوريون من الحكام المترفين يقولون للأنبياء ما حكاه القرآن الحكيم بقوله سبحانه: (ولولا رهطك لرجمناك)(٧) وفي آية أخرى: (فردوا أيديهم في أفواههم)(٨) حيث كانوا يضعون أيديهم في أفواه الأنبياء حتى لا يتمكنوا من التكلم.

ومشكلة بلاد الإسلام أن جميع البلاد ابتليت بالكفار الشرقيين أو الغربيين، بينما في السابق من عمر الإسلام الطويل لم يكن، هكذا فأما كل البلاد كانت إسلامية، وأما إذا ابتليت البلاد بالكفار فكان بعض البلاد مبتلى بهم.

مثلاً: المغول جاءوا من الشرق إلى البلاد الإسلامية وكسحوا الإسلام والمسلمين، لكن النصف الغربي من البلاد الإسلامية كانت تعيش في بحبوحة الحرية، والصليبيون جاؤوا من الغرب وكسحوا نصف البلاد الإسلامية الغربية، أما نصف البلاد الشرقية فكان في الرفاه والحرية.

ولذا كان المسلمون يتمكنون من الفرار من هذا الجانب إلى ذلك الجانب أو من ذاك الجانب إلى هذا الجانب، وكانوا بسبب بقاء نصف البدن الإسلامي صحيحاً معافاً يتمكنون من إنقاذ النصف الآخر المبتلى، أما في الحال الحاضر فالبلاد ابتليت بهم وبالمستبدين الداخليين الذين منعوا الزراعة والعمارة والتجارة والصناعة والسفر وكل شيء.

كما منعوا عن إبداء الرأي وهذه المشكلة لم تكن مسبوقة في بلاد الإسلام، ولذا يحتاج حلها إلى جهود وجهاد كبيرين، وقد أصبحت بلاد الإسلام في الحال الحاضر أكثر مشكلة من بلاد الكفار قبل ظهور الإسلام. فقد كان في شبه الجزيرة قبل ظهور الإسلام منطقة أمن زماني في كل عام وهو أيام الأشهر الحرم، ومنطقة أمن مكاني على طول الخط في كل أشهر السنة وهي مكة المكرمة، لكن هؤلاء الحكام ليس لهم ذلك، ولذا يطارد مباحثهم الناس على طول الخط في كل زمان ومكان.

ما الذي يصد الديكتاتور؟

ولا يقف أمام الدكتاتور في تصرفاته إلا توزيع القدرة، فإن القدرة إذا وزعت في شكل حركات ومنظمات وكانت مسندة من قبل مؤسسات دستورية وسياسية لا يتمكن الدكتاتور لا من الوصول إلى الحكم ولا من البقاء في الحكم لو فرض الوصول إليه، لأن المؤسسات الدستورية والقوى المتقابلة والمتنافسة، والمنظمات المتعددة، ليست محلاً لوجود الدكتاتور لا لنموه ولا لبقائه، وحيث أن الدكتاتور يحرف الإدارة يفسد كل شيء من المحيط الطبيعي إلى المحيط الاجتماعي.

١ . وقد حدثت شبه هذه القصة في بلد آخر كما أشرنا إليها في ما تقدم (منه دام ظله).
٢ . في القانون الإسلامي يسمع دعوة مثل هذا الرجل بما يأتي من البينة (منه دام ظله).
٣ . سورة الشعراء: الآية ٢٧.
٤ . سورة البقرة: الآية ٢٥٨.
٥ . سورة البقرة: الآية ٢٥٨.
٦ . سورة البقرة: الآية ٢٥٨.
٧ . سورة هود: الآية ٩١.
٨ . سورة إبراهيم: الآية ٩.

الفصل السادس: من قصص الاستبداد
هذا هو الطاغية

ضحية العيد!!

واسمعوا إلى هذه القصة حتى نعرف كيف أن الحكام المستبدين يتصرفون في دماء المسلمين وأموالهم:

قال الشعبي: كنت بواسط وكان يوم أضحى فحضرت صلاة العيد مع الحجاج فخطب خطبة بليغة، لما انصرفت جاءني رسوله يدعوني فأتيته جالساً مستوفزاً، قال: يا شعبي هذا يوم أضحى وقد أردت أن أضحي فيه برجل من أهالي العراق، وأحببت أن تسمع قوله فتعلم أني قد أصبت الرأي فيما أفعل به.

فقلت: أيها الأمير أو ترى أن تستن بسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وتضحي بما أمر أن يضحى به، وتفعل مثل فعله، وتدع ما أردت أن تفعله في هذا اليوم العظيم إلى غيره.

قال: يا شعبي إنك إذا سمعت ما يقول صوبت رأيي فيه، لكذبه على الله وعلى رسوله، وإدخال الشبهة في الإسلام.

قلت: أفيرى الأمير أن يعفيني من ذلك؟

قال: لا بد منه.

ثم أمر بنطع فبسط وبالسياف فاحضر، وقال: أحضروا الشيخ فأتوا به، فإذا هو يحيى بن يعمر، وكان يحيى بن يعمر تابعياً عالماً بالقرآن والسنة وكان شيعياً يتشيع لأهل البيت (عليهم الصلاة والسلام) وكان إمام القراء بالبصرة عالماً بالقرآن فقيهاً نحوياً لغوياً أديباً.

قال الشعبي: فاغتممت غماً شديداً وقلت في نفسي: وأي شيء يقوله يحيى مما يوجب قتله؟

فلما أحضر قال له الحجاج: أنت تزعم أنك زعيم العراق؟

قال يحيى: أنا فقيه من فقهاء العراق.

قال: فمن أي فقهك زعمت أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله (صلى الله عليه وآله).

قال: ما أنا زاعم ذلك بل قائله بحق.

قال: وبأي حق قلته؟

قال: بكتاب الله (عز وجل).

فنظر إليّ الحجاج وقال: اسمع ما يقول فإن هذا مما لم أكن سمعته عنه، أتعرف أنت في كتاب الله عز وجل أن الحسن والحسين من ذرية محمد رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟

فجعلت أفكر في ذلك فلم أجد في القرآن شيئاً يدل على ذلك.

وفكر الحجاج ملياً ثم قال ليحيى: لعلك تريد قول الله عز وجل: (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)(١) وأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) خرج للمباهلة ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين؟

قال الشعبي: فكأنما أهدي إلى قلبي سروراً، وقلت في نفسي: قد خلص يحيى وكان الحجاج حافظاً للقرآن. فقال له يحيى: والله إنها لحجة على ذلك بليغة، ولكن ليس بها أحتج لما قلت، فاصفر وجه الحجاج وأطرق ملياً ثم رفع رأسه إلى يحيى وقال له: إن أنت جئت من كتاب الله عز وجل بغيرها في ذلك فلك عشرة آلاف درهم، وإن لم تأت بها فأنا في حل من دمك.

قال: نعم. قال الشعبي: فغمني ذلك، وقلت في نفسي: لقد رد الحجاج الآية التي كان ليحيى الاحتجاج بها لإثبات قوله والتخلص من فتكه، مع أن الحجاج قد عرف الآية، فإن جاءه بعد هذا بشيء لم آمن أن يدخل عليه من القول ما يبطل به حجته، لئلا يقال أنه قد علم ما قد جهله.

فقال يحيى للحجاج: قول الله عز وجل: (ومن ذريته داود وسليمان)(٢) من عنى بذلك؟

قال الحجاج: إبراهيم (عليه السلام) قال: فداوود وسليمان من ذريته؟

قال: نعم.

قال يحيى: ومن نص الله عليه بعد هذا أنه من ذريته؟

فقرأ الحجاج: (وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين، وزكريا ويحيى وعيسى)(٣).

قال يحيى: ومن أين كان عيسى من ذرية إبراهيم ولا أب له؟

قال: من قبل أمه مريم.

قال يحيى: فمن أقرب مريم من إبراهيم؟

أم فاطمة من محمد (صلى الله عليه وآله)؟ وعيسى من إبراهيم أم الحسن والحسين من رسول الله (صلى الله عليه وآله)؟

قال الشعبي: فكأنما ألقمه حجراً، فقال: أطلقوه قبحه الله وادفعوا إليه عشرة آلاف درهم لا بارك الله له فيها.

ثم أقبل علي فقال: قد كان رأيك صواباً ولكنا أبيناه، ودعا بجزور فنحره، وقام فدعا بالطعام فأكل وأكلنا معه، وما تكلم بكلمة حتى انصرفنا ولم يزل مما احتج به يحيى بن يعمر واجماً، ثم نفى يحيى إلى خراسان.

فانظروا إلى هذه القصة الصغيرة الحجم الكبيرة المعنى في استهتار الحكام المستبدين بالمسلمين، فهو أولاً يقتل الناس لاختلاف الرأي حتى ولو كان شيخاً كبيراً فقهياً، بل زعيم العراق على الإطلاق.

وثانياً: يحضر السيف والنطع قبل إتمام الحجة وإقامة الدليل.

وثالثاً: يستهزئ برسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث يقتل الإنسان عوض الأنعام في يوم الأضحى!

ورابعاً: يعطي أموال المسلمين اعتباطاً حسب شهواته وأهوائه فمن أين يعطي عشرة آلاف؟

(ومن المتيقن أن يحيى يصرف المال في مصرفه الشرعي) لكن الكلام في هبة الأمير ما لا يملك من أموال المسلمين.

وخامساً: يعرف الحجة هو بنفسه ومع ذلك يريد قتل الناس لمجرد الشهوة والتعطش إلى الدماء.

وسادساً: يرى أن من يقول بمقالة يحيى بن يعمر ولو كان لديه الحجة من القرآن، كافراً بالله ورسوله ومدخلاً للشبهة في الإسلام.

وسابعاً: بعد إتمام الحجة ينفي الرجل الشيخ الكبير الفقيه إلى أبعد موضع من ديار الإسلام (خراسان) ثم لنستمع إلى بقية القصة:

فعن الطبري في تاريخه: أنه كتب يزيد بن المهلب إلى الحجاج ببعض الفتوح، وكانت كتب يزيد إلى الحجاج يكتبها يحيى بن يعمر العدواني، وكان حليفاً لهبيل فكتب: إنا لقينا العدو فمنحنا الله أكتافهم فقتلنا طائفة وأسرنا طائفة ولحقت طائفة برؤوس الجبال وعراعر الأودية وأحضان الغيطان وأثناء الأنهار.

فقال الحجاج: من يكتب ليزيد؟

فقيل: يحيى بن يعمر.

فكتب إلى يزيد يرسله إليه، فحمله على البريد، فقدم عليه فإذا هو من أفصح الناس فقال له: أين ولدت؟

فقال بالأهواز؟

قال: فهذه الفصاحة من أين؟

قال: حفظت كلام أبي وكان فصيحاً.

قال: من هناك فأخبرني هل يلحن عنبسة بن سعيد.

قال: نعم كثيراً.

قال: ففلان؟

قال: نعم.

قال: فأخبرني عني ألحن؟

قال: نعم، تلحن لحناً خفياً تزيد حرفاً وتنقص حرفاً وتجعل إن في موضع أن وأن في موضع إن.

قال: قد أجلتك ثلاثاً، فإن أجدك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتك، فاضطر يحيى إلى الرجوع إلى خراسان.

وثامناً: يحضر شيخاً كبيراً من الفقهاء من خراسان إلى العراق لمجرد أمر سخيف.

وتاسعاً: يغضب على مثل هذا الشيخ لمجرد أن قال له الصدق في كلامه بعد أن استفسر منه.

وعاشراً: ينفيه مرة ثانية إلى خراسان والله العالم بماذا لقي يحيى بعد التبعيد ثانياً، وأنه ماذا كتب إلى والي خراسان في حقه وهل أنه بقي سالماً أو قتل أو مات جوعاً كما مات أبو ذر من قبل ذلك في الربذة جوعاً.

طغيان التبذير

ومن طبيعة الاستبداد الاستهتار بأموال الناس في سبيل الأبهة وإرضاء الشهوات، وهكذا يجد الإنسان كل مستبد رآه بنفسه وعاصره أو قرأ عنه في التواريخ.

ذكروا في أوصاف قصورهم وأثاثهم وفرشهم وما إلى ذلك، سواء في كسرى أو قيصر أو خلفاء بني أمية أو خلفاء بني العباس أو خلفاء العثمانيين الشيء المدهش حقاً، فذات مرة جاء وفد ملك الروم إلى هارون العباسي في بغداد، وقد صف هارون على طريقه مائة وثمانين ألفاً من الخدم والحشم بثياب واحدة وهيئة واحدة سيوفهم مشهورة وهم متسربلون بالحديد، وفرش للوفد ثمانية وعشرين ألف سجادة من أثمن السجاد، وأقام لهم أربعين ألف ستراً من الديباج والحرير بإضافة سائر التزيينات. وإذا حل الليل أضاء الطريق بسلسلة من المصابيح وكان طول ذلك أربعة فراسخ، وصفّ لهم في مدخل القصر الوحوش المدربة من السباع والفهود لتحييهم. أما داخل القصر والذي كان يسمى بقصر الخلد ففيه الشيء الكثير من الترف والسرف والتبذير والاستعلاء والكبرياء، وفي نفس هذا الوقت كان في بغداد بل سائر بلاد الإسلام الفقر المدقع والمسكنة الشديدة لطوائف كثيرة من الناس ممن لا يجدون حتى لقمة العيش وسترة الجسد وظل جدار.

التعذيب الجاهلي

وينقل عن أحد ملوك إيران قبل الإسلام أنه جاء إليه شاب يتظلم ويطلب من الملك النظر في ظلامته، فغضب الملك أنه كيف تجرأ ووصل إليه؟

وأمر جلوازه أن يأخذ الشاب ويقلع أسنانه سناً سناً، ثم يجعل السن على رأسه ويضرب بالمطرقة على السن حتى يغرس في رأسه، وهكذا فعلوا بالشاب حتى مات في أثناء ذلك، لكن الملك أمر بإتمام ذلك التعذيب على ميته وغرس أسنان الشاب في رأسه بالمطرقة ولذا مزّق الله ملكهم كما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله)(٤).

وينقل عن البهلوي الأول أنه إذا مات بعض السجناء المحكوم عليهم بالقيد أمر أن يدفن بِغُلِهِ ويجعل طرف الغل خارج القبر لإرهاب الناس، وقد اشتهر في المثل (الملك مع الكفر يدوم ومع الظلم لا يدوم).

وفي حديث: أن الله سبحانه وتعالى بعث نبياً من الأنبياء إلى جبار من الجبابرة ليقول له: (إني ما جعلتك ملكاً للناس (المراد بالجعل التكويني، أي أن الأسباب الطبيعية تنتهي إلى النتائج الطبيعية) حتى تظلم الناس وإنما جعلتك لأن تنقذ المظلوم وسآخذك على ظلمك)(٥).

مكافأة العلماء

وينقل في سبب عمى محمد بن زكريا الرازي الطبيب أنه ألف كتاباً في الكيمياء فوصل كتابه إلى طاغ من طغاة زمانه فقرأ الكتاب، ولما لم يعرف صنعه طلب زكريا وقال له: لا بد وأن تصنع الكيمياء كما كتبت حتى نتمكن من تذهيب النحاس، لكن زكريا كان قد كتب كتاباً علمياً ولم يكن قد كتب كتاباً تجريبياً خارجياً، ولما أبى عن ذلك معتذراً بأنه كتاب علمي وليس بكتاب عمل. أمر الملك بأن يؤخذ الكتاب (وكان كتاباً ضخماً مجلداً) ويضرب على رأسه حتى تتمزق الأوراق والجلد قطعة قطعة وهكذا فعلوا بهذا الطبيب الرفيع المنزلة حتى عمي تحت ضربهم وبقي أعمى إلى آخر حياته.

الديكتاتور: الصاعقة

ومن الدكتاتوريين السلطان سليم الذي حكم تركيا وأقام فيها دولة بالحراب، وضرب قوانين الإسلام عرض الحائط وكان يلقب (بياوز) وهو باللغة التركية بمعنى (الصاعقة) فلم يكن يقف في وجهه شيء، فكان طاغوتاً جباراً سفاكاً للدماء سلاباً للأرواح يهتك الأعراض وينهب الأموال ويخون بالعهود. آمن أهل حلب على دمائهم وأموالهم ثم فرض عليهم ضريبة سماها (مال الأمان) كادت تستغرق عامة أموالهم، وقتل جماعة كبيرة من المسلمين لأنهم يخالفونه في الاعتقاد حيث كان هو سني المذهب على زعمه وأولئك من الشيعة، حتى أنه قتل في موقعة واحدة أربعين ألف من الشيعة بمجرد كونهم مخالفين له في المذهب.

وأرسل إلى السلطان الغوري يطلب منه الدعاء، ثم أمر بقتله، ثم قتل القاتل الذي تجرأ فنفذ الأمر بقتله!

وهو الذي أباد أهل الرملة كلهم لوشاية واش أخبره بأنهم قتلوا جندياً من جنوده، وكان القتل أهون شيء عليه لا يعرف قريباً ولا غريباً ولا عدواً ولا صديقاً ولا مسلماً ولا كافراً، وقد خنق أخوته لما خشي أن يزاحموه على الملك وقتل سبعة عشر من أهل بيته وسبعة من وزرائه، ولما رد عليه رئيس وزرائه (يونس باشا) كلمة كان الحق فيها أمر بضرب عنقه فضربت عنقه قبل أن يتم جملته!

وكان دائم الغضب لا يضحك أبداً والسيافون بين يديه وهم رهن إشارته في إزهاق الأنفس، ولما ترك (للشراكس) في مصر أوقافهم قال له رئيس وزرائه ويسمى (بري باشا): يا مولانا فني مالنا وعساكرنا في حربهم وتبقي لهم أوقافهم يستعينون بها علينا؟

وكانت رجل السلطان في الركاب فأشار إلى الجلاد بقطع رأسه، فضرب الجلاد عنق رئيس الوزراء فصار رأسه على الأرض قبل أن يصير السلطان على الفرس.

وكان من عادة وزرائه أنهم إذا انتخبهم للوزارة كتبوا وصيتهم وأعدوا كفنهم وودعوا أهلهم فلا يدرون كلما ذهبوا ليقابلوا السلطان أيعودون أحياءً أو يحملون على الجنائز، وكان الوزراء والمقربون إليه يرتجفون خوفاً منه وكان إذا قتل أناساً أمر بأن ينصب رؤوسهم على الرماح الطوال! وكثيراً ما رأوا أهل البلاد جيشاً يأتي وبأيدي الجيش الرماح الطوال وعلى رؤوس تلك الرماح الرؤوس المقطوعة.

ولقد كان من عادة الدكتاتوريين إبتداءً من معاوية، حيث قال الإمام (عليه السلام) مشيراً إليه: (وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة)(٦) وإلى آخر خليفة عثماني، إنهم إذا ظفروا بعدوهم، قطعوا رؤوس كبارهم وأداروها في البلاد، لإرهاب الناس، ثم أبردوا بها إلى العاصمة، وحيث أن الرؤوس تنتن في الصيف كانوا يهيئون أكياساً مملوءة بالثلج، فيضعون الرؤوس فيها، حتى لا تتغير معالمها، وتصل بيد الخليفة الفاتح واضحة السمات والمعالم، ليشفي منها غيظه، ويشمت بها، ويفتخر بالانتصار عليها.

نعم أمثال هؤلاء الذين سموا أنفسهم بالخلفاء من الأمويين والعباسيين والعثمانيين ومن إليهم، هم الذين سببوا ضياع الإسلام وتسلط أعدائه عليه كما سببوا إشمئزاز النفوس من اسم الإسلام وهؤلاء هم الذين وقفوا دون انتشار الإسلام وإلا فلو أخذت سيرة الرسول (صلى الله عليه وآله) معياراً للأمر، لكان الإسلام في هذا اليوم يعم كل العالم بلا استثناء. وقد ورد في الحديث: (ولا تكونوا علماء جبارين فيذهب باطلكم بحقكم)(٧) وملاكه آت

في الحكام، فإنه من الواضح أن الناس يقيسون المبادئ بحملته ولولا عناية الله سبحانه وتعالى على الإسلام والمسلمين الصادقين لم يبق من الإسلام حتى الاسم ولا من القرآن حتى الرسم ولا من المسلمين حتى الفرد.

ونسأل الله (سبحانه وتعالى) أن يوفق المسلمين مرة ثانية للعمل بالإسلام حتى يأخذوا بالزمام كما كانوا في زمان الرسول (صلى الله عليه وآله) وما ذلك على الله بعزيز.

معشر المستبدين

ثم إن من عادة المستبد أن يجمع حول نفسه المستبدين فيزيدونه استبداداً وجهلاً حتى يذهب إلى آخر الطريق فلا يجد ملجأ للتخلص من تبعات استبداده وعند وقوع الحادث عليه لا يجد من ينصره لأنه بنى حول نفسه بنياناً شامخاً من كره الناس والتاريخ ينقل أن أحد الشعراء خاطب الملوك بهذا الشعر:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

وقال شاعر آخر حول بني أمية:

والآن صرتي إلى أمية والأمور لها مصائر

وقال ثالث حول عبد الملك:

(إنه خليفة الله ومحمد (صلى الله عليه وآله) رسول الله، وخليفة أحدكم خير من رسوله، فعبد الملك خير من رسول الله) وعبرت – كما أشرنا سابقاً – إحدى المذيعات في إذاعة بغداد عن (عبد الكريم قاسم) (بآله الكائنات) كما عبر آخر عن مستبد آخر (بأنه رسول هذا الزمان).

وليعلم الحاكم المستبد أنه يجني من استبداده لنفسه أشد الضيق كما هي طبيعة السيئة، فإن كل واحد من السيئة والحسنة تعطي الثمار المناسبة لها وليس هذا بالنسبة إلى الحاكم المستبد فقط، وإنما بالنسبة إلى كل عاص وطاغ ومنحرف، فإنه لا يجني من انحرافه إلا جزاءاً وفاقاً في الدنيا قبل الآخرة.

جريرة الوالد

وقد نقل لي المرحوم الخطيب الشيخ عبد الزهراء الكعبي قصتين شاهدهما بنفسه:

القصة الأولى:

أنه قال: سمعت ضوضاءاً عند دارنا فخرجت وإذا ولد ووالد والناس حولهما ينظرون إلى ما يتهاتران فتقدم الولد وصفع والده.

قال: لما رأيت ذلك هجمت على الولد أريد تأديبه فهرب فجئت إلى الوالد أسليه بأنه شاب مغرور وهذه من عادات الشباب المغرورين.

قال الشيخ: فلما انصرف الناس أخذ الوالد يبكي فقلت له: مما بكاؤك؟

قال: لا أبكي من صفع ولدي لي وإنما بكائي لأن هذه جزائي الذي تلقيته ولا أعلم هل أن الله غفر لي أم لا.

قلت: كيف؟

قال: إني صفعت أبي في نفس هذا المكان قبل أربعين سنة وهذا الصفع من ولدي جزاء ذلك الصفع.

القصة الثانية:

قال المرحوم الكعبي: مررت في طريقي على بستان فرأيت الناعور الذي يربط بحمار أو بغل أو فرس مربوطاً بإنسان كهل يدور حتى يمنح الماء إلى الساقية، فتأثرت لهذا المنظر تأثراً بالغاً، وأخذت أصيح من في البستان، وإذا بشاب جاء وقال:

ماذا تريد؟

قلت: من هذا ومن أنت؟

قال: إني ابن هذا الرجل، فتقدمت إلى الولد أريد تأديبه لكن الولد هرب، وفككت رباط الوالد عن الناعور وجلست معه أسليه وأخذت لأهاجم الولد.

قال الوالد: يا شيخ عبد الزهراء – وكان يعرفني – إن هذا جزائي العادل فإني ربطت والدي بنفس هذا الناعور أبان كنت شاباً وكان والدي كهلاً وقد توفي والدي (رحمه الله) قبل مدة فورثت البستان وكبر هذا الولد وأخذ يفعل بي الفعلة التي كنت أفعلها مع والدي.

وهناك قصص كثيرة بهذا الصدد نقلنا بعضها في كتابنا الصغير (العدل أساس الملك) وعلى هذا:

فليعلم الحاكم المستبد أنه يجد في نفسه أشد الضيق لأن الإستبداد كسائر المعاصي يعود إلى الإنسان بالضيق في محكمة النفس.

محكمة النفس

جاءني شاب بغدادي (في كربلاء) بعد أن جاءني صديق يتوسط في منحه لقاءاً خاصاً، وأنه يريد أن يأتي ليلاً لأنه لا يريد الظهور في النهار، فرأيته شاباً طويلاً وسيماً لكنه منخطف اللون أصفر كأنه عوفي من مرض لازمه مدة مديدة.

فقلت له: ما بك وما جاء بك؟

قال: اعلم أني لص في بغداد أسرق من المحلات الكبيرة والآن جئت إليك لأتوب.

قلت له: ما قصتك؟

قال: إني كنت نجاراً آخذ في كل يوم ربع دينار ولم أكن متزوجاً وكنت أصرف هذا المبلغ على نفسي وأمي وأختي حيث قد مات أبي قبل مدة، وكنت أتعب النهار من الصباح إلى الليل وفي الليل أرجع إلى البيت وأتعشى بغذاء بسيط حسب أجرتي القليلة، ثم أنام هادئاً إلى الصباح فيلتذ لي الطعام والمنام، كما اني كنت أقوم الصبح ممتلئاً حيوية ونشاطاً وقوة فأذهب إلى العمل، لكني لما كنت غير متزوج وقعت في البغاء وأخذت أصرف مالي في البغاء، وحيث أن الحرام بعضه مرتبط ببعض فارتبطت بالخمر أيضاً، وبعد ذلك ارتبطت بالأولاد في انحراف جنسي، وهكذا كنت أسهر الليالي إلى نصف الليل ولا أتمكن من القيام صباحاً وحيث أن الفساد يحتاج إلى المال، اضطررت إلى إرتكاب السرقة فأخذت أسرق من هنا وهناك من المحلات الرفيعة واشتركت مع الشرطة الذين هم يرتشون حتى لا يلقوا القبض علي، وهكذا صرفت عمري بين خمر وبغاء وانحراف جنسي وسينمات داعرة وسهر

إلى الصباح أحياناً، لكن الغريب أني لا أجد الآن طعماً لشيء إطلاقاً، فبالرغم من أني آكل ألذ الأطعمة وألبس أحسن الملابس وأمارس الجنس شذوذاً وغير شذوذ مع أحسن الفتيات والفتيان، كل ذلك في مذاقي تافه لا أجد للحياة طعماً ولا للراحة معنى وهذه الحالة هي التي ضغطت علي وأجبرتني أن آتي إلى كربلاء لأتوب فهل لي من توبة؟.

قلت: نعم، إن تبت تاب الله عليك كما قال الإمام الحسين (عليه الصلاة والسلام) للحر بن يزيد الرياحي(٨)، فاذهب إلى الروضة المقدسة بعد أن تغتسل في الحمام وتبدل كل ملابسك بأن تأخذ ملابس نظيفة مباحة من صديقك هذا، وتب إلى الله تعالى والله يتوب عليك ثم شوقته كثيراً للتوبة.

قال: فماذا أصنع بأموال الناس التي سرقتها؟

قلت: هل تعرف أصحابها؟

قال: لا. قلت: كيف؟

قال: لأني غالباً كنت أسرق من الفنادق، والفنادق ينزلها الضيوف الذين لا يعرفهم الإنسان أما بالنسبة إلى من سرقت منه من بعض المحلات فإني أعرف أصحابها لكني لا أملك مالاً أرده إليهم.

قلت: لا بأس، أنو على أن تعطي بعد أن أثريت (رد المظالم) عن الأموال المسروقة التي لا تعرف أصحابها، وتوصل بقدر المال الذي سرقته من المحلات التي تعرف أصحابها إليهم ولو بسبب بريد أو ما أشبه حتى لا تظهر أمامهم بمظهر السارق ويلقون القبض عليك أو تخافهم أو تخجل منهم – إذا حصلت على المال– .

قال: أفعل إن شاء الله ثم ذهب مع صديقه. وبعد أكثر من سنة جاءني نفس الشاب ورأيته في ملابس رثة وآثار الحيوية والنشاط بادية عليه قال: رحمك الله أيها السيد فلقد هديتني إلى الطريق المستقيم فإني كما قلت، بعد أن اغتسلت وغيرت ملابسي وذهبت إلى الروضة الحسينية، تبت عند الضريح المقدس ثم ذهبت إلى بغداد ورجعت بعد مدة إلى شغلي السابق (النجارة) والآن أجد راحة غريبة كما كنت أجدها قبل أن أقع في مشكلة السرقة والفساد وإني أعمل من الصباح إلى الليل حتى أحصل على أجرة زهيدة أصرفها في الطعام واللباس وقد رجعت إلى دار أمي وأختي فرحبتا بي أكبر ترحيب بعد أن عاشتا التشرد والضياع والفقر، مدة وقوعي في السرقة والفساد، وأحمد الله سبحانه وتعالى على أن هداني لهذا حيث أجد طعم الطعام وأجد نعومة اللباس وأجد راحة المنام وأجد في نفسي قوة وحيوية ونشاطاً ورجعت صحتي كما كانت وإن كنت أعاني بعض آثار تلك الويلات في جسدي ونفسي فإنها حفرت في فكري اشمئزازاً كبيراً، وأحياناً أفكر هل أنا ذلك الإنسان الذي تبدل إلى هذه الحالة الشريفة من تلك الحالة الوضيعة؟.

أصدقاء الديكتاتور أعداؤه

هذا بالنسبة إلى نفس العاصي والذي منهم الحاكم المستبد، أما بالنسبة إلى سمعته فحدث ولا حرج فإن كل الناس حتى أقرب الأقرباء إليه وأصدق أصدقائه هم عدو له وأشد عداوة، لأنهم يخشونه أشد الخشية، بينما نرى الحاكم العادل يجد أحسن السمعة عند الناس حياً وميتاً.

إن قصيدة الفرزدق في مدح العلويين تتلى ليل نهار وكذلك قصيدة أبي فراس في ذم العباسيين، وهكذا شعر دعبل حين واجه به المأمون يذم هارون قائلاً:-

قبران في طوس خير الناس كلهم وقبرُ شرهم هذا من العبر
لا ينفع الرجس من قرب الزكي ولا على الزكي بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرء رهن بما كسبت له يداه فخذ من ذاك أو فذر

ومع ذلك المأمون العباسي لم يتمكن من أن ينيله بسوء لمصالح سياسية حسب نظره، وإنما احمر وجهه غضباً وسكت ولم يقل شيئاً والشعر باق إلى اليوم.

وذم شاعر آخر معاوية بن أبي سفيان في وجهه ثم أنشد:

أيشتمني معاوية بن حرب وسيفي في يدي ومعي لساني
وحولي من بني عمي ليوث ضراغمة تهش إلى الطعان

فإنه كثيراً ما كان الأحرار يواجهون المستبدين بذكر نقائصهم ومعائبهم، وحتى إذا لم يقولوا قولاً قارصاً كانوا يقولون قولاً يسبب عدم ارتياحهم.

وقد أنشأ أبو العتاهية بالنسبة إلى هارون العباسي وسجنه لموسى بن جعفر (عليه السلام) في يوم جلس فيه جلوساً عاماً بمناسبة احتفال أقامه فرحاً، وحضره القواد والضباط والأمراء والقضاة والعلماء والشعراء والأعيان من الناس قائلاً:

عش ما بدا لك سالماً في ظل شاهقة القصور
يهدي إليك بما اشتهيت من الرواح إلى البكور
فإذا النفوس تغرغرت في ظل حشرجة الصدور
لعلمت أنك موقناً ما كنت إلا في غرور

١ . سورة آل عمران: الآية ٦١.
٢ . سورة الأنعام: الآية ٨٤.
٣ . سورة الأنعام: الآية ٨٤-٨٥.
٤ . البداية والنهاية ج٤ ص٢٦٨.
٥ . انظر قصص الأنبياء للجزائري: ص٥١٤.
٦ . نهج البلاغة: الخطبة ١٨٢.
٧ . الكافي: ج١، ص٣٦، باب صفة العلماء ح١.
٨ . مقتل الحسين للخوارزمي: ج٢، ص١٠.

الاسراف والتبذير

زواج الأمراء

جيء إلى هارون برجل كان يندب البرامكة بعد نكبتهم، فسأله هارون عن اسمه وعن سبب ندبته للبرامكة.

فقال: أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك وقد زالت النعمة عني فلما ركبني الدَّين واحتجت إلى بيع ما على رأسي ورؤوس أهلي وبيتي الذي ولدت فيه أشاروا عليّ بالخروج إلى البرامكة، فخرجت من دمشق ومعي نيف وثلاثون امرأة وصبي وصبية وليس معنا ما يباع ولا ما يوهب حتى دخلنا بغداد ونزلنا في بعض المساجد، فدعوت ببعض ثياب كنت أعددتها لأستتر بها فلبستها وخرجت وتركتهم جياعاً لا شيء عندهم ودخلت شوارع بغداد سائلاً عن البرامكة، فإذا أنا بمسجد مزخرف وفي جانبه شيخ بأحسن زي وعلى الباب خادمان وفي الجامع جماعة جلوس فطمعت في القوم ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم وأنا أقدّم رجلاً وأؤخر أخرى والعرق يسيل، لأنها لم تكن صناعتي، وإذا الخادم قد أقبل ودعا القوم فقاموا – وأنا معهم – فدخلوا دار يحيى فدخلت معهم وإذا يحيى جالس على دكة له وسط بستان فسلمنا وهو يعدّنا مائة وواحداً وبين يديه عشرة من ولده وإذا بأمرد نبت العذار في خدّيه قد أقبل من بعض المقاصير وبين يديه مائة خادم متمنطقون في وسط كل واحد منطقة من ذهب يقرب وزنها من ألف مثقال، ومع كل خادم مجمرة من ذهب في كل مجمرة قطعة من عود كهيئة الفهر، وقد قرن به مثله من العنبر السلطاني، فوضعوه بين يدي الغلام وجلس إلى جنب يحيى، ثم قال للقاضي: تكلم وزوج ابنتي عائشة من ابن أخي هذا، فخطب القاضي خطبة النكاح وزوجه وشهد أولئك الجماعة وأقبلوا علينا بالنثار ببنادق المسك والعنبر فالتقطت والله ملأ كمي ونظرت وإذا نحن في المكان – ما بين يحيى وولده والغلام – مائة وإثنا عشر نفراً وإذا بمائة وإثنا عشر خادماً قد أقبلوا ومع كل خادم صحن من فضة على كل صحن ألف دينار فوضعوا بين أيدي كل رجل منا صحناً، فرأيت القاضي والمشايخ يضعون الدنانير في أكمامهم ويجعلون الصحون تحت آباطهم ويقوم الأول فالأول، حتى بقيت وحدي لا أجسر على أخذ الصحن فغمزني الخادم فجسرت وأخذتها وجعلت الذهب في كمي والصحن في يدي وقمت، وجعلت ألتفت إلى ورائي مخافة أن أمنع من الذهاب إلى أن وصلت إلى ساحة الدار. فلماذا لا أبكيهم وقد رأيت منهم هذا الخير والإحسان؟

إسراف وتبذير

لما تزوج مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة بألف ألف درهم قال أنس بن أبي أياس:

بضع الفتاة بألف ألف كامل وتبيت سادات الجنود جياعاً!

هدر لبيت المال

دعا هارون أبا يوسف القاضي ليلاً فسأله عن مسألة فأفتاه، فأمر له بمائة ألف ألف درهم.

فقال: إن رأى الخليفة أن يأمر بتعجيلها قبل الصبح، فقال: عجلوها!

مولود للفضل

قال الخليع الشاعر: دعاني الفضل بن يحيى البرمكي – وهو إذ ذاك أحد قواد الرشيد – ذات ليلة فتحنطت وتوهمت الموت لأن بعض الوشاة سعى بي إليه إنني هجوته، فلما دخلت عليه وجدته وعنده ثلاثمائة مغنية فسلمت عليه فلم يرد علي السلام، ثم رفع رأسه بعد ساعة وقال: عليك السلام يا خليع ما دعوتك إلا لخير، إعلم أنه قد صار عندنا في هذه الساعة ولد وقد قلت فيه مصراعين من الشعر ولم أستطع لهما تماماً فقلت: أعرضهما علي. فقال: قلت:

ويفـرح بالمولود من آل برمك بغاة الندى والسيف والرمح والفضل

فقلت:

وتنبسط الآمـال فيـه لفضله ولا سيما إن كـان والـده الفضل

فأعجبه ذلك وأمر لي بإثني عشر ألف درهم، وبعثني إلى أخيه فأعطاني مثلها، وبعثني إلى أبيه فأعطاني مثلها، فخرجت من عندهم بستة وثلاثين ألف درهم، ولما انقضت أيامهم سافرت إلى مصر ودخلت حماماً فدخل إليّ صبي يخدمني فأوردت هذين البيتين فخر الصبي مغشياً عليه فتوهمت أن به صرعة فجزعت عليه، فسألت صاحب الحمام عنه فقال: لم يعهد منه إلا الصحة فلما أفاق سألته عن حاله فقال: أنت صرت السبب لذلك؟

فقلت: وكيف؟

فقال: لبيتيك. فقلت: أين أنت منهما قال: أتدري فيمن قيلت؟

قلت: في ولد الفضل بن يحيى. فقال: أنا الذي قلت فيه البيتين. فقلت: سبحان الله القادر على تلك المنزلة.

تركة الخليفة

يقال لما مات هشام أصاب كل واحد من ولده ألف ألف دينار.

الحكام المترفون

كان هشام بن عبد الملك من خلفاء بني أمية المترفين وكان عندما يذهب إلى الحج يحمل ملابسه فقط ستمائة بعير وكان له أحد عشر ولد. ورث واحد منهم من أبيه طنين من الدنانير الذهبية.

ثروات طائلة

كانت غلة الخيزران أم هارون مائة ألف وستين ألف ألف درهم.

عرس وزفاف

نثر الحسن بن سهل في زفاف المأمون بابنته بوران ما لم ينثره ملك في جاهلية وإسلام فنثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع، وأسماء جوار، وصفات دواب، ونصب وكلاء لذلك، ثم نثر على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر وأمر المأمون بحمل خراج فارس وكور أهواز سنة إليه فأطنبت الخطباء وأكثرت الشعراء في وصف ذلك.

الاستئثار بالمال

أعطى المنصور عمومته العشرة في يوم واحد لكل واحد منهم عشرة آلاف درهم وخلف ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف دينار.

نساء وبناء

لم يكن للمعتضد همة إلا في النساء والبناء فأنفق على قصره المعروف بـ (الثريا) أربعمائة ألف دينار، وكان طوله ثلاثة فراسخ.

عرس طاغوت المأمون

لما بنى المأمون على بوران بنت الحسن بن سهل، فرش له يوم البناء حصير من ذهب مسفوف ونثر عليه جوهر كثير، فجعل بياض الدر يشرق على صفرة الذهب فلم يمسها أحد، فوجه الحسن إلى المأمون: إن هذا نثار يجب أن يلقط. فقال المأمون لمن حوله من بنات الخلفاء وغيرهن: شرفن أبا محمد، فمدت كل واحدة يدها فأخذت درة، وبقي الباقي يلوح على الحصير.

فقال المأمون: قاتل الله أبا نواس لقد شبه شيئاً بشيء ما رآه قط، فأحسن في وصف الخمر والحباب الذي فوقها فقال:

كأن صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على أرض من الذهب

فكيف به لو رأى هذا معاينة؟.

بطر وأشر

في وليمة المأمون على زواجه من بوران جلس بعد فراغ القواد والأكابر من الأكل ومدت بين يديه مرافيع ذهب مرصعة بالجوهر وعليها أمثلة من العنبر والعود، والمسك المعجون على جميع الصور، ثم مدوا بساطاً مزركشاً وأحضر القواد والجلساء وأصحاب المراتب فوضعت بين أيديهم صحون الذهب مرصعة بأصناف الجواهر من الجانبين وبين السماطين فرجة وجاء الفراشون بزنابيل قد غشيت بالأدم مملوءة دراهم ودنانير نصفين فصبت في الفرجة حتى ارتفعت على الصحون وأمر الحاضرين أن يشربوا وأن ينقل كل من شرب، من تلك الدنانير بثلاث حفنات ما حملت يده وكلما خف موضع صب عليه من الزنابيل حتى يعود إلى حالته ووقف غلمان في آخر المجلس فصاحوا أن الخليفة يقول لكم: ليأخذ من شاء ما شاء فمد الناس أيديهم إلى المال فأخذوه وكان الرجل يثقله ما معه فيخرج فيسلّمه إلى غلمانه ويرجع إلى مكانه. ولما تقوض المجلس خلع على الناس ألف خلعة وحملهم إلى بيوتهم على ألف مركب بالذهب والفضة.

ترف وبذخ

بساط كسرى المسمى بالقطيف الذي أصابوه في المدائن، كان بساطاً طوله ستون ذراعاً وعرضه ستون ذراعاً، مقدار جريب، كانت الأكاسرة تعدّه للشتاء، إذا ذهبت الرياحين شربوا عليه فكأنهم في رياض، فيه طرق كالصدر وفصوص كالأنهار أرضها مذهبة، وخلال ذلك فصوص كالدرر وفي حافاته كالأرض المزروعة والأرض المبقلة

بالنبات في الربيع والورق من الحرير، على قضبان الذهب والفضة، وزهرة الذهب والفضة، وثمرة الجوهر وأشباه ذلك.

العطاء العابث

دخل أبو دلامة الشاعر يوماً على المهدي العباسي وأنشده شعراً فقال الخليفة له: ألك حاجة؟

قال: يا أمير المؤمنين! كلباً للصيد. فغضب الخليفة وقال: تريد كلباً لا غير؟

قال: نعم، هذه حاجتي. فأمر له وأعطاه كلباً فقال: أيها الخليفة إذا أردت الخروج للصيد مع هذا الكلب أأذهب راجلاً؟

فأمر له وأعطاه فرساً. فقال: ومن يحرس هذا الفرس؟

فأعطاه غلاماً. فقال: وبعد عودتي من الصيد ورجوعي إلى البيت من يقوم بطبخ طعامي؟

فأمر له الخليفة بجارية فأعطيت له. فقال: وأين منزل هذه العائلة التي أكرمتني إياها؟

فأمر له بدار. فقال: أما الآن فأنا صاحب بيت وعيال فمن أين معاشهم؟

فأمر له بأرض نخيل فأعطيت له. فقل له الخليفة: ألك حاجة أخرى؟

فقال أبو دلامة: تفضل واسمح لي بتقبيل يديك وأخرج من عندك.

عطاء اعتباطي

قال حماد الراوية: أن هشام بن عبد الملك قد طلبني ومعي خمسمائة دينار وبعير وطعام وراحلة سفر وبعد دخولي على هشام رأيت غلامين ماهرين حاضرين معه فبادرني قائلاً: يا حماد! أتدري لماذا أرسلت بطلبك؟

قلت: لا أدري.

قال: لأجل أن تعرّفني بقائل هذا البيت:

فدعوا للصبوح يوماً فجاءت قينـة في يمينـها إبـريق

قلت: إن هذا البيت من شعر عدي بن يزيد العبادي وقرأت له أبياتاً أخرى من القصيدة المذكورة فدخل السرور على هشام، وقال لي: ألك من حاجة؟

قلت: أحد هذين الغلامين. قال: كلاهما لك مع ما لهم من الذهب والفضة والملبس والنفقة. وما يقرب من مائة ألف درهم. كل ذلك لأجل بيت من الشعر عرّفت اسم قائله.

هكذا تهضم الحقوق

قال عمرو بن مسعدة، وهو من وزراء المأمون، كنت يوماً عند جعفر بن يحيى البرمكي مشغولاً بالتوقيعات وكانت من جملة الطلبات عريضة مقدمة من جماعة من الموظفين يلتمسون زيادة رواتبهم وعندما اطلع على طلبهم دفعها إليّ وقال: اكتب جوابه: فكتبت تحت الطلب: قليل دائم خير من كثير منقطع. فضرب جعفر كتفي بيده وقال: أيّ وزير مثلك؟.

وعندما توفي الوزير عمرو بن مسعدة، كتبوا إلى المأمون يخبرونه بأن عمرو قد ترك ثمانين مليون درهم. فوقع المأمون تحت الكتاب بخطه: هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا فبارك الله لولده فيما خلف.

الفقر ثمرة الاستبداد

في يوم من الأيام صعد المنصور الدوانيقي إلى سطح القصر وأخذ يجول بطرفه ويتفرج حتى وقع نظره على (سقاء) هو جار له يعيش في منتهى الفقر والحاجة فأحضره المنصور وسأله: لم هكذا حالك؟

فأجاب الرجل: أيها الخليفة: إني صاحب عيال وعملي هذا لا يسد حاجتهم فأمر له بألف دينار لكن بعد فوات الأوان، إذ لم يمر على ذلك إلا أياماً حتى صعد المنصور ثانية وأجال ببصره فلم ير أحداً في بيت جاره (السقاء) الذي أكرمه ما عدا امرأة عجوز تعيش وحدها، وعندما استفسر منها أجابت بأن أهل الدار قد ماتوا فقراً منذ أيام.

وهب الأمير ما لا يملك

يروى أن حاجب الفضل البرمكي دخل عليه يوماً وأعلمه بوجود شاب في الخارج يهديه سلامه ودعاؤه.

فقال له الفضل! عليّ به. فطلبه وأجلسه عنده ثم قال له: ما حاجتك؟

فقال له الشاب: ملابسي الرثة التي أرتديها تشعرك بحاجتي، ثم أردف قائلاً: ولادتي يوم ولادتك وجواري قرب جوارك، واسمي مشتق من اسمك. فقال الفضل: من أين تعرف يوم ولادتي؟

قال الشاب: ليلة مخاض أمي لوضعي قالوا لها: ولد في هذه الليلة في بيت يحيى البرمكي ولد سمّي بالفضل. ولمحبة أمي واعتزازها باسمك احتفظت به لتفاؤلها بالخير فصغرت اسمي إلى فضيل فتبسم الفضل وقال له: كم عمرك؟

فقال: خمس وثلاثون سنة، قال: صدقت! أين أمك؟

قال: توفيت. فقال الفضل: لم لا تأتينا قبل هذا؟

قال: ما أحببت ذلك! حيث أن لي والداً رحيماً ولم أكن بحاجة لذلك. كسبت الفضائل لسنين حتى أصبحت لائقاً للصحبة والحديث.

فقال له الفضل: أي عمل ترغب فيه؟

قال له: ما تتفضل به من صغير وكبير. فأعطاه الفضل خمسة وثلاثين ديناراً بعدد سنين عمره، ثم أعطاه عشرة آلاف دينار قائلاً: وهذا تحت اختيارك لتتجمل بها وأهداه فرساً سراجه من الذهب وأمر له بخدعة عالية.

إذا تفشى الفقر

بلغ ناصر الدين شاه يوماً تواجد رجل في البلد يخدع الناس ويسلبهم أموالهم وقد خدع عقلاء السوق وأعجزهم عن التصدي له فغضب ناصر الدين شاه عندما سمع هذا الخبر وأمر بأن يحضروه إليه مهما كلف الأمر.

فتم أسر الرجل وجيء به إلى قصر الشاه. وما ان وقعت عينا الشاه عليه حتى صاح به قائلاً: قبل أن يذهب بك إلى السجن لا بد أن تشرح لي كيف تخدع الناس: فقال الرجل: جعلت فداك! لا أستطيع أن أقوم به عملياً إلا بأدوات من قبيل السكين وغيره.

سأله الشاه: وأين السكين والأدوات؟ أخرجها لأراها.

فقال الرجل: جعلت فداك لقد ألقيتها في الماء خوفاً من المأمورين وإذا تلطفت فتعطيني درهمين لأشتريها من السوق شريطة أن لا يصحبني المأمورون. فقبل الشاه ذلك الاقتراح وأمر بأن يعطى له درهمان.

وعندما تسلم الرجل الدرهمين خرج من عند الملك بوقار كامل. فانتظره الملك طويلاً فلم يعد إليه. فاضطر الملك أن يصدر أمره ثانية إلى المأمورين لمتابعته، وبعد أربع وعشرين ساعة من البحث عنه، وجدوه في زاوية من المقهى فألقوا القبض عليه وقادوه شزراً إلى الملك. فنظر إليه الملك وقال له: لم تأتي أمس؟

فقال له الرجل: جعلت فداك لا حاجة إلى السكين وأدوات الخداع لأني أمس بأخذي الدرهمين منك شرحت لك كيف أخدع الناس عن أموالهم.

نهب واختلاس

في مدينة تبريز كانت تعيش امرأة طاعنة في السن وكانت تملك قطعة من الألماس الفاخر الذي يندر وجود مثله. ولضيق معيشتها أرادت أن تبيعه.

وكان (خدا داد خان) حاكم تبريز من قبل (كريم خان) في ذلك الوقت.

فلما طرق سمعه هذا الخبر أمر بإحضار المرأة وقطعة الألماس، وقال لها: أنه لا يشتري هذه الجوهرة النفيسة غيري، فأودعي الألماس عندي هذه الليلة حتى أثمنه وغداً تأتين إليّ لأعطيك قيمته.

فذهبت المرأة إلى بيتها وهي مطمئنة لذلك.

وفي صباح اليوم الثاني جاءت إلى الحاكم وكان الحاكم قد دلّس بلوراً شبيهاً بألماسها ووضعه مكانه ولما وقع بصره على المرأة قال لها: تعالي خذي أمانتك و (ألماسك) وابحثي عن غيري ليشتريه، فأخذت العجوز البلورة ولم تجرأ على أن تقول شيئاً وهكذا يختلس الحكام المستبدون أموال الناس بالباطل.

تمويل الندماء

كان ابن ماسويه يوحنا من أعاظم الأطباء وذاع صيته في أواخر خلافة هارون العباسي وكان نديماً وأنيساً لبعض خلفاء بني العباس حتى أن الخليفة الواثق كان يثق به لدرجة لم يكن لأحد من الأطباء والندماء هذه الحظوة عنده، وكان الخليفة لم يجلس مجلساً من مجالس الأنس لم يكن فيه ابن ماسويه حاضرا. وفي إحدى تلك المحافل أحضر الخدم الشراب فالتفت ابن ماسويه إلى الشراب فرآه غير صاف وسيء المذاق فقال في نفسه: إن هذا الشراب الذي يقدمه الساقي بهذه الصورة يدل على أن الخدم قد تأخرت رواتبهم، فأراد أن يظهر للخليفة ذلك.

فقال: أيها الخليفة ألم تلحظ طعم هذا الشراب. ألم تنظر إلى لونه وأنه خارج عن العادة المألوفة في الطعم والذائقة؟

فالتفت الخليفة إلى السقاة وقال لهم: ألم تخجلوا من صنيعكم هذا فتقدموا شراباً سائغاً لمجلس يحضره الندماء؟

وبعدها التفت ابن ماسويه للسقاة ووعدهم رواتبهم وهدايا الخليفة، فسر الخليفة من كلامه وأمر له بمائة ألف درهم تبعث إلى داره وظل الخليفة إلى العصر مشغولاً مع الندماء بالأحاديث. وفي ذلك الحين سأل خادمه حول المبلغ الذي أمر به بأن يبعث إلى دار ابن ماسويه.

فقال: الآن يرسل له. فقال الخليفة: ابعثوا له مائة ألف درهم أخرى. ولما جاء الليل قال الخليفة لندمائه: هل أرسل المبلغ المذكور إلى دار ابن ماسويه. قالوا: أغلب الظن أن الخازن سيبعثها.

فقال الخليفة: أضيفوا له مائة ألف درهم أخرى. فذهب الخادم إلى الخازن وقال له: عجل بما أمر الخليفة به إلى ابن ماسويه فالتأخير لا صلاح فيه. لأن التأخير يؤدي بالخليفة إلى أن يضيف له على المقدار الذي قرره له فأرسلت له ثلاثمائة ألف درهم.

إسعاف الندماء

نقل سعيد بن محمد الصغير عندما بعثه الخليفة المستنصر العباسي لمصر قائلاً: شاهدت هناك خادمة افتتنت بها لجمالها فذهبت إلى مولاها كي أشتريها منه فوضع عليها سعراً لم يكن بإمكاني الحصول عليها. وبعد انتهاء عملي في مصر عدت إلى بغداد، وكانت الخادمة تشغل فكري، وعندما قدمت إلى الخليفة سألني عن خدماتي وأعمالي وسألني عن حاجتي فعرضت له قضية الخادمة، فلم يجبني بشيء.

وبعد مدة حضرت عنده، فقال لي اجلس. وفي هذه الأثناء سمعت صوتاً من خلف الستار كاد أن يذهب بعقلي.

قال لي الخليفة: أتعرف هذا الصوت؟

قلت: نعم، قال: أتميل إلى الارتباط به؟

قلت: الآن تغير رأيي فيه.

قال: أقسم بالله يا سعيد لم أشتر هذه الخادمة إلا لأجلك. ومن اليوم الذي اشتريتها من مصر وجيء بها إلي لم أنظر إليها ولم أضع وجهي بوجهها، ثم أهداها إلي وأنا معجب بفتوة الخليفة.

هبات الطواغيت

أراد محمد بن منصور أحد المقربين للوزير الفضل بن يحيى البرمكي أن يدخل على الفضل. وكان هناك شاب شاعر وأديب يقف بباب دار الفضل وينشد هذا الشعر:

ليس في الدنيا نظيـر لـي ومحـتاج إليـك

وقد كتب هذا الشاب الشعر الذي قاله في ورقة وطلب منه أن يوصلها إلى الفضل.

فقبل محمد بن منصور طلب الشاب وفي لحظة قدومه سلم شعر الشاب للفضل. ولما قرأ الفضل ذلك الشعر نادى حاجبه بأن يستدعي الشاب إليه. ولما دخل الشاب عليه، كان يتصف بأجمل الأخلاق، من دعاء وثناء بأحسن ما يكون.

فقال الفضل لمحمد: إن هذا الشاب القائل هذا البيت صادق في قوله. فأمر بأن يعطى له عشرة آلاف درهم.

فقال الشاب: أيها الوزير العالم قد خلصتني من الفقر والحاجة التي أنا بها فهلا استبدلت الدراهم بدنانير. فأمر

الفضل بصرة أخرى تعطى له فيها عشرة آلاف درهم وقال له: خذ الاثنين. فقال الشباب: إذاً علي أن أكون حمالاً. فقال الفضل له: خذ واحداً من الخدم ليحمله لك. فقال الشاب: انتقيه على أن يكون خادماً لي؟ قال الفضل: كما تريد فذلك لك. فاختار واحداً وقال: كيف أسمح لنفسي أن آخذ الغلام وأحرمه من سعادتك؟ ولما سمع الفضل كلامه: سر به وأعطاه ثلاثة من الخدم غير الأول.

فقال الشاب: كيف يذهبون معي مشاة. فأمر الفضل له بأربعة أفراس. فخرج الشاب بهذا المال الكثير.

الشاكرية.. اختراع البلاط

ثم قلت: إن أم جعفر زبيدة بنت جعفر بن المنصور أول من اتخذت الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر، وصنع لها الرفيع من الوشى حتى بلغ الثوب من الوشى الذي اتخذ لها خمسين ألف دينار وهي أول من اتخذ الشاكرية من الخدم والجواري يختلفون على الدواب في جهاتها ويذهبون في حوائجها برسائلها وكتبها، وأول من اتخذ القباب الفضية والأبنوس والصيدل وكلابيبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشى والسمور والديباج وأنواع الحرير من الأحمر والأصفر والأخضر والأزرق، واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر وشمع العنبر وتشبه الناس في سائر أفعالهم بأم جعفر، ولما أفضى الأمر إلى ولدها قدم الخدم وآثرهم ورفع منازلهم ككوثر وغيره من خدمه، فلما رأت أم جعفر شدة شغفه بالخدم واشتغاله بهم اتخذت الجواري المقدودات الحسان الوجوه وعممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والأصداغ والأقفية وألبستهن الأقبية والقراطق والمناطق فبانت قدودهن وبرزت أردافهن وبعثت بهن إليه فاختلفن في يديه فاستحسنهن واجتذبن قلبه إليهن وأبرزهن للناس من الخاصة والعامة.

أخلاق الطواغيت

بركة من خمر

الوليد بن يزيد الأموي واقع جارية له وهو سكران وجاءه المؤذنون يؤذنونه بالصلاة فحلف ألا يصلي بالناس إلا هي فلبست ثيابه وتنكرت وصلت بالمسلمين وهي جنب سكرى!

وكان الوليد قد صنع بركة من خمر وكان إذا طرب ألقى بنفسه فيها وشرب منها حتى تبين النقص في أطرافها!

تمزيق كتاب الله

وتفأل الوليد يوماً في المصحف فخرج قوله تعالى: (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد)(١) فجعل المصحف الشريف في السقف ورماه بالسهام حتى تمزق وأنشأ يقول:

أتوعد كل جبار عنيد فها أنا ذاك جبار عنيد

إذا ما جئت ربك يوماً حشر فقل يا رب مزقني الوليد

فلم يك إلا أياماً يسيرة حتى قتل شر قتلة وصلب رأسه على قصره ثم على أعلى سور بلده!

طيش المتفرعنين

كتب المنصور العباسي إلى (سلم) بهدم دور من خرج مع إبراهيم وعقر نخلهم، فكتب سلم: بأي ذلك نبدأ؟

فكتب إليه المنصور: لو كتبت إليك بإفساد تمرهم، لكتبت إلي تستأذنني بأية نبدأ بالبرني أم بالشهريز؟

وعزله وولي محمد بن سليمان!.

عبثية الطغاة

قال القاهر العباسي لقصاص أخبرني عن الهادي العباسي وقصر أيامه، أنه كيف كانت أخلاقه وشيمه؟

قال القصاص، قلت: كان جباراً عنيداً وهو أول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والأعمدة المشهورة والقسى الموتورة، فسلكت عماله طريقته ويمموا منهجه وكثر السلاح في عصره.

قال الخليفة: فأخبرني عن الرشيد.

قلت: وكان الرشيد أول خليفة لعب بالصّولجان في الميدان ورمى بالنشاب في الرحاس ولعب بالأكرة والطبطاب وقرب الحذاق في ذلك، فعم الناس ذلك الفعل وكان أول من لعب بالشطرنج من خلفاء بني العباس وبالنرد وقدم اللعاب وأجرى عليهم الرزق فسمى الناس أيامه لنضارتها وكثرة خيرها أيام العروس.

قال القصاص: فقال الخليفة: لماذا لم تذكر أم جعفر زوجته وهو غضبان وقد تناول الحربة وهزها في وجهي فرأيت الموت الأحمر في طرفها ثم برق عيناه مع ذلك فاستسلمت وقلت هذا ملك الموت ولا شك أنه يقبض روحي فأهوى بها نحوي ففزعت منها، فقال: ويلك أبغضت ما فيه عيناك؟ قلت: ما هو؟ قال: أخبار أم جعفر زدني منها.

قلت: نعم كان فعلها وحسن سيرتها في الجد والهزل ما برزت فيه على غيرها.

الغلاميات.. ابتكار العباسيين

واتخذ الناس من الخاصة والعامة الجواري المطمومات وألبسوهن الأقبية والمناطق وسموهن الغلاميات، فلما سمع القاهر بذلك الوصف ذهب به الطرب ونادى بأعلى صوته: يا غلام، قدح على وصف الغلاميات فبادر إليه جوار كثيرة قدهن واحد توهمتهن غلماناً بالقراطق والأقبية والطرر والأقفية ومناطق الذهب والفضة فأخذ الكأس بيده، فأقبلت أتأمل صفاء جوهر الكأس ونورية الشراب وشعاعه وحسن أولئك الجواري والحربة بين يديه وأسرع في شربه فقال: هيه. فقلت: نعم.

ضحايا الهوى

كان الهادي العباسي مغرماً بجارية تسمى غادراً وكانت من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم غناءً، اشتراها بعشرة آلاف دينار فبينما هو يشرب مع ندمائه إذ فكر ساعة وتغير لونه وقطع الشراب فقيل له: ما بال الخليفة؟

قال: وقع في قلبي أني أموت وإن أخي هارون يلي الخلافة ويتزوج غادراً فامضوا وأتوني برأسه!

ثم رجع عن ذلك وأمر بإحضاره وحكى له ما خطر بباله، فجعل هارون يترفق به.

فقال: لا أرضى حتى تحلف لي بكل ما أحلفك به. إني إذا مت لا تتزوج بها. فرضي بذلك وحلف إيماناً عظيمة ودخل إلى الجارية وحلفها أيضاً على مثل ذلك، فلم يلبث بعد ذلك سوى شهر حتى مات وولي الخلافة هارون فطلب الجارية. فقالت: كيف تصنع بالأيمان؟

فقال: قد كفّرت عنك وعني ثم تزوج بها، ووقعت في قلبه موقعاً عظيماً وافتتن بها أعظم من أخيه الهادي حتى كانت تسكر وتنام في حجره فلا يتحرك حتى تقوم!!

تعريض وتلويح

ويحكى أن المأمون قال ليحيى – يعرّض له باللواط – من الذي يقول:

قاض يرى الحد في الزناء ولا يرى على من يلوط من بأس

فقال الذي يقول:

ما أرى الجور ينقضي وعلى الأمة والٍ من بني العباس

بؤس وشؤم

قالوا: قتل النعمان عبيداً يوم بؤسه وله من العمر أكثر من ثلاثمائة سنة جاء إليه فلما رآه قال: هلا كان هذا لغيرك يا عبيد أنشدني فربما أعجبني شعرك، قال: حال الجريض دون القريض(٢).

فقال له النعمان: أنشدني قولك أقفر من أهله ملحوب – قصيدته المعلقة – فقال:

أقفر من في أهله عبيد فاليوم لا يبدي ولا يعيد

فسأله أي قتلة تختار؟

قال: اسقني الخمر حتى إذا ثملت أفصدني الأكحل، ففعل ذلك ولطخ بدمه الغريين!!

التشاغل بالنساء

لما أتي ابن الزبير نعى أخيه مصعب قال: إن مصعباً قدّم أيره وأخّر خيره، وتشاغل بنكاح فلانة وفلانة، وترك جلبة أهل الشام حتى غشيته في داره.

مجون وفجور

غنى ابن عائشة يزيد بن عبد الملك بهذه الأبيات:

أني رأيت صبيحة النحر حوراً نفين عزيمة الصبر

مثل الكواكب في مطالعها عند العشاء أطفن بالبدر

وخرجت أبغي الأجر محتسباً فرجعت موتوراً من الوزر

فطرب وقال لساقيه: اسقنا بالسماء الرابعة. وغنى بها أيضاً أبنه الوليد فلم يزل يستعيده محلفاً له بآبائه من عبد شمس إلى أبيه وبنفسه فطرب وقام إلى ابن عائشة فأكب عليه ولم يبق عضواً من أعضائه إلا قبله وأهوى إلى آلته فجعل ابن عائشة يضم آلته بين فخذيه فقال له الوليد: لا زلت حتى أقبله فقبل الحشفة وقال: وأطرباه وأطرباه ونزع ثيابه وألقاها على ابن عائشة وبقي مجرداً إلى أن أتوه بثياب ودعا له بألف دينار وحمله على بغلة وقال له اركبها على بساطي وانصرف فقد تركتني على أحر من جمر الغضى!!.

دناءة وخسة

كان بلال بن أبي بردة يخاف الجذام وهو والي البصرة، فوصفوا له الاستنقاع في السمن ففعل، وكان إذا فرغ من الجلوس فيه أمر ببيعه، فاجتنب الناس في تلك السنة أكل السمن.

مجلس المأمون

قال إسحاق الموصلي: دعاني المأمون وعنده عمه إبراهيم وفي مجلسه عشرون جارية قد أقعد عشراً عن يمينه وعشراً عن يساره معهن العيدان يضربن بها.

ميوعة واستهتار

كانت لهارون العباسي جارية غلامية تصب على يده وتقف على رأسه وكان المأمون معجب بها وهو أمرد. فبينما هي تصب على يد هارون من إبريق معها والمأمون معه، قابل بوجهه وجه الجارية إذ أشار إليها بقبلة فزبرته بحاجبها، وأبطأت عن الصب في مهلة ما بين ذلك، فنظر إليها هارون فقال: ما هذا؟

فتلكأت عليه، فقال: ضعي ما معك إن لم تخبريني لأقتلنك؟ فقالت: أشار إليّ بقبلة، فالتفت هارون إلى المأمون وإذا هو قد نزل به من الحياء والرعب، فقال له: أتحبها؟

قال: نعم، فقال: قم فادخل بها في تلك القبة، ففعل.

الهوى والغرام

عزم المعتضد على عمارة البحيرة بستين ألف دينار وكان يخلو فيها مع جواريه وفيهن محبوبته دريرة، فقال ابن بسام:

تـرك النـاس بحيــرة وتخلـى فـي البحيـرة
قـاعـد يضـرب بالطبل علــى حــر دريــرة

وكان المعتضد قليل الرحمة فإذا غضب على قائد أمر بأن يلقى في حفيرة ويطم عليه.

سهرات عابثة

عندما قتل الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب، أمر بإحضار الشعراء لينشدوا قصائدهم في هذه المناسبة. فألقى الشعراء قصائدهم وكلها تشير إلى الذم والطعن بالمقتول، باستثناء أحد الشعراء الذي امتنع أن يحذو حذو من سبقه فيكون شعره في ذم يزيد. قال: لو قطعوني إرباً إرباً لما هجوته لأنه أحسن إليّ وما عندي هو من بركات إحسانه.

الظلم انعكاس لأخلاق الناس

جاء الشعبي يوماً إلى الحجاج ومنعه من الظلم والتعدي. فطلب الحجاج ديناراً ولاحظ وزنه وعياره وقال للشعبي: خذه معك إلى السوق وأسأل الصيارفة عنه.

فذهب الشعبي إلى الصيارفة فقال بعضهم: إنه خفيف الوزن، وقال آخرون: إنه ناقص العيار وقال ثالث: إنه مغشوش وكان كلام كل واحد منهم يخالف الآخر.

فعاد الشعبي بالدينار وحدّث الحجاج بما قاله الصيارفة، فقال الحجاج: اذهب به إلى الصراف الفلاني وأريه الدينار. فذهب الشعبي إليه وأراه الدينار.

فقال الصراف: هذا الدينار كامل الوزن والعيار وهو صحيح وإذا رغبت أعوضك به دراهم من الفضة. فتعجب الشعبي من ذلك، وشرح القضية للحجاج.

فقال الحجاج: أردت أن تعرف أن أهل هذا الزمان يظلم أحدهم حق الآخر فيسلط الله عليهم من يظلمهم ولا يرحمهم. وكل من لا يظلم أحداً لا يظلمه أحد.

الحكام العابثون

جيء بمقصر إلى المنصور الدوانيقي فقال: يا أمير المؤمنين: إن الله يأمر بالعدل والإحسان، فإذا قضيت على مقصر بالعدل فاللازم أن تقضي على آخر بالإحسان كما أمر الله فأحسن إليّ المعاملة فسر المنصور من هذا الجواب وعفا عنه.

الحكام الطائشون

جيء بمذنب إلى عبد الملك وكان غاضباً عليه فلما دخل قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين!

فأجاب عبد الملك: لا سلم الله عليك.

قال: يا أمير المؤمنين! ما قال الله هذا؟ بل قال: (وإذا حييتم بتحية فحيّوا بأحسن منها أو ردوها)(٣) وقال الله تعالى: (وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم)(٤) فتعجب عبد الملك من هذا الجواب وعفا عنه.

ديوجانس والإسكندر

كان ديوجانس الكلبي حكيماً كبيراً وعندما فتح الإسكندر مسقط رأس ديوجانس ورآه احتقره، وكان ديوجانس نائماً في الشمس فركله الإسكندر برجله وقال له: انهض إن مدينتك قد فتحت على يدي.

أجاب ديوجانس: فتح الأمصار من عادة الملوك، والرفس بالرجل من عادة الحمار.

فقال له الإسكندر: هل لك من حاجة؟

قال: حاجتي أن تذهب إلى سبيلك فإن وقوفك على رأسي منع الشمس من الإشراق على جسمي.

إهانة واستخفاف

شكا شخص حاكم الغور لدى السلطان محمود الغزنوي وبأمر من السلطان صدر أمر للحاكم المذكور بما بثه الشخص الشاكي عند السلطان. وأعطى للشخص ليقوم بتسليمه للحاكم. وعندما ذهب الشخص إلى الحاكم ليعطيه الأمر الصادر من السلطان قال له الحاكم: كُلِ الورقة التي فيها هذا الأمر فامتنع عن ذلك ولكن أخيراً اضطر إلى أكل الورقة بعد أن ضرب بالسياط.

فذهب الشخص ثانية إلى السلطان وقدّم شكواه ضد الحاكم فأمر السلطان أن يكتب له كتاباً، فطلب الشخص من السلطان أن يكتب الأمر الذي يصدره على ورقة صغيرة، فسأل كاتب السلطان عن سبب ذلك. فقال: ليسهل عليّ أكله.

فتعجب من ذلك ونقلت القضية إلى السلطان، فدهش السلطان من ذلك الخبر وغضب، فسافر إلى الغور ليعاقب حاكمها ولما وصل إليها كان الحاكم في نزهة للصيد فأصدر السلطان قراره بقتل الحاكم المذكور، وأن يعطى حكم (حاكمية الغور) للشخص الذي شكا الحاكم السابق. ورجع السلطان إلى محله بعد تنفيذ القرار.

إفساد دائم

الخليفة الراشد أكثر الظلم فاجتمع الناس عليه وأحضروا القضاة والأعيان والعلماء وكتبوا محضراً فيه شهادتهم، بما جرى منه من الظلم وأخذ الأموال وسفك الدماء وشرب الخمر والزنا والفساد وسائر الموبقات.

فأفتى الفقهاء بجواز خلعه فحكم بخلعه قاضي البلد وبايعوا عمه المقتفى، ولما خلع خرج إلى آذربايجان وكان معه جماعة، فقسطوا على مراغة مالا وعاشوا هناك، ومضوا إلى همدان وأفسدوا بها وقتلوا جماعة وصلبوا آخرين وحلقوا لحى جماعة من الأخيار. ثم مضوا إلى أصبهان فحاصروها ونهبوا القرى وهكذا أخذوا يفعلون في كل مكان يصلون إليه.

لهو ونبيذ

روي أن المهدي العباسي خرج يتصيد فسار به فرسه حتى دخل إلى خباء أعرابي، فقال: يا أعرابي! هل من قِرى؟ قال: نعم. فأخرج له قرص شعير فأكله، ثم أخرج له فضلة من لبن فسقاه، ثم أتاه بنبيذ في ركوة، فسقاه قعباً، فلما شرب قال: يا أخا العرب! أتدري من أنا؟

قال: لا والله. قال: أنا من خدم أمير المؤمنين الخاصة. قال: بارك الله في موضعك، ثم سقاه قعباً آخر، فشربه. فقال: يا أعرابي! أتدري من أنا؟

قال: زعمت أنك من خدم أمير المؤمنين الخاصة، قال: لا، بل أنا من قواد أمير المؤمنين، قال: (رحبت بلادك وطاب مرادك)، ثم سقاه ثالثاً فلما فرغ منه.

قال: يا أعرابي! أتدري من أنا؟

قال: زعمت أنك من قواد أمير المؤمنين، قال: لا ولكني أمير المؤمنين.

فأخذ الأعرابي الركوة فأوكاها، وقال: (والله لو شربت الرابع لادعيت أنك رسول الله. فضحك المهدي حتى غشي عليه، وأحاطت به الخيل ونزلت إليه القواد والأشراف، فطار قلب الأعرابي، فقال له: لا بأس عليك ولا خوف. ثم أمر له بكسوة ومال.

تشاؤم وتطاير

ركب أحد ملوك إيران فرسه صباحاً قاصداً الصيد. وخرج من المدينة وقت طلوع الشمس. ولما وصل الصحراء وكان وقت زرع القمح شاهد زارعاً قبيح الوجه وقوي الجسم قد لف على رقبته قماشاً يوصله إلى رأسه. وهو مشغول بحراثة الأرض. وعندما سمع وقع حافر الفرس قام من مكانه. فهاج الفرس لرؤيته المفاجئة لهذا الرجل وعاد إلى الوراء وكاد الشاه أن يقع على الأرض. وكان حراس الشاه وخدامه الذين يرافقون موكبه أحسوا أن الشاه قد حصل له التشاؤم والكراهية من هذا المشهد، فجاءوا بالرجل وطرحوه أرضاً في طريق الشاه حتى إذا ما حصلت الإشارة من الشاه يقومون بقتله. فلما رآه الشاه قال له: أيها الرجل المشؤوم لقد شملني شؤمك وكاد الفرس أن يذهب بحياتي.

وفي هذه اللحظة التفت الشاه وإذا بالرجل تحدث مع نفسه بهدوء.

فقال له الشاه: أيها الرجل ماذا قلت؟

قال: قلت إلهي! فاجأني هذا الراكب (الشاه) فتعرضت للقتل وأهلي وأولادي لليتم، وفاجأته بلا مكروه سوى أن سوء منظري وقبح وجهي أهاج فرسه ولم يصبه مكروهاً، فانصف أيها الراكب أينا أشأم؟

طلب الأحمق

كان الوليد بن القعقاع عاملاً على الشام فكان يستسقي في كل خطبة جمعة وإن كان في أيام الشعري فقيل له: إذن تفسد الحبوب.

قال: إن غلامي نفيس، إذا صار إلى فراشه يقول كل ليلة: (اللهم حوالينا ولا علينا).

البلاطيون

طلب أحد ملوك إيران يوماً بمناسبة احتفالات العاصمة من فقيه عصره (عتابي تكلر) أن يشرب الخمر.

وكان هذا الفقيه على درجة كبيرة من الزهد والتقوى فامتنع أن يلبي هذا الطلب.

ولم يقل الشاه شيئاً بصدد الامتناع المذكور احتراماً لمقام الفقاهة والعلم.

وحيث أن وعاظ السلطان والمتملقين له لا ينعدم منهم زمان.

فقد عرض أحدهم للشاه بأن (عتابي تكلر) يحسب نفسه قطباً ويتحدث عن الولاية وحيث كان الشاه يدعي القطبية لنفسه غضب من إدعاء الفقيه ذلك. وقال: سوف أرميه بسهم، فإن يصبه فهو قطب، وإلا قتلته.

في هذا الوقت قال فرهاد خان للشاه: إن أسلحة الحرب قد تصيب الأنبياء وأئمة الهدى.

فهل يحق لنا أن نقول بأنهم ليسوا بأنبياء ولا أئمة الهدى؟

والأقطاب ليسوا أفضل من أولئك، وهو يريد بذلك صرف الشاه عن قتل العالم المذكور.

وحيث لم ينفع كلامه في تسكين غضب الشاه. ذهب فرهاد خان إلى (عتابي) وهمس في أذنيه بأن ينشد أشعاراً في مدح الشاه حتى تنسيه غضبه عن امتناعه من شرب الخمر ويعتذر له فأنشد الفقيه رباعية على بديهته. جاء فيها:

أيامك عيد وصيام العيد حرام ومجالس لهوك جنة وفيها الخمر حلال

فعفا عنه الشاه.

موظف الفكاهات

كان (طلعك) من ندماء السلطان محمود ووظيفته الترفيه عن السلطان بإلقاء الفكاهات والأضحوكات.

وفي يوم العيد أهدى السلطان لمريديه وأتباعه هدايا ولم يهد لطلعك مثلهم بل أهداه (الجل) وهو ما يوضع على ظهر الحمار.

فقال طلعك لهؤلاء: إن السلطان قد أهداكم أشياء بسيطة وأهداني أعز وأغلى شيء عنده وهو ملابسه الخاصة.

الشعراء للتملق

وكان جعفر البرمكي يستقطب الشعراء لتقوية ملك هارون، وقد أعطى في يوم واحد لألف شاعر كل واحد ألف درهم! وقال أحدهم في (الحجاج):

فلو كنت في سلمى أجا وشعابها لكان لحجاج علي دليل

خليل أمير المؤمنين وسيفه لكل إمام مصطفى وخليل

بني قبة الإسلام حتى كأنما هدى الناس من بعد الضلال رسول

هجاء الأنصار

قال يزيد بن معاوية لكعب بن جعيل: إن عبد الرحمان بن حسان قد فضحنا فأهج الأنصار، فقال له: أرادّي أنت في الشرك؟ أهجوا قوماً نصروا النبي وآووه؟

ولكني أدلك على غلام منا نصراني كأن لسانه لسان ثور لا يبالي أن يهجوهم فدله على الأخطل فبعث إليه يزيد وأمره بهجائهم فقال:

ذهبت قريش بالسماحة والندى واللؤم تحت عمائم الأنصار

فدعوا المكارم لستم من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجار

كفر وجحود

أنكر الوليد الخليفة الأموي النبوة فقال:

تلعّب بـالخلافة هاشمـي بلا وحي أتـاه ولا كـتاب

فقل لله يمنعنـي طعامـي وقـل لله يمنعني شرابـي

وقد اقتدى في ذلك بيزيد جد أبيه لأمه في قوله:

ليـت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهـلوا واستهلـوا فرحـاً ثم قالـوا يا يزيـد لا تشـل

قد قتلنا القرم من ساداتـهم وعـدلناه ببـدر فاعتـدل

لعبـت هاشم بالملك فـلا خبـر جـاء ولا وحي نزل

نكث وغدر

غزا سعيد بن العاص طبرستان فحاصرهم فسألوه الأمان فأعطاهم على أن لا يقتل منهم رجلاً واحداً، ففتحوا الحصن فقتلهم جميعاً إلا رجلاً واحداً، وحوى ما كان في الحصن.

١ . سورة إبراهيم: الآية ١٥.

٢ . قيل إن الأصل في المثل أن رجلاً نبغ في الشعر فنهاه أبوه عنه فجاش في صدره ومرض حتى أشرف على الهلاك فأذن له أبوه فقال حال الجريض دون القريض (منه دام ظله).

٣ . سورة النساء: الآية ٨٦.

٤ . سورة الأنعام: الآية ٥٤.

ظلم الطاغوت

السجن المؤبد!

وقد نقلوا في أحوال كسرى أنه غضب على الحكيم بوذر جمهر، فقال له: إنه لا بد لك من ثلاث، الأول: أن تختار مكاناً واحداً حتى أسجنك فيه.

والثاني: أن تختار لباساً واحداً حتى يكون لباسك ما دمت في السجن.

والثالث: أن تختار طعاماً واحداً حتى يكون طعامك طيلة بقائك في السجن.

قال لكسرى: نعم اجعلني في سرداب في داري واختر لي جلد الشاة لباساً واللبن طعاماً، وهكذا فعل به كسرى، فلما سئل الحكيم عن السبب؟

قال: إن السرداب حار في الشتاء بارد في الصيف، وجلد الشاة يلبس على وجهه في الصيف لأن الجلد بارد ومقلوباً في الشتاء لأن الصوف حار، واللبن يصلح طعاماً دائماً فهو أدام وطعام. وبقي الحكيم في السجن مدة طويلة حتى عمي ولم يؤذن له بمراجعة الطبيب.

التخلف العام

ومن آثار الإستبداد عدم إمكان صدق الإنسان في قوله ولا الإتقان في عمله، وتتحول المؤسسات الإجتماعية إلى توافه سطحية سواء كانت المؤسسات خيرية كالمستشفيات ودور الأيتام أو مؤسسات علمية كالمدارس والجامعات أو غيرها.

أما الأول: فلأن الإستبداد يخلق الأمة غير الرشيدة لحيلولته دون رشد الأمة، وإذا كانت الأمة غير رشيدة لم يتمكن الإنسان أن يقول لهم: إنه يملك كذا من المال لأنهم يتوقعون حينئذ الإشتراك في ماله بالإقتراض والهبة ونحو ذلك. ولا يتمكن أن يقول: إن مذهبي كذا لأنهم يعادونه على مذهبه – بعد تشتت المذاهب في كل مجتمع – ولا يتمكن أن يقول: إني أريد أن أفعل كذا أو أسافر إلى كذا ونحو ذلك؟

لأنهم يقفون دون بغيته ويذيعون من أمره ما ليس من الصلاح إذاعته إلى غير ذلك، وقد ألمعنا في بعض مباحث هذا الكتاب إلى الوجه في الحكمة المأثورة: (استر ذهبك وذهابك ومذهبك).

وأما الثاني: فلأن الإتقان يأخذ مالاً ووقتاً كثيراً، بينما يعرض مثل ذلك العمل غير المتقن بأقل من تلك القيمة مما يسبب تأخر من يريد الإتقان، مثلاً: إن غير المتقن يأتي بمروحة غير متقنة إلى السوق، فإذا أراد الإنسان إتقان المروحة كلفته مائة، بينما تكلف تلك المروحة غير المتقنة تسعين فتروج بضاعته بعكس بضاعة المتقن فيضطر إلى رفع اليد عن الإتقان وذلك يسبب تأخير الإنسان وهكذا دواليك.

وأما الثالث: فلأنه إذا لم يشجع في المجتمع الصدق والإتقان تربّى الناس على التفاهة والسطحية، ولذا نجد هذا الحال في العالم الثالث بينما نجد عكسه (ولو إلى حد ما) في العالم الصناعي المتقدم.

بؤرة التآمر

ومن صفات الدكتاتوريين المؤامرة على الناس وتطلب المعايب لهم. والقصص المذكورة في تاريخ الأمويين والعباسيين والعثمانيين ومن إليهم في هذا الصدد كثيرة جداً حتى أنها تحتاج إلى مجلد أو اكثر، ومن جملتها ما رواه الرواة: إن المنصور الدوانيقي قال لمحمد بن الأشعث: يا محمد ابغ لي رجلاً له عقل يؤدي عني. فقال له محمد: إني أصبته لك، هذا ابن المهاجر خالي. قال: فأتني به فلما أتاه. قال له أبو جعفر المنصور: يا بن المهاجر خذ هذا المال وائت المدينة واقصد عبد الله بن الحسن، وجعفر بن محمد، وفلاناً وفلاناً من العلويين ثم أمره أن يدفع إليهم المال ويقول لهم: بأنه من شيعتهم في خراسان فإذا قبضوا المال فقل: إني رسول وأحب أن يكون معي خطوطكم بقبضكم ما قبضتم، فأخذ الرجل المال وذهب إلى المدينة ثم رجع إلى أبي جعفر المنصور فقال له: ما وراءك؟ قال: أتيت القوم وهذه خطوطهم بقبضهم. خلا جعفر بن محمد فأني أتيته وهو يصلي في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله) فجلست خلفه وقلت حتى ينصرف عن صلاته وأذكر له ما ذكرت لأصحابه فلما انصرف من صلاته تبعته فالتفت إلي وقال: يا هذا اتق الله ولا تغر أهل بيت محمد فإنهم قريب العهد من دولة بني مروان وكلهم محتاج.

فقلت له: وما ذاك أصلحك الله فأدنى رأسه وأخبرني بكل ما جرى بيني وبينك.

فقال المنصور: يا بن المهاجر اعلم أنه ليس من أهل بيت نبوة إلا وفيهم مُحدّث وأن جعفر بن محمد محدثنا اليوم(١).

بطش الجبارين

لما بنى عبيد الله بن زياد داره المسماة بالبيضاء أمر أصحابه أن يخبروه بما يقوله الناس في ذلك فجاؤه برجل فقيل له: إن هذا قرأ – وهو ينظر إليها:-

(أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون)(٢).

فقال له: ما دعاك إلى هذا؟

فقال: آية من كتاب الله عرضت لي.

فقال: لأعملن بك بالآية الثالثة (وإذا بطشتم بطشتم جبارين)(٣) ثم أمر فبنى عليه ركن من أركان القصر!

تدريب الفيلة

خرج كسرى برويز ذات يوم لبعض الأعياد وقد وضعوا له ألف فيل وقد أحدق بها ثلاثون ألف فارس، فلما بصرت به الفيلة سجدت له حيث كانوا علموها ذلك من قبل فما رفعت رأسها حتى جذبت وراطنها الفيالون، وقد شهد ذلك المشهد جميع أصناف الدواب والخيل فما دونها وليس منها شيء يفرق بين الملك والرعية غير الفيلة، فلما رأى ذلك كسرى قال: ليت أن الفيل لم يكن هندياً!.

إهداء الرؤوس

لما أخذ الحجاج رأس ابن الأشعث وجه به إلى عبد الملك مع عرار بن عمرو بن شاس الأسدي – وكان أسود دميماً– فلما ورد عليه جعل عبد الملك لا يسأله عن شيء من أمر الوقيعة إلا أنباه به عرار في أصح لفظ وأشبع قول وعبد الملك لا يعرفه وقد اقتحمته عينه حيث رآه فقال عبد الملك متمثلاً:

أرادت عراراً بالهوان ومـن يرد لعمري عراراً بالهـوان فقد ظلم

وإن عراراً أن يكن غـير واضح فإني أحب الجون ذا المنكب العمم

فقال له عرار: أتعرفني؟

قال: لا والله.

قال: أنا والله عرار. فزاد في سروره وأضعف له الجائزة!

ضحايا الغضب

كان المعتضد العباسي إذا غضب على القائد النبيل والذي يختصه من غلمانه، أمر أن يحفر له حفيرة ثم يدلي رأسه فيها ويطرح التراب عليه ونصفه الأسفل ظاهر على التراب ويداس التراب، فلا يزال يضطرب ويرفس برجليه حتى تخرج روحه من أسفله وكان يؤتى بالرجل فيكتّف ويقيّد ثم يؤتى بالقطن فيحشى في أذنه وأنفه وفمه وتوضع المنافخ في أسفله حتى ينفخ ويعظم جسده ثم يسد أسفله بشيء من القطن ثم يفصد – وقد صار كالجمل العظيم – من العرقين الذين فوق الحاجبين فتخرج نفسه من ذلك الموضع!!

حرق وإبادة

أول ملوك الشام –كما في بعض التواريخ – الحارث بن عمرو المحرق، سمي محرقاً لأنه حرق العرب في ديارهم ثم ابنه الحارث الأعرج وأمه مارية ذات القرطين.

تحت أرجل الفيلة

أتى النعمان بن المنذر، عبيد بن الأبرص الشاعر يوم بؤسه يمدحه ولم يعلم بأنه يوم بؤسه فقتله النعمان، كما قتل عدي بن زيد العبادي الشاعر وكان ترجمان برويز وكاتبه بالعربية وقد وصف له النعمان وأشار عليه بتوليته واحتال في ذلك حتى ولاه من بين أخوته وكان أقبحهم ثم اتهمه النعمان فاحتال عليه حتى صار في يده فحبسه ثم قتله، وتوصل ابنه زيد بن عدي إلى برويز حتى أحله محل أبيه فذكر له نساء المنذر ووصفهن بالجمال والأدب، فكتب برويز يخطب إلى النعمان أخته أو ابنته فلما قرأ النعمان الكتاب قال: وما يصنع الملك بنسائنا وأين هو عن مهاء السواد والمهاء البقر – يريد أين هو عن نساء السواد اللاتي كأنهن المهاء والعرب تشبه النساء بالمهاء، فحرّف زيد القول عنده وقال: أراد النعمان أين الملك عن البقر لا ينكحهن، فطلب برويز النعمان فهرب النعمان منه حيناً ثم بدا له أن يأتيه فأتاه بالمدائن فصف له برويز ثمانية آلاف جارية صفّين، فلما صار بينهما قلن له: أما للملك فينا غناء عن بقر السواد فعلم النعمان أنه غير ناج منه فأمر به كسرى فحبسه بساباط ثم ألقاه تحت أرجل الفيلة فوطأته حتى مات!

أسر وقتل

كان حجر بن عمرو الكندي – أبو امرئ القيس – ملكاً على بني أسد فامتنعوا منه فأخذ سرواتهم فقتلهم بالعصي، فسموا عبيد العصا وأسر منهم طائفة!.

خمسون سوطاً لجريمة وهمية

مرّ الحجاج ليلة بمكان فيه لبّان وعنده قنينة فيها لبن وهو يقول مع نفسه أبيع هذا اللبن وأشتري كذا وكذا فيثرى مالي ويحسن حالي فأخطب بنت الحجاج فتلد لي غلاماً وأدخل بها يوماً فتخاصمني فأضربها برجلي هكذا – ورفس قنينته – فانكسرت وتبدد اللبن، فقرع الحجاج الباب فأخذه وجلده خمسين سوطاً وقال: لو رفست ابنتي لأفجعتني فيها!.

إلى أين يبلغ الدم؟!

نزل النعمان بن المنذر برابية، فقال له رجل من أصحابه: أبيت اللعن لو ذبح رجل على رأس هذه الرابية إلى أين كان يبلغ دمه؟ فقال له النعمان: المذبوح والله أنت ولأنظرن إلى أين يبلغ دمك فذبحه.

أحقاد جاهلية

حقد سفيان، والي المنصور على ابن المقفع فكتب بذلك في أمره إلى الخليفة، فلما أذن له عزم على قتله فاستأذن على سفيان بن المقفع في جماعة من أهل البصرة، فأدخله قبلهم وعدل به إلى حجرة في دهليزه وجلس غلامه بدايته ينتظره على باب سفيان، فصادف ابن المقفع في تلك الحجرة سفياناً وغلمانه يسجرون تنوراً فقال له سفيان: أتذكر يوم كذا، قلت لي كذا؟

أمي مغتلمة إن لم أقتلك قتلة لم يقتل بها أحد، ثم قطع أعضاءه عضواً عضواً وألقاها في التنور وهو ينظر إليها حتى أتى على جميع جسده ثم أطبق التنور وخرج إلى الناس، فكلمهم فلما خرجوا من عنده تخلف غلام ابن المقفع ينتظره فلم يخرج فمضى وأخبر عيسى بن علي وسليمان أخاه بحاله فخاصما سفيان بن معاوية في أمره فجحد دخوله إليه فأشخصاه إلى المنصور وقامت البينة إن ابن المقفع دخل دار سفيان حياً سليماً ولم يخرج منها. فقال المنصور: سأنظر في هذا الأمر غداً.

فذهب سفيان ليلاً إلى المنصور وقال له: كنت متبع أمرك. قال: لا ترع وأحضر في غد.

وقامت البينة، فطلب سليمان وعيسى القصاص فقال المنصور: أرأيتم إن قتلت سفيان بابن المقفع ثم خرج ابن المقفع عليكم من هذا الباب – وأومأ إلى باب خلفه . من ينصب لي نفسه حتى أقتله بسفيان فسكتوا وذهب دمه هدراً.

التأديب العملي

دخل هاشمي على المنصور فاستدعاه ودعا بغدائه وقال: أدنه، فقال: تغديت فكف عنه، فلما خرج دفع الربيع في قفاه فشكا عمومته إلى المنصور.

فقال الربيع: هذا الفتى كان يسلّم من بعيد وينصرف فأدناه الخليفة واستجلسه ثم أذن له في الغداء فقال له: تغديت قول من يظن أن الغداء عند الخليفة لا يصلح إلا لسد الخلة ومثل هذا لا يكون أدبه بالقول ولكن بالفعل.

في كيس الدراهم

لما قتل المنصور أبا مسلم طرح رأسه مع كيس الدراهم إلى شيعته، كما فعل ذلك عبد الملك لما قتل عمرو بن سعيد فطرح رأسه مع كيس الدراهم إلى شيعته فرضوا وتفرقوا!

خنق الأصوات

كان خالد بن صفوان إذا مر به موكب بلال بن أبي موسى – وكان قد كف بصره – يقول: ما هذا؟

فيقال له: الأمير.

فيقول: (سحابة صيف عن قليل تقشع) فقيل ذلك لبلال فمر به مرة أخرى فقال خالد: ذلك: فقال له بلال: (لا تقشع حتى يصيبك منها بشؤبوب برد) فضربه مائتي سوط.

تسفير وتهجير

دخل أياس – وهو غلام – الشام فقدم خصم له – وكان شيخاً كبيراً – إلى بعض قضاة عبد الملك، فقال له القاضي: أتقدم شيخاً كبيراً؟

قال: الحق أكبر منه، قال: اسكت. قال: فمن ينطق بحجتي؟

قال: لا أظنك تقول حقاً حتى تقوم. قال: أقول لا إله إلا الله أحق هذا أم باطل؟

فقام القاضي فدخل على عبد الملك من ساعته فخبّره بالخبر، فقال: أقض حاجته الساعة وأخرجه من الشام لا يفسد الناس عليّ.

منطق السيف

لما قامت الخطباء لبيعة يزيد وأظهر قوم الكراهة، قام رجل واخترط من سيفه شبراً ثم قال: أمير المؤمنين هذا – وأشار إلى معاوية – فإن مات فهذا – وأشار إلى يزيد – ومن أبى فهذا – وأشار إلى سيفه. فقال معاوية: أنت سيد الخطباء.

منطق السجن

أطال الحجاج ذات مرة خطبة الجمعة، فقال رجل: إن الوقت لا ينتظرك وإن الرب لا يعذرك فحبسه، فقال أهله: إنه مجنون، فقال: إن أقر خليت سبيله، فقيل له فقال: والله لا أزعم أنه ابتلاني وقد عافاني.

إحراق الجسد

في وقعة عبد الملك مع مصعب قتل ابن الأشتر وأتي بجسده إلى عبد الملك فأحرقه مولى الحصين بن نمير.

التمثيل بالضحية

حمل جسد شبيب الخارجي لما أخرج من دجيل الأهواز إلى الحجاج فأمر بشق بطنه واستخراج قلبه، فإذا هو كالحجر إذا ضربت به الأرض نبا عنها.

الروابط لا الضوابط

قدم على الحجاج ابن عم له من البادية، فنظر إليه يولي الناس فقال له: أيها الأمير لم لا توليني بعض هذا الحضر؟ فقال الحجاج: هؤلاء يكتبون ويحسبون وأنت لا تحسب ولا تكتب. فغضب الأعرابي وقال: بلى أني لأحسب منهم وأكتب.

فقال الحجاج: فأقسم ثلاثة دراهم بين أربعة فما زال يقول: ثلاثة بين أربعة. لكل واحد منهم درهم يبقى الرابع بلا شيء، كم هم أيها الأمير؟ قال: أربعة. قال: نعم وقفت الحساب لكل واحد منهم درهم وأنا أعطي الرابع درهماً من عندي وضرب يده إلى تكّته فاستخرج درهماً وقال: أيكم الرابع ما رأيت كاليوم زوراً مثل حساب هؤلاء الحصريين.

فضحك الحجاج ومن معه فذهب بهم الضحك كل مذهب، ثم قال الحجاج: إن أهل أصبهان كسروا خراجهم ثلاث سنين، كلما أتاهم وآل عجزوه فلأرمينهم ببدوية هذا وعنجهيته فأخلق به أن ينجب، فكتب له عهده على أصبهان، فلما خرج استقبله أهل أصبهان واستبشروا به وأقبلوا عليه يقبلون يديه ورجليه وقد استغمروه فقالوا: أعرابي بدوي ما يكون منه، فلما استقر جميع أهلها فقال: ما لكم تغضبون أميركم وتنقصون خراجكم فقال قائل: جور من كان قبلك. قال: فما الأمر الذي فيه صلاحكم؟

فقالوا: تؤخرنا بالخراج ثمانية أشهر ونجمعه لك قال: لكم عشرة أشهر وتأتوني بعشرة ضمناء يضمنون، فأتوه بهم، فلما توثق منهم أمهلهم فلما قرب الوقت رآهم غير مكترثين، فقال لهم: فلم يعتدّوا به، فجمع الضمناء وقال لهم: المال؟

فقالوا: أصابنا من الآفة ما نقض ذلك – وكان في شهر رمضان – فآلى ألا يفطر حتى يجمعوا المال أو يضرب أعناقهم، ثم قدّم أحدهم فضرب عنقه وكتب عليه: (فلان بن فلان أدى ما عليه) وجعل رأسه في بدرة وختم عليها ثم قدّم الثاني ففعل به مثل ذلك، فلما رأى القوم الرؤوس تندر وتجعل في الأكياس من البدر قالوا: توقف حتى نحضر المال، فأحضروه في أسرع وقت فبلغ ذلك الحجاج، ففرح كثيراً وأبقاه والياً على أصبهان ما دام حياً.

منطق الإرهاب

قتل يحيى بن زيد (عليه السلام) بالجوزجان من خراسان وحمل رأسه إلى الوليد وصلب جسده وأبقوه إلى أن ظهر أبو مسلم فأنزله ودفنه وأظهر أهل خراسان في جميع أعمالهم النياحية عليه سبعة أيام، ولم يولد تلك السنة بخراسان مولود إلا وسمي بيحيى أو بزيد.

ظلم واستبداد

حبس المنصور بني الحسن في سرداب لا يفرقون فيه بين الليل والنهار وكانوا يتوضأون في مواضعهم فاحتال بعض مواليهم أدخل عليهم شيئاً من الغالية فكانوا يدفعون بشمها تلك الروائح المنتنة وكان الورم في أقدامهم لا يزال

يرتفع حتى الفؤاد فيموت صاحبه، وكانوا قد جزأوا القرآن لمعرفة أوقات الصلاة. مات منهم إسماعيل بن الحسن فترك عندهم ليجف فصعق داوود بن الحسن فمات وأتى برأس إبراهيم بن عبد الله بن الحسن إليهم في السجن وأبوه يصلي فلما فرغ أخذه فوضعه في حجره وقال له: أهلاً وسهلاً ثم أمر المنصور بهدم السجن عليهم فهدم فماتوا جميعاً وصار السجن مقبرتهم.

جراب النورة

قتل مروان الحمار إبراهيم الإمام في جراب النورة وضع فيه رأسه إلى أن اختنق.

قتل وغرق

في المروج أنه ظهر في سنة ٢٨٤ للمعتضد شخص في صور مختلفة في داره فكان تارة يظهر في صورة راهب ذي لحية بيضاء وعليه لباس الرهبان، وتارة يظهر شيخاً أبيض اللحية ببزة التجار، وتارة يظهر بيده سيف مسلول ويضرب بعض الخدم ويقتله، وكانت الأبواب تغلق في وجهه ومع ذلك يظهر أين ما أراد من البيت أو ساحة الدار أو غيرهما. وكان يظهر له في أعلى الدار التي بناها. فأكثر الناس القول في ذلك فمن قائل: أنه شيطان مريد. وقائل: أنه مؤمن من الجن يظهر له رادعاً له عن سفكه الدماء. وقائل: أن بعض خدمه هوى بعض جواريه فاحتال ببعض العقاقير ذي الخاصية فيضعه في فمه فلا يدرك بالبصر، فقلق المعتضد وقتل وأغرق جماعة من جواريه وخدمه، وضرب وحبس جمعاً منهم اعتباطاً.

قساوة جاهلية

في أول محرم سنة ٢٨٩ صلب وصيف الخادم بلا رأس وأطلى جسمه بالصبر وغيره من الأطلية القابضة والماسكة لأجزاء الجسم حتى لا يتناثر فبقي مصلوباً على الجسر لا يبلى إلى سنة ٣٠٠ زمان المقتدر.

تفويض عام

كان الأمر أيام المستعين لبغا ووصيف وهما يعيثان في البلاد الفساد كما يشاءان فقالوا فيه:

خليفة في قفص بين وصيف وبغا

يقول ما قالا له كما يقول الببغا

عقاب وثواب

كان يوسف بن عمر من قبل هشام على العراق – وكان دميماً قصيراً – وإذا فضل خياطه شيئاً من القماش ضربه مائة سوط، وإذا ذكر أنه نقص شيئاً جازه. وكان له نديم من أطول الناس فقال له يوماً: أيّنا أطول؟ فقال: أصلح الله الأمير أنت أطول مني ظهراً وأنا ساقاً، فضحك وقال: أحسنت.

قتل الأبرياء

كان أصحاب حجر الذين سفروا إلى الشام بأمر معاوية أولاً: إثني عشر ثم أتبعهم زياد بإثنين فحسبوا بمرج عذراء فبعث إليهم أعور فقال رجل منهم من خثعم: يقتل نصفنا وينجو نصفنا، فصار كما قال فقتل ستة منهم.

وبعث معاوية بواحد منهم – وهو عبد الرحمان العنزي – إلى زياد وأمره أن يقتله شر قتلة، فبعث به زياد إلى قس الناطف فدفن حياً، وأطلق سبعة بشفاعة عشائرهم.

مناصب عديدة لفرد واحد

عن حميد الطوسي قال: كنت حاضراً دهليز المأمون فدعا بالناس لقبض أرزاقهم فكان أول من دخل اسحاق الموصلي مع الوزراء، ثم دعا بالقواد فكان أول من دخل إسحاق الموصلي، ثم دعا بالقضاة فكان أول من دخل إسحاق، ثم دعا الفقهاء والمعدلين فكان أول من دخل هو، ثم دعا بالشعراء فكان أول من دخل هو، ثم دعا بالمغنين فكان أول من دخل هو، ثم دعا بالمرماة في الهدف فكان أول من دخل هو وفي كل مرة يأخذ الرزق والعطاء.

جفاة الجاهلية

لما قتل يوم اليحاميم – وهو يوم بين جديلة والغوث، من قبائل طي – قائد جديلة، أخذ مصعب السدوسي أذنيه فخصف بهما نعليه فقال أبو سروة السندسي:

نخصف بالآذان منكم نعالنا ونشرب كرهاً منكم في الجماجم

دأب الطغاة

في المثل (تغافل كأنك واسطي) والأصل فيه: أن الحجاج كان يسخر الناس في بناء واسط، فيهربون وينامون بين الغرباء في المسجد فيجيء الشرطي ويقول: يا واسطي فمن رفع رأسه أخذه فلذلك كانوا يتغافلون.

مجازر ومآتم

ذكر في تاريخ بغداد (في باب ابنتيه): وأما دار خازم، وهو خازم بن خزيمة النهشلي وهو أحد الجبابرة قتل في وقعة سبعين ألفاً وأسر بضعة عشر ألفاً فضرب أعناقهم وذلك بخراسان.

سجن وتعذيب

دخل ابن الأنباري يوماً المشفى على (ابن الموسوس) محبوساً منغمساً في النجاسة فقال له: هذا الذي تراني منغمساً فيه ما هو؟

قال: الخرء.

صلب الميت!

لما بويع مروان الحمار نبش قبر (يزيد بن الوليد) الذي قيل فيه وفي عمر بن عبد العزيز (الناقص والأشج أعدلا بني مروان) وصلبه.

إبادة شاملة

قالوا: غزا المعتصم سنة ٢٢٣ عمورية، فقتل فيها ثلاثين ألفاً وسبى ثلاثين ألفاً – فيهم ستون بطريقاً – وأحرقها من سائر نواحيها، وجاء ببابها إلى بغداد.

حكم المستبدين

كان حيان الأسدي قاضي المتوكل فقال يوماً: (إن عرفجة قطع أنفه يوم الكلاب) وكسر الكلاب، وكان له مستمل يقال له: كحة قال: أيها القاضي إنما هو يوم الكلاب – بالضم – فغضب عليه وأمر بحبسه، فدخل الناس عليه في الحبس فقالوا: ما دهاك؟ فقال: قطع أنف عرفجة في الجاهلية وامتحنت أنا به في الإسلام.

عزل ونصب

قال عبد الرحمان بن مسهر: ولاّني أبو يوسف القاضي قضاء جبل، فانحدر هارون إلى البصرة، فسألت من أهل جبل أن يثنوا على فوعدوني، فلما قرب تفرقوا، فسرحت لحيتي وخرجت فوقفت حتى وافى أبو يوسف مع هارون في الحراقة.

فقلت: أيها الخليفة نعم القاضي قاضي جبل قد عدل فينا وفعل – وجعلت أثني على نفسي . فطأطأ أبو يوسف رأسه وضحك.

فقال له هارون: مم ضحكت؟

فأخبره فضحك حتى فحص برجليه ثم قال: هذا شيخ سخيف سفلة فأعزله.

فعزلني فلما رجع جعلت أختلف إليه وأسأله قضاء ناحية، فلم يفعل، فحدثت الناس عن مجالد عن الشعبي: أن كنية الدجال أبو يوسف، فبلغه ذلك فقال: حسبك وولاّني ناحية.

تعذيب وتغريم

عن الأصمعي: أن الحجاج قبض على يزيد بن المهلب وأخذه بسوء العذاب، فسأله أن يخفف عنه العذاب على أن يعطيه كل يوم مائة ألف درهم فإن أداها وإلا عذّبه إلى الليل.

اللقاء بالحاكم

كان رجل بمرو يلتمس الوصول إلى طاهر بن الحسين ثلاث سنين فيتعذر، وإذا فرجة من بستان فالتمس الوصول منها إلى الميدان، فلما سمعت الحركة وضرب الصوالجة ألقى بنفسه من الثلمة، فنظر إليه فقال: من أنت؟

قال: أياك قصدت وقلت بيتي شعر، فقال: هاتهما، وأقبل ميكال – حارس طاهر – إليه، فزجره طاهر فابتعد، عندها أنشأ الرجل يقول:-

أصبحت بين خصاصة وتجمل والحر بينهما يموت هزيلا

فامدد إليّ يداً تعوّد بطنُها بذل النوال وظهرها التقبيلا

فأمر له بعشرة آلاف درهم وقال: هذه ديتك ولو كان ميكال أدركك لقتلك، وهذه عشرة آلاف درهم لعيالك، امض لشأنك ثم قال: سدّوا هذه الثلمة.

قبور الأحياء

حبس المنصور عبد الله المحض في داره إلى أن أراد الخروج إلى الحج فجلست بنت لعبد الله في طريقة وأنشأت:

ارحم كبيراً سنة متهدم في السجن بين سلاسل وقيود

وارحم صغار بني يزيد إنهم يتموا لفقدك لا لفقد يزيد

إن جدت بالرحم القريبة بيننا ما جـدّنا مـن جدّكـم ببعيد

فقال المنصور: أذكرتنيه، ثم أمر به فحدر إلى المطبق، وكان آخر العهد به.

منطق الإستبداد

وروى أن أبا مسلم كان يخطب فقام إليه رجل فقال: ما هذا السواد الذي أرى عليك فقال: حدثني أبو الزبير عن جابر أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء، وهذه ثياب الدولة وثياب الهيبة يا غلام اضرب عنقه، وكان قد أخذ الصغير والكبير بلبس السواد.

لا.. للانتقاد

قال عبد الرحمان بن زياد: أرسل إليّ المنصور فقدمت عليه والربيع قائم على رأسه. فقال: كيف حال ما مررت به من أعمالنا؟ قلت: رأيت أعمالاً سيئة وظلماً فاشياً ظننته لبعد البلاد منك فجعلت كلما دنوت منك كان الأمر أعظم، فنكس رأسه طويلاً ثم رفعه فقال: كيف لي بالرجال؟

قلت: أوَ ليس عمر بن عبد العزيز كان يقول: إن الوالي بمنزلة السوق يجلب إليها ما ينفق فيها، فإن كان براً أتوه ببرهم، وإن كان فاجراً أتوه بفجورهم، فأطرق طويلاً ثم أومأ إلى الربيع: أن أخرجه، فأخرجني وما عدت إليه.

لا.. للاعتراض

قال الشاعر العتابي، حيث رأى كثرة ظلم هارون:

ساد مـن الناس راتع هامل يعللـون النفـوس بالبـاطل

حتى بلغ إلى قوله:

ألا مساعيـر يغضـبون لها بسلـة البيض والقنا الـذابل

فغضب غضباً شديداً وقال للفضل بن الربيع: أحضره الساعة فبعث إليه فوجده قد توفي، فأمر بنبشه ليحرقه، فلم يزل الفضل يلطف له حتى كف عنه.

جفوة المستبدين

قال حاجب المهلبي: حدثني بعض غلمان بجكم – أمير الأمراء ببغداد – إن بجكم أنفذه إلى الأنبار في جماعة غلمان لقتل قوم كانوا محبسين من الأعراب وأمرنا بحمل رؤوسهم إليه، وكتب لنا في ذلك فجئنا إلى العامل وأوصلنا إليه الكتاب فسلم القوم إلينا، فضربنا أعناقهم وقطعنا رؤوسهم وأقمنا ليلتنا هناك وبكرنا والرؤوس في مخالي دوابنا مسمطة عليها – أي معلقة – ونحن نريد بغداد وكنا عشرة غلمان، والمقتلين عشرة، فلما صرنا في بعض الطريق وحمي النهار أوينا إلى قرية خراب وجلسنا نأكل والمخالي بين أيدينا فيها رؤوس قد نحيناها عن الدواب وتركنا الدواب ترعى. فلما فرغنا من أكلنا أقمنا إلى المخالي فافتقدنا من الرؤوس التي فيها واحداً فقامت قيامتنا وقلنا: نحن مقتولون به سيقول لنا بجكم: أخذتم منه مالاً وتركتموه؟

فأجمع رأينا على أن نخرج إلى تلك الصحراء فنعترض رجلاً كائناً من كان أول ما نلقاه فنقتله ونجعل رأسه في المخلاة بدلاً من الذي ضاع ونسير، فخرجنا على هذا فأول من استقبلنا رجل شيخ حسن الشيبة والثياب له سجادة وسمت وهو راكب حماراً، عليه خرج مثقل، وهو يسير، فأوقعنا به وقتلناه بعد أن تذممنا من قتله مع ما رأيناه عليه، إلا أنا خفنا أن ينتشر الناس في الطريق فلا يمكنا قتل أحد ونكون نحن المقتلين. فقتلنا الرجل وقطعنا رأسه وجئنا لنجعله في المخلاة فإذا نحن برأس ملقى بين أرجل الدواب فشككنا فيه وعددنا الرؤوس فإذا هي أحد عشر فشككنا حتى أخذ كل واحد منا رأساً وبقي في الأرض رأس واحد فاضلاً فقامت قيامتنا ولطمنا وقلنا: قتلنا رجلاً مسلماً بغير سبب وشق ذلك علينا وكان معنا شيخ من الغلمان فقال: يا قوم إنكم ما سلطتم على هذا الشيخ إلا وله عند الله سريرة سوء ففتشوا رحله لعلكم تستدلون على ما يزول به غمنا في قتله فقمنا إلى رحله فحططنا الخرج عنه وفتحناه، فأول شيء خرج علينا هو بكرة ثم تلا ذلك ثياب ملونة بالدم وبالغائط وتوالت الأدلة علينا فإذا هو خناق شداخ، فحمدنا الله تعالى على ما سلمنا من قتل من لا يستحق القتل وتقاسمنا قماشه ودفنا رأسه في الطريق وجئنا فسلمنا العشرة رؤوس إلى بحكم.

قتل البريء بالسقيم

خطب ابن زياد أهل البصرة – لما كتب إليه يزيد أن يأتي الكوفة من البصرة فيقتل مسلماً (عليه السلام) أو ينفيه – وقال: (فو الذي لا إله غيره لئن بلغني عن رجل منكم خلاف لأقتلنه وعريفه ووليه، ولآخذن الأدنى بالأقصى حتى لا يكون فيكم مشاق. أنا زياد أشبهته من بين من وطئ الحصى ولم ينزعني شبه خال ولا عم).

تلاعب بالأحكام!

دخل ابن هرمة على المنصور وامتدحه، فقال له المنصور: سل حاجتك!

قال: تكتب إلى عاملك بالمدينة إذا وجدني سكراناً لا يحدني. فقال له المنصور: هذا حد لا سبيل إلى تركه، فقال لكاتبه: اكتب إلى عاملنا بالمدينة: (من أتاك بابن هرمة وهو سكران، فاجلده ثمانين واجلد الذي جاء به مائة) فكان الشرطة يمرون عليه وهو سكران، ويقولون: (من يشتري ثمانين بمائة فيتركونه).

الجنون فنون

إن بعض الملوك قصد التفرج على المجانين، فلما دخل عليهم، رأى فيهم شاباً حسن الهيئة، نظيف الصورة، يرى عليه آثار اللطف، وتفوح منه شمائل الفطنة، فدنى منه وسأله مسائل، فأجابه عن جميعها بأحسن جواب، فتعجب منه عجباً شديداً، ثم أن المجنون قال للملك: (قد سألتني عن أشياء فأجبتك، وإني سائلك سؤالاً واحداً. قال: (وما هو؟ قال: متى يجد النائم لذة النوم؟) ففكر الملك ساعة، ثم قال: (يجد لذة النوم حال نومه) فقال المجنون: (حالة النوم ليس له إحساس.

فقال الملك: (قبل الدخول في النوم)، فقال المجنون: (كيف توجد لذته قبل وجوده!).

فقال الملك: (بعد النوم)، فقال المجنون: (أتوجد لذته وقد أنقضى!)، فتحير الملك وزاد إعجابه، وقال: (لعمري! إن هذا لا يحصل من عقلاء كثيرين، فأولى أن يكون نديمي في مثل هذا اليوم)، فأمر أن ينصب له تخت بإزاء

شباك المجنون ثم استدعى بالشراب، فتناول الكأس، وشرب، ثم ناول المجنون، فقال: (أيها الملك أنت شربت هذا لتصير مثلي، فأنا أشربه لأصير مثل من؟). فاتعظ الملك بكلامه.

من حياتي

قيل ليحيى بن خالد البرمكي: أيها الوزير! أخبرنا بأحسن ما رأيت في أيام سعادتك؟

قال: (ركبت يوماً من الأيام في سفينة أريد التنزه، فلما خرجت برحلي لأصعد اتكأت على لوح من ألواحها، وكان بإصبعي خاتم، فطار فصه من يدي – وكان ياقوتاً أحمر – قيمته ألف مثقال من الذهب فتطيرت من ذلك، ثم عدت إلى منزلي، وإذا بالطباخ قد أتى بذلك الفص بعينه)، وقال: أيها الوزير! لقيت هذا الفص في بطن حوت، وذلك إني اشتريت حيتاناً للمطبخ فشققت بطنها، فرأيت هذا الفص، فقلت: لا يصلح هذا إلا للوزير – أعزه الله تعالى – فقلت: الحمد لله! هذا بلوغ الغاية.

وقيل له: أخبرنا ببعض ما لقيت من المحن؟

قال: اشتهيت لحماً في قِدر طبّاخ، وأنا في السجن، فأتيت بقدر ولحم مقطع في قصبة فارسية، والخل وساير حوايجها في قصبة أخرى، وتركوا عندي – ما احتاج إليه – وأتيت بنار، فأوقدت تحت القدر، ونفخت ولحيتي في الأرض، حتى كادت روحي تخرج. فلما أنضجت تركتها تفور، وتغلي، وفتيت الخبز، وعمدت لأنزلها فانفتقت وأريق ما في القدر على الأرض، فبقيت ألتقط اللحم وأمسح منه التراب وآكله، وذهب المرق الذي كنت أشتهيه، وهذا أعظم ما مرّ بي.

في قبضة الطاغوت

جيء إلى المتوكل بمحمد بن النصيب ووزيره ابن الديرواني، وكان محمد هذا قد خرج على المتوكل، استوزر ابن الديرواني، فلما مثل بين يدي المتوكل، قال: (ما حملك على ما فعلت؟ يا محمد!)، قال: (الشقوة، وحسن الظن بعفوك، يا أمير المؤمنين!)، وأنشد يقول:

أبى الناس إلا أنك اليوم قاتلي إمام الهدى والعفو بالحر أجمل

تضاءل ذنبي عند عفوك قلة فجد لي بعفو منك فالعفو أفضل

فقال المتوكل: (خلوا سبيله)، ثم قدم (ابن الديرواني) فقال: (اضربوا عنقه).

فقال: سبحان الله! يا أمير المؤمنين! تعفو عن الرأس، وتقطع الذنب، فضحك المتوكل وعفا عنه.

استعطاف

كتب محمد بن عبد الملك الزيات وهو في السجن، وقد اشتد به الحال رقعة إلى المتوكل، يستعطفه على نفسه من شدة ما قاسى من الأهوال والعذاب في السجن يقول فيها: هذين البيتين:

هي السبيل فمن يوم إلى يوم كفرحة النائم الفرحان بالنوم

لا تعجلنّ رويداً إنما دول دنيا تنقّل من قوم إلى قوم

فلما قرأها المتوكل رق له، وبكى، وأمر بإطلاقه، فذهبوا إلى السجن فوجدوه ميتاً!.

شعب الدكتاتور

مر الحجاج بن يوسف بشخص من عماله، كان قد صلبه، فوجد عند خشبته صبياً صغيراً، فاستنطقه الحجاج، فقال له: (يا صبي! ما تقول في هذا الراكب، فقال: (أيها الأمير! هو زرع نعمتك، وحصيد نقمتك)، فسأل عن الغلام، فوجده ابن ذلك المصلوب، فقربه، وأقعده مقعده.

بلا موازين

لما دخل أبو مسلم إلى (مرو)، قال لأهلها: (هل في بلدكم حكيم؟

قالوا: نعم فلان المجوسي.

فقال: عليّ به، فقال له أبو مسلم: لم لقبت نفسك حكيماً؟

فقال: لأن لي إلهاً ولا أصبح يوماً إلا وضعته تحت قدمي.

فقال أبو مسلم: عليّ بالسيف، فقال المجوسي: مهلاً أيها الأمير! ألستم تقرأون كتابكم: (أرأيت من اتخذ إلهه هواه)(٤).

قال: نعم. قال: فأنا أدوس الهوى تحت قدمي لئلا يغلبني، فقال له: ما قلت إلاّ حقاً).

شأن الدكتاتور

عندما أراد الإسكندر التوجه إلى حرب (دارا)، قالوا له: إن لـ (دارا) جيشاً يقرب من ثمانين ألفاً، فكتب الإسكندر في جوابهم: (إن القصاب لا يخشى كثرة الأغنام).

الازدراء بالناس

روى النضر بن شميل أنه قال: دخلت مجلس المأمون ليلة، وعليّ ملابس متواضعة، وما أن رآني المأمون بهذه الملابس حتى قال: لم هذا الزهد في حياتك لدرجة أنك تقابل الخليفة بهذه الملابس؟

قلت: يا أمير المؤمنين! إن لي عذراً بلبسي إياها فإني رجل ضعيف يؤذيني شدة الحر في (مرو) فأستطيع بها دفع الحر عني قال: لا كما تقول: ولكنه الإمساك والبخل بأعلى مراتبه. واستمر حوارنا حتى انتهينا إلى حديث النساء، الذي جاء من سياق الحوار. فقال المأمون: حدثني هشام عن مجاهد عن الشعبي عن ابن عباس قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): (إذا تزوج الرجل المرأة لجمالها ودينها كانت سداداً من عوز)(٥). وقد قرأ المأمون: كلمة (سداد) بفتح السين فصححت عليه وقلت: إن السداد بكسر السين لا فتحها. فقال المأمون: وأنت تخطئني في قراءتها. قلت: لا ولكن آخذ على هشام (راوي الحديث). قال: وما الفرق بين هذين؟

قلت: سداد بفتح السين بمعنى القصد والدين، وسداد بكسر السين هو كل شيء يسد الطريق بوجهه والمعنى الثاني للخبر هو المقصود. فقال المأمون: إن الله تعالى إذا أراد قبيحاً بعبده أذهب الأدب عنه. وأضاف: يا نصر، أخبرني ماذا تملك من حطام الدنيا. قلت: إن لي داراً في (مرو) فتناول ورقة كتب فيها شيئاً وأمر غلامه بأن يصحبني إلى الفضل بن سعد ولما جئت الفضل وسلمت الورقة إلى سهل قال: إن الخليفة أمر لك بخمسين ألف درهم وعليّ أن أعطيك المبلغ. فقلت له: هلا تشرح لي سبب الإعطاء ذلك!

قال: هل أخذت خطأً على أمير المؤمنين؟

قلت: لا وإنما أخذت على هشام المخطئ واللحان. فأكرمه الفضل من عنده بثلاثين ألف درهم. وكان من جراء تصحيح خطأ واحد أن أكرم بثمانين ألف درهم.

الإقناع أو الإكراه؟

كان في أيام خلافة عمر بن عبد العزيز رجل نصراني ذو شخصية معروفة فجاء إلى الخليفة يوماً وطلب أن يخطب إبنة الخليفة فقال له الخليفة: إن هذا الأمر لم يكن ولن يكون، لأنك كافر وابنتي مسلمة، وتزويج المسلمة بالكافر لا يجيزه ديننا.

فقال النصراني: إذا كان كذلك فلماذا زوّج نبيكم ابنته من كافر.

قال: عمرو بن عبد العزيز: معاذ الله! ومن هو هذا الكافر؟

قال النصراني: علي بن أبي طالب.

قال عمر: ويلك! ماذا تقول: هذا أخو رسول الله (صلى الله عليه وآله) وابن عمه ووارث علمه ومن السابقين في الإسلام.

قال النصراني: إذا كان عليّ كذلك فلماذا تلعنوه على المنابر؟

فسكت عمرو بن عبد العزيز ومكث في البيت لثلاثة أيام يفكر في هذه الأيام الثلاثة كيف يرفع السب واللعن عن عليّ؟

فأحضر خمسة آلاف من خدامه وجيشه وقال لهم: ماذا ترون في إطاعتي؟

قالوا: نطيعك ولو أمرت بقطع أعناقنا. فقال لهم: إذا كان يوم الجمعة فليأتي كل واحد منكم بسيفه يخفيه تحت ثيابه وتقفون مقابل أهل دمشق وغيرهم ممن يحضرون صلاة الجمعة، وعندما أقرأ خطبة الصلاة واضع العمامة عن رأسي فليضرب كل منك عنق من يقف.

ولما جاء يوم الجمعة وغاص المسجد بالناس قرأ عمرو بن عبد العزيز خطبة الصلاة ولم يسب علياً وقرأ هذه الآية (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون)(٦) مكان السب واللعن لعليّ. ولما لم يسمع المصلون من الخليفة سبّ عليّ (عليه السلام) أرادوا أن يرموه بالحجارة، فلما أحس الخليفة بذلك خلع عمامته من رأسه، فالتحم غلمانه وسلوا سيوفهم على من كان داخل المسجد وخارجه وقتل في هذه الملحمة خلق كثير وامتلأ المسجد بدمائهم حتى انساب إلى الخارج يجري على الأرض وفي هذا المكان شيدت منارة، وأطلق عليها (منارة الدم) وبعدها كتب الخليفة إلى ولاته في الولايات بأن من يذكر علياً (عليه السلام) بسوء فدمه مباح يهدر، وفي هذا العهد منع من لعن علي (عليه السلام) على المنابر وتوقف لسان الناس من ذمه لكن الأمويون بعد عمر أشاعوا سبه (عليه السلام) مرة ثانية، وكان السب إلى انقراض ملك بني أمية.

أنا ربكم الأعلى!

حكي أن ملكاً شاباً قال لجلسائه: لا رغبة لي بالملك والسلطنة فهل هذا ما أفهمه أنا لوحدي أم أن الآخرين كذلك قالوا: هو ما تقوله أيها الملك.

وقال: فما العمل؟

قالوا: شيء واحد هو إطاعة الله تعالى والتزام أوامره وعدم معصيته. فطلب الملك المذكور من العلماء والصلحاء القاطنين في بلدته الحضور إلى مجلسه وإجباره على إطاعة الله. ونهيه عن المعاصي. وطبّق ذلك على نفسه وارتفع عن الرذائل واستمر حكمه أعواماً طويلة، ثم ألقى الشيطان في روعه يوسوسه قائلاً: لو كنت من أبناء آدم لما عمرت إلى الآن وكنت ميتاً كسابقيك ولكنك أنت الله نفسه فادع الناس أن يحضروا عندك ليشكروك ويعبدوك. فأخذت هذه الوسوسة أثرها من الملك وصعد المنبر والناس حضور وقال فيهم: أيها الناس! إني أخفيت عليكم أمراً حان إظهاره. وهذا الأمر هو: إن المدة الطويلة التي قضيتها ملكاً، لو كنت فعلاً من ولد آدم لكنت ميتاً ولم أعمر طويلاً. فاعلموا أني أنا الله ربكم وألزمكم بطاعتي... وهكذا ادعى الملك الألوهية وأخذ يقتل ويعذب من ينكر عليه ذلك، نعم (إن الإنسان ليطغى، إن رآه استغنى)(٧).

بلا ضوابط

جيء إلى معاوية بقوم قد ارتكبوا ما لا يرتضيه معاوية – فأمر بقتلهم لحظة ورودهم إليه، فضربت أعناقهم، ثم جاءوا بآخرين ليقتلوهم فقال أحدهم: يا أمير المؤمنين! أنا مقر بذنبي، ولك ما تريد، ولكن بالله عليك لو سمعت مني كلمتين وأجبتني عليها، فقال معاوية: سل حتى أجيب.

فقال: كل الناس يطرون حلمك وكرمك فإذا نحن أذنبنا عند ملك فما عساه يفعل بنا؟

قال معاوية: يفعل بكم كما فعلت.

قال الرجل: إذاً لا فائدة من حلمك وكرمك، إذا حذوت حذوه، ونزعت الرحمة منك.

فقال معاوية: لو قلت هذا الكلام قبل ذلك لعفوت عنكم جميعاً وما قتلت منكم أحداً. أما الآن فأنا أعفو عمن تبقى منكم.

ملاحظة المتهمين

عن جعفر بن محمد (المنجم المعروف) قال كان أحد كبار دولة السلطان مقصراً وأراد السلطان أن يعاقبه على ذلك التقصير فأخفى ذلك الشخص نفسه عن الأنظار.

وعلم أن السلطان إذا سأل من جعفر بن محمد المنجم عن مكان اختفائه دله عليه. ففكر في نفسه ودبر حيلة لعلها تخرج عن حدس جعفر بن محمد المنجم، فأتى بطشت وملأه دماً ووضع في الطشت هاوناً من الذهب وجلس فوق الهاون أياماً فأحضر السلطان جعفر بن محمد المنجم وطلب منه أن يدله على مكان اختفاء الرجل، وبينما جعفر مشغول بعمله بغية العثور على مكان اختفائه، تحير جداً فقال له السلطان: ما هو الذي يحيّرك؟

قال جعفر: رأيت شيئاً عجيباً، إن هذا الشخص جالس على جبل من الذهب وأطرافه بحر من الدماء وهذا لا يوجد في هذا العالم. فطلب منه السلطان أن يحاول الإستكشاف ثانية لعله يهتدي لذلك فكان جواب جعفر كالأول.

ولما يئس السلطان أمر منادياً ينادي بأن الشخص المقصر في أمان وعليه أن يظهر ويخرج من مكان اختفائه.

فاطمأن المقصر من وفاء السلطان وجاء إليه، فسأله السلطان: أين كنت؟ فأعلمه بمكانه، فتحيّر السلطان من حسن حيلته ومن استخراج جعفر بن محمد المنجم ذلك بصورة مختلفة عن واقعه.

دهاء ومراوغة

قال الأصمعي: كنت بمحضر أحد الخلفاء يوماً وكان الخليفة جالساً على كرسيه وبجنبه طفلة لها من العمر خمسة أعوام فسألني: هل تعرف هذه البنت؟

قلت: كلا، قال: إنها ابنة ابني. اذهب وقبلها من شعر رأسها، قال الأصمعي: فبقيت متحيراً في هذا الأمر لأني لو لم أتمثل لأمره فسيعاقبني وإذا أقدمت على ذلك فمن المحتمل أن تأخذه الغيرة والحمية ويسيء إلي.

فأقدمت على البنت ووضعت كمّي على رأسها ثم قبلت الكم، فتعجب الخليفة من ذلك وقال لي: لو عملت بخلاف ذلك لحرمتك من نعمة الحياة، أما والأمر كذلك، فإني أكرمك بألفي دينار.

١ . بحار الأنوار: ج٤٧ الباب ٢٧ ص٧٤.

٢ . سورة الشعراء: الآية ١٢٨-١٢٩.

٣ . سورة الشعراء: الآية ١٣٠.

٤ . سورة الفرقان: الآية ٤٣.

٥ . كنز العمال: ج١٦، رقم ٤٤٥٢٠.

٦ . سورة النحل: الآية ٩٠.

٧ . سورة العلق: الآية ٦-٧.

من ممارسات الطغاة

للمتملقين والمتزلفين

كان الحسن بن سهل من أمراء المأمون، فصادف أن جاءه محتاج إلى بيته ليأخذ عطاءه، فلم يستطع الوصول إليه فكتب حاجته على رقعة بالشعر وبعثها إليه، وكان من جملة أبياته:

الله يعلم ما للملك من رجل سواك يصلح للدنيا وللدين

فأعطاه الحسن عشرة آلاف درهم.

المناصب بالإكراه

في عهد بني أمية طلب واليهم على الكوفة من أبي حنيفة تولي منصب القضاء، فأبى أبو حنيفة ورفض ذلك فضربه يزيد بن عمر بن هبيرة عامل مروان مائة سوط يزيد عشرة، وفي عهد بني العباس حلفه المنصور بأن يتولى القضاء فأبى أبو حنيفة ذلك فأمر بسجنه على أن يضرب عشرة أسواط يومياً وفي اليوم العاشر من سجنه انتهت حياته، وهناك رواية تقول بأنه سم في السجن.

نصح المتملقين

كان خالد بن صفوان من فصحاء العرب فدخل يوماً على أول خلفاء بني العباس (السفاح) فلم ير أحداً عنده فقال: يا أمير المؤمنين من اليوم الذي وصلت إليك الخلافة كنت أتمنى أن أخلو معك فتلطّف إن أحببت بأن تمنع أحداً من الدخول عليك حتى أحدثك كلاماً. فطلب السفاح من الحاجب أن لا يأذن لأحد بالدخول عليه. قال خالد: يا أمير المؤمنين فكرت فيك ملياً فلم أر أحداً قادراً على الإستمتاع بالنساء مثلك، فلماذا اقتنعت بواحدة فقط؟

إذ قناعتك بواحدة يعني أنه إذا مرضت مرضت وإذا غابت كنت غائباً. أيها الخليفة فعليك ببنات المدينة والطائف واليمامة فالواحدة منهن غير الأخرى مثل الفواكه اللذيذة، لكل واحدة منها طعم خاص، وإلى آخر القصة..

فقد كان النصح بالنسبة إلى هؤلاء المستبدين ترغيبهم في الخمر والقمار والتمتع بالنساء والغناء وأمثال ذلك.

تحقير المواطنين

كان أحد القرويين ذا لحية كثيفة فدخل على الحاكم شاكياً عن جابي الضرائب ومدعياً أن قمحه لا يزيد عن العشرة أطنان في حين أن المأمور قد سجل عليه مائة طن. فأجابه الحاكم: اخجل أيها الرجل! ألم تستح مع هذه اللحية التي زنتها عشرة أمنان من الكذب؟

إن مأمورنا لم يسبق له أن تعدى وأجحف بحق أحد. فقال القروي: جعلت فداك إذا كانت الحكومة تزن اللحية (التي لا تتجاوز بعض المثاقيل) بعشرة أمنان فلا بد لمأمورها أن يقول: بأن العشرة أطنان مائة طن. لكن الحاكم جبره بدفع ضريبة مائة طن بدون التحقيق.

مجابهة الطغاة

عندما وصلت الخلافة إلى هارون العباسي تقاطر الجميع على تهنئته ونالوا من عطاياه إلاّ ما كان من أحد العلماء الذي كانت تربطه صداقة شخصية بهارون فلم يذهب إليه حتى كتب له هارون: بأنه مشتاق إليه وكتب في آخر رسالته العجل، العجل. فعندما قرأ ذلك العالم الرسالة كتب في جوابها: بأني قطعت رابطة الصداقة والمودة منك، لأنك حرمت من حلاوة الإيمان وقراءة القرآن وأتلفت أموال المسلمين في غير محلها.

أسئلة المتعنتين

كان أبو يونس من فقهاء مصر، حسن الطبع، والخلق، فقال له المأمون بتواضع: أريد أن أسألك عن مسألة؟ فقال يونس: أجيب بقدر ما أعرف. قال المأمون: لو اشترى شخص خروفاً من آخر فبعر الخروف رامياً ببعره عين رجل (عابر سبيل) ففقأ عينه. فعلى من تقع دية عين الرجل، أعلى البائع أم على المشتري؟

فقال يونس: على البائع. قال المأمون: من أين تقول هذا؟ قال يونس: عندما باع الخروف لم يخبر المشتري بوجود منجنيق في أسفل الخروف حتى يحذروه ويبتعدوا عنه.

السجين البريء

في أيام خلافة هارون العباسي كان هناك قطاع طرق قد طغوا، فأمر هارون بإلقاء القبض عليهم، فتم أسرهم جميعاً إلا واحداً قد هرب، فجيء بواحد بريء عوضاً عنه. فأمر هارون بحبسهم جميعاً. وقد تدخل ذوو المحبوسين لدى هارون وطلبوا منه الشفاعة فأمر بإطلاق سراحهم إلا ما كان من السجين البريء الذي لم يشفع له أحد فما كان من هذا السجين إلا أن كتب كتاباً إلى الله سبحانه وطلب من مسؤول السجن أن يضع كتابه على سطح السجن. فلبى طلبه فرأى هارون في منامه قائلاً يقول له: (في السجن رجل بريء فقم وأطلقه). نهض هارون من نومه وأمر بأن يحضروا هذا السجين وهيأ له عشر قطع من الملابس وعشرة من الخيل وعشرة آلاف درهم وأعطاها له وأمر مناديه بأن ينادي: هذا جزاء عبد أراد هارون إهانته فأعزه الله تعالى.

أشد الناس حمقاً

أوعز السلطان محمود الغزنوي إلى ملازمي قصره بأن يتتبعوا أحوال الناس ليعثروا على أكثر الناس حمقاً، فيأتوا به فتفرقوا في الناس لتنفيذ أمر السلطان، وفي يوم من الأيام شاهدوا شخصاً متسلقاً شجرة وبيده منشار ينشر به أعلى ذلك الغصن الذي تسلقه. ففكروا في أمره وقالوا: إن هذا ينشر أعلى الغصن الذي تسلقه وسوف يسقط على الأرض ويهلك. فهو أكثر الناس حمقاً، فجيء به إلى السلطان وشرحوا له قصته فقال له السلطان: أيها الأحمق ألم تعلم أنك إذا نشرت أعلى الغصن سقطت؟ فقال الرجل: إن السلطان هو أكثر حمقاً مني لأنه بتعديه وظلمه لرعيته يقطع شجرة الدولة بالإضافة إلى شجرة نفسه، بينما أنا كنت أقطع شجرة نفسي فانظر أينا أكثر حمقاً؟.

معاوية يندم لقتله حجراً

في أعيان الشيعة أن معاوية قال عند موته: أي يوم لي من حجر وأصحاب حجر يردد ذلك ثم يقول: يومي من حجر بن عدي يوم طويل وأنه قال ما قتلتُ أحداً إلا وأنا أعرف فيم قتلته ما خلا حجر، فإني لا أعرف بأي ذنب قتلته.

وكتب معاوية إلى زياد أنه قد تلجلج في صدري شيء من أمر حجر بن عدي فابعث إلى رجلاً من أهل المصر، له فضل ودين وعلم، فدعا عبد الرحمن بن أبي ليلى، فقال له: إن معاوية كتب إلي يأمرني أن أوجه إليه برجل من أهل المصر له دين وفضل وعلم ليسأله عن حجر بن عدي، فكنت عندي ذلك الرجل، فأياك أن تقبح له رأيه في حجر فأقتلك وأمر له بألفي درهم، وكساه حلتين وحمله على راحلتين.

قال عبد الرحمن فسرت وما في الأرض خطوة أشد عليّ من خطوة تدنيني إلى معاوية وقدمت بابه فاستأذنت فدخلت وسألني عن سفري وما خلفت من أهل المصر وعن خبر العامة والخاصة، ثم قال لي: انطلق فضع ثياب سفرك والبس الثياب التي لحضرك وعد، فانصرفت إلى منزل أنزلته ثم رجعت إليه فذكر حجراً.

فقال: أما والله لقد تلجلج في صدري منه شيء ووددت أن لم أكن قتلته.

قلت: أنا والله يا معاوية وددت أنك لم تقتله، ثم قلت: والله لوددت أنك حبسته، فقال لي: وددت ذلك أني كنت فرقتهم في كور الشام يكفينيهم الطواعين.

قلت: وددت فقال لي: كم أعطاك زياد؟ قلت: ألفين وكساني حلتين وحملني على راحلتين.

قال: فلك مثل ما أعطاك إخرج إلى بلدك، فخرجت وما في الأرض شيء أشد علي من أمر يدنيني من زياد، مخافة منه، فقلت آتي اليمن ثم فكرت فقلت لا أخفى بها فأجمعت على أن آتي بعض عجائز الحي فأتوارى عندها، إلى أن يأتي الله بالفرج.

قال: وقدمت الكوفة فمررت بجهيمة حين طلع الفجر ومؤذنهم يؤذن فقلت لو صلّيت فنزلت فصرت في المسجد، حتى أقام المؤذن ولما قضينا الصلاة إذا رجل في مؤخر الصف يقول: هل علمتم ما حدث البارحة؟ قالوا: وما حدث؟

قال: مات الأمير زياد وما سررت بشيء كسروري بذلك.

استبداد الولد كوالده

وولده ديكتاتور آخر منغمس في الكفر والشهوات والاستبداد مسرف في القتل وانتهاك الحرمات يحيط به فقهاء السلطة يكيلون له أفضل المدائح ويخاطبونه بأمير المؤمنين وخليفة رسول الله ذلك يزيد بن معاوية صاحب التاريخ الأسود الذي قال في شعر له ما يدل على استهتاره مع قطع النظر عن سائر ما هو معروف في تاريخه:

معشر النـدمان قـوموا واسمعوا صوت الأغانـي
واشربـوا كـأس مـدام واتـركوا ذكـر المعانـي
شغلتني نغمـة العيـدان عـن ذكـر الأذان
وتعمـدت عـن الحـور عجـوزاً فـي الدنـان

وكانت له مغنية تسمى بأم كلثوم، فكان يذهب بها إلى (دير مرّان) فيشتغلان بالخمر واللعب والغناء، وذات مرة أراد معاوية إرساله لقيادة الجيش إلى الروم، حيث أصاب الجند الحمى وكثر فيهم الموت حين كانوا في منطقة (فرقدونه) فأرسل يزيد إلى أبيه بهذين البيتين معتذراً:

ما أن أبالي بما لاقت جموعهم بالفرقدونة من حمّى ومن شوم

إن اتكأت على الإنماط مرتفعاً بدير مرّان عندي أم كلثوم

وقال في شعر آخر وهو يصف الخمر:

لئن حرمت يوماً على دين أحمد فخذها على دين المسيح ابن مريم

وفي شعر آخر يرغّب في الخمر ويستهزئ بالصلاة:

دع المساجد للعباد تعبدها وقف على دكة الخمار واسقينا

ما قال ربك ويل للذي شربوا بل قال ربك ويل للمصلينا

ولهذا يهمزه الشاعر المعروف بولس سلامة بقوله:

أيها الخير داعياً للفلاح أخفت الصوت في أذان الصباح

وترفق بصاحب العرش مشغولاً عن الله بالقيان الملاح

حكم واستئناف

أصدر (قا آن خان) حكماً بقتل ثلاثة أشخاص. ولدى خروجه من المحكمة شاهد امرأة تبكي وتحث التراب على رأسها فسألها: عن سبب ذلك؟

أجابت: كيف لا أكون كذلك، وقد حكمت بقتل ثلاثة من أهلي، أحدهم زوجي والثاني ابني والثالث أخي، فترحم (قان آن خان عليها) وقال لها: أريد أن أعفو عن أحد الثلاثة لأجلك فعن أيهم أعفو؟

فطلبت المرأة أن يعفو لها عن أخيها: وعندما سألها عن عدم التفاتها إلى زوجها وولدها؟

أجابت: أيها الملك! أستطيع أن أتزوج ومن الممكن أن يتفضل الله عز وجل عليّ بولد منه. أما الأخ فمن أين آتي به وقد مات والدي ووالدتي فتعجب (قا آن خان) من هذا الجواب. فأطلق سراح الثلاثة ووهب لكل واحد كمية ضخمة من الأموال!.

إذا حكم الطغاة

روى أبو العيناء أن رسولاً لملك الروم جاء إلى المتوكل، وقد جعل المتوكل للرسول مجلساً وأحضر له الشراب. فقال الرسول: يا معشر المسلمين! إن الله عز وجل قد حرم عليكم الخمر ولحم الخنزير وأنتم تعملون بواحدة دون الأخرى فما هي الحجة في ذلك؟

فقال أبو العيناء في جوابه: أنا لم أشرب الخمر، سل من يشرب ذلك.

فقال الرسول: لو تريدون جواباً لذلك فأنا أجيب.

قال أبو العيناء: قلت له: أجب.

قال الرسول: لما حرم عليكم لحم الخنزير وجدتم لحماً قد أحل لكم كلحم الدجاج والخروف فاستعضتم به عنه، وحيث لم تجدوا عوضاً عن الخمر من الشراب لم تتركوه.

يقول أبو العيناء: فخجلت من كلامه.

شيمة الدكتاتور

جيء بشخص إلى هارون العباسي لاتهامه بالزندقة والكفر. فاستفسر منه هارون عن ذلك وقال له: لماذا صرت كافراً.

فقال الرجل: يا أمير المؤمنين! أقسم بالله بأني مؤمن ولست كافراً أو زنديقاً.

فقال له هارون: سأضربك ضرباً حتى تقر بكفرك.

فقال الرجل: يا أمير المؤمنين! إن الله أمرك أن تضرب الكافر حتى يقر بإسلامه وأنت تضربني لأقر لك بالكفر.

فضحك هارون وعفا عنه.

الفشل في الامتحان

روى أحمد بن أبي داود: بأن سائلاً كان على باب الخليفة الواثق فطلب مني أن أكلم الخليفة ليعطيه مائة ألف درهم. فضحكت من طلبه هذا.

فقال لي السائل: لماذا تضحك؟

فقلت: لطلبك ورجائك هذا.

قال السائل: عليّ الطلب وعليك البلاغ وعلى أمير المؤمنين السماع وعلى الله التيسير.

يقول أحمد: نقلت هذا الكلام إلى الخليفة. ففكر الخليفة وقال: أعطه لأنه طلب وأنت أبلغت وأنا سمعت.

والتقصير على الله غير جائز.

وعندما جيء بالمال إلى السائل امتنع أن يقبله.

فقيل له: جئت لتطلبه والآن ترده فما هي حجتك في ذلك؟

قال السائل: كنت أناجي الله صباح أمس بأن يكون الحاكم على عباده لائقاً لتولي هذا المنصب وسؤالي هذا كان من قبيل الامتحان. وأنا لست بحاجة إلى عطايا الخليفة.

(وفي الحقيقة إن الخليفة قد فشل في الامتحان وأثبت عدم لياقته للخلافة لأن إعطاء مئة ألف لسائل اعتباطاً أمر لا يرتضيه الله ولا عباده المؤمنون)، ولما طرق سمع الخليفة كلام السائل قال: ضاعفوا ما أعطي له ليتصدق به. وأنا أشكر الله الذي لم يخجلني أمام هذا السائل!!.

سيرة الدكتاتور

كان (نصرة الدين) رجلاً معروفاً فأمر السلطان (تكش) بإلقاء القبض عليه وقتله وإحضار رأسه إليه. وعندما تم القبض عليه وأراد الشرطة تنفيذ أمر السلطان في حقه أعطاهم مالاً كثيراً حتى يحضروه إلى السلطان سالماً. فقبلوا ذلك واقتادوه أسيراً إلى قصر السلطان، فلما رآه السلطان حياً غضب على جلاوزته في عدم قتلهم له لكن نصرة

الدين تدارك الموقف قائلاً: أيها السلطان، أنك طلبت رأسي بيد أحد وأنا أتيتك به. فافعل فيه ما تشاء فعفا عنه.

تشجيع العصابات

نقل الفتح بن خاقان وزير المتوكل: أن المتوكل قصد دمشق وكنت في خدمته. فلما وصلنا (قنسرين) وصلت أخبار تفيد أن قبيلة بني سليم أغارت على قوافل التجار ونهبت أموالهم. فأمر المتوكل بمحاصرة قبيلة بني سليم فتم ذلك.

يقول الفتح: فلما قربنا من القبيلة شاهدنا امرأة ذات جمال أقبلت تستعطف المتوكل في كلام جميل ليعفو عن قبيلتها: فاستحسن المتوكل كلامها وعفا عنهم وعوض التجار ما ذهبت من أموالهم من بيت المال.

الجمل المعسولة تخدع المستبد

غضب الخليفة العباسي موسى الهادي على أحد كبار مملكته ولامه وذمه وقال له: اسمع عنك تحركات غير لائقة. فأي شيء يؤمنك من سخطي وغضبي؟

فقال في جوابه وبكل أدب: كل هذه الجرائم والذنوب التي تلصق بي إذا قلت: أنها كذب وافتراء كأني أكذب أوامرك وحاشاك حاشاك. وهذا لا يليق بي. وإذا اعترفت بأنها صحيحة وصادقة فكيف أقر بذنوب لم تصدر مني؟ فأقع بين المحذورين، فزال سخط موسى عنه لكلامه الذي اتسم بالأدب وقربه وأصبح مورد ثقته واطمئنانه.

تعطيل حدود الله

جيء برجلين إلى الوالي العثماني في إحدى الولايات وقيل في حق أحدهما: بأنه زنديق يتكلم بكلمات الكفر والزندقة. وقيل في حق الآخر: إنه يشرب الخمر علانية ويعربد.

فأمر الوالي بقتل الزنديق، وإقامة الحد على الشارب. فجاء الجلاد إلى الشارب أولاً ليقيم عليه الحد.

فقال الشارب: أيها الأمير! أقسم عليك إلا ما استبدلت لي هذا الجلاد بآخر. فأنا لا أرتضيه.

فتعجب الوالي! وقال: وأي فرق بين أن يحدك هذا أو غيره؟

قال: إن هذا الجلاد لا شعور ولا إحساس له. فعوضاً من أن يحدني يريد أن يقتلني. وبدلاً من أن يقتل الزنديق يريد أن يجلده. فضحك الوالي كثيراً وعفا عنهما.

موكب الأكاسرة

نقل بعض المؤرخين أنه كان في جيش برويز الملك الفارسي خمسون ألف فرس وكان يملك ألف فيل وكان له خمس عشرة جارية ومطربة وستة آلاف خادم وحارس. وعندما كان يمتطي فرسه يقف حوله مائتان من خدامه ويشعلون له البخور وكان له أيضاً ألف رجل يمتطون بغالهم ليرشوا الماء في طريقه حتى لا يهيج الغبار في طريقه كما كان له من المطربين الذين يجيدون الفن الموسيقي ثلاثمائة وستون نوعاً من الفن المذكور يلحنون وينشدونه كل يوم لحناً خاصاً.

اختلافات الحكام تشعل الحروب

في عهد خسرو برويز قتل ملك الروم وأصبح (موداس) خلفاً له وكان بين موداس وبرويز اختلافاً. فأمر خسرو (شهرياراً) بمحاربة الروم من حدود المغرب وجاء شهريار بعسكر كبير إلى أنطاكية، مما اضطر قيصر الروم أن يحمل خزينة الدولة في سفن خوفاً من استيلاء برويز عليها. وأمر بأن تنقل إلى جزائر البحر لتودع في القلاع المحصنة وكانت ألف سفينة. وصادف أن هبت رياح شديدة اتجهت بالسفن إلى ساحل أنطاكية حيث يقيم شهريار. فوقعت بيده وتم ضبطها وأرسلت إلى برويز.

الملك عقيم

ينقل أن رضا قلى ميرزا وهو ولي عهد إيران وابن نادر شاه أفشار، قد عميت عيناه بأمر من أبيه نادر شاه الذي كان يريد بهذا الأمر قطع الأمل الذي قد يخالج ابنه رضا قلى ميرزا من الثورة والانقلاب عليه وأخذ السلطة منه.

تعذيب وتنكيل

وكان نادر شاه يوقع أشنع التعذيب وأشد النكال بالخائنين في حكومته، بشكل يجعل أقوى الناس عزماً وأكثرهم جلداً يرتعش لهذه الأساليب القمعية، وكان يمارس ضد الأمراء الخائنين ثلاثة أنواع من التعذيب والانتقام والقتل:

١ – إحراق الأمير الخائن حياً حتى الموت والاستحالة إلى فحم أو رماد.

٢ – إيجاد ثقب في الأمير وجعل شموع مشتعلة في تلك الثقوب.

٣ – كان يضعه في قفص حديدي صغير لا يتمكن فيه من الحركة ويعلقه على شجرة ونحوها، وفي كل يوم يقدم له قطعة من الخبز ويسيراً من الماء وتستمر الحالة هكذا إلى أن يموت بسبب التعب المفرط من أثر البقاء على وضع واحد، ومن ألم التلوث.

تعذيب جاهلي

محمد خان قاجار في الوقت الذي كان تحت إمرة كريم خان زند في طهران كان يشتري ما يحتاجه من الدهن للطبخ من رجل بقال، وكان هذا البقال يبيعه دهناً رديئاً غير صالح للاستعمال، وفي مرة من المرات قال الخواجة محمد قاجار للبقال لماذا تعطيني دهناً رديئاً ولا تعطيني جيداً، فرد عليه البقال: لو لم يعجبك ذلك فامض إلى بقال آخر واشتر الدهن منه، فتأثر الخواجة من البقال وحقد عليه حقداً أخفاه لليوم الموعود بعد أن أخذ زمام الحكم وتربع على العرش أمر بإحضار البقال وذكّره بالجرم السابق ثم قال له: الآن حان لي أن أنتقم منك، فأمر بإحضار قدر كبير وملأه بدهن من البقال نفسه وأشعلت النار تحته حتى إذا غلى أمر بالرجل البقال فربطت يداه ورجلاه بالحبال وهو لا يفتأ يبكي ويسأل العفو والتوبة ويقسم على محمد خان قاجار بالمقدسين وأصحاب الكرامات أن ينصرف عن هذه العقوبة والانتقام، إلا أن الخواجة لم يترحم عليه ولم يحن له بل أمر فألقي في هذا القدر المغلي فصار الرجل من شدة حرارة الدهن المغلي يصيح بأعلى صوته ويستنجد ويتظلم بصوت يتقطع له القلب لكن بلا جدوى ثم أخذ صوته يضعف ويضعف حتى استحال إلى أنين ثم ضعف حتى ابتلعه أزيز الغليان، أما محمد خان قاجار فقد أشرف على هذا المنظر المؤلم من أوله إلى نهايته ولم يبد عليه أدنى تأثر أو ترحم.

الدكتاتور لا يرحم أحداً

أحد سلاطين إيران بسبب سوء ظنه بابنه، وبدون أن تصدر منه أية خيانة أو فعل يوهم خيانته، أمر بقطع رأس الابن ووضع في صحن كبير من الذهب، ثم وضع الصحن بين يديه بجانب مائدة طعامه، وأكب هو على تناول غذائه وكان هذا السلطان فضلاً عن قتل هذا الابن قد أعمى عيني اثنين آخرين من أولاده لمجرد سوء ظنه بهما.

ضرائب روحية ومالية

بعد وفاة (كريم خان زند)، قفز إلى كرسي السلطنة ابنه (أبو الفتح خان)، ولأن الابن كان رجلاً محباً للدنيا يقضي أكثر أوقاته بين القيان والندماء في لهو ورقص ولعب، آلت أمور الحكم إلى عمه (زكي خان زند) وكان من قصد هذا الأخير الاستيلاء على أصفهان وإخراجها من سيطرة (محمد خان قاجار) وضمها إلى حكومته، لذلك فقد شكل جيشاً وتوجه إلى أصفهان، وكان كلما صادف قرية دخلها وأخذ منها ما يحتاجه من المال والجنود عنوة وبلا رحمة، حتى إذا وصل إلى منطقة تسمى بـ (ايزد خواست) طلب من أهلها مالاً وما كان بإمكان أهلها الاستجابة لهذا الطلب ولا تهيئة الأموال التي يحتاجها العسكر لسد ما يلزمه، فمضى على تلك الحال يومان وما وجد أعيان هذه المنطقة سبيلاً لجمع الأموال لعدم توافره لديهم، فغضب لذلك (زكي خان) غضباً شديداً وانتفخت أوداجه، فأمر بأن يأتوا بثمانية عشر رجلاً من أعيان (ايزد خواست) فيقتلوهم ويجعلوهم عبرة للآخرين. ولما أحضروهم قام اثنان من الجلادين فقطعا رؤوسهم ورميا أجسادهم في الصحراء لتكون لقمة سائغة للحيوانات المفترسة.

ثم أمر (زكي خان) بإحضار عالمهم الديني وكان شيخاً مسناً فألقى اللوم عليه وجعله مسؤولاً عن عدم إعطاء أهل بلده المال الذي طلبه منهم.

وقال: إنني أحضرتك من أجل أن أعاقبك على تقصيرك هذا، وما مجازاتك وعقوبتك إلا أن آمر بشق بطنك وإخراج أحشائك أمام عينيك، ثم صاح في جلاديه فتناوشه أحدهم وطعنه بسكين في بطنه وشقها وأخرج أمعاءه وأحشاءه ورفعها أمام عيني العالم وكانت تستولي عليه آلام لا تحتمل بسبب هذا التعذيب ثم فاضت روحه وفارق الدنيا، وكانت هذه الواقعة بين يدي (زكي خان) وبمرأى من بعض الجنود الذين تأثروا من هذا المنظر، واغرورقت عيون بعضهم بالدموع.

الشعب ضحية الحكام

إن موقف (تيمورلنك) وأسلوبه قبال أهل البلاد التي تقاومه وتحاربه هو عدم الرحمة وعدم الشفقة، وكان إذا حاصر مدينة يستحيل أن يتركهم لحالهم من دون أن يذيقهم أصناف العذاب بل كان لا يتركهم إلا بعد أن يقوم بتهديم بيوتهم بأيديهم ومعاولهم.

وهذا الموقف والأسلوب قد جرى على أهل شيراز في زمن حكومة (آل مظفر) على شيراز وكان العامل الذي دعا تيمور لنك لأن يتخذ هذا الموقف بحق أهل شيراز.

هو: أنه عندما توقف تيمورلنك في خراسان مرض مرضاً ما، فأشار عليه الأطباء باستعمال عصير الليمون الحامض الذي ينتج في فارس وعللوا ذلك بوجود خاصية في الليمون المزروع في فارس لا يحتويها ليمون مازندران.

ولعدم توفر عصير ليمون فارس في خراسان عمد تيمورلنك على إرسال رسالة شخصية إلى الحاكم (منصور المظفري) وطلب منه أن يرسل إليه مقداراً من عصير ليمون فارس بأسرع ما يمكن، وذلك لأجل أن يعالج مرضه به.

فكتب (منصور المظفري) في جوابه كلمات وعبارات غير جميلة.

وقال فيها: هلا خجلت من رسالتك؟ وهل حسبتني بقالاً حتى تطلب مني ماء الليمون؟

كان لهذه الرسالة من (منصور المظفري) لما فيها من عبارات لاذعة، وقع سيّئ في نفس تيمورلنك ولدت عنده حقداً وحب انتقام من (منصور المظفري) وبعد عدة سنوات شن تيمورلنك حرباً على فارس (شيراز) وفتحها عنوة وقتل (منصور المظفري) وجميع أفراد عائلته شر قتلة، ثم أمر بقتل عام لجميع أهل شيراز.

من أنواع التعذيب

كان القتل بتنصيف الإنسان طويلاً من أفظع أنواع التعذيب الجسدي الذي كان متداولاً في تلك الأيام، وهي طريقة متفننة بالتعذيب.

وكانت تجري بهذا الشكل: يؤخذ المحكوم عليه بالإعدام ويعلق منكوساً، رأسه إلى أسفل ورجلاه إلى أعلى، بين شجرتين أو عمودين متجاورين، ويفرج بين ساقيه مهما أمكن، ثم يأتي الجلاد حاملاً ساطوراً حاداً فينهال ضرباً بساطورة بين فخذي الإنسان المعلق بكل قوة حتى يجعله شقين طوليين متطابقين في الشكل ينفر كل منهما إلى طرف العمود المشدود به، وهذا النوع من القتل كان من أشد أنواع التعذيب المعروف آنذاك وكان يجري بشكل يوقع الخوف والرعب في نفوس المشاهدين ويجعلهم يرتجفون لهذا المنظر القاسي.

ضحايا القدرة والاستبداد

(لطف علي خان زند) أحد أبناء سلاطين آل زند قام بثورة ضد (محمد خان قاجار) وحاربه في أماكن متعددة إلا أن الفشل كان حليفه في كل مرة ومن جملة مواجهاته الفاشلة مع عساكر (محمد خان قاجار) مواجهته في (كرمان) حيث ولى على أثرها هارباً وعندما استولى (محمد خان) على مدينة كرمان ودخلها أمر بإعماء عيون جميع رجال المدينة وإباحة جميع النساء من قبل الجيش، وكان المعروف قبل ذلك أنه إذا حكم على أحد بالعمى، نفذ بهذه الطريقة: يؤخذ قضيب حديدي خفيف ويضعونه في النار حتى يلتهب ويصير ناراً فيرفعه الجلادون ويضعونه على حدقة عين المحكوم عليه للحظات، فيصيبها من أثر ذلك جرح صغير من توالي الأيام يلتئم الجرح حتى يزول أثره فتصبح عين المحكوم طبيعية في الشكل كأعين الآخرين الصحيحة إلا أنه لا يرى بها شيئاً.

أما الطريقة التي أمر بها محمد خان قاجار أن تجري على رجال كرمان فهي أن تقلع العين من حدقتها فيحدث في وجه المحكوم عليه حفرتان تحت الحاجبين، ولم يستعمل الجلادون لإخراج العين لا سيفاً ولا خنجراً ولا حتى سكيناً بل يعمدون في ذلك إلى أصابعهم حيث التعذيب أقوى وأشد بهذه الطريقة، ففي البداية يشلون حركة المحكوم عليه بربط يديه ورجليه ويلقى على ظهره في الأرض ثم يضع الجلاد أصابعه تحت العين على الأجفان السفلى ويضغط تحتها بقساوة حتى تقفز العين إلى خارج تجويفها وفي هذه اللحظة كانوا يستفيدون من السكين أو الخنجر

وذلك لأن العين مربوطة بتجويفها بواسطة ألياف عضلية وعصبية فيقطعونها بالسكين أو الخنجر، وما كان للجلادين وقت فائض لرفع الحبال من أيدي وأرجل الرجال لأنه كان عليهم أن يقلعوا عيوناً كثيرة في وقت ضيق فلذا كانوا يتركون المعمى يتلوى ألماً في قيده، ويصرخ صراخاً يفتّ القلب، وإذا ما استطاع أن يتدحرج من شدة الألم تراه يصطدم بزملائه الذين يشاركونه ويتقاسمونه الألم، ومن تمكن من فرط الألم أن يفلت يديه من القيد يقوم فيتعثر بأقرانه ويتذمروا من تساقط بعضهم عليهم، وهذا العمل كان يقوم به الجلادون بمرآى ومسمع من نسائهم وأطفالهم، وبعد أن ينتهوا من ذلك في محلة ما يجمعون العيون المقلوعة ويحسبونها ويعدونها لأن عليهم أن يسلموها إلى (محمد خان قاجار) عن كل كرماني اثنين، ولم يكن يسمح الجلادون للنساء والأطفال أن يأخذوا هؤلاء المساكين (أزواجهم وأبنائهم) أو يرفعونهم عن الأرض ويقودونهم إلى بيوتهم، بل كانوا يأمرونهم بالصبر حتى ينتهوا من جميع أهل المحلة، وقبل أن ينصرفوا إلى محلة أخرى يعمدون إلى فك الحبال والقيود بقسوة وضراوة، ولم يكن الفك من باب الترحم عليهم والشفقة بهم بل لأنهم يحتاجونها في المحلات الأخرى لنفس الغرض.

قبور فوق الأرض

ومن تعذيب (محمد خان قاجار) القاسي أنه كان يدفن الناس أحياء فقد ألقى القبض على مائة واثنين وستين تركمانياً في حادثة ترتبط بقطاع الطرق فأخذهم ودفنهم في قبور فوق الأرض بواسطة الجص على جانب من طريق خراسان العام ومن كان يسير في ذلك الطريق العام يرى على جانبه أبراجاً بيضاء عددها مائة واثنين وستين برجاً ذات الارتفاع القليل لا يتجاوز طول الإنسان إلا قليلاً.

من أساليب التعذيب

ومن أساليبه أيضاً أنه كان يأمر بتعذيب المحكومين بواسطة الرصاص المذاب وتتم طريقة التعذيب على نحوين:

النحو الأول: أنه كان يصب على موضع مخصوص من بدن المحكوم عليه على شكل تدريجي حيث أن الألم في الدفعات التالية تكون أشد وأقسى.

النحو الثاني: وهو أكثر إيلاماً أنه كان يأمر بأن يجعل رأس المحكوم مغطى بالرصاص بأن يراق على رأسه حتى يغطيه ويصير قالباً لرأسه، حيث يؤتى بإناء ليس له قعر ويجعل على رأس المحكوم حتى يصير الرأس قاعدة له وحافة الإناء إلى أعلى ثم يدعى بالرصاص المذاب ويصب في هذا الإناء حتى يغطى الرأس ويتقولب عليه.

ولقد طبق (محمد خان قاجار) هذين النحوين الشنيعين من التعذيب على (شاه رخ ميرزا) حفيد (نادر شاه أفشار) وبواستطهما تمكن من الاستيلاء على كنز جده بأخذه منه عنوة.

ممارسات قمعية

وبعض الملوك الذين كان بحوزتهم الفيلة كانوا يأمرون بأن تغلّ يدا ورجلا المحكوم عليه ويلقى بين أقدام الفيلة حتى تتحطم جمجمته وعظامه ويهلك.

ومن أنواع التعذيب الذي كانوا يمارسونه ضد النساء هو أنهم كانوا يأخذون النساء ويقطعون أثداءهن.

تغيير خلق الله

ومن أنواع التعذيب أنهم كانوا يأخذون الرجل ويسلون خصيتيه فيرق صوته ويتساقط شعر لحيته وشاربه ويصير أقرب إلى النساء منه إلى الرجال في طباعه وسلوكه ومظهره الخارجي. ومحمد خان قاجار نفسه كان مسلول الخصيتين ولذلك كان رقيق الصوت ناعمه، وليس له شعر في وجهه.

الفصل السابع: بين نموذجين

مقارنة موضوعية بين اسرتين

مقارنة موضوعية بين أسرتين

قصيدة أبي فراس الحمداني من الروائع الخالدة التي ألقت أضواءً متعددة على أسطر مظلمة من التاريخ الأسود لديكتاتورية بني العباس.. وفي مقابلها رائعة الفرزدق التي كشفت جوانب من سمو مكارم آل البيت (عليه السلام) ننقلهما هنا للمقارنة بين الأسرتين وليعلم كيف يتصرف الديكتاتوريون بالدماء والأعراض والأموال، وليعرف كيف يكون الأئمة المعصومون (عليه السلام) منهاج الاستشارية الإسلامية والحكم الذي أنزله الله سبحانه لضمان سعادة الناس وكرامتهم في الدنيا والآخرة.

قال أبو فراس:

الدين مختـرم والحـق مهتـضـم وفـيء آل رسول الله مقتســم

والناس عـندك لا ناس فيحفظهـم سوء الـرعاء ولا شـاء ولا نعـم

إني أبيت قليل النوم أطرقـني قلب تصـارع فـيها الهم والهمــم

يا للـرجال أمـا لله منتصــر مــن الطغــاة ولا لله منتقــم

بنوا على رعايا فـي ديـارهـم والأمـر تملكـه النسوان والخـدم

محلئون فاصفى وردهـم وشــل عند الـورود وأوفـي وردهـم لـمم

والأرض إلا على ملاّكها سعـة والمـال إلاّ علـى أربـابـه ديــم

ومـا السعيد بها إلا الـذي ظلمـوا ومـا الغني بها إلا الذي حـرمـوا

للمتقين مـن الدنيــا عواقبهــا وأن تعجـل منها الظالـم الإثــم

لا يطغيـن بني العبـاس ملكهـم بنوا على مـواليهم وأن رغمــوا

أتفخـرون عليهــم لا أباً لكــم حتـى كـأن رسـول الله جدكـم

وما توازن يوماً بينـكم شـرف ولا تساوت بكـم في موطن قــدم

ولا لجدكـم مسعـات جــدهم ولا نثياتكــم مــن أمهــم أمــم

ليس الرشيد كموسى في القياس ولا مأمونكم كالـرضا أن أنصف الحكـم

قـام النبي بها يـوم الغديـر لهـم والله يشهـد والأمــلاك والأمــم

حتـى إذا أصبحت في غير صاحبهـا باتـت تنازعـها الذؤبان والـرخـم

ثـم ادعاها بنـو العبـاس ملكهـم ومـا لهـم قَـدمٌ فيهـا ولا قِـدمُ

لا يذكـرون إذا ما معشر ذكـروا ولا يحكّـم فـي أمـر لهـم حكـم

ولا رعاها أبو بكر وصاحبه أهلاً لما طلبوا منها وما زعموا
أما علي فقد أدنى قرابتكم عند الولاية إن لم تكفر النعم
أينكر الحبر عبد الله نعمته أبوكم أم عبيد الله أم قثم
بئس الجزاء جزيتم في بني حسن أباهم العلم الهادي وأمهم
لا بيعة ردعتكم عن دمائهم ولا يمين ولا قربى ولا ذمم
ألا صفحتم عن الأسرى بلا سبب للصافحين ببدر عن أسيركم
ألا كففتم عن الدياج ألسنكم وعن بنات رسول الله شتمكم
ما نزهت لرسول الله مهجته عن السياط فإلا نزّه الحرم
ما نال منهم بنو حرب وإن عظمت تلك الجرائم إلا دون نيلكم
كم غدرةٍ لكم في الدين واضحة وكم دم لرسول الله عندكم
أأنتم آله فيما ترون وفي أظفاركم من بنيه الطاهرين دم
هيهات لا قربت قربى ولا رحم يوماً إذا أقصت الأخلاق والشيم
كانت مودة سلمان لهم رحماً ولم يكن بين نوح وابنه رحم
يا جاهداً في مساويهم يكتمها غدر الرشيد بيحيى كيف ينكتم
ذاق الزبيري غب الحنث وانكشفت عن ابن فاطمة الأقوال والتهم
باءوا بقتل الرضا من بعد بيعته وأبصروا بعض يوم رشدهم فعموا
يا عصبة شقيت من بعد ما سعدت ومعشراً هلكوا من بعد ما سلموا
لبئس ما لقيت منهم وإن بليت بجانب ألطف تلك الأعظم الرمم
لا عن أبي مسلم في نصحه صفحوا ولا الهبيريُّ نجيُّ الحلف والقسم
ولا الأمان لأهل الموصل اعتمدوا فيه الوفاء ولا عن عمهم حلموا
أبلغ لديك بني العباس مالكة لا يدّعوا ملكها، ملاّكها العجم
خلوا الفخار لعلاّمين إن سئلوا يوم السؤال وعماليين إذ عملوا
لا يغضبون لغير الله إن غضبوا ولا يبيعون حكم الله إن حكموا
تبدو التلاوة من أبياتهم أبدا ومن بيوتكم الأوتار والنغم
يا باعة الخمر خلوا عن مفاخرة لمعشر بيعهم يوم الفخار دم
منهم عُليّة أم منكم وكان لكم شيخ المغنين إبراهيم أم لهم
أم من تشاد له الألحان سائرة عليّهم ذو المعالي أم عليّكم
إذا تلوا سورة عنى خطيبكم قف بالديار التي لم يعفها القدم
ما في منازلهم للخمر معتصر ولا بيوتهم للشر معتصم

ولا تبيت لهم خنثى تنادمهم ولا يرى لهم قرد له حشم
الركن والبيت والأستار منزلهم وزمزم والصفا والحجر والحرم
صلى الإله عليهم كلما سجعت وَرْقٌ فهم للورى ذخر ومعتصم

وقد ألحقه بعضهم بأبيات أخر في ذمهم وذم الأمويين، حيث أنهما كانا على طريقة واحدة من الإستبداد والفسق والظلم والإستهتار، قال:

أمية ثم أنتم في قبائحكم ملأتم الأرض ما لم يأتها أثم
فهل مخنثكم عبادة لهم أم للعقارب والحيات نثرهم
وهل صنعتم غلاميات أم صنعوا أم إليهودي سندي الشقا لهم
والسحر في مجلس الكوفان كان لهم والقيء للخمر في المحراب أم لكم
هل عمموا أمة سكرى تؤم وقد صلوا وراها وبالإسلام تهتكم
تشبيبكم إذ طمعتم في أرينبة مستهترين بها في خزيكم علم
خليفة تلعب الحيتان في سفه والأمر يتركه ينتابه الخدم
إحراقكم خيم الأطهار عادتكم ودار جعفر وهو الصادق الشمم
حتى خنى البنت يأتيه خليفتكم عن سطر مخزاته يستنزه القلم
إن الجرائم فيكم لا عداد لها والموبقات التي قد عافها الأمم

وننقل هنا شرح بعض أبيات القصيدة فمراده من قوله (في البيت ٢):

(لا شاء ولا نعم) أي ليسوا بناس كاملين.

(فيحفظهم) أي يغضبهم ويثير حفيظتهم وحميتهم سوء الرعاء لهم من الحكام والأمراء ولا هم شاء ولا نعم لأنهم من بني آدم والغرض ذم الحكام الرعاة وتحريك حمية الرعية.

الأمر تملكه النسوان والخدم!!

ومراده بقوله (في البيت ٥) (والأمر تملكه النسوان والخدم) أم المقتدر فقد كان لها كاتب وقهرمانة بمنزلة الوزير.

وقد قلد المقتدر أحمد بن العباس كتابة أمه ثم قال: لولا التحكم عليه لكان الناس معه في عيش رغد، لكن أمه وغيرها من حاشيته كانوا يفسدون كثيراً من أمره.

وفي سنة ثلاثمائة وستة أمرت أم المقتدر قهرمانة لها تعرف (بمثل) أن تجلس بالرصافة للمظالم يوماً في كل جمعة.

وغير أم المقتدر كان لها شبه ذلك كما هو مذكور في التواريخ.

نسب وحسب

ومراده بقوله (ولا نثيلتكم من أمهم أمم) أمم أي قريبة، ونثيلتهم أمّ العباس وضرار، ابني عبد المطلب بن هاشم وهي (نثيلة) ابنة كليب بن مالك بن خباب. وأم عبد الله أبي النبي (صلى الله عليه وآله) فاطمة بنت عمرو بن عائذ كانت شريفة في قومها.

وقوله (في البيت ٢١): (أبوكم أم عبيد الله أم قثم)، فإنه لما ولي الإمام أمير المؤمنين (عليه الصلاة والسلام) الخلافة، ولّى عبد الله بن العباس البصرة، وأخاه عبيد الله اليمن، وأخاهما قثماً المدينة أو مكة أو هما على الاختلاف في التواريخ.

نكث وخيانة

أما قوله (في البيت ٢٣): (ولا يمين ولا قربى ولا ذمم) فقد ذكر المؤرخون أنه كان المنصور وجماعة من بني هاشم قد بايعوا محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليهم السلام) في آخر دولة بني أمية، فلما أفضى الأمر إلى المنصور طلب محمداً فاختفى فحبس أباه عبد الله بالمدينة وأهل بيته ثم حملهم إلى العراق فحبسهم بالهاشمية، ولما خرج عليه محمد وإبراهيم ابنا عبد الله بن الحسن هدم عليهم الحبس فماتوا جميعاً.

إذلال الأسير

وأما قوله (في البيت ٢٤): (للصافحين ببدر عن أسيركم) فالمراد بالأسرى بلا سبب أي بلا ذنب عبد الله بن الحسن وأهل بيته وبأسيرهم ببدر العباس بن عبد المطلب، ولما جيء بعبد الله وأهل بيته إلى الربذة مغلولين مكبلين عليهم المسوح، وخرج المنصور ناداه عبد الله: يا أبا جعفر ما هكذا فعلنا بأسراكم يوم بدر فأخساه المنصور.

التنكيل بالأحرار

ومراده (في البيت ٢٥) (عن بنات رسول الله شتمكم) و (بالديباج) محمد بن عبد الله بن عمر بن عثمان بن عفان وهو أخو بني حسن لأمهم فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) فإنه كان يلقب بالديباج لحسنه، أخذه المنصور مع بني حسن وكانت ابنته رقية تحت إبراهيم بن عبد الله بن حسن، فلما أدخل على المنصور قال: أيهاً يا ديوث مم حملت ابنتك وقد أعطيتني الإيمان أن لا تغشني فأنت بين أن تكون خائناً أو ديوثاً وأيم الله إني لأهم برجمها.

فقال له محمد: أما ما رميت به الجارية فإن الله قد أكرمها وطهرها بولادة رسول الله (صلى الله عليه وآله) ولكنني ظننت حين ظهر حملها أن زوجها ألمّ بها على حين غفلة فأغضبه كلامه فأمر بشق ثيابه، فشق قميصه عن أزاره فكشف عن عورته، ثم أمر به فضرب ما ئتين وخمسين سوطاً، والمنصور يفتري عليه ويسبه ولا يكنّى فأصاب سوط منها وجهه فقال: ويحك أكفف عن وجهي فإن له حرمة برسول الله.

فقال للجلاد: الرأس الرأس فضرب على رأسه نحواً من ثلاثين سوطاً وأصاب سوط منها إحدى عينيه فسالت كما قال بعض المؤرخين.

افتراء وتنكيل

وعن ابن الأثير قال: وأحضر المنصور محمد بن إبراهيم بن الحسن وكان أحسن الناس صورة فقال له: أنت الديباج الأصفر. قال: نعم.

قال: لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً، ثم أمر فبنى عليه أسطوانة وهو حي فمات فيها، وقد اختلفوا في أن المراد بالديباجي أيهما، ولم يستبعد أن يكون المراد الثاني لا الأول الذي تقدم الكلام حوله وإن كان كلاهما ينسبان إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أحدهما بالأب والآخر بالأم.

قوله (في البيت ٢٦): (فإلا نزّه الحرم) يشير بذلك إلى ضرب محمد بن عبد الله بالسياط مع اتصال نسبه برسول الله (صلى الله عليه وآله) من قبل أمه فاطمة بنت الحسين (عليه السلام) مع الإفتراء على ابنته رقية زوجة إبراهيم. وإلى الإفتراء عليه من المنصور ولا يكنّى وقول المنصور له: يا بن اللخناء. فقال له محمد: بأي أمهاتي تعيرني أبفاطمة بنت الحسين أم بفاطمة الزهراء أم برقية؟.

الغدر بالنبلاء

قوله (في البيت ٣٢) (غدر الرشيد بيحيى كيف ينكتم) هو يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن خرج ببلاد الديلم سنة مائة وست وسبعين فأمنه الرشيد ثم غدر به حيث أحضر نسخة الأمان، وقال لمحمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة: ما تقول فيه؟

قال: صحيح. فحاجه فيه الرشيد فقال له محمد: ما تصنع بالأمان، لو كان محارباً ثم أعطيته الأمان هل كان آمناً؟ ثم سأل أبا البختري فقال: هذا منتقض.

قال الرشيد: فمزقه. فمزقه أبو البختري. وحبس الرشيد يحيى فبقي محبوساً شهراً ومات. ولم يستبعد أن يكون قد سمه الرشيد أو قتله تحت التعذيب.

تظلم وابتهال

قوله (في البيت ٣٣): (عن ابن فاطمة الأقوال والتهم) الزبيري هو عبد الله بن مصعب بن عبد الله بن الزبير ادعى عند الرشيد أن يحيى بن عبد الله بن الحسن دعاه إلى بيعته فباهله يحيى بعد ما صلى كل منهما ركعتين وشبك يحيى يمينه في يمين الزبيري وقال: اللهم إن كنت تعلم أني دعوت عبد الله بن مصعب إلى الخلاف على هذا، فاسحتني بعذاب من عندك وكلني إلى حولي وقوتي وإلا فكله إلى حوله وقوته واسحته بعذاب من عندك وتفرقا، فما وصل الزبيري إلى داره حتى جعل يصيح: بطني، بطني، ومات.

غدر ومكر

قوله (في البيت ٣٤): (فعموا) يشير إلى بيعة المأمون للرضا (عليه الصلاة والسلام) بولاية العهد ثم ندم فسمه في عنب فتوفى بخراسان، لكن الظاهر أن المأمون كان قد مكر بالإمام الرضا حين طلبه من المدينة لا أنه أبصر بعض يوم، كما قاله الشاعر. والقصة طويلة مذكورة في المفصلات.

هدم قبر الإمام الحسين (ع)

قوله (في البيت ٣٦): (تلك الأعظم الرمم) يشير إلى ما فعله جعفر المتوكل بقبر الحسين (عليه السلام) فإنه أمر مناديه فنادى عند قبره من وجد به بعد ثلاث برأت منه الذمة، وأمر بهدم قبته وخراب الدور التي حوله وحرث الأرض وأجرى فيها الماء في سنة مائتين وست وثلاثين.

قتل أبو مسلم

قوله (في البيت ٣٧): (الحلف والقسم) المراد بأبي مسلم هو أبو مسلم الخراساني مؤسس دولة بني العباس، قتله المنصور بعد مسيره إلى لقاء عمه عبد الله بن علي بن عبد الله بن عباس، لما دعا إلى نفسه بعد موت السفاح وبايعه أهل الشام، فندب إليه المنصور أبا مسلم فخذله الجند لما رأوا أبا مسلم، وفرّ عبد الله، واحتوى أبو مسلم على ما في عسكره، فأرسل المنصور من يحصى ذلك، فقال أبو مسلم: أمين على الدماء خائن في الأموال، وسار قاصداً خراسان، فاحتال عليه المنصور حتى رده وقتله.

الغدر والقتل

والهبيري هو يزيد بن عمرو بن هبيرة كان الوالي على العراقَين وخراسان وغيرها من قبل بني أمية، حاربه بنو العباس في خلافة السفاح ثم أمّنوه، فخرج إلى المنصور بعد استيثاقه بالإيمان وشروط الصلح ومشاورة العلماء والفقهاء فيها أربعين يوماً، وأجازها السفاح وأمضاها ثم غدروا به وقتلوه، وقتلوا قواده والأكابر من أولاده وعشائره.

المجزرة الرهيبة!!

قوله (في البيت ٣٨): (ولا عن عمهم حلموا) حكي عن ابن الأثير أنه قال: استعمل السفاح أخاه يحيى بن محمد على الموصل بدل محمد بن صول، لأن أهل الموصل امتنعوا عن طاعته وأخرجوه، فسار يحيى إليها في إثني عشر ألفاً، فقتل منهم إثني عشر رجلاً فنفروا منه وحملوا السلاح فأمّنهم ونادى: من دخل الجامع فهو آمن وأقام الرجال على أبواب الجامع فقتل الناس قتلاً ذريعاً قيل أنه قتل فيه أحد عشر ألفاً ممن له خاتم وممن ليس له خاتم فسمع في الليل صراخ النساء اللاتي قتل رجالهن، فأمر بقتل النساء والصبيان ثلاثة أيام، وكان معه قائد معه أربعة آلاف زنجي، فغصبوا النساء الباقيات قهراً.

عبد الله بن علي

والمراد بعمهم عبد الله بن علي فإنه لما فر من أبي مسلم قدم على أخوته بالبصرة واختفى عند سليمان بن علي فكتب المنصور إلى سليمان بإحضاره، فحضر مع أخوته وكان وعدهم بالصفح عنه فخادعهم وحبسه في بيت وأقفله عليه مدة، ثم قتله بهدم البيت عليه.

شتان بينهما

ومراده بقوله (في البيت ٣٩): (ملاكها العجم) أراد بهم ملوك آل بويه في العراق وفارس والسامانية بخراسان وما وراء النهر، والرشيدية بمصر والشام.

وعُليّة وإبراهيم كانا مغنيين وفاسدين، والمراد بإبراهيم، إبراهيم بن المهدي بن المنصور فقد كان مغنياً فاسداً (وعُليّة) أخته وكانت عوّادة تضرب بالعود ويدخل عليها الرجال.

والمراد بقوله: (في البيت ٤٥): (أم عليّهم) علي بن أبي طالب (عليه الصلاة والسلام) أمير المؤمنين، وعليّ بني العباس هو المكتفي بالله وكان رجلاً فاسقاً ماجناً يشرب الخمور ويركب الفجور كسائر بني العباس.

قوله (في البيت ٤٦): (قف بالديار التي لم يعفها القدم) هو شطر بيت لزهير بن أبي سلمى من قصيدة أولها:
(قف بالديار التي لم يعفها القدم) (بلى وغيّرها الأرواح والديم).
يشير بذلك أن أهل البيت يتلون سور القرآن، أما أنتم فتعشقون الأغاني وتشببون بالنساء إلى غير ذلك.

إكرام القردة

قوله (في البيت ٤٨): (ولا تبيت لهم) وقوله: (قرد له حشم) قال عبادة الوليد بن عبيد البحري كنا بليلة في مجلس المتوكل وهو يشرب وقد دخلت سندانة الضراطة وقد لبست لحيتها التي كانت تلبسها وتعممت عليها، فقال المتوكل للفتح: من هذا؟

قال: يا سيدي هذه سندانة.

قال: من تشبه؟

قال: لا أدري.

قال: تشبه ابن أبي حفصة أحمل إليها عشرة آلاف دينار الساعة. وأما القرد الذي له حشم فقد كان لزبيدة قرد تُلبسه الديباج وتجلس في بعض أبهاء البيت وتطالب الناس إذا دخلوا بالسلام عليه وتقبيل يده، حتى قتل هذا القرد يزيد بن مزيد الشيباني.

دمية المتوكل

قوله (في البيت ٥٤): (مخنثكم عبادة لهم) كان للمتوكل عبادة المخنث فيشد على بطنه مخدة، ويشبّهه بالإمام أمير المؤمنين استهزاءاً بالإمام (عليه الصلاة والسلام) فكان يمشي في مجلس المتوكل ويقول: (أنا أمير المؤمنين أنا الأنزع البطين) ولما عارضه ابنه المستنصر في هذا العمل استهزأ المتوكل بابنه وأنشد:

غـار الفتـى لابـن عمـه رأس الفتـى فـي حـرامـه

فغضب المستنصر ودخل عليه وعنده فتح ابن خاقان وكانا قد شربا الخمر كثيراً، فقطعهما ومن كان معهما بالسيف قطعة قطعة.

نثر الحيات والعقارب

قوله: (أم للعقارب والحيات نثرهم) فقد رووا أن المتوكل كان يملأ الأكياس من العقارب والحيات، ويجعل تلك الأكياس إلى جنبه فإذا دخل عليه الوزراء والقواد والضباط وسائر الناس، نثر تلك الأكياس فجأة في المجلس مما يسبب فرار الحاضرين وأحياناً تلدغهم العقارب والحيات ويتقهقه المتوكل ويستغرق في الضحك.

تشبيه الرجال بالنساء

قوله (في البيت ٥٣): (هل صنعتم غلاميات) كان من عادتهم تشبيه النساء في الملابس والأزياء بالرجال، والرجال بالنساء فيرقصون ويعزفون في مجالس الخلفاء والأمراء.

جلواز هارون

قوله: (أم اليهودي سندي الشقا لهم) فقد كان السندي جلواز هارون يهودياً يؤذي المسلمين وهو الذي قتل الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) بأمر هارون.

مجالس السحر

قوله (في البيت ٥٤): (والسحر في مجلس الكوفان) إشارة إلى بعض ولاتهم في الكوفة في أيام الخليفة الثالث حيث كان يأتي بالسحرة في مجلسه فيسحرون بتسخير الألباب، وقد قتل أحد المسلمين الساحر في مجلس الوالي في قصة طويلة.

خمور وفجور

(والقيء للخمر في المحراب) يراد به ما كان يتقيأه بعض الولاة في محراب مسجد الكوفة، فإنه كان يشرب في الليل الخمر ويقذف تلك الخمور في النهار في المحراب وينشد عوض قراءة (الحمد) في الصلاة:

علق القلب الربابا بعد أن شابت وشابا.

إمامة الحادية في المسجد

أما قوله (في البيت ٥٥): (عمموا أمة سكرى) فالمراد به الوليد حيث أنه باشر جاريته ليلاً ثم في الصباح عممها وأمرها وهي جنب سكرى أن تذهب إلى المسجد فتصلي بالناس، ففعلت ما أمرت به واقتدى بها الذين سموا أنفسهم بالمسلمين وصلوا وراءها.

الطمع في نساء الناس

قوله (في البيت ٥٦): (تشبيبكم إذ طمعتم) يراد به قصة يزيد الذي طمع في (أرينبة) زوجة عبد الله بن سلام في الكوفة واحتال معاوية في جلب أرينبة إليه في قصة معروفة.

مقرّطة الأمين؟!

قوله (في البيت ٥٧): (خليفة تلعب الحيتان) المراد به الأمين فإنه كان يلعب بالحيتان، وكانت له سمكة تسمى: المقرّطة، لأقراطها الذهبية التي جعلها في آذانها، ولما حاصر المأمون بغداد كان في شغل ولعب مع تلك الحيتان حتى ذهب الملك من يده، ولما جاءه بعض ذويه قبل سقوط بغداد يقول له: لماذا هذا الحزن أيها الخليفة؟ قال: ليس حزني على بغداد، وإنما حزني على المقرّطة التي ذهبت في الماء ولم أتمكن من استردادها.

تجاسر واعتداء

قوله (في البيت ٥٨): (إحراقكم خيم الأطهار) إشارة إلى ما أحرقوه من مخيم الإمام أبي عبد الله الحسين (عليه السلام) في كربلاء كما أنهم أحرقوا دار الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) بالمدينة.

الوليد يقفز على بنته

قوله (في البيت ٥٩): (حتى خنا البنت) إشارة إلى ما فعله الوليد حيث قفز على بنته للفاحشة، وهي في حجر جارية لها، فلما نهته الجارية وقالت: إن هذا من فعل المجوس.

قال الوليد: (فاز باللذات من كان جسوراً)!

ما مضى كان قطرة من بحر الجرائم والإنحرافات، وسطوراً مختصرة من التاريخ الأسود المظلم، الذي سجلته أصابع الديكتاتوريين من غاصبي الخلافة الإسلامية من أصحابها الشرعيين...

سياسة المأمون الماكرة

وحيث أن بني العباس لم يفهموا مغزى مكيدة المأمون السياسية وظنوا الأمر على ظاهره (حيث قد أحكم المكيدة بلبس الأخضر بدلاً عن الأسود وكان السواد – كما قاله بعض أهل التواريخ – شعار العباسيين، والأخضر شعار العلويين، وكتب بذلك إلى عماله في جميع الأقطار، وضرب السكة باسم الإمام الرضا (عليه السلام). وأمر الخطباء أن يخطبوا باسمه لولاية العهد وزوّجه ابنته (أم حبيب) ثقل الأمر على العباسيين وعدوّه بالإضافة إلى ولاية العهد محاولة قطعية لتجريدهم من جميع امتيازاتهم وشعاراتهم، وأنه يريد نقل الحكم إلى العلويين، فتكتلوا ضده وولّوا أمرهم المغني المشهور (إبراهيم بن المهدي) وبايعوه بالخلافة والتفوا حوله.

وجاء في بعض التواريخ: إن بني العباس اجتمعوا إلى (زينب بنت سليمان) وسألوها أن تدخل على المأمون وتسأله الرجوع إلى لبس السواد وترك الخضرة وقد خافوا أن يجعل المأمون ولاية العهد بعد الإمام الرضا (عليه السلام) إلى ولده محمد الجواد (عليه السلام). فلما دخلت عليه رحب المأمون بقدومها وأكرمها، فقالت له: يا أمير إنك على بر أهلك من ولد أبي طالب والأمر في يدك أقدر منك على برّهم والأمر في يد غيرك، أو في أيديهم، فدع لباس الخضرة وعد إلى لباس أهلك ولا تطمعن أحداً فيما كان منك. فقال المأمون لها: والله يا عمة ما كلمني أحداً وقع من كلامك في قلبي، ولا أقصد لما أردتي وأنا أحاكمهم إلى عقلك.

فقالت: وما ذاك؟

قال: أليس تعلمين أن أبا بكر تولى الخلافة بعد رسول الله فلم يول أحداً من بني هاشم شيئاً. ثم تولاها عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان فكانا كذلك، ولما تولاها علي بن أبي طالب أقبل على بني هاشم فولى عبد الله بن العباس البصرة، وعبيد الله اليمن، وولى معبداً مكة، والقثم بن العباس البحرين، ولم يترك أحداً ينتمي إلى العباس إلا ولاّه، فكانت له هذه في أعناقنا، فكافأته في ولده بما فعل.

فقالت له: لله درك يا بني، لو لم تكن لمصلحة لبني عمك من ولد أبي طالب ما قلته لك.

فقال: لا يكون إلا ما تحبون.

السواد شعار العباسيين

ثم أن المأمون لما وصل إلى مأربه من ضرب العلويين والعباسيين والأمويين، الجماعات الثلاث الذين كانوا ينازعونه الحكم، قلب ظهر المجن فقتل الإمام الرضا (عليه السلام) والعلويين الذين ظنوا أن الإمام الرضا وصل إلى الحكم حقيقة، ولم يعرفوا أنه خديعة عباسية وجلس لبني العباس وجمعهم ودعا بحلة سوداء فلبسها وترك الخضرة، ولم تلبس الخضرة في بغداد سوى ثمانية أيام.

ثم أنه ينبغي أن ننبه على شيء قد اشتهر بين الناس وهو أن السواد كان شعار العباسيين وأن الخضرة كانت شعار العلويين، إن القطعة الأولى من التاريخ صحيحة فإن (أبا مسلم الخرساني) لبس السواد وجعل السواد شعار

جيشه وأمر كل من لم يلبس السواد من القواد ومن أشبه بسجنه أو تعذيبه أو قتله، وقد ادعى أنهم في عزاء من القتلى الذين قتلهم الأمويون من العلويين وغيرهم.

وجاء في التاريخ: أنه قال لبعض عبيده البس الملابس المختلفة حتى أرى أن أيها أهيب. فلبس الأبيض، والأخضر، والأحمر، والأصفر، وكان يمر أمامه كلما لبس من تلك الملابس، حتى إذا لبس السواد ومر أمامه قال: هذا اللباس الذي ينبغي أن نجعله شعاراً، فجعله شعاراً.

البياض شعار العلويين

أما القطعة الثانية من التاريخ (وهي أن الخضرة شعار العلويين) فالظاهر أنه اشتباه، فإنا لم نجد في رسول الله (صلى الله عليه وآله)، أو علي أو الحسن أو الحسين وإلى الإمام الرضا (عليهم الصلاة والسلام) إن الأخضر كان لباسهم أو شعارهم، بل ذكر بعض المؤرخين أن الخضرة كانت لباس ملوك الفرس، وأما لباس العلويين فقد كان الأبيض وفي الأحاديث (نعم الثوب البياض)(١) وقد تنبه لمكيدة المأمون في لباسه الأخضر بعض مستشاريه، فقد ذكر بعض المؤرخين أن المأمون لما استشار وزراءه وخاصته في اللباس قال له نعيم بن حازم – وكان من ثقاته ومستشاريه –: إنما تريد أن تزيل الملك عن بني العباس إلى ولد علي ثم تحتال عليهم فتصيّر الملك كسروياً، ولولا أنك أردت ذلك لما عدلت عن لبسة علي وولده وهي البياض، إلى الخضرة وهي لباس كسرى والمجوس.

ولذا نشاهد في التاريخ أن الفاطميين في مصر اختاروا البياض شعاراً لهم حين أرادوا أن ينسبوا ملكهم إلى رسول الله وعلي (عليهما الصلاة والسلام).

كما نجد أن العلويين كانوا إذا خرجوا يلبسون البياض فقد ذكر المؤرخون: أنه خرج ابن طباطبا ولبس البياض شعاراً له فيما كان قتال بين الأمين والمأمون، كما خرج علي بن محمد بن جعفر بن محمد بالبصرة وغلب عليها وقد لبس البياض. وهكذا غيرهما من العلويين الثائرين كانوا يجعلون شعارهم البياض، وعلى أي حال فقول أبي فراس، إما محمول على الظاهر، وإما أنه هو أيضاً غفل عن المكيدة، فظن أن المأمون أبصر رشده في بعض الوقت ثم عمي، ولتحقيق المطلب موضع آخر والله سبحانه العالم.

أهل البيت (ع) قمة المكارم

أهل البيت (عليهم السلام) كانوا عبارة عن مدرسة في الأخلاق والفضائل..

وسجلوا تاريخاً حافلاً بأسطر من نور.. وقصيدة الفرزدق الميمية الخالدة لمحة خاطفة من سمو فضائلهم..

ومن الجدير إيرادها هنا بعد قصيدة أبي فراس التي كشفت عن جانب من سلوك العباسيين، وكما أن الشاعر المنصف إذا وجد الباطل ذمه وقدحه وإن كان فيه رقبته، كذلك الشاعر المنصف إذا وجد الحق مدحه وأطراه وإن كان فيه خطر على حياته.

فقد رووا: أنه حج هشام بن عبد الملك في خلافة أخيه الوليد، وهو آنذاك أمير الحجاز ومعه رؤساء أهل الشام، فجهد أن يستلم الحجر فلم يقدر من ازدحام الناس، فنصب له منبر فجلس عليه ينظر إلى الناس وأقبل علي بن الحسين (عليهما السلام) وهو أحسن الناس وجهاً وأنظفهم ثوباً وأطيبهم رائحة، فطاف بالبيت فلما بلغ الحجر

الأسود تنحى الناس كلهم عنه وأخلوا له الحجر ليستلمه هيبة وإجلالاً له، فأغضب ذلك هشاماً وبلغ منه كل مبلغ. فقال رجل لهشام: من هذا أصلح الله الأمير؟

قال: لا أعرفه! وكان به عارفاً، ولكنه خاف أن يرغب فيه أهل الشام ويدخل حبه في قلبهم، فقال الفرزدق – وكان حاضراً –: أنا أعرفه، فسلني عنه يا شامي، قال: ومن هو؟

فأنشأ في جوابه هذه القصيدة الخالدة:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقي النقي الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد ختموا

هذا علي رسول الله (ص) والده ... أمست بنور هداه تهتدي الأمم

إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

يكاد يمسكه عرفان راحته ... ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

الله شرّفه قدماً وعظمة ... جرى بذاك له في لوحهِ القلم

أي الخلائق ليست في رقابهم ... لأوّلية هذا أوله نعم

من يشكر الله يشكر أوّلية ذا ... فالدين من بيت هذا ناله الأمم

ينمى إلى ذروة العز التي قصرت ... عن نيلها عرب الإسلام والعجم

يغضي حياءً ويغضي من مهابته ... وما يكلم إلا حين يبتسم

في كفه خيزران ريحه عبق ... من كف أروع في عرنينه شمم

من جدّه دان فضل الأنبياء له ... وفضل أمته دانت له الأمم

مشتقة من رسول الله نبعته ... طابت عناصره والخيم والشيم

ينشق ثوب الدجى عن نور غرته ... كالشمس ينجاب عن إشراقها الظلم

ما قال لا قط إلا في تشهده ... لولا التشهد كانت لاؤه نعم

حمال أثقال أقوام إذا فدحوا ... حلو الشمائل تحلو عنده نعم

عم البرية بالإحسان فانقشعت ... عنها العناية والإملاق والعدم

كلتا يديه غياث عم نفعهما ... يستمطران ولا يعروهما العدم

سهل الخليقة لا تخشى بوادره ... يزينه اثنان حسن الخلق والكرم

لا يخلف الوعد ميمون نقيبته ... رحب الفناء أريب حين يعتزم

من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجى ومعتصم

يستدفع السوء والبلوى بحبهم ... ويستدر به الإحسان والنعم

مقدم بعد ذكر الله ذكرهم ... في كل بدء ومختوم به الكلم

إن عـد أهـل التقـى كانوا أئمتهم أو قيـل من خير أهل الأرض قيل هـم
لا يستطيع جـواد بعـد جودهـم ولا يـدانيـهم قـوم وإن كرمـوا
هـم الغيوث لا إذا مـا أزمـة أزمت والأسـد أسد الشـرى والبأس محتدم
يأبى لهم أن يحـل الذنـب ساحتهم خيـم كـريم وأيـد بـالندى هضـم
لا ينقـص العسـر بسطاً من أكفـهم سيـان ذلك إن أثـروا وإن عدمـوا
وليس قولك مـن هـذا بضـائره العـرب تعـرف مـن أنكرت والعجم

فغضب هشام غضباً شديداً وأمر بحبس الفرزدق (بعسفان) بين مكة والمدينة، وقال والله لأحرمنه العطاء.

فقال الفرزدق يهجوه:

أيحبسني بين المدينة والتي إليها قلوب الناس يهوى منيبها
يقلب رأساً لم يكن رأس سيد وعيـن له حولاء باد عيوبـها

فوجه إليه علي بن الحسين (عليهما السلام) عشرة آلاف درهم وقال: اعذرنا يا أبا فراس فلو كان عندنا في هذا الوقت أكثر من هذا لوصلناك به. فردها وقال: ما نظمت ذلك إلا لله وما كنت لأرزأ عليه شيئاً.

فقال له علي بن الحسين (عليه السلام): قد رأى الله مكانك فشكرك، ولكنا أهل البيت إذا نفذنا شيئاً لم نرجع فيه، فأقسم عليه فقبلها(٢).

١ . وسائل الشيعة: الباب ١٤ من أبواب لباس المصلي ص٣٥٥.

٢ . بحار الأنوار: ج٤٦ الباب ٨ ص١٢٧.

قصص وعبر من التاريخ

مصير المستبدين

كما أن المستبدين عرضة للمكاره في أنفسهم وذويهم فقد كان كثير من المستبدين عرضة للقتل والتعذيب ونحوهما.

وقد نقل التاريخ: أن ثلاثة من خلفاء العباسيين فقئت أعينهم وألقوا في الشارع حتى اضطروا إلى التكفف من الناس.

يقول أحد المؤرخين: رأيت على باب الجامع ببغداد رجلاً يتكفف وقد فقئت عيناه وعلى جسمه قباء خلق ويقول في تكففه: ارحموني أيها المسلمون فإني كنت بالأمس أمير المؤمنين واليوم من فقراء المسلمين.

فسألت من هو؟ قالوا: القاهر بالله العباسي! كان خليفة يحكم على البلاد لكنه عتى وتكبر، وطغى وتجبر، واستبد وأذل، حتى اضطر أهله إلى أن يلقوا القبض عليه ويفقؤا عينيه ويلقوه في الشارع وحيث لم يكن له مال اضطر لأن يتكفف، وهكذا فعلوا بخليفة ثان نفس الفعلة حيث قلعوا عينيه وألقوه في الشارع، وفعلوا بخليفة ثالث نفس الفعلة فقلعوا عينيه وألقوه في الشارع ولما اجتمع الثلاثة أخذ الأول يقول الحمد لله الذي لم يجعلني وحيداً حتى ألحق بي صديقين آخرين صنع بهما مثل ما صنع بي.

نصيب الهرة

وقد قتلوا مروان الحمار شر قتلة وبعد القتل قطعوا لسانه وألقوه أمام هرة فأكلته، بعد أن أمر مروان أن يقطع لسان إنسان بريء ويلقى إلى نفس تلك الهرة فأكلت الهرة لسان ذلك الإنسان أولاً ولسان مروان الحمار ثانياً.

جزاء المتوكل

وينقل في أحوال المتوكل العباسي الذي قتله ولده المستنصر شر قتلة، أنه كان يظلم الناس ويستبد أيما استبداد وقد هدم قبر الإمام الحسين (عليه السلام) وهدم البيوت المحيطة بالقبر الشريف في قصص مشهورة.

وذات مرة دعا طبيباً مسيحياً فقال له: هل تعرف سماً يقتل الإنسان؟

قال الطبيب: لا أعرف (وقد أراد المتوكل قتل الإمام الهادي (عليه السلام) بذلك السم) لكن الطبيب أبى أن يعطيه السم قائلاً: أنا ومعشر الأطباء لا نعرف السموم وقد حلفنا عند تخرجنا من مدرسة الطب أن لا نسيء إلى إنسان مهما كان وحتى إذا كان عدونا، وإنما غاية الأمر أن لا نداوي العدو إذا مرض.

فأمر المتوكل أن يسجن في المطبق وهو سرداب مظلم مرطوب لا منفذ للنور إليه فسجن كذلك سنة في الأغلال والقيود، وبعد سنة أخرجوه إلى المتوكل فرآه وقد تغيرت حالة الطبيب فقد اصفر وجهه وضعف جسمه وطال شعر رأسه ولحيته وسائر جسدة وأثّر القيد في عنقه ويديه ورجليه فقال له: هل تعرف الآن السم الذي طلبته منك قبل سنة؟

قال الطبيب: لا لا أعرف السم كما قلت لك قبل سنة.

فقال المتوكل: عليّ بالنطع والسيف فأحضر النطع والسيف وأجلس الطبيب على النطع، وقال المتوكل للسياف: اضرب عنقه إلا إذا استعد أن يعطينا السم الذي طلبناه فإنه لا بد وأن يعرف السم الذي نريده لقتل بعض أعدائنا، فلما أجلس الطبيب على النطع تحت السيف (وبعد ذلك الإذلال الهائل له في السجن والأغلال) توجه الطبيب إلى السماء وقال للمتوكل: إنك تريد قتلي ظلماً لكن ربي يأخذ بحقي منك.

نعم كان للطبيب رب أخذ بحقه وحق غيره منه حيث قتل المتوكل شر قتلة وصار لعنة للتاريخ إلى هذا اليوم وإلى ما بعد اليوم كما هي عادة الله (سبحانه وتعالى) في الطغاة يمهلهم ولا يهملهم يقول الشاعر:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدراً فالظلم آخره يدعو إلى الندم

تنام عيناك والمظلوم منتبه يدعو عليك وعين الله لم تنم

عبرة لمن اعتبر

قال محمد بن عبد الرحمان الهاشمي: دخلت على أمي يوم الأضحى فرأيت عندها امراة في أثواب رديئة فقالت أمي: أتعرف هذه المرأة؟

قلت: لا.

قالت: هي عناية أم جعفر البرمكي.

فسلمت عليها وقلت لها: حدثيني ببعض أمركم. قالت: أذكر لك جملة فيها عبرة لمن اعتبر، لقد مضى عليّ يوم كانت تحف بي أربعمائة وصيفة وأنا أزعم أن ابني جعفراً عاق لي، وقد أتيتكم اليوم أسألكم جلدي شاتين لشعار ودثار.

الضحك ممنوع!

ولما كان الفضل البرمكي وأبوه في المحبس سمعهما هارون يوماً وهما يضحكان ضحكاً مفرطاً، فبعث مسروراً خادمه ليعلم سبب ذلك فجاءهما وقال لهما: يقول الخليفة ما هذا الاستخفاف بغضبي؟ فازدادا ضحكاً.

وقال يحيى اشتهينا سيكباجاً فاحتلنا في شراء القدر والخل واللحم وغير ذلك، فلما فرغنا من طبخها وأحكامها، ذهب الفضل لينزلها فسقط قعر القدر فوقع الضحك والتعجب مما كنا فيه وما صرنا إليه فاعلم مسرور هارون بذلك!

والجدير بالذكر: أن الفضل البرمكي كان كثير البر بأبيه وكان أبوه حين كانا في الحبس يتأذى في الشتاء من استعمال الماء البارد فكان الفضل يأخذ إبريق النحاس وفيه الماء فيضعه على بطنه زماناً لينكسر برده بحرارة جسده حتى يستعمله أبوه!

تفرعنت يا فضل

كان الفضل بن مروان قد أخذ البيعة للمعتصم ببغداد والمعتصم بالروم مع المأمون فاعتد المعتصم له بها يداً واستوزره، فغلب عليه واستقل بالأمور، فكانت الخلافة للمعتصم اسماً، وللفضل معنى، فجلس الفضل يوماً لرسائل الناس فرأى فيها رقعة مكتوباً فيها هذه الأبيات:

تفرعنت يا فضل بن مروان فاعتبر فقبلك كان الفضل والفضل والفضل

ثلاثة أمـلاك مضـوا لسبيلـهم وأنك قد أصبحت في الناس ظالماً

أبادتهم الأغـلال والحبس والقتل ستودي كما أودي الثلاثة من قبل

أراد (فضل بن يحيى) و (فضل بن الربيع) و (فضل بن سهل)!

نكبة الفضل

وكان المعتصم يأمر بإعطاء المغني والنديم فلا ينفذ الفضل ذلك فحقد المعتصم عليه لذلك ونكبه وأهل بيته وجعل مكانه ابن الزيات، فشمت به الناس لرداءة أفعاله واخلاقه فقيل فيه:

لتبك على الفضل بن مروان نفسه فليس له باك من الناس يعرف

لقد صحب الدنيا منوعاً لخيرها وفارقها وهو الظلوم المعنـف

إلى النار فليذهب ومن كان مثله على أي شيء فأتنا منه نأسف

وبرر المعتصم نكبته بقوله: عصى الله في طاعتي فسلطني عليه..

قتل ونهب

من موالي آل الخشخاش (فيروز) كان أعظم مولى بالعراق خرج مع ابن الأشعث.

فقال الحجاج: من جاءني برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم!

فقال فيروز: من جاءني برأس الحجاج فله مائة ألف درهم!

فلما هزم ابن الأشعث هرب إلى خراسان فأخذه يزيد بن المهلب فبعث به إلى الحجاج.

فقال له: أظهرني على أموالك، قال: على أن تؤمنني قال: لا، فنادى: ألا من كان لفيروز عنده مال فهو في حل منه ثم امر بقصب، فنصفوه وأمر بشدها عليه بعد أن جردوه من ملابسه، ثم أخذ يسله قصبة قصبة حتى سال الدم من جسمه ثم صب الملح والخل على جراحاته حتى مات.

ضرب وجرح

عن الحسين بن الضحاك قال: ضربني الرشيد في خلافته لصحبتي ولده الأمين، ثم ضربني الأمين لمايلة ابنه عبد الله، ثم ضربني المأمون لميلي إلى أخيه الأمين، ثم ضربني المعتصم لمودة كانت بيني وبين العباس بن المأمون، ثم ضربني الواثق لذهابي إلى المتوكل، ثم أحضرني المتوكل وأمر شفيعاً بالولع بي فتغاضب المتوكل عليّ فقلت له: إن كنت تريد أن تضربني كما ضربني آباؤك، فآخر ضرب ضربته بسببك.

أصحاب الأخدود

ملك ذو شناتر اليمن ولم يكن من أهل بيت الملك وكان غليظاً فظاً ولا يسمع بغلام نشأ من أبناء الملوك، إلا بعث إليه فأفسده، وإنه بعث إلى غلام منهم يقال له (ذو نواس) وكانت له ذؤابتان تنوسان على عاتقه وبهما سمى (ذا نواس) فأدخل عليه ومعه سكين لطيف فلما دنا منه يريده على الفاحشة شق بطنه واجتز رأسه، فملّكوه وهو صاحب الأخدود الذي ذكر في القرآن الحكيم فبلغه عن أهل نجران أنهم تنصروا – وكان يهودياً – فسار إليهم فعرضهم على أخاديد احتفرها في الأرض وملأها جمراً فمن تابعه خلي عنه ومن أقام على النصرانية قذفه فيه حتى أتي بامرأة معها ولد فقال لها: يا أماه امضي على دينك فلا نار بعدها. فرمي بالمرأة وابنها في النار، ومضى رجل من اليمن يقال له (ذو ثعلبة) إلى ملك الحبشة فخبّره بما فعل ذو نواس بأهل دينه، فكتب ملك الحبشة إلى قيصر، فأمره قيصر أن يصير إلى اليمن، فأقبل في سبعين ألفاً وهزم ذا نواس وأتبعه حتى أتى البحر فغرق، وقام مكانه ذو جدن الحميري فهزمه أيضاً وألجأه إلى البحر فغرق، فأقام ملك الحبشة باليمن مع أبرهة صاحب الفيل الذي أراد هدم الكعبة فأهلك الله جيشه بالطير (الأبابيل) ووقع في جسده الآكلة فحمل الى اليمن فهلك بها.

جزاء سنمار

ونعمان بني السنمار له الخورنق ويقال: بناه على شكل تكون الشمس فيه في كل ساعة على لون، فألقاه من فوقه لئلا يبني لغيره مثله، فضربت العرب المثل بجزاء سنمار.

قال الشاعر:

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر وحسن فعل كما يجزى سنمار

رأس برأس

لما قتل مروان قال الحسن بن قحطبة: أخرجوا إليّ إحدى بنات مروان: فأخرجوها وهي ترتعد فأجلسها ووضع رأس مروان في حجرها فصرخت فقيل له: ماذا أردت بهذا؟

قال: فعلت بهم فعلهم بزيد بن علي لما قتلوه جعلوا رأسه في حجر أخته زينب!

نبش القبور

قال عمرو بن هاني الطائي: خرجت مع عبد الله بن علي لنبش قبور بني أمية في أيام السفاح فانتهينا إلى قبر هشام فاستخرجناه صحيحاً ما فقدنا منه إلا عرنين أنفه فضربه عبد الله بن علي ثمانين سوطاً ثم أحرقه، واستخرجنا سليمان بن عبد الملك من أرض دابق فلم نجد منه شيئاً إلاّ رأسه وأضلاعه وصلبه فأحرقناه، وفعلنا مثله بغيرهما من بني أمية وكانت قبورهم بقنسرين ثم انتهينا إلى دمشق، فاستخرجنا الوليد فما وجدنا في قبره قليلاً ولا كثيراً واحتفرنا نبحث عن عبد الملك ثم عن يزيد فلم نجد منه إلا عظماً واحداً ووجدنا من موضع نحره إلى قدمه خطاً واحداً أسود كأنما خط بالرماد في طول لحده وتتبعنا قبورهم في جميع البلدان فأحرقنا ما وجدنا فيهم منهم.

قال ابن أبي الحديد: قرأت هذا الخبر على النقيب يحيى بن أبي زيد العلوي سنة ٦٠٥ وقلت له أما إحراق هشام بإحراق زيد فمفهوم فما معنى جلده ثمانين جلدة؟

قال: أظن أنه ضربه حد القذف لأنه يقال: أن هشاماً قال لزيد: يا بن الزانية، وذلك لما سب أخاه الباقر (عليه السلام) فسبه زيد قائلاً له: سماه النبي (صلى الله عليه وآله) الباقر وتسميه البقر لشد ما اختلفتما ولتخالفنه في الآخرة كالدنيا فيرد الجنة وترد النار. قال: وهذا استنباط لطيف.

تسفير عام

رفع إلى الهادي أن رجلاً من بلاد المنصورة من السند من آل المهلّب ربى غلاماً سندياً وأن الغلام هوى مولاته فراودها، فجب ذكر الغلام وخصاه ثم عالجه إلى أن برئ، وكان لمولاه إبنان أحدهما طفل والآخر يافع فصعد الغلام بهما إلى أعالي سور الدار فدخل المولى فقال: عرّضت ابني للهلاك قال: دع ذا عنك والله لو لم تجبّ نفسك بحضرتي لأرمين بهما فقال له: الله الله فيّ وفي ابني قال: دع عنك هذا فوالله ما هي إلا نفسي وإني لأسمح بها من شربة ماء، فأهوى ليرمي بهما فأسرع مولاه فأخذ مدية فجبّ نفسه فلما رآه جبّ نفسه رمى بهما فتقطعا. وقال: ذلك لفعلك بي وقتل هذين زيادة فأمر الهادي بقتل الغلام وبإخراج وتهجير كل سندي في مملكته ففعلوا كما أمر.

قتل وسفك

أمر المأمون أن ينصب رأس أخيه الأمين – بعد أن قتله – في قصره على خشبة وأمر بجائزة لكل من يلعن الرأس، فكان الرجل يدخل ويلعن الرأس ويقبض جائزته، فدخل رجل فقبض الجائزة فقيل له: العن هذا الرأس فقال: لعن الله هذا الرأس ولعن والديه – وذلك بحيث يسمعه المأمون – فتغافل وأمر برد الرأس إلى العراق وإلحاقه بجثته.

جبروت المستبدين

لما قبض عبد الملك صعد الوليد على المنبر فدعا الناس إلى البيعة فلم يختلف عليه أحد. ثم أول ما ظهر من أمره أن أمر بهدم كل دار ومنزل بين دار عبد الملك وبين قبره. فهدمت من ساعتها وسويت بالأرض لئلا يعرج بجنازة عبد الملك في طريقها إلى القبر يميناً وشمالاً.

مصير الجبابرة!

كان القاهر من جبابرة بني العباس وكان قد صنع حربة يحملها فلا يطرحها حتى يقتل بها إنساناً، فخلعوه وسملوا عينيه بمسمار محمى حتى سالتا على خديه، وحبسه الراضي، ثم أطلقوه، فوقف يوماً بجامع المنصور بين الصفوف وقال: تصدقوا عليّ فأنا من قد عرفتم فقد كنت بالأمس أمير المؤمنين وأنا اليوم من فقراء المسلمين.

ولما سمل القاهر ثم المتقى، قال القاهر: صرنا اثنين ونحتاج إلى ثالث، فكان كذلك حيث سمل بعدهما المستكفى.

أمر الله إذا جاء

السفاح العباسي بنى عمارة ضخمة في مدينة الأنبار ولما حضر عبد الله بن الحسن وكان ذا اعتبار ووجاهة، لمشاهدة البناء الضخم الذي أنشأه السفاح، فأنشد هذا البيت:

يؤمل أن يعمر عمر نوح وأمر الله يحدث كل ليلة

فغضب السفاح واكفهر وجهه. فاعتذر له عبد الله بذلك وأقسم له بأنه لم يقصد من ورائه شيئاً وإنما جاء عفوياً على لسانه ولم تمض إلا أيام قلائل حتى مات السفاح، وكان كما جرى على لسان عبد الله.

عاقبة الظالمين

نقل ابن الملكي عن أبيه قال: إن الأمين (قال أواخر عمره) أريد قبل أن تزول خلافتي أن أعيش يوماً أهنأ به مرتاح البال خال من المشاكل. فقلت له: كيفما تريد أفعل. فقال: إذا كان صباح الغد فاحضر. فبعث بمأمور لي فحضرت عنده فرأيته مرتدياً (اللباس الفاخر) المحلى بالجواهر والذهب، وقد جلس على كرسيه، وأجلسني إلى جواره (من الجهة اليسرى). وبعد ذلك أمر غلامه أن يهيأ بعض النساء المشهورات بالغناء وكان الأمين يعرف منهن أربعاً ذوات أصوات شهيرة فلما حضرن، أجلسهن عن يمينه، ثم أمر غلامه بأن يعطي كل واحدة منهن الكأس من البلور المرصع بالجواهر ليتداولن بها بقراءة الأشعار فغنت الثلاث منهن أشعاراً تشعر بالموت والفراق والعذاب وعدم اعتبار الدنيا، وكلما سمع الخليفة شعراً من ذلك غضب وأخذ بالكأس يضرب بها الأرض فتصبح قطعة قطعة. ثم أمر الرابعة بالغناء فغنت هذه الأشعار:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامر

بلاد لكنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والخطوب الزواجر

يقول الملكي: فالتفت إليّ (محمد الأمين) وقال: هل فطنت لذلك: هذه إرادة الله عز وجل أن يفنينا ويأخذ الملك عنا، وقال الملكي: فلم تمر إلا أيام قلائل على هذه الواقعة حتى رأيت رأسه معلقاً في القصر وشقة من جسمه في هذا الجانب من بغداد وشقة أخرى من جسمه في الجانب الآخر منه.

نصح الناصحين

كان أحد الأمراء يأخذ أموال رعيته بالظلم والتجبر، وكان من جراء هذا الضغط مغادرة معظم الناس المدينة التي يسكنها هذا الأمير. وأما من بقي فظل يعيش المحنة فانبرى أحد الأخيار من مسؤولي الدولة إلى الأمير ليطلعه عن سبب مغادرة الرعية للمدينة، مما جعل المملكة خراباً. وحذره بأن الاستمرار على هذا الحال ينتهي إلى ما لا يحمد عواقبه. فأجابه الأمير: (جوّع كلبك يتبعك) وكانت النتيجة أن انقضّ أهل المدينة عليه وأنزلوه من الكرسي. وقتلوه شر قتلة. فقال أحد الحكماء فيه عندما قتل: (ربما أكل الكلب صاحبه إذا لم يشبعه).

هكذا كان معاوية

دخل عبد الله بن عباس مجلس عبد الملك بن مروان يوماً، فرآه جالساً على كرسي مفروش بسجاد الأبريسم ولا يرى منه إلا رأسه لأنه كان يحيط به من اليمين واليسار وفر السجاد. قال ابن عباس: فلما رآني عبد الملك قال شبه المعتذر عن هذا الوضع: إن هذا اليوم بارد جداً قال: ابن عباس فقلت: نعم هكذا كان يعيش معاوية بن أبي سفيان من الوضع المرفه والحياة الرغيدة طيلة عشرين عاماً ومثله غيره من الخلفاء. ولكن الآن ترى ماذا يحيط بقبر معاوية؟ يحيطه الشوك والخراب، قال: فأرسل عبد الملك شخصاً ليرى قبر معاوية، فرآه كما وصفه ابن عباس. فنقل الخبر إليه. لكن لم ينفعه ذلك بل بقي يرفل في النعيم.

المتوكل يشتري حتفه

قال البحتري: دار حديث في مجلس المتوكل يوماً عن السيف. فقال أحد الحاضرين: سمعت أن لشخص سيفاً هندياً في البصرة يقلّ مثيله.

فأرسل المتوكل إلى عامله في البصرة: بأن يشتري له السيف المذكور مهما كانت قيمته ومهما كلفه الأمر.

فكتب له عامله: بأن السيف المذكور قد ابتيع لرجل ذهب به إلى اليمن، فأرسل المتوكل بطلبه رسولاً إلى اليمن فاشتراه له بعشرة آلاف درهم وأتى به إلى المتوكل فلما رآه المتوكل فرح به فرحاً شديداً.

وفي اليوم الثاني من وصول السيف قال المتوكل للفتح بن خاقان: ابحث لنا عن غلام شجاع ذي نجدة حتى أعطيه هذا السيف فيقف على رأسي ويحميني.

فقال له الفتح: لقد اتصف (باغر) بهذه الصفات التي أردتها.

فقال المتوكل: علي بإحضاره فحضر. وأعطاه الأمر، وسلّمه السيف، وأمر برفع رتبته وزيادة حقوقه.

قال البحتري: أن السيف المذكور والذي لم يخرج من غمده لدفع أعداء المتوكل سلّه (باغر) على المتوكل وقطعه به إرباً إرباً.

يوم الظالمين

كان محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم العباسي فظاً غليظاً ظالماً، ومن ظلمه أنه صنع تنوراً –في زمن المعتصم – من النحاس وجعل فيه مسامير رؤوسها من داخل التنور فكان يلقي فيه المذنبين بادعائه فكان المحبوس لا يتمكن إلا من الجلوس بدون أن يتمكن من الاتكاء فيبقى في أشد العذاب. وإذا قيل له: يا وزير ارحمنا!

قال: الرحم خور في الطبيعة، ولما وصلت الخلافة إلى المتوكل أمر بخلعه من الوزارة لما كان أساء إليه قبل ذلك وأمر بحبسه في نفس التنور الذي صنعه لتعذيب الآخرين.

وقال له: ذق ما كنت تذيق الناس. فطلب عطف المتوكل فأجابه المتوكل: الرحم خور في الطبيعة. وبقي في التنور محبوساً أياماً مكبلاً بسلسلة في رقبته زنتها خمسة عشر رطلاً وطلب من سجانه أن يعطيه ورقة وقلماً، فكتب فيها إلى المتوكل هذا الشعر:

هي السبيل فمن يوم إلى يوم كأنه ما تريك العين في النوم

لا تجزعنّ رويداً أنها دول دنيا تنقل من قوم إلى قوم

منافسة الطغاة

كان السفاح يحترم أبا مسلم كثيراً وفي أواخر أيام خلافته عزم أبو مسلم إلى الحج وصادف أن أبا جعفر المنصور أخ السفاح قد حج ذلك العام.

ولكثرة هيبة أبي مسلم وفخفخة قوافله أوقع أهل الحجاز في حيرة، وكان بمعيته مائتا قطار من الجمال محملة بالأثاث والمؤنة فطلب من جميع الحجاج أن لا يطبخوا طعاماً ودعا الشريف والوضيع لضيافته.

هذا وكان المنصور لا يأمن من جانب أبي مسلم ولم يطمئن له حينما وصلت الخلافة إليه فأوجد خلافاً بينه وبين مسلم بن قتيبة فتلا ابن قتيبة هذه الآية:

(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)(١) فما كان من المنصور إلا أن أمر بقتل أبي مسلم فقتل.

تصفية المنافسين

كان اسم شيرويه قبادا وكان ابناً لبرويز. ومن اليوم الأول لصعوده إلى سرير الملك وجلوسه على كرسي الحكم كان يخشى أخوانه وأولادهم، فاستشار وزيره في قتل هؤلاء ليتخلص منهم، وبالفعل قتل ثمانية عشر منهم.

حتى جاءت أخوات شيرويه يعاتبنه على هذا العمل وأخذن ينصحنه ويقلن له: ألم تخجل من إقدامك على هذا العمل؟ قمت بقتل أولاد أبيك لأجل أن تحكم يومين في هذه الدنيا، فقطعت أعناقهم، فتألم كثيراً لهذه النصيحة وبكى طويلاً من هذا التأنيب وأخذت علامات الحزن تظهر عليه يوماً بعد يوم حتى فارق الدنيا. وكانت مدة حكمه حسب رواية: ستة أشهر ومنهم من قال: بأنها سنة وستة أشهر وقد سلط الله عليه مرض الطاعون ومات به عن عمر ناهز الثانية والعشرين.

الدكتاتور وذووه

بعدما قتل نادر شاه على يد جلاوزته، قفز إلى الحكم علي قلى ميرزا وهو أحد المقربين لنادر شاه وحاكم خراسان، وسمى نفسه عادل شاه، وتربع على كرسي الحكم، أما أبناء نادر شاه فإنهم قد قتلوا أو خنقوا خنقاً شنيعاً، وذلك بأن كان الجلادون يأخذون الشخص ويفتحون فمه ويجعلون منديلاً ملفوفاً في فيه ويدفعونها إلى حلقه، بواسطة قضيب خشبي يوضع على المنديل وهو في الحلق وبواسطة خشبة تشبه المطرقة يطرق بها على القضيب الخشبي حتى يدخلون المنديل الملفوف في القصبة الهوائية، فيؤدي ذلك إلى موته بعد لحظات من هذه العملية.

ضحايا الجاه والمقام

بعد أن مات كريم خان زند تسلم السلطة ابنه (أبو الفتح خان) الذي كان يحب الترف واللهو، وأمور الحكم كانت جميعها في يد عمه وهو (زكي خان) يعني كانت الحكومة ظاهراً بيد (أبي الفتح خان) وواقعاً بيد (زكي خان)، وكانت الحال هكذا حتى قتل (زكي خان) على يد أحد خدمه، فاحتل مكانه في السلطة (صادقي خان) وهو أخو (كريم خان زند) فحقد عليه (علي مراد خان زند) وهو أحد أمراء آل زند وحاكم أصفهان فشكل عسكراً وتوجه به إلى شيراز وبعد صعوبة كثيرة فتحها، ثم قرر أن ينتقم من (صادقي خان) فأمر بإحضاره وكذلك أحضر ابنه (علي نقي خان)الذي كان قائداً في جيش أبيه صادقي خان، وأمر الجلاد بأن يقطع رأس (صادقي خان زند) أمام ناظري ابنه (علي نقي خان).

فقال الجلاد هل أذهب به إلى باحة القصر وأقطع رأسه؟

فقال (علي مراد خان): بل اقطع رأسه هنا.

ثم قال الجلاد: فداك نفسي إن المكان مفروش وهذا السجاد الثمين سوف يغرق بالدم، فأجابه (علي مراد خان) وكلماته تفيض غيظاً وحنقاً، لقد أمرتك أن تقطع رأسه هنا! أما (صادقي خان) فكانت يداه مغلولتان من وراء ظهره، فأخذ الجلاد حبلاً وربط به ركبتي (صادقي خان) حتى لا يملك حراكاً ويكون أطوع لقطع رأسه، ثم أخذ لباساً مخصوصاً كالذي يلبسه الطباخون أو القصابون، فلبسه حتى لا تتساقط قطرات الدم النافرة على ملابسه، وهو لباس مخصوص بالجلادين يشعر الناظر إليه بقشعريرة واشمئزاز يغطي مقدم البدن من السرة إلى أسفل الركبتين بحيث يتجاوز نصف الساق قرب المفصل ثم أخرج خنجره من غمده فسمع له صوت يتناثر منه شرر الموت ثم أخذ رأس (صادقي خان) من أنفه وسحبه إلى خلفه حتى بانت رقبته بشكل واضح وبحركتين قاسيتين سريعتين صار الرأس يتدحرج على الأرض وفار الدم من رقبته. إن الجلاد كان ماهراً ويعرف كيف وأين يضع سكينه بين فقرات رقبته ليفصلها تماماً عن بعضها. ثم أخذ الرأس وعرضه على (علي مراد خان)، فأمر أن يضعه بين يدي (علي نقي خان)، أما بدن صادقي فكان جاثماً على ركبتيه حال قطع رأسه والدماء تسيل بغزارة من أوداجه فكان يشكل منظراً مريعاً، بعد ذلك أمر (علي مراد خان) أن تقلع عينا علي نقي خان ويعمى.

ثم إن علي مراد خان فضلاً عن إعماء عيني (علي نقي خان) أمر بإعماء عيون جميع أولاد (كريم خان زند) الذكور، بدون استثناء حتى لا تحدثهم أنفسهم على أخذ السلطة والحكم يوماً ما.

حتى بعد الموت

أمر محمد خان قاجار أن ينقل جثمان كريم خان زند إلى طهران وأن يدفن تحت السلم الذي يصعده كل يوم ليتسنى له أن يسحق الجسد بقدميه أثناء صعوده ونزوله ويقصد بذلك زيادة النكال والاستهانة بجسده.

١ . سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

هكذا يواجه الطغاة

أ. مواقف الرعيل الاول من المسلمين

موقف السيدة زينب(ع)

وفي التواريخ أنه لما أُدخل علي بن الحسين عليهما السلام وحرمه على يزيد جيء برأس الحسين (عليه السلام)، ووضع بين يديه في طشت فجعل يضرب ثناياه بمخصرة كانت في يده وهو يقول:

لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحي نزل

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل

قد قتلنا القرمَ من ساداتهم وعدلناه ببدر فاعتدل

لست من خندف أن لم أنتقم من بني أحمد ما كان فعل

فبينما هو يترنم بأبياته وإذا بصوت العقيلة زينب يصك مسامعه إذ لم تسمع أحداً يرد على يزيد بن معاوية فقامت وقالت:

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين.

صدق الله كذلك يقول: (ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون)(١).

أظننت يا يزيد حيث أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء فأصبحنا نساق كما تساق الأسرى أن بنا هواناً على الله وبك عليه كرامة، وأن ذلك لعظم خطرك عنده، فشمخت أنفك، ونظرت في عطفك جذلان مسروراً حيث رأيت الدنيا لك مستوسقة والأمور متسقة وحين صفاً لك ملكنا وسلطاننا.

مهلاً مهلاً، أنسيت قول الله تعالى: (ولا يحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين)(٢).

أمن العدل يابن الطلقاء؟! تخديرك حرائرك وإمائك وسوقك بنات رسول الله سبايا، قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن تحدو بهن الأعداء من بلد إلى بلد، ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل ويتصفح وجوههن القريب والبعيد والدني والشريف، ليس معهن من رجالهن ولي، ولا من حماتهن حمي.

وكيف يرتجى مراقبة ابن من لفظ فوه أكباد الأزكياء، ونبت لحمه بدماء الشهداء؟؟

وكيف يستبطأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشنف والشنان والأحن والأضعان، ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم:

لأهلوا واستهلوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تشل

منحنياً على ثنايا أبي عبد الله سيد شباب أهل الجنة، تنكثها بمخصرتك.
وكيف لا نقول ذلك؟ وقد نكأت القرحة واستأصلت الشافة بإراقتك دماء ذرية محمد (صلى الله عليه وآله) ونجوم الأرض من آل عبد المطلب وتهتف بأشياخك زعمت أنك تناديهم، فلتردن موردهم، ولتودن أنك شللت وبكمت ولم تكن قلت ما قلت وفعلت ما فعلت.
اللهم خذ لنا بحقنا، وانتقم ممن ظلمنا، وأحلل غضبك بمن سفك دمائنا، وقتل حماتنا.
فوالله ما فريت إلا جلدك، ولا حززت إلا لحمك، ولتردن على رسول الله (صلى الله عليه وآله) بما تحملت من سفك دماء ذريته وانتهكت من حرمته في عترته ولحمته، حيث يجمع الله شملهم، ويلم شعثهم، ويأخذ بحقهم.
(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يرزقون)(٣).
وحسبك بالله حاكماً، وبمحمد (صلى الله عليه وآله) خصيماً وبجبرائيل ظهيراً، وسيعلم من سوّل لك ومكّنك من رقاب المسلمين بئس للظالمين بدلاً، وأيكم شر مكاناً وأضعف جنداً.
ولئن جرت على الدواهي مخاطبتك، إني لأستصغر قدرك وأستعظم تقريعك، وأستكثر توبيخك، لكن العيون عبرى والصدور حرى.
إلا: فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء فهذه الأيدي تنطف من دمائنا، والأفواه تتحلب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تنتابها العواسل، وتعفرها أمهات الفواعل.
ولئن اتخذتنا مغنماً لتجدنا وشيكاً مغرماً، حين لا تجد إلا ما قدمت يداك وما ربك بظلام للعبيد.
وإلى الله المشتكى، وعليه المعول.
فكد كيدك، واسع سعيك وناصب جهدك، فوالله لا تمحو ذكرنا، ولا تميت وحينا، ولا تدرك أمدنا، ولا ترحض عنك عاراً وهل رأيك إلا فند؟ وأيامك إلا عدد؟ وجمعك إلا بدد؟ يوم ينادي المنادي: إلا لعنة الله على الظالمين والحمد لله رب العالمين الذي ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة، ولآخرنا بالشهادة والرحمة ونسأل الله أن يكمل لهم الثواب ويوجب لهم المزيد، ويحسن علينا الخلافة إنه رحيم ودود، وحسبنا الله ونعم الوكيل(٤).
في مواجهة يزيد
ذكرت التواريخ أن يزيد هيّأ مجلساً عاماً في المسجد الأموي وأحضر علي بن الحسين عليهما الصلاة والسلام، وأمر خطيبه أن يصعد المنبر ويذم الحسن والحسين وأباهما (عليهم السلام) ففعل الخطيب ذلك بلا ارعواء وبالغ في ذم أمير المؤمنين والحسن والحسين صلوات الله عليهم كما بالغ في مدح معاوية ويزيد والعائلة الأموية، فصاح به علي بن الحسين (عليه السلام): ويلك أيها الخاطب، اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق فتبوأ مقعدك من النار، ثم قال علي بن الحسين عليهما السلام ليزيد ائذن لي أن أصعد هذه الأعواد فأتكلم بكلمات لله فيهن رضا ولهؤلاء الجلساء فيهن أجر وثواب، فأبى يزيد عليه ذلك فقال الناس ليزيد ائذن له فليصعد المنبر فلعلنا نسمع منه شيئاً فقال: أنه إن صعد لم ينزل إلا بفضيحتي وفضيحة آل أبي سفيان!!
قالوا: وما قدر ما يحسن هذا الفتى.

فقال: أنه من أهل بيت قد زقوا العلم زقا!!

فلم يزالوا به حتى أذن له فصعد المنبر.

فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخطب خطبة أبكى منها العيون وأوجل منها القلوب.

وقال: أيها الناس أحذركم من الدنيا وما فيها، فإنها دار زوال وانتقال، تنتقل بأهلها من حال إلى حال قد أفنت القرون الخالية، والأمم الماضية الذين كانوا أطول منكم أعماراً وأكثر منكم آثاراً، أفنتهم أيدي الزمان، واحتوت عليهم الأفاعي والديدان، أفنتهم الدنيا فكأنهم لا كانوا لها أهلاً ولا سكاناً، قد أكل التراب لحومهم، وأزال محاسنهم، وبدد أوصالهم وشمائلهم، وغير ألوانهم وطحنتهم أيدي الزمان.

أفتطمعون بعدهم بالبقاء؟ هيهات هيهات!

لا بد لكم من اللحوق بهم، فتداركوا ما بقي من أعماركم بصالح الأعمال وكأني بكم وقد نقلتم من قصوركم إلى قبوركم فرقين غير مسرورين، فكم والله من قريح قد استكملت عليه الحسرات، حيث لا يقال نادم ولا يغاث ظالم.

قد وجدوا ما أسلفوا، وأحضروا ما تزودوا، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً.

فهم في منازل البلوى همود، وفي عساكر الموتى خمود، ينتظرون صيحة القيامة، وحلول يوم الطامة (ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى)(٥).

ثم قال: أيها الناس أعطينا ستاً وفضلنا بسبع، أعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين وفضلنا بأن منا النبي المختار محمداً (صلى الله عليه وآله) ومنا الصديق ومنا الطيار ومنا أسد الله وأسد رسوله، ومنا سبطا هذه الأمة ومنا مهدي هذه الأمة، ثم قال: من عرفني فقد عرفني، ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي، أيها الناس، أنا ابن مكة ومنى، أنا ابن زمزم والصفا، أنا ابن من حمل الزكاة (الركن... خ ل) بأطراف الرداء، أنا ابن خير من ائتزر وارتدى، أنا ابن خير من انتعل واحتفى، أنا ابن خير من طاف وسعى، أنا ابن خير من حج ولبى، أنا ابن من حمل على البراق في الهواء، أنا ابن من أسريَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، أنا ابن من بلغ به جبرائيل إلى سدرة المنتهى، أنا ابن من دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى، أنا ابن من صلى بملائكة السماء مثنى مثنى، أنا ابن من أوحى إليه الجليل ما أوحى، أنا ابن محمد المصطفى، أنا ابن علي المرتضى، أنا ابن من ضرب خراطيم الخلق حتى قالوا لا إله إلا الله، أنا ابن من ضرب بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله) بسيفين وطعن برمحين وهاجر الهجرتين وبايع البيعتين، وقاتل ببدر وحنين، ولم يكفر بالله طرفة عين، أنا ابن صالح المؤمنين، ووارث النبيين، وقامع الملحدين، ويعسوب المسلمين ونور المجاهدين، وزين العابدين، وتاج البكائين، وأصبر الصابرين، وأفضل القائمين من آل طه وياسين رسول رب العالمين، أنا ابن المؤيد بجبرائيل المنصور بميكائيل، أنا ابن المحامي عن حرم المسلمين وقاتل المارقين والناكثين والقاسطين والمجاهد أعدائه الناصبين وأفخر من مشى من قريش أجمعين وأول من أجاب واستجاب لله ولرسوله من المؤمنين وأول السابقين وقاصم المعتدين

ومبيد المشركين وسهم من مرامي الله على المنافقين ولسان حكمة العابدين وناصر دين الله، وولي أمر الله وبستان حكمة الله وغيبة علمه سمح سخي بهي بهلول زكي أبطحي رضي مقدام همام صابر صوام مهذب قوام، قاطع الأصلاب ومفرق الأحزاب أربطهم عناناً وأثبتهم جناناً وأمضاهم عزيمة وأشدهم شكيمة، أسد باسل يطحنهم في الحروب، إذا ازدلفت الأسنة وقربت الأعنة يذروهم ذرو الريح الهشيم ليث الحجاز، وكبش العراق مكي مدني خيفي عقبي بدري أحدي، شجري مهاجري، من العرب سيدها، ومن الوغى ليثها، وإرث المشعرين وأبو السبطين الحسن والحسين ذاك جدي علي بن أبي طالب.

ثم قال: أنا ابن فاطمة الزهراء أنا ابن سيدة النساء، أنا ابن خديجة الكبرى.

أنا ابن المقتول ظلماً.

أنا ابن محزوز الرأس من القفا.

أنا ابن العطشان حتى قضى.

أنا ابن طريح كربلاء.

أنا ابن مسلوب العمامة والرداء.

أنا ابن من بكت عليه ملائكة السماء.

أنا ابن من ناحت عليه الجن في الأرض والطير في الهواء.

أنا ابن من رأسه على السنان يهدى.

أنا ابن من حرمه من العراق إلى الشام تسبى.

فلم يزل يقول: أنا، أنا، حتى ضج الناس بالبكاء والنحيب، وخشي يزيد أن تكون فتنة، فأمر المؤذن فقطع عليه الكلام.

فلما قال المؤذن: الله أكبر.

قال علي بن الحسين: لا شيء أكبر من الله، كبرت كبيراً لا يقاس.

فلما قال المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله.

قال علي بن الحسين: شهد بها شعري وبشري وعظمي ولحمي ودمي.

فلما قال المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله.

إلتفت من فوق المنبر إلى يزيد وقال: محمداً هذا جدي أم جدك يا يزيد؟

فإن زعمت أنه جدك فقد كذبت وكفرت، وإن قلت: إنه جدي فلم قتلت عترته.

فنزل زين العابدين من المنبر، هذا وقد تفرق من كان في المسجد، والتفوا حول الإمام زين العابدين(٦).

ولما خشي يزيد الفتنة وانقلاب الأمر، عجل بإخراج الإمام زين العابدين والعيال من الشام إلى وطنهم ومقرهم، ومكنهم مما يريدون.

تركيبة الجيش الإسلامي

وفي قصة أخرى فتح المسلمون العراق، وكان الجيش المسلم ثلاثين ألف مقاتل، فيهم الألوف من النساء الممرضات واللاتي كن يهيئن الوسائل لأزواجهن وإخوانهن وآبائهن.

والجيش الإسلامي آنذاك جيشاً شعبياً والجيش الشعبي ليست نفقته على الدولة، بل على أنفسهم، لأنهم كانوا يؤدون فريضة واجبة كالصلاة والصيام والحج، فكان الجيش لا يأتي إلا متطوعاً متكفلاً بنفسه كل مؤنته العائلية والحربية ويستصحب النساء معه لأجل شؤونهم وأحياناً كان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أو الحاكم الأعلى للحرب يساعد الجيش بمساعدات في شؤونهم الخاصة واليومية كما هو مذكور في التواريخ فكانت النسوة يصحبن أوليائهن في هذه الحرب، وفرقة (النخع) وحدها كان معها سبعمائة امرأة كما كان مع فرقة (البجيلة) ألف امرأة، وكان المسلم إذا لم يجد ما يتزود به عاش على التمر ونحوه من الأغذية البسيطة جداً، وفي قصص جيش العسرة الغرائب ذكرها التاريخ، وهكذا إذا تحول الإنسان من الإنسان العادي إلى إنسان تقدمي مقدام، تتحول كل حاجاته الجسدية إلى أشياء تافهة في نظره، ولا يهمه سوى التقدم، فكان المسلم المثل الأعلى في الجندية في كل زمان ومكان، يقاتل وهو جائع ويقاتل وهو تعبان، ويقاتل وهو مثخن بالجراح، ويقاتل وهو مريض، ويقاتل وهو شيخ كبير أو شاب في ريعان شبابه، يقاتل في الصحراء المتوقدة في المناطق الحارة، ويقاتل في السفوح المغطاة بالثلوج في المناطق الباردة ويقاتل في إفريقيا أو آسيا أو أوروبا ويقاتل في البر مثل ما يقاتل في البحر، وأحياناً كانت المرأة تقاتل إذا كان الأمر دفاعاً كما في قصة (نسيبة) مع رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وفي قصة الإمام الحسين (عليه السلام) حيث حاربت بعض النساء وأنشدت:

أنا عجـوز ويدي ضعيفـة خـاوية بـاليـة نحيفـة
أضربكـــم بضربة عنيفـة دون بني فاطمـة الشريفـة

لكن الإمام (عليه السلام) ردها لمصلحة رآها، وقد نشر المسلمون الإسلام وحرروا البشرية في كثير من رقاع الأرض، حتى بلغت فتوحهم إلى ثلث المعمورة في أقل من ثلث قرن، كما يحدثنا التاريخ، وما قاتل المسلمون بكثرة العدد ولا بالأهبة المتزايدة وما قاتلوا إلا وانتصروا لأنهم كانوا ينصرون الله بقلوب ملؤها إيمان، ولم يقصدوا بعملهم عرض الدنيا، فما قاتلوا إلا دفاعاً عن الحق والمثل العليا والصدق والأمانة والحرية ولم يكونوا في ذات يوم مستعمرين وإنما كانوا محررين، ولهذا كانوا يسلّمون أزمة البلاد إلى أربابها وإذا وضعوا من أنفسهم حاكماً تصرف الحاكم كفرد واحد منهم، كما كان (سلمان) في المدائن و (عمار) في الكوفة، و (عتاب بن أسيد) في مكة إلى غير ذلك، وهذا كان دأب المسلمين الذين لم يكونوا يريدون الاستعمار لأحد أبداً، ولا يخفى أن إطلاق لفظ (الاستعمار) على ما ترتكبه الدول الكبرى في الحال الحاضر خطأ، هذا الاستعمار هو (استخراب) وليس (استعماراً).

قال سبحانه: (استعمركم)(٧) وهؤلاء لا يستعمرون وإنما يخربون ويهدمون.

بين الجيشين

وعلى أي حال اتجه الجيش الإسلامي نحو الجيش الفارسي، والجيش الإسلامي مكون من ثلاثين ألف بما فيه من النساء ولعل فيهم الأطفال والصغار أيضاً كما هي العادة، أما الجيش الفارسي فكان مؤلفاً من مائة وعشرين ألفاً، وهو جيش منظم تتكفل الدولة احتياجاته حيث كانوا يقدمون للجنود الطعام واللباس والمركب وينصبون لهم الخيم المزركشة ويحملون معهم المعدات والذخائر والأموال كما كانوا يحملون معهم النساء المغنيات والخمور وآلات القمار، وقد ورد مثل ذلك في قصة محاربة قريش لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وكذلك في قصة الذين حاربوا الإمام الحسين (عليه السلام) فكان يسمع من معسكر الإمام تلاوة القرآن والدعاء طول الليل بينما كان يسمع من معسكر ابن سعد الأغاني، وقد كان ذلك سبب التحاق ثلاثين رجلاً بمعسكر الإمام الحسين (عليه السلام) ليلة عاشوراء، ومن الواضح أن من لم يكن مع الله لم يكن الله معه، ومن كان مع الله كان الله معه حتى وإن قتل الذي كان مع الله وسلم الذي ليس مع الله، ولذا قال الشاعر:

زعموا بأن قتل الحسين يزيدهم كـلا لقد قتل الحسين يزيدا

بطولة جندي مسلم

وعلى أي حال طلبت القيادة الفارسية من قائد الجيش الإسلامي أن يبعث إليهم من يفاوضهم ويبين لهم ماذا يريد العرب – على اصطلاحهم– فقد كانوا يتصورون أن هؤلاء هم العرب الذين كانوا يأتون إليهم قبل الإسلام، فأرسل القائد الإسلامي إليهم سفيراً ولما عرف الفرس بأن الرسول يأتيهم حشدوا ما استطاعوا من الأبهة والفخفخة وفساطيط الحرير وستور الديباج والوسائد المرصعة الموضونة، ولبس الجند أبهى الثياب وتحلوا بأحسن الأزياء ليستعرضوا على المسلمين عزتهم ومنعتهم وشوكتهم حتى يخافوا منهم ويرجعوا من حيث أتوا، جاء رسول الجيش الإسلامي بثيابه التي لا يملك غيرها، وكانت الثياب مرقعة، وله عباءة بالية وسيفه ملفوف بالخرق، حيث لم يجد الغمد، ولما أراد الدخول على (رستم) القائد الفارسي، أراد الجلاوزة نزع سلاحه فأبى وثار في وجوههم على انفراده وكثرتهم ورثة ثيابه وجودة ثيابهم لكنهم لما رأوا أنه يأبى من إعطاء سيفه سمحوا له أن يدخل بسيفه فأقبل يطأ على هذه البسط والوسائد مزدرياً بها مشمئزاً منها (ومن الواضح أن من كان نظره إلى الله سبحانه وتعالى لا يهمه المظهر) وإنما يكون كما ورد في حق الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): (كالجبل لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف)(٨) فإن من كان همه الحقيقة لا يبالي بالمظاهر، وقد علّم رسول الله (صلى الله عليه وآله) المسلمين بقوله وسيرته الطاهرة، عدم الاهتمام بالدنيا بل الرغبة في الآخرة، والنظر إلى لطف الله سبحانه وتعالى، و (إن التقي هو تقي القلب)(٩) وإن العظمة هي عظمة النفوس، وإن متاع الدنيا ظل زائل وإن الآخرة هي الباقية وإن الله ينصر من نصره، وقد بعث فيهم الرسول (صلى الله عليه وآله) تلك الروح العظيمة التي دفعت بالمسلمين إلى الإمام مما بقي أثره إلى هذا اليوم، وإن تحطمت شوكتهم وزالت دولتهم وتسلط العملاء عليهم.

فجاء الرسول حتى بلغ سرير رستم المزركش الموضون بالذهب فجلس عليه.

وهنا تعجب هؤلاء الفرس من جرأته وصاحوا به كي يتنحى عن السرير، لكن الرسول كسر شوكتهم، وقال: يا معشر العجم، قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ونحسب أن لكم عقولاً والآن عرفت أن لا عقول لكم، وأنكم

ترضون أن تكونوا عبيداً لأمرائكم، لكنا لا فرق بيننا وبين أمير ومأمور وإنما الأمير فينا هو أكثر الناس عملاً، وأثقلهم حملاً، وأجرأهم في الحروب، وأشدهم عبادة وزهداً، لأن الإمارة فينا واجب وتكليف لا لذة وتشريف.
فقال له رستم: إنا نعلم سوء حالكم وفقركم وإقفار بلادكم وأنكم كنتم تأتوننا سائلين راغبين، وإنني سأعطي كل واحد منكم حمل بعير قمحاً وتمراً وأعفو عن جرأتكم علينا، فارجعوا إلى بلادكم، وأراد رستم بذلك استمالتهم ظاناً أنهم هم العرب السابقين الذين كانوا يهابون حتى اسم (كسرى) ويأتونهم طالبي رزق أو سائلي حاجة ولم يدر رستم أن الرسول (صلى الله عليه وآله) قد ملأهم بتلك الروح الوثابة التقدمية التي لا تعرف فشلاً ولا كللاً ولا مللاً ولا تأخراً، ولذا أجابه الرسول قائلاً: نعم قد كنا على شر مما ذكرت، وكنا نأكل من الجوع الحشرات، والهوام، وكان أحدنا يقتل ابن عمه ليسلبه ماله وكنا أهل جهالة وضلالة ولكن الله بعث فينا نبياً أرشدنا إلى طريق الهدى ودلنا على أبواب الخير، فألّف الله به بين قلوبنا وأنار به عقولنا، وأثار به هممنا. (ثم مضى يشرح له مزايا الإسلام وأنهم غير أولئك السابقين وأن الله سبحانه وتعالى وعدهم النصر وأنه لا بد وأن ينتصروا على الفرس كما انتصروا على غيره).
فأراد رستم أن يلاطفه ويستصغر شأنه فأشار إلى سيفه محتقراً وأمر بسيف مرصع باللآلئ والجواهر فقدمه له قائلاً: خذ هذا بدل ذاك (ولعله أراد أن يرشيه بذلك لعله ينصرف لما يعتاد من الرشوة في هذه المواقع في العالم، قبل الإسلام وفي عالم اليوم) لكن الرسول سل سيفه وضرب به سيف رستم فقطع سيفه سيف رستم المرصع بالجواهر واللآلئ، وقال: الآن إما الإسلام أو الجزية أو الحرب. فنخر رستم لما ذكر له الجزية وشخر، وعتى وتكبر، وقال: لولا أنك رسول لقتلتك، ولكن غداً سأمحوكم عن الأرض محواً، قال هذا الكلام وقلبه ممتلئ خوفاً، لأنه كان يعلم أن هؤلاء من هم وأنهم كيف يفتحون ويتقدمون (وقد ذكرنا نحن في كتبنا الفقهية أن التخيير بين الإسلام أو الجزية أو الحرب بالنسبة إلى الكفار إنما هو لإنقاذ المستضعفين من براثن المستكبرين، كما قال سبحانه: (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين)(١٠) والجزية معناها أن يكون آخذها أعلى من معطيها، وإلا فليس للجزية معنى سيّئ).
وغداً حسب الموعد – قامت الحرب بين المسلمين والفرس، وقدم الفرس الفيلة – وكانت الفيلة يومئذ كالدبابات في هذا اليوم، أو أعظم منها، ولم يكن للمسلمين بها عهد – فاضطرب منها الجيش الإسلامي ولم يعرفوا كيف يردوها فانبرى لها طائفة من أبطال المسلمين كعمرو بن معدي كرب وأصحابه فواجهوها بالسيوف يقطعون خراطيمها فولت تدوس أصحابها الذين سيروها ليحتموا بها.
وفي قصة أخرى ضرب المسلمون عين الفيلة بسب الرماح فعميت ولم تعرف الحركة وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً.
مواقف مشرفة
واتفق في هذه الحرب أن مرض القائد الإسلامي لكنه مع ذلك كان يقوم وسط المعركة غير متزعزع ولا مضطرب ولا وإن وكان يقود المعركة وهو في حال المرض، وإذ كان ينظر في الساحة رأى فرسه يركبها فارس يجول فيها ويحمل على العدو ويفرق الجموع ويفعل الأفاعيل، فعجب القائد من هذا الرجل الذي تجرأ على ركوب فرسه، ولما

سأل عنه عرف أنه أبو محجن وكان أبو محجن قد شرب الخمر في الجيش – من قبل – وقد كان معتاداً لها قبل الإسلام، وكان جديد العهد بالإسلام، فلم يتمكن من تركها، ولذلك حبس القائد أبا محجن في مكان مشرف على المعركة فرأى أبو محجن المعركة وهو سجين، فقال لزوجة القائد: أطلقيني وأعطيني فرساً حتى أحارب الأعداء، ولك علي عهد أن أعود وأن أضع رجلي في القيد وصدقته المرأة (حيث كان من المتعارف بين المسلمين صدق الحديث وأداء الأمانة بما علمهم الرسول (صلى الله عليه وآله) وما كان في المسلمين السابقين الأخيار من يعاهد الله عهداً ثم يخلفه) فأطلقته زوجة القائد وأعطته فرس القائد وكان الرجل فارساً شجاعاً لا يشق له غبار ففعل في ذلك اليوم الأفاعيل الغريبة وأدار الحرب بحيث انتفع المسلمون.

فلما رأى القائد هذا الرجل وعرف أنه أبو محجن أطلق سراحه وعفا عنه قائلاً: (إن الحسنات يذهبن السيئات)(١١) ولما سمع أبو محجن هذا الكلام من القائد، قال: وأنا لن أشربها بعد اليوم أبداً، ووفى بوعده وكان الفتح الإسلامي الباهر الذي ملك فيه المسلمون كنوز فارس وأرسلوا بها إلى المدينة.

قالوا وكانت الكنوز شيئاً لا يتصوره العقل في ذلك اليوم، فقد كان فيها بساط طوله ستون ذراعاً وعرضه ستون ذراعاً فيه صورة بستان ونهر وأزهار مصنوعاً من الديباج فيه قضبان من الذهب وأنواع الجواهر يشربون عليه في الشتاء فكأنهم منه في ربيع، كما كان مع المغانم تاج كسرى وسواره. ونادى الخليفة (سراقة) الذي لحق برسول الله (صلى الله عليه وآله) يوم الغار فبشره الرسول بأنه إن أسلم لبس تاج كسرى، وسواره، فجاء سراقة ولبس التاج والسوار وقال: الحمد لله الذي سلبها كسرى بن هرمز وألبسهما إعرابياً من بني مدلج(١٢).

مواقف سعيد بن المسيب

وينقل في أحوال سعيد بن المسيب أنه كان في جرأته وصراحته مع الملوك والأمراء مما يضرب به المثل، وله مواقف مشرفة مع عبد الملك والوليد والحجاج وغيرهم، فقد رفض عطاء السلطان وتراكمت رواتبه حتى بلغت ثلاثين ألفاً فلم يأخذ منها درهماً واحداً، وكان له أربعمائة درهم فقط يتجر بها بالزيت ويعيش منها عيشة زهد وكفاف وقناعة ويحكى في أحواله أنه بقي أربعين سنة لا يسمع الأذان إلا وهو في المسجد، ولم يغيّر مكانه من الصف الأول وذات مرة طلبه عبد الملك.

(وهو الملك الطاغي الذي يقتل بلا حساب ويصادر بلا حساب وينتهك الأعراض بلا حساب)، بأن أرسل مدير شرطته إليه فوقف عليه في الحلقة التي كان يدرس فيها وأشار مدير الشرطة إلى سعيد بن المسيب بإصبعه أن تعال وأدار ظهره يحسب أنه قد مشى سعيد خلفه، فلما لم يره ظن أنه لم يبصر الإشارة فرجع فأشار إليه فلما لم يرد عليه.

قال: هيه أنت، قم أجب الأمير.

قال: ما لي إليه من حاجة.

قال: لو كان الأمر إلي لضربت عنقك يدعوك الأمير ولا تجيب.

قال: إن كان يدعوني ليعطيني شيئاً فهو لك، وإن كان لشر، فإني والله لا أحل حبوتي حتى يقضي الله ما يشاء.

رجم بالحصى

ورأى سعيد بن المسيب الحجاج مرة والحجاج يسيء في الصلاة فنبهه فلم يستمع وإنما سدر في غيه وعدم الاهتمام بالصلاة، فرماه بكف من حصى المسجد(١٣).

رفض وتحدى

وكان سعيد بن المسيب يروي بان الرسول (صلى الله عليه وآله) نهى عن بيعتين، فلما أراد عبد الملك بن مروان أن يبايع لولديه الوليد وسليمان من بعده تبعه الناس وبايعوه، لكن سعيداً أخذ يجاهر ضد ذلك، ولم يجعل لنفسه مخلصاً بفتوى جديدة أو اضطرار أو عسر أو حرج أو ما أشبه، ولم يقل إني واحد من الناس وحشر مع الناس عيد وهم بايعوا فلأبايعن مثلهم ولم يقل إن لم أبايع نالوا من كرامتي وحقروني وأنا رمز العلم والدين فيكون التحقير للدين، ولكنه وقف موقف الحق فأبى البيعة واستند إلى حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله) ، وليس معنى ما ذكرناه أن القواعد الثانوية غير صحيحة وإنما معناه أنه لا يصل الأمر إلى القواعد الثانوية إلا إذا لم يجد الإنسان للقواعد الأولية مساغاً.

لمثل هذا الموقف ضُرب عبد الله بن مسعود، ونُفي أبو ذر إلى الربذة حتى مات هو وزوجته وولده في تلك الصحراء المقفرة جوعاً، وجاء الإمام الحسين (عليه الصلاة والسلام) إلى كربلاء، إلى غير ذلك من قصص الأنبياء والأئمة والعلماء الصالحين الذين لم يلتجئوا إلى القواعد الثانوية حيث لم يكن المجال لها وإنما كان المجال للقواعد الأولية على تفصيل ذكرناه في الفقه.

وعلى أي حال فبذل أمير المدينة لسعيد بن المسيب أنواع الترغيب والترهيب وهدده بالسجن إن لم يبايع ووعده إن بايع الإثنين بالأموال الطائلة والمقام الرفيع، فلم يقبل، فهدده بالجلد علناً، وضج العلماء من هذا التهديد، وتوسطوا بين أمير المدينة وبين سعيد، فقال لهم أمير المدينة: افعلوا ما شئتم.

فذهب إليه وفد من كبارهم وعرضوا عليه أن يسكت فلا يقل لا ولا نعم.

قال سعيد: أنا أسكت عن الحق. لا يكون هذا وكانوا يعلمون أنه إذا قال لا، فليس هناك ما يرجعه إلى نعم إلا الحق ولا حق في بيعة حاكمين.

فقالوا له: إذاً فاعتزل يا سعيد في بيتك أياماً حتى تمر العاصفة بسلام.

قال: أبقى في بيتي ولا أخرج إلى الصلاة وأنا أسمع حي على الصلاة، حي على الفلاح، وما سمعتهما منذ أربعين سنة إلا وأنا في المسجد. لا يكون هذا.

قالوا: فبدل مكانك من المسجد حتى إذا جاءك رسول الأمير لم يجدك فيه، فيرجع خائباً وينتهي الأمر بسلام.

قال: أخوفاً من مخلوق لا يكون هذا لا أتقدم ولا أتأخر من مكاني شبراً، ولما رأى الأمير أنه لا يرضخ لمقاله دعاه ثم هدده بالقتل.

قال سعيد: كيف أبايع لخليفتين وقد نهى الرسول (صلى الله عليه وآله) عن بيعتين، ولما رأى أمير المدينة أنه لا ينفع معه شيء، وأنه مصر على رأيه أمر بأن يساق إلى ساحة العقوبة فسيق وجرد من ثيابه إلا ثوباً قصيراً،

وضرب خمسون سوطاً ثم أخذ إلى السجن ولما وضع في السجن صنعت بنته طعاماً كثيراً وجاءت به إليه، فقال سعيد لبنته: هذا ما يريده (هشام) يعني الأمير أن أفتقر ويذهب مالي فأحتاج إلى أموالهم فيستعبدوني بها ولا أدري إلى متى يمتد سجني، فانظري ما كنت آكله كل يوم في بيتي فأتني به، فإن العلماء لا يذلون إلا إذا احتاجوا إلى أموال الملوك.

مواقف بطولية

ويذكر أن هارون العباسي سأل (بهلولاً) عن أنه هل هو من أهل الجنة أو من أهل النار؟

فأجابه بهلول: اعرض نفسك على القرآن فانظر هل أن القرآن يقول لك أنك من أهل هذه أو أهل هذه؟

قال هارون: في أي مكان من القرآن أجد ذلك؟

قال بهلول: حيث يقول الله سبحانه: (إن الأبرار لفي نعيم، وإن الفجار لفي جحيم)(١٤) فأطرق هارون رأسه إلى الأرض ولم يقل شيئاً.

وذكروا في أحوال عثمان بن الحكم الجذامي الذي كان في مصر، أن المنصور قال لليث: دلني على رجل صالح لولاية مصر، فدله على عثمان فلما جاءته الولاية كرهها كرهاً شديداً، وتألم منها ثم سأل من دل الأمير على ذلك؟

قالوا له: الليث فحلف عثمان أن لا يكلمه أبداً لأنه سبب له هذا الأذى، يعني تعرضه لولاية مصر ولم يتكلم معه حتى مات.

صورة معاكسة

وفي قبال هؤلاء الزاهدين الرجل الراغب فانظروا إلى الفرق بينهما: فقد يحكى أن (ليثاً) عالم مصر جاء إلى بغداد وقد حدث أنه جرى بين هارون العباسي وزوجته زبيدة كلام فقال لها: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة، ثم ندم فكتب إلى البلدان وجمع علماءها إليه فلما اجتمعوا جلس لهم وسألهم فاختلفوا وبقي (ليث) لم يتكلم فسأله هارون، فقال: إذا أخلى الأمير مجلسه أقول قولي في الفتيا، فصرفهم هارون، فقال: أتكلم على الأمان، قال: نعم، فأمر بإحضار مصحف فأحضر، قال: اقرأ يا أمير سورة الرحمن، فقرأها حتى وصل إلى قوله تعالى: (ولمن خاف مقام ربه جنتان)(١٥) قال: إمسك يا أمير، قل واحلف بالله، فصعب على هارون ذلك، فقال: الشرط يا أمير، فحلفه بأشد الإيمان أنه يخاف مقام ربه، فلما حلف قال: هما جنتان يا أمير لا جنة واحدة، فسمع التصفيق وهياج الفرح من وراء الستر.

نعم، هكذا يفعل حب الدنيا، فهل كان هارون يخاف مقام الله سبحانه، وإذا كان كذلك فلماذا الخمر والميسر، وقتل الآمنين الأبرياء والاستبداد بالحكم وملء السجون وتعذيب السجناء والاستهتار بدماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم ولو كان المراد الخوف ولو لحظة واحدة فإن كثيراً من الكفار والجناة يخافون الله ولو لحظة فهل كلهم من أهل الجنة، نعم المراد من خوف الله سبحانه الخوف الدائم الذي لا يوجد إلا في المطيعين. لكن ذلك أيضاً مشروط بالإيمان التام والاستقامة التامة وإلا فالعديد من رهبان النصارى والبراهمة ومن أشبههم يخافون الله سبحانه

وتعالى خوفاً دائماً، وكذلك من المنحرفين في العقيدة أو في العمل وقد قال الإمام أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام حول الخوارج إنهم طلبوا الحق فأخطؤوه(١٦) مما يدل على أنهم كانوا طالبين للحق وإنما أخطؤوه، وخطأهم سبب لهم ورود النار وعدم كونهم من أهل الجنة.

ب . مواقف العلماء أمام الطاغوت

شجاعة الإمام الميرزا الشيرازي

من قصص الشجاعة والشجعان ما ينقل عن قائد ثورة العشرين (آية الله الشيخ ميرزا محمد تقي الشيرازي رحمه الله) أنه كان في كمال الشجاعة.

وذات مرة أراد الحاكم العسكري العام البريطاني المسمى بـ (كوكس) الذي احتل العراق، وكان يسكن في بغداد أن يزور الإمام الشيرازي، قال المتحدث: – وهو أحد أشراف كربلاء – أنه ذهب إلى سماحة الشيخ وطلب منه أن يأذن (لكوكس) بزيارته، فأبى الشيرازي ذلك وكلما ألح هذا الوجيه على أذنه في زيارته له لم يزدد الشيخ إلا إباءً قال: فذهبت وقلت لكوكس: إنه يأبى زيارتك له، قال: فإني أزوره على حين غرة وبدون سابق موعد.

قال المتحدث: وبالفعل فقد زاره كوكس على حين غرة مع بعض أصدقائه والإمام كان جالساً في غرفته، ففوجئ بزيارة كوكس له لكنه لم يرفع له رأساً ولم يتكلم معه بكلمة، وكلما تكلم كوكس وترجم له المترجم لم يجبه شيئاً فاحمر وجه كوكس خجلاً وامتلأ غضباً وغيظاً وقام وخرج من الدار.

قال المتحدث: ولما عرفت الأمر جئت إلى الميرزا فقام لي احتراماً وأجاب السلام ورحب، ولما جلست أمر لي بالشاي. قلت له: شيخنا إني رجل عادي ومع ذلك تحترمني هذا الاحترام تقوم لي إعظاماً وتجيب السلام، وتأمر لي بالشاي، وكوكس هذا ممثل بريطانيا العظمى وهو مسيطر على العراق الآن، لا تتكلم معه، ولا تقوم له، ولا تأمر له بالشاي، ولا تحترمه؟

عندها رفع الإمام الشيرازي رأسه وقال: يا فلان إنك رجل مسلم ومن اللازم على المسلم أن يحترم المسلم، أما هو رجل كافر محارب والمحارب لا احترام له ولهذا لم أحترمه، وأحترمك.

شهامة وشجاعة

ومن قصص الشجاعة الإسلامية المعاصرة أنه طلب فيصل الأول – الذي صار ملكاً على العراق بعد احتلال البريطانيين – من علماء النجف الأشرف الالتقاء به لكنهم أبوا وأخيراً صار القرار على تلاقي الطرفين في الروضة العلوية على مشرفها آلاف السلام والتحية، فاجتمع به السيد أبو الحسن الأصفهاني والشيخ عبد الكريم الجزائري والشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، وقد فوضا الشيخ الجزائري للتكلم معه (في مشكلة حدثت بينه وبين عشائر الفرات) فتكلم معه الشيخ الجزائري، لكن فيصل تهرب عن الموضوع وكذّب تدخل الحكومة في شؤون الفراتين، قال له الشيخ الجزائري: اليوم يوم شريف وهو يوم الجمعة وهذا بلد شريف وهو النجف، وهذا مكان شريف وهو الحرم، ومن تشرفنا بحضرته، هو شخص شريف وهو الإمام أمير المؤمنين عليه الصلاة والسلام، ومع كل ذلك أنت يا فيصل في مثل هذا الموقف تكذب، فتغير وجه فيصل، وامتلأ خجلاً وغضباً لكنه لم يتمكن أن يعمل شيئاً،

وكان سبب ذلك أن عشائر الفرات كان بيدهم السلاح وكانوا يتحدون الحكومة، فكلما أرادت الحكومة الإجحاف بالنسبة إلى العراقيين وقف أولئك أمامها حتى جاء عبد الكريم قاسم – بنيابة عن بريطانيا – فخلع السلاح من العشائر بأعذار واهية مما سبب اختلال ميزان القوى بين الحكومة والشعب، فجرى ما جرى مما يكتوي العراقيون بناره إلى اليوم.

العالم الشجاع

وكان أحد علماء إصفهان المسمى بالآقا النجفي من العلماء الشجعان الذين لا يبالون في الحق بما يصيبهم من الأذى فاتفق أن ستة من البهائيين قتلوا جماعة من المسلمين في شجار وقع بينهم وذلك في أيام ناصر الدين شاه وكان حاكم إصفهان إذ ذاك (ظل السلطان) وهو رجل متعجرف قاسي مستبد، فأرسل (الآقا نجفي) إلى ظل السلطان: أن خذ هؤلاء واقتلهم بما قتلوا من المسلمين، فإن جزاء القتل القتل، بعد أن لم يكن أصحاب الدم يرضون بالدية ولا غيرها. لكن ظل السلطان لم يرضخ لأمر القرآن الحكيم والشريعة المقدسة وحيث رأى العالم أن الحاكم لا ينفذ أمر الله سبحانه وتعالى، أرسل إلى أولئك فحصل على ثلاثة منهم وضرب أعناقهم قصاصاً ولما سمع (ظل السلطان) بذلك جن جنونه وحيث لم يكن يتمكن من مقابلة العالم لشعبيته الواسعة أرسل إلى أبيه (ناصر الدين شاه) في طهران أن هذا الرجل يفسد الملك، فمن الأفضل أن يجلبه الشاه إلى طهران ويكون مبعداً هناك حتى تخمد الثائرة وطلب (الشاه) الشيخ، فجاء جلاوزته وألقوا القبض عليه وسيق إلى طهران وأحضر لمقابلة الشاه، لكن الشاه لم يقابله في ابتداء مجيئه، قاصداً التنكيل به ثم لما دخل عليه أخذ يعاتبه ويتهجم عليه ويقذع له الكلام والشيخ ساكت ولما سكت الشاه عن كل الكلام أخرج الشيخ من جيبه ورقة صغيرة مكتوب فيها أسامي ثلاثة أشخاص وتوجه إلى ناصر الدين شاه بدون أن يجيبه على كلامه ذلك قائلاً له: أن ستة من البهائيين قتلوا المسلمين وجزاء القتل القتل، كما قال سبحانه: (إن النفس بالنفس)(١٧)، وإني تمكنت من قتل ثلاثة منهم قصاصاً أترقب من الشاه أن يقتل الثلاثة الآخرين وهذه أسماؤهم، فتعجب ناصر الدين شاه، من رباطة جأشه وقوة قلبه ومضي إرادته وأنه لا تأخذه في الله لومة لائم فأرجعه إلى بلده إصفهان بإكرام واحترام، وأمر بتبعيد أولئك الثلاثة عن إصفهان حتى لا يكونوا في معرض المجتمع ويهيجوا الناس تهيجاً جديداً.

العالم المحرر

كانت لحكومة (صقلية) الكافرة معاهدة مع حكومة المسلمين حيث أن المسلمين حكموا أطراف البحر المتوسط من نصف الساحل الشرقي إلى نصف الساحل الغربي، وكان الساحل الجنوبي كله لهم والشمالي تحت حمايتهم، وفي ظلال رايتهم، تربطهم عهود بإيطاليا وصقلية وغيرها، لكن بعض المسلمين جاءوا إلى الحاكم المسلم واسمه (زيادة الله) وأخبروه أن حكومة صقلية نقضت العهد وحبست بعض المسلمين وأساءت إلى الجالية الإسلامية فنهبت أموالهم وعذبت منهم جماعة، فطلب الحاكم قاضيين من قضاته يستفتيهما في الأمر، أما أحد القضاة واسمه (أبو محرز) فلم ير ذلك الخبر دليلاً كافياً، وأما القاضي الثاني واسمه (أسد) فقال: إن المعاهدة إنما أبرمت على أيدي الرسل وأخبار الرسل كاف لنقضها مستنداً إلى أن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إعتمد على

أهل الخبرة ولما أفتى القاضي (أسد) بصحة أخبار من أخبر الحاكم بنقض حاكم صقلية العهد شرع الحاكم يجهز الأسطول وطلب من القاضي أسد أن يكون مع المجاهدين المسلمين فقبل (أسد) أن يتجهز لأجل الجهاد فهيّأ الأسطول المؤلف من ثمان وتسعين قطعة حربية فيه جيش من عشرة آلاف رجل وتسعمائة فارس وجعل الحاكم (أسداً) قائداً عاماً على ذلك الأسطول، ولما أراد (أسد) الخروج بأسطوله إلى الجهاد، لم يتكبر كما هو شأن بعض القادة وإنما توجه بتواضع نحو المسلمين الذين جاءوا لمشايعته وخطب فيهم قائلاً: (والله يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا جد ولاية قط، وما رأى أحد من أسلافي مثل هذا قط، وما بلغته إلا بالعلم فعليكم بالعلم، أتعبوا فيه أذهانكم وكدوا به أجسادكم واتقوا الله حق تقاته تبلغوا به الدنيا والآخرة).

ولقد نجح هذا الشيخ الجليل بأسطوله نجاحاً باهراً، ولما طالت أيام المعركة وقلت الأقوات تململ بعض الجند وتحركت بعض العناصر يريدون العصيان وأرسلوا إلى الشيخ الأمير أسد بن الفرات رسولاً بالرجوع، لكنه أبى وصرخ بالجند تقدموا إلى الأمام فإن النصر معنا والله وعدنا به ولن يخلفنا الله وعده، وتقدم هو بنفسه وتبعه الناس فظفر على صقلية وفتحها وكان ذلك ابتداء الدولة الإسلامية في صقلية التي امتدت قروناً لكنه استشهد في تلك المعركة بعد ما فتح ذلك الفتح المبين، ولم يعرف له قبر إلى اليوم، قال بعض الشعراء في حقه:-

هو الطاهر الأثواب لم تبق روضة غداة ثـوى إلا اشتـهت أنها قبر

عليـك سلام الله وقفـاً فإننـي رأيت الكريـم الحر ليس لـه قبر

وهكذا يفعل الإسلام بالإنسان فالمسلم راهب في الليل أسد في النهار، لا يثقله عمله عن أن يكون مجاهداً ولا جهاده أن يكون عالماً.

موقف المجدد الشيرازي

يحكى عن الميرزا المجدد أنه بعد قصة التنباك وفد إلى سامراء أربعة سفراء سفير لبريطانيا وسفير لروسيا وسفير لإيران وسفير للعثمانيين، وبقوا هنالك أياماً يريدون لقاءه، لكن الميرزا لم يأذن لهم في الدخول عليه وبعد مدة أذن لسفيري إيران والعثماني، ولما سأل عن سبب ذلك قال: إن ذينك السفيرين سفيرا بلاد كافرة ولا يقصدان بالمجيء إلا الباطل وأنا عالم لا شأن لي بهما، وأما سفير إيران والدولة العثمانية فهما سفيرا بلاد الإسلام، وإني عالم مسلم، فلي أن أتقبلهما، ولما جاءاه طلبا منه أن يقترح على حكومتيهما أي مطلب يريده، لكنه صرفهما بسلام وقال: ليس لي اقتراح جديد وإنما عملت بتكليف شرعي لما رأيت أن الكفار يعيثون في بلاد الإسلام فساداً فأمرت الشعب بالنهوض أمام الكفار ليخرجوهم وإني الآن راجع إلى إدارة الحوزة وسائر شؤون العلم والعلماء وهكذا كانت شجاعة المجدد رحمه الله تعالى، في الوقوف أمام البريطانيين حتى تمكن من إخراجهم من إيران بعد ما ملأوا إيران بأربعمائة ألف جندي تحت شعار انحصار التنباك في قصة مشهورة في التواريخ.

موقف السيد الأصفهاني

جاء إلى المرحوم السيد أبو الحسن (قدس سره) سفيرا بريطانيا وأمريكا – وكان من عادة علماء العراق أن يزورهم سفراء بلاد الإسلام وبلاد الكفر – وأطالا الجلوس لعل السيد يطلب منهما مطلباً، لكنه أبى إلا السكوت، حتى اضطرا أن يقولا له: هل لسيدنا من أمر؟

قال السيد: لا، فألحا عليه فأصر على أنه لا مطلب له، وأخيراً قالا: إن حكومتي بلادنا طلبت منا أن تطلبوا مطلباً، فإن لم تطلبوا شيئاً كان معناه الإهانة وكيف لا يكون لكم مطلب وأنتم زعيم المسلمين؟ ومورد حوائجهم؟

قال السيد: إذا كان الأمر هكذا فافتحوا طريق إيران إلى الأعتاب المقدسة في العراق.

قال: نعم.

ولم يمض أسبوع إلا وجاء سيل من المسافرين إلى زيارة العتبات المقدسة وبقي بعضهم في العراق لطلب العلم أو الكسب أو سائر الشؤون، وتبين أن منع البهلوي كان بأمرهم وأن استقلاله الذي كان يدعيه لم يكن إلا عمالة للمستعمرين.

العالم الناقد

بنى عبد الرحمن الناصر حاكم أندلس قصر الزهراء في (قرطبة) وهو قصر قد جمع فيه من البهاء والعظمة والجمال والروعة الشيء الكبير، ولما تم البناء حضر الملك والقواد، والعلماء والضباط، والتجار والكسبة وسائر طبقات الناس ليفتتح القصر، وفي هذا المجلس الحافل الضخم قام القاضي (منذر بن سعيد) البلوطي فصعد المنبر وبدأ الخطبة بقوله سبحانه: (أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون، واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون، أمدّكم بأنعام وبنين، وجنات وعيون، إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم)(١٨) وواصل الكلام بذم السرف والترف وإضاعة أموال الأمة في زخرفة القصور وتابعه بقوله – ودموعه تنحدر من لحيته – والله يا أمير ما ظننت أن الشيطان أخزاه الله يتمكن منك هذا التمكن حتى أنزلك منازل الكافرين فجعلت قرامد بيتك من الذهب والفضة والله تعالى يقول: (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمان لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون، ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون، وزخرفاً وأن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين)(١٩) ثم قرأ قوله سبحانه: (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين، لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم)(٢٠) وما زال في مثل هذا الكلام يتكلم ضد الحاكم ووزرائه وأمرائه الذين يؤازرونه في معصية الله وينتقص القصر حتى نسى الناس الحاكم ونسوا الاحتفال وتوجهت القلوب إلى الله سبحانه، وصفت النفوس وارتج المسجد بالبكاء ونزل هذا والهيئة الحاكمة تتميز غيظاً على هذا الخطيب الذي تجرأ وتكلم بمحضر الملك بهذا الكلام، فلما قضيت الصلاة انصرف الملك مغضباً وقال لابنه: أرأيت جرأته علينا؟

ثم أردف والله لا صليت خلفه الجمعة أبداً، قال له ابنه (الحكم): وما يمنعك من عزله؟

فرجع الملك إلى نفسه وقال: ويحك أمثل منذر بن سعيد في فضله وورعه وعلمه يعزل في إرضاء نفس ناكبة عن سبيل الرشد إني لأستحي من الله أن أجعل بيني وبينه إماماً غيره، ولكنه قسم سبق ثم أمر بنقض الذهب والفضة من القصر.

العالم المتحدي

وفي التاريخ أنه أراد الناصر أن يبني قصراً لإحدى نسائه وكان بجوار المكان دار صغيرة وحمام لأيتام تحت ولاية القاضي فطلب شرائه، فقالوا: إنه لا يباع إلا بإذن القاضي. فسأله فقال: لا إلا بإحدى ثلاث حاجة الأيتام، أو وهي البناء، أو غبطة الثمن، فأرسل الملك خبراء قدروهما بثمن لم يرتضه القاضي، فأبى البيع وأظهر الملك العدول عنهما والزهد فيهما وخاف القاضي أن يكون مكيدة ثم يأخذهما جبراً، فأمر بهدم الدار والحمام، وباع الأنقاض بأكثر مما قدره الخبراء، فعزّ ذلك على الملك وقال له: ما دعاك إلى ذلك؟

قال: أخذت بقوله تعالى: (أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً)(٢١) لقد بعت الأنقاض بأكثر مما قدّرت للدار والحمام وبقيت للأيتام الأرض فالآن اشترها بما تراه لها من الثمن، فاضطر الملك أن يقول أنا أولى أن أنقاد إلى الحق.

العالم الصامد

وفي قصة أخرى أن (بغا) وكان هو المسيطر العام على الحكم في أيام العباسيين حتى قال الشاعر فيه وفي (وصيف) الذي كان شريكاً لبغا في السيطرة على الحكم:-

خليفة في قفص بين وصيف وبغا يقول ما قالا له كما يقول الببغا

وكان مرهوب الجانب ويقتل الناس اعتباطاً ويخافه كل قريب وبعيد حتى الخليفة العباسي كان بنفسه يخافه، أرسل إلى القاضي أن يبيعه بستاناً كان لبعض الأيتام في جوار بستان (بغا). لكن القاضي رد الرسول وقال: إنه لا يباع، إذ لا يحق لي بيع البستان بلا مبرر.

فقال الرسول: - متعجباً من جرأة القاضي - ويلك (إنه بغا) يعني يفعل ما يشاء إذا لم تبعه وهو يطلبه.

فقال القاضي بكل هدوء: يا أخي (إنه الله) يعني أن في طرف بغا هو الله ولا أتمكن من مخالفة أمر الله فأغضب الرسول وجاء إلى بغا يحدثه بالقصة فارتعش (بغا) وارتجف قلبه من ذكر اسم الله سبحانه وتعالى وقال ثلاث مرات: (إنه الله، إنه الله، إنه الله) وترك الإشتراء وهكذا تفعل المواعظ الخارجة من القلب في تغيير الواقع المعاش.

في مجابهة البهلوي

صعد المنبر في (قصر كلستان) للبهلوي الثاني، أحد الخطباء حين كان البهلوي حاضراً، والمجلس غاص بألوف من الضباط والقواد ورجال البلاط والوزراء وغيرهم من الشخصيات الرفيعة، وتوجه إلى الشاه قائلاً: أيها الملك إنك تزعم أنك تكافح الشيوعية، ولكن اللازم أن نقول لك بصراحة إنك أنت الذي جئت بالشيوعية إلى إيران، وإنك أنت الذي شجعت وتشجع الشيوعيين بأعمالك وأفعالك، فإن تضعيفك للدين ونشرك للمخامر والمقامر والملاهي والمباغي في طول البلاد وعرضها واستبدادك للحكم، وسنّك للقوانين غير الإسلامية، وترويجك الأفكار

الغربية والإلحادية، وترفك وسرفك، وبذخك وبطرك، وجمعك حول نفسك البهائيين والمفسدين، هو الذي شجع الشيوعيين، وروّج الشيوعية. وواصل منبره بهذا النحو من الكلام حتى إذا نزل حاولت السلطة إلقاء القبض عليه لولا اضطراب الناس فتركته وشأنه.

العالم الزاهد

ورد في التاريخ أن أحد العلماء زار المحقق الأعرجي في الكاظمية فرأى له بيتاً صغيراً ومتاعاً قليلاً، فتأثر من ذلك تأثراً بالغاً ولما جاء إلى طهران قال للملك القاجاري: إني وجدت عالماً في الكاظمية بهذه الكيفية فلو أمرت له بمال، فأرسل الحاكم القاجاري له مالاً كثيراً، لكنه لما أخبر المحقق الكاظمي بأن الملك أرسل له مالاً، تأثر كثيراً وأخذ يبكي بكاءاً عالياً قيل له فيم بكاؤك؟

قال: لأني لا أعلم ما هي المعصية التي صدرت مني حتى أن الله سبحانه وتعالى طردني عن بابه واستحققت أن يثبت اسمي في ديوان الظالمين ولم يقبل المال إطلاقاً.

لا لمصاهرة الملك

وينقل في أحوال المحقق القمي صاحب القوانين أن الملك القاجاري فتحعلي شاه طلب منه أن يزوج ابنته من ابن المحقق فكره المحقق ذلك ولكنه لما لم يتمكن من رد الملك لاعتبارات إجتماعية طلب من الله سبحانه وتعالى أن ينجيه من هذه المهلكة، فمرض الولد ثلاثة أيام والتحق بالرفيق الأعلى مما سبب للمحقق الراحة من تلك المشكلة.

وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) في حديث يروى عنه أنه إذا رأيتم العلماء على أبواب الملوك فقولوا بئس العلماء وبئس الملوك وإذا رأيتم الملوك على أبواب العلماء فقولوا نعم العلماء ونعم الملوك.

المصداق الحسن

ويروى أن الميرزا المجدد الشيرازي لما ذهب إلى الحج أراد شريف مكة أن يزور الميرزا، لكن لا بذهابه إليه، بل بمجيء الميرزا إلى داره، فأرسل يخبره بذلك فردّ الميرزا عليه: بأن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قال: هذا الحديث، فإذا أحببت أن تكون مصداقاً سيئاً للأمراء وأن أكون أنا مصداقاً سيئاً للعلماء زرتك، لكنك إذا أردت أن تكون مصداقاً حسناً للأمراء وأكون أنا مصداقاً حسناً للعلماء فزرني، فقال الشريف: إني لا أحب أن أكون أنا وهو من المصاديق السيئة للأمراء والعلماء، فجاء إلى زيارة الميرزا في داره.

المصداق السيئ

وفي قبال هؤلاء العلماء الزهاد ذوي الشجاعة الذين نجدهم يجتنبون عن السلطان وعن الدنيا، ويتقشفون في الحياة خوفاً من الله سبحانه وتعالى نجد العلماء الراغبين في الدنيا المتهالكين عليها ومن جملتهم ابن أبي دؤآد، فقد كان هذا الرجل من أشد الناس تكالباً على الدنيا وملازماً باب الخليفة ومحارباً للعلم والعلماء، والزهد والزاهدين، فقد رووا عنه أنه، قال: إن سارقاً أقر على نفسه بالسرقة وسأل من المعتصم العباسي تطهيره بإقامة الحد عليه، فجمع الخليفة لذلك الفقهاء في مجلسه وأحضر أيضاً الإمام الجواد عليه الصلاة والسلام.

فسأل العباسي من الفقهاء عن الموضع الذي يجب أن تقطع يد السارق منه فقلت أنا من (الكرسوع) لقول الله تعالى في التيمم (فامسحوا بوجوهكم وأيديكم)(٢٢) واتفق معي على ذلك قوم، وقال آخرون: بل يجب القطع من (المرفق) لقول الله تعالى: (وأيديكم إلى المرافق)(٢٣) قال: فالتفت إلى محمد بن علي عليهما السلام فقال: ما تقول في هذا يا أبا جعفر؟

فقال (عليه السلام): كفاك القوم، فأصر عليه.

فقال: إن القطع يجب أن يكون من مفصل أصول الأصابع ويترك الكف له.

قالوا: وما الدليل على ذلك؟

قال: لقول رسول الله (صلى الله عليه وآله): السجود على سبعة أعضاء، الوجه واليدين والركبتين والرجلين(٢٤) فإذا قطعت يده من الكرسوع أو المرفق لم يبق له يد يسجد عليها وقد قال سبحانه وتعالى: (وأن المساجد لله – يعني به هذه الأعضاء السبعة التي يسجد عليها – فلا تدعوا مع الله أحداً)(٢٥) وما كان لله لم يقطع فأعجب المعتصم بذلك، وأمر بقطع يد السارق من مفصل الأصابع دون الكف.

لكن هذا الرجل ابن أبي دؤآد الذي عدد نفسه من العلماء ذهب إلى المعتصم وقال له: إن كثيراً من المسلمين يعتقدون بإمامة هذا الرجل وإنك بتقديمك قوله على أقوال سائر العلماء صدّقت أولئك، فهلا تعمل ما يخالف ذلك؟

وألح على المعتصم حتى غيره على الإمام (عليه الصلاة والسلام)، فأمر بقتل الإمام (عليه السلام) فقتل.

علماء البلاط

وكان ابن أبي دؤآد يحسد غير العلماء أيضاً تكالباً على الملك والسلطة، فقد عادى الأديب الشاعر المعروف (ابن الزيات) وكان بينهما خصام ظاهر وهجاء طويل وكان السبق أولاً لابن الزيات فلما صدر المرسوم من العباسي بأن يقوم لابن الزيات كل من في المجلس إذا دخل، كان ابن أبي دؤآد إذا رآه داخلاً وقف للصلاة ولكنه لم يزل يغري صدر العباسي على ابن الزيات حتى نكّل به في قصة مشهورة ألمحنا إليها في بعض مباحث هذا الكتاب، وقد عاش ابن أبي دؤآد إلى أيام المتوكل وأصابه الفالج وعزل وبقي مريضاً يعاني شدائده إلى أن مات.

ثم ليس من الغريب أن نجد من يمدح مثل ابن أبي دؤآد لأجل المال والمنال، فقد مدحه بعض الشعراء بقوله:

لقد أنست مساوئ كل دهر محاسن أحمد بن أبي دؤآد

وما سافرت في الآفاق إلا ومن جدواك راحلتي وزادي

وقال آخر في حقه:

لقد حازت نزار كل مجد ومكرمة على رغم الأعادي

فقل للفاخرين على نزار ومنهم خندف وبنو أياد

رسول الله والخلفاء منها ومنا أحمد بن أبي دؤآد

وهذا آخر ما أردنا إيراده في هذا الكتاب، والله سبحانه المسؤول والمأمول أن ينقذ المسلمين من براثن الشرقيين والغربيين والمنصوبين من قبلهم حكاماً على بلاد المسلمين لترجع لهم دولتهم الواحدة ذات الألف وخمسمائة مليون مسلم، وما ذلك على الله بعزيز..

اللهم إنا نرغب إليك في دولة كريمة تعز بها الإسلام وأهله وتذل بها النفاق وأهله وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة..

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

قم المقدسة

١١ محرم الحرام ١٤٠٨هـ. ق

محمد بن المهدي الحسيني الشيرازي

١. سورة الروم: الآية ١٠.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٧٨.

٣. سورة آل عمران: الآية ١٦٩.

٤. مقتل الحسين للخوارزمي: ج٢ ص٦٤.

٥. سورة النجم: الآية ٣١.

٦. مقتل الحسين للخوارزمي: ج٣ ص٦٩.

٧. سورة هود: الآية ٦١.

٨. نهج البلاغة: الخطبة ٣٧.

٩. انظر بحار الأنوار: ٧٠ ص٢٨٦.

١٠. سورة النساء: الآية ٧٥.

١١. سورة هود: الآية ١١٤.

١٢. البداية والنهاية ج٣ ص١٨٢ وج ٦ ص٢٥١.

١٣. أعيان الشيعة ج٧ ص٢٥٤ (جزء ٣٥ ترجمة سعيد بن المسيب).

١٤. سورة الانفطار: الآية ١٣-١٤.

١٥. سورة الرحمن: الآية ٤٦.

١٦. انظر نهج البلاغة: الخطبة ٦١.

١٧. سورة المائدة: الآية ٤٥.

١٨ . سورة الشعراء الآيات ١٢٨-١٣٥.

١٩ . سورة الزخرف: الآية ٣٣-٣٥.

٢٠ . سورة التوبة الآيتان ١٠٩- ١١٠.

٢١ . سورة الكهف: الآية ٧٩.

٢٢ . سورة المائدة: الآية ٦.

٢٣ . سورة المائدة: الآية ٦.

٢٤ . وسائل الشيعة: ج٤ الباب ٤ من أبواب السجود ح٢ ص٩٥٤.

٢٥ . سورة الجن: الآية ١٨.